تمهيد

كان نجم الإمارة البابانية المتحدِّرة من عصور خلت، أخذ يميل منذ بداءة القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) نحو الأفول. وقد صادف هذا الأفول عهد (كاكه شيخ) التعيس الذي غدا ضحية الإهانة من سيف ابن عمه (كاكه مير).

أجل، كانت المناطق الواقعة تحت حكم الأسرة البابانية أصابها الانقسام، فكانت منطقة (پشدر) يليها كاكه مير، أما منطقة (مەرگه) فقد كان يليها ابن عمه كاكه شيخ. إلا أن كاكه شيخ ماكان ليقنع بحصته، فأخذ يطمح في حصة ابن عمه ويدبر المكائد للقضاء عليه إشباعاً لجشعه وحرصه ويمهد السبيل في السر لتحقيق مآربه ومراميه. وذات ليلة شن عليه حملة على حين غرة وأعمل فيه وفي أتباعه السيف وأفناهم عن بكرة أبيهم، فلم ينج منهم الا (فقي أحمد) بن كاكه شيخ وأمه.

كان فقي أحمد إبان وقوع هذه المأساة التي قدرت لوالده، مايزال طفلا بريئا في حضن أمه تحفه مشيمة الرأفة.

ولم تفكر الأم إذ نزلت هذه الضربة القاتلة من الفاجعة التي لا قِبلَ لأحد بها إلا برضيعها المعصوم، فغلبت عاطفة الأمومة لديها على العجز الأنثوي واستطاعت أن تنقذ بمبادرة رجولية فلذة كبدها من سيف الطمع اللئيم لأولئك القتلة الذين أرادوا إزهاق روحه. لقد كانت الأم المفجوعة في غاية اليأس، وغدت الحياة عليها عبئا شاقا لايطاق. أليس الأمر كذلك؟ أجل! وإلا فأي أمل في الحياة كان يمكنها أن يسليها إزاء أزمة مصير مدمرة مما لم يسبق أن ضمه سفر تأريخ الحياة.

ومع ذلك فقد كانت هي بأمس الحاجة إلى الحياة، ذلك لأنها لم تكن تجد للحفاظ على ابنها والاعتناء به أحدا سواها. ولذلك فقد كانت تريد أن تواصل العيش لتحمي فلذة كبدها ولتربِّيه في أحضان الرأفة والشفقة. ولكن كيف كان بوسعها أن تعيش، وأنَّى كان لها أن تنقذ رضيعها من النوايا المسعورة التي كان يضمرها له كاكه مير؟ حقا كان الأمر لها في غاية الإشكال، فمع أنها قد استطاعت الخروج من دائرة المهالك

وانزوت في زاوية الاختفاء، لكنها لم تكن قد نجت من الخطر في الحقيقة ولم تبلغ المأمن الذي يصونها، فأفادت من ظلام الليل وتركت منطقة (مەرگه) وما والاها ولجأت إلى أحد معارفها في قرية (خدران) في (بيتوين).

كان هذا الرجل ممن نالوا إحسان كاكه شيخ، فاستقبلهما ببالغ الإعزاز والتكريم، وقطع على نفسه عهداً بكل ما أوتي من شيمة الوفاء أن يؤمِّن لهما السلامة ورغد العيش. ومن دون أن يدعهما يعانيان أي ضيق أخذ يواسيهما ويزيل عن فوآدهما الكرب، وكان يعاملهما ليس كضيفين بل كوليَّي نعمة مكرمين، وليس كلائذين بل كمولَيَيْن له بيدهما ربقة عبوديته. وعلى هذا المنوال كان يقدم لهما خدماته. ولم تكن هذه العناية لفترة وجيزة حسب، إنما استمر على أداء مقتضيات الخدمة لفقي أحمد بالحرارة الروحية نفسها حتى بلغ سن الرشد، ولم يغب عن باله أمر تربيته وتعليمه. وقد كان فقي أحمد نفسه شديد الذكاء وذا قابلية ذهنية بالغة. وخلال مدة قصيرة تقدم في تحصيله تقدما ملحوظا. ولما عرف به من مواظبة على الدروس وإبلائه في هذا المضمار بلاءً حسناً غدا اسمه على أفواه العموم وعرف بفقي أحمد.

وعلى قدر ماكان فقي أحمد ينمو جسمانيا، كانت عظمته الخلقية تزدهر وتنجلي. وبمقدار ماكان له من قابلية وذكاء، كان له كذلك ماله من قوة في القلب وبسالة في الروح ونضج في الأخلاق. وكلما شب عن الطوق وترعرع أكثر، ازداد عظمة في الخلق وعظمة في الوجدان وأفاضت حميته الدينية على فضائله الحميدة رونقا وبهاء.

كان فقي أحمد يدرك بصورة طردية، كلما شب عن الطوق أكثر، آلام الفجيعة الدامية التي ارتكبت بحق والده وأفراد أسرته، فكانت روح الصبر لديه ورغبته في الانتقام تصلى بها. ولكن ما الجدوى؟ فقد كان عدوه قويا وهو مهيض الجناح، ولم تكن له من القوة مايؤمن له الظفر. ولكن يحدث أحيانا أن الأوضاع الطبيعية ومجريات الكون ترفع رداء الإشكال عن الأماني التي يراها المرء مستحيلة وغير قابلة للتحقيق. وسرعان مايجد في يديه تلقائيا مفاتيح النجاح لتحقيق الآمال والرغبات التي يحلم بها. وعلى هذا المنوال سنحت لفقي أحمد أيضا الفرصة الأولى للثأر.

أجل! كان كاكه مير قد قضى نحبه، وساقت المنافسة على استخلافه أولاده إلى ساحة الخصام.

لقد هيأت هذه المنافسة التي نتج عنها الشقاق فرصة طيبة لفقي أحمد، فاستغل الوضع وحمل عليهم خلال فترة قصيرة. ولما كانت الحقيقة رائدة النصر، فقد استطاع

بانتصاره عليهم أن يشتت شملهم. وقد كانت مظالم كاكه مير وزمرته التي أنزلها بحق أتباعه أشد من أن يكون في وسعهم تحملها، ولذلك فقد نظروا إلى حملة فقي أحمد على أنها طريق بارع لخلاصهم، فقدموا له خدمات جلى لينال الظفر.

وولّى أولاد كاكه مير الأدبار هاربين إلى إيران. ومايزال أحفاده موجودين في (سقز) حيث يعرفون بعشيرة (فيض الله بگي)، وفي (ساوجبولاغ) حيث يعرفون بعشيرة (شيخ ألى خاني).

لقد استعاد فقي أحمد بانتصاره آنف الذكر حقوقه الموروثة في الحكم. وانتقاما للمذابح التي كانت قد ارتكبت بحق والده وأتباع والده في تلك المنطقة فقد (... ...)[1] ونقل مقر الإمارة إلى (دارشمانه) في (پشدەر) التي كانت مقرا كذلك لكاكه مير.

وهكذا وحّد فقي أحمد مناطق (مەرگه) و(پشدەر) وفرض سلطانه عليها ومحا بانتهاجه سياسة العدل آثار كاكه مير وأولاده من أذهان الناس.

وفي تلك الأثناء أعلنت الحكومة العثمانية الحرب على دولة مجهولة[2]. بدهيٌّ أن الإحجام عن المشاركة في الجهاد الذي هو من أول الواجبات الدينية لم يكن ممكنا لفقي أحمد، ولذلك فقد أعد عدته فوراً وسار على رأس قوته التي أعدها من دون إضاعة للوقت، شطر جبهة الجهاد، واستطاع فور وصوله أن يحبب نفسه بأعماله البطولية إلى القادة المحيطين به، وتمكن من أن يتبوأ لنفسه مكانة محترمة في قلوبهم.

وذات يوم من الأيام التي كانت تنصرم بالقتال والجلاء، تصدى لفقي أحمد فارس أمرد. لقد أوهنت المقارنة بين وجه الفتى وقلبه بطشة النفس لدى فقي أحمد. كان هاجس معنوي يحول دون أن يصبغ سيفه المضرج بدماء الأعداء، بنجيع هذا الفتى الفتيِّ الجذاب، فأغمده وتناول رمحه، وفي عملية مماثلة تناول الفتى كذلك رمحه، وأخذ الاثنان يتبارزان. ولكن أيا منهما لم يكن ينوي قتل صاحبه، إنما كان كل منهما يريد، على مايبدو، أن يسقط الآخر أرضا ويأخذه أسيرا. ومع ذلك فما كان هنالك مايدل على أن بأستطاعة أي منهما أن يغلب الآخر بسهولة، ولذلك فقد طال أمد المبارزة. ومع طول أمد المبارزة فما كانت هي بحد ذاتها لتدل على معالم الشدة والانفعال لدى أحد المتبارزين بقدر ماكانت تدل على قوة الانسجام الروحي بينهما. وفيما لم تكن المبارزة،

(١) الفقرة محكوكة في الأصل بيد عابثة – المترجمان.

(٢) في هامش الأصل بقلم كاتب آخر : الحكومة الروسية – المترجمان

مبارزة خصومة بينهما، كانت تمثل بالعكس ملاعبة في صورة المبارزة بين متحابين خرجا إلى ميدان النزال.

أجل! كان فقي أحمد قد أدرك أن الفارس لم يكن يقاتل عن سوء قصد وعدوانية، ومع ذلك فلم يكن يدرك السر في ذلك. ومن هنا فقد كان ميل قلبه إليه يشتد أكثر فأكثر ويزداد افتتانا روحيا به. وكلما طال الوقت استمر أمد المبارزة التي لم تكن في حقيقة الأمر سوى ملاعبة. وفي آخر الآمر سنحت لفقي أحمد فرصة استطاع من خلالها أن يطرح الفتى أرضا، فنزل من صهوة جواده فورا وجثم على صدره، وما إن مضت لحظة حتى نهض وأخذ بيد الفتى وأنهضه وكأن قد أصابه منه أثر سريع من تيار برقي، إذ ما إن جثم على صدره حتى مست يده نهديه الشبيهين بالأترج فأدرك لحظته حقيقة الأمر.

لقد كان الفتى امرأة! ولكنها لم تكن امرأة عادية، إنما كانت لبوة خلقت في صورة امرأة. غلبت روحها الوطنية على صفتها الأنثوية، فاستبدلت بقيافتها قيافة رجل وشاركت في القتال، وأبدت خلاله براعة وكفاية فائقتين حتى ذاع صيتها، ولكنها وجدت في ساعد فقي أحمد المتين، الشديد المراس، الذي لايلوى، وفي صولته التي لاتكل ولاتدحر تناسبا مع لطافتها الفطرية، فربطت قلبه بنفسها. وعلى ذلك فقد أرادت أن توقعه في حبائل الغلبة من دون أن تلحق به أذى، ولكن الآية انقلبت على عكس ما أرادت، إذ إنها هي التي وقعت في شباك استرقاقه.

كانت تريد، في واقع الأمر، أن توقعه بين مخالب غلبتها هي وتصطحبه معها إلى ديارها، حيث تقنعه مهما كلف الأمر، بأن يتزوجها فتغدو له قرينة. ولكن الرياح جرت بما لايشتهي السَّفَن (السَّفن جمع السَّفَّان – المترجمان)، فرضيت هي بما وقع.

وضعت الحرب أوزارها، وقفَ لإطلاق النار أعقبه صلح. لم يبق لفقي أحمد عمل يعمله أو مهمة يهتم بها، فاستأذن بالعودة إلى بلاده.

كان فقي أحمد قد نال في جهاده هذا مكرمتين مادية ومعنوية. أجل! لقد حصل على أنيس روحي ألا وهو الفتاة (قيغان)، كما غدا مظهرا لفضيلة المجاهد.

وإزاء ثمرات حسن نيته، هذه التي نالها، عاد إلى (دارشمانه) بسرعة، شاكرا ربه على نعمه.

استثارت أهوال الحرب المزايا الكامنة في نفس فقي أحمد وزادت من رجولته وشجاعته الفائقتين أضعافا مضاعفة ومع ذلك فإنه كان في سبيل بلوغه مطامحه

وآماله ملتزما بالعدالة الفعلية ولين القول ومروءة الخلق أكثر من اعتداده بشجاعته وبسالته. أجل! كان يعد الشجاعة في مقام حاجة احتياطية لحالات اليأس، فكان يرى في اللجوء إلى سلاح الشجاعة إذا لم تكن هناك ضرورة قطعية تستدعي ذلك، مخالفة للمروءة والخصائص الإنسانية. ومع ذلك فإن رعايته لهذا النهج في إدارة دفة الأمور كان يخدم نجاحاته.

وكما استطاع بتأثير من نهجه الذي اتبعه في التعامل مع الآخرين، أن يدخل، من جهة، قبائل (كورەک) و(سويسن) و(مامەش) الأسرية في دائرة طاعته، كما يحيط الخاتم بالفص، استطاع من جهة أخرى كذلك أن يبسط سيطرته من منطقة (بيتوين) إلى أنحاء (كويسنجق).

إن سياسة العدل والشفقة التي اتخذها فقي أحمد دستورا له، لم تكن لتدع مجالا، في الحقيقة، للحاجة إلى استخدام الأعمال الدموية بغية الاستحواذ قسرا على بلاد الآخرين. فكانت القبائل تترى تباعا، عارضة ولاءها عن طيب خاطر، لتنضوي تحت جناح حمايته. وبَدَهيٌّ أن النجاح الذي يتم إحرازه بالسيطرة نتيجة لاستخدام الاستمالة وانتهاج سياسة اللّين، أرجح من نصر يتمُّ إحرازه باستخدام وسائل الرُّعب المتمثلة في المدافع والبنادق، ذلك لأن مثل هذه السيطرة المكتسبة من طريق الاستمالة والتي لاتعتمد القهر والعنف، يؤمَّن من جهة استقرار المحبة وجدية الطاعة من الشعب في نقطة ثابتة، ولايترك من جهة أخرى المجال لحدوث الأضرار وأعمال التخريب التي تنجم عن ظروف الحرب وتهيئ الإمكان لنجاح الحيازة على المناطق المعمورة.

وعلى هذا الأساس، كان فقي أحمد يسعى من خلال مراعاته للمصالح الاجتماعية ودقائق شؤون الإدارة، لبث نفوذه وبسط سيطرته على ماحوله.

ومع أن فقي أحمد لم يدخل المدارس العليا ولم يتعلم فن السياسة، وإن كان قد درس بعضا من كتب الفقه والشريعة، وتربى في بيئة يمكن القول عنها إنها بيئة ريفية بدوية، إلا أن مواهبه الفطرية جعلت منه ذا سياسة باهرة تفوق ما يمكن تحصيله من الدراسات العليا، وهيأت له الأرضية ليتحف أخلاقه بدولة منظمة.

هذا الرجل الداهية بطبعه، الذي تلقى علومه في مدرسة المعنويات الفطرية، لو أتيح له أن يوسع دائرة معارفه في المدارس المادية كذلك، لأحرز مقام داهية أعظم في السياسة ونادرة خارقة في الفضيلة. ولكن ماذا يجدي التمني؟ فقصر أمد الحياة الإنسانية وقف سدا بوجه نجاحات فقي أحمد أيضا وأخذه إلى عالم المعنويات.

عهد إمارة خان بداق

خلف خان بداق أباه بعد وفاته، وما كان ليقل عنه، سواءٌ أفي تكوينه الجسدي أم في شجاعته وبسالته، ولاسيما في فضله ومعارفه السياسية.

أجل، كان هذا النجل النجيب الذي ولد من أبوين نادري الوجود كفقي أحمد وقيغان اللذين مثلتهما الفطرة في صورة البشر، مثلا أعلى للفضائل والمزايا الإنسانية من دون أدنى ريب. تبوَّأ خان بداق عرش الإمارة، وهو في العشرين من عمره. وقد كان علمه وذكاؤه يقفان سدا في وجه نزوات شبابه.

كان يدير أمور إمارته على خير مايرام مستعينا برأي أمه قيغان وإرشاداتها، ولم يكن يتغافل عن عونها على إزالة الطوارئ المحتمل وقوعها على طريق نجاحه، ولم يَحِدْ عن الطريق الأمثل لمكارم الأخلاق ونهج العدل والشفقة اللَّذين كانا دستور والده في إدارة الدولة وسياستها. وبفضل هذا الدستور استطاع أن يغرز، أكثر مما كان، الولاء القديم الذي كانت تدين به المناطق التي دخلت من قبلُ في دائرة إطاعة والده.

بدهيٌّ أن الطبيعة البشرية لاتقبل الحياة بصورة منفردة. إن الحياة المنفردة إنما هي للهوامِّ والوحوش والبهائم. والفضيلة الفطرية للإنسانية إنما ترتبط بالحياة الاجتماعية. وهذه الرابطة الاجتماعية التي هي من الخواص الإنسانية، هي التي تميز الإنسان عن الكائنات الحية الأخرى. ولايعني المجتمع مجرد تجمع كتلة بشرية، وإنما يقوم على أساس تأمين أصول معيشته ومعايشته بصورة أساسية وإدخاله في المؤسسات المدنية، وهذه المؤسسات مقيدة بقوانين وقواعد خاصة بها.

إن سلامة المجتمع وسعادته ورقيه مرتبطة بقوة تطبيق تلك القواعد والقوانين. وكلما روعيت هذه القواعد والقوانين المدنية في حياة أمة نالت بمقدار ذلك طردياً من الخصائص الاجتماعية وحازت من المعالي ما تحوزه.

إن هذا الدستور الإداري الذي يضمن الحدود الأدبية والمدنية، يكفل كذلك المقدرات الحيوية للمجتمع، وذلك يتوقف على مدى جدارة الرئيس أو بتعبير آخر الدولة. إن المجتمع يريد من الدولة أن ترعى مصالحه، والدولة تنتظر من المجتمع أن يطيعها.

هاتان المادتان تشكلان أساس قوانين المدنية. ولكن بما أن إطاعة المجتمع للدولة إنما تتبع توازن سطوتها، يجب عليها أ ن ترعى دوما تتويج قوتها بإشباعها بالعدالة وتحافظ على ذلك، لأن مراعاة الحقوق وتحقيق العدالة وإظهار الرأفة والشفقة من

المؤثرات الأساسية في السياسة الإدارية. وفي هذه الأنماط من الإدارة تحرز الدولة دائما النجاح، وعلى هذا فإنما توسع نفوذها وتواصل وجودها بالاستناد إلى ذلك.

وعلى هدى مراعاة دستور الرفق ومواكبة العدل والإحسان التي كانت النهج الذي سلكه أبوه وسعى إليه، كان خان بداق يعلي من شأنه ومقامه يوما بعد آخر.

ومن دون أن يسبب لنفسه المتاعب أو يسوق أبناء قومه إلى المذابح أو يزج بنفسه في مشاكل الحروب والقضايا المجهولة العواقب، كان خان بداق يحرز الانتصارات المعنوية عبر انتهاجه سياسة تراعي أمزجة أبناء قومه. وعلى هذا المنوال فقد كانت القبائل تَفِدُ عليه أفواجاً من كل حدب وصوب ملتجئة إلى ظلال حمايته، ومنها القبائل القاطنة فِي مناطق (آكو) و(بلباس) و(آلان) و (ماوەت) التي أعلنت له جميعها الطاعة ودخلت في إدارته فتوسعت بذلك منطقة حكمه توسعاً كبيراً.

كانت منطقة (ماوەت) التي تتبع اليوم قضاء (شهربازار) وكذلك القرى التابعة لها، تتبع آنئذ حكومة (بانه) وكان حاكمها يسمى إسكندر بيگ الذي كان نجل حاكم جائر يسمى خان إسماعيل سلطان. وهذا ماحصلت عليه من قراءة السطور المكتوبة على شاهد قبر أسكندر بيگ الآنف الذكر في (ماوەت)، ومن وثيقة فارسية حصلت عليها وهي مدونة في القرن الحادي عشر الهجري.

صورة الوثيقة [٣]

والاستعانة بالله العظيم، والحمد لله الحكيم العليم، والصلوات والسلام على خير خلقه محمد القيم الجسيم.

أمابعد، فمن البين والمبرهن بهمة الحكام العدول، وبفضل العلماء العاملين، والنظار المتدينين، أنه في السنة ١٠٧٢م (١٦٦١م-١٦٦٢م)، لما كان حضرة الأمير العالي الشأن خان إسماعيل سلطان حاكما جابراً في حكمه، ورأى في حلمه ثلاث ليال متواليات الحشر والميزان والجنة والنار، تنازل عن الحكم وتوجه لزيارة البيت العتيق، فادعى لفيف من طائفته الحق في استخلافه، ولكنهم نصبوا مكانه خان أحمد سلطان بعد استشارة ذوي العلم والحكمة، حاكما على ولاية (بانه) ومضى على ذلك سنتان وكان خان إسماعيل سلطان قد عاد من زيارة البيت العتيق وآثر لنفسه الانزواء، فرأى

(٣) الوثيقة في الأصل باللغة الفارسية عدا مقدمتها، وبعبارات ركيكة - المترجمان.

في حلمه سيد الكونين صلى الله عليه وسلم، فقال له إن الله تعالى لم يغفر له، ولذلك دعا جميع سكان تلك المنطقة من كبارهم وصغارهم وشيوخهم وشبابهم من المدينة ونواحيها ومن الأمراء وسائر الأصناف، ليطالبوه وفق الشريعة النبوية برد مظالمهم، فحضر مجلس الخاصة والعامة في العشرين من شعبان المعظم، فرجاهم أن يبرءوا ذمته لوجه الله ورسوله، ولكن أحدا من هولاء لم يجبه بشيء. فقال لهم لماذا لم يجبني أحد منكم؟ فقال له الجميع إن حضرتكم ظلم كثيرا من الخاصة والعامة وغصب أملاك عدد من الأشخاص، فقال حضرته سأرضيكم جميعا إن شاء الله، فلم يجبه أحد من الجماعة، فأعاد خان إسماعيل سلطان القول لهم لماذا لم تجيبوني جوابا كافيا ولم تقولوا لي كلاما شافياً؟ إن كنتم تعتقدون أني مازلت حاكما، فإني لست بحاكم. فمن كان له معي حساب فليتكلم، فالحكم اليوم في يد حضرة الأمير. وعندما سمع أهل (بانه) ذلك عرضوا عليه أحوالهم، ودفع حضرته ماكان بذمته لهم خاصتهم وعامتهم، وأرضاهم جميعا وبرأ أولئك بالمثل ذمته هو لوجه الله ورسوله. ثم قال خان أحمد سلطان لحضرته العالية إن إبراهيم بيگ (سيادەمه) أكثر الناس قدرا عند حضرتكم وأوفرهم خدمة لكم، فلماذا لم يتكلم؟ فقال إبراهيم بيگ ماذا عليّ أن أقول؟ إني باقٍ في أرضي وملكي، وكل ما أعرضه عليكم من نافلة القول ولا داعي له. فوجه حضرته الكلام إلى جلسائه وقال لهم أصغوا إليّ. اليوم دار الدنيا وغدا دار الآخرة. إن إبراهيم بيگ من ولاية (بانه) له خمسة أملاك. فشهد الجميع أن اليوم دار الدنيا وغدا دار الآخرة. إن قرية (سيادەمه) و(...؟) من أملاك ابراهيم بيگ بن ميرزا بيگ، وأنه من أولاد (قهقون)[٤] حاكم ولاية (دەشتەتال)، وكان كافرا ألحقه السلطان عبدالله بن الإمام عمر رضي الله عنه بجهنم. وبعد هذا الحوار قال حضرته للملا محمد باقر بما أنك مدرس هذه المدينة ومفتيها فاكتب سندا وتأريخاً جيداً لوجه الله ورسوله عن لسان أهل (بانه) وعن لسان بني قومي وطائفتي أن الجميع يشهدون لإبراهيم بيگ بن ميرزا بيگ بأنه من أولاد (قهقون) وأن (سيادەمه) و(...؟) ملكه واكتب كل ماقيل وحصل بيني وبين هولاء الناس. كما أمر حضرته الملا المذكور أن يكتب أنه من المعروف وفقا لأقوال خان إسماعيل سلطان أن (قهقون) خلف بعد مقتله إبنا واحدا وكان شجاعا، فبوّأه السلطان عبدالله مكان أبيه وسماه علي بيگ ووهب (سيادەمه) و(...؟)، وكل سكان

(٤) لعله معرب (كوەكن) أي الناحت في الجبل - المترجمان.

بانه يشهدون أنه لما فتح السلطان عبدالله (بانه) وطهرها من الكفر، وهب الأمراء إياها وجعلها ملكا له كما نذرها منه. وبما أن السلطان عبدالله ملكها لجد أولئك الأمراء، فكيفما تصرف فيها أولئك اليوم فهو مشروع. وقد سمي السلطان عبدالله جد هؤلاء اختيار الدين، وقد سماه اختيار الدين لأنه لم يقاتل الصحابة. ولما كان طائفة الأمراء حاضرين آنئذ في المجلس، فقد قال خان إسماعيل سلطان لمن كان حاضراً منهم من عدّ نفسه من طائفتي فعليه لعنة الله ورسوله والأئمة والصحابة إذا حرم إبراهيم بيگ من قريتي (سيادەمه) و(.....).

وقال حضرته أيضا لقومه اعلموا أن الملك لن يخرج من هذه الطائفة لأن السلطان عبدالله وجميع الصحابة دعوا الله لاختيار الدين أن لايخرج الملك من أيدي أولاده إلى يوم القيامة إن شاء الله.

كان لإبراهيم بيگ وأبيه وجده فضل كبير على سائر الأمراء وكان أولئك أكثر خدمة ممن سواهم من أهل (بانه)، وهذا هو السبب في أن حضرته العالية كتب هذه الوثيقة لإبراهيم بيگ. والسلطان عبدالله هو الذي أطلق اسم (سيادەمه) على تلك القرية، فقد كان هو وصحابته في ضيق بسبب الحرب مع (قەقون)، و(سيادەمه) تعني اليوم الأسود[٥] فقد كان الوقت الذي يتقاتل فيه الطرفان قبيل الليل. أما التي سماها به السلطان عبدالله فلأنه هو وصحابته أدوا فريضة الصلاة فيها مرتين وقاتل فيها (قەقون) السلطان مرتين. وبعد كتابة ماكتبت عن لسان حضرته، استفسر حضرة خان أحمد سلطان من وجهاء (بانه) عن (سيادەمه) و(...؟) هاتين وأين تقعان؟ فأجابوه أنهما من قرية (سەركوچه) و(گردچاوشان) فـ (كيويله) الكبرى و(دارى به داراى) فـ (كيلى خاتون) من جهة، ومن جبل (كيله سپى) من جهة أخرى، ومن قرية (گەلى) حتى الموقع الذي قتل فيه مير بيگ و(قوله مورغ)و ومن قرية (كانى بەرد) حتى (دارى آبگينه) الواقعة أسفل (سيادەمه) و(نەمەشير) إلى حدود (دارى گاوره)[٦].

(٥) تعني: الوقت الأسود إذا شئنا الدقة – المترجمان.

(٦) سبق أن ذكرنا أن هذه الوثيقة مكتوبة في الأصل بلغة فارسية ركيكة. ونضيف هنا القول أن هذه الركة كانت تحول في مواضع عديدة دون إعطاء المعنى التام، ولكنه كان يفهم من السياق. وفي مثل هذه المواضيع اضطررنا إلى أن نصوغ العبارة العربية من الفحوى العام المفهوم من الجمل ولم نتمكن من الالتزام بحرفية الترجمة. وبالنسبة لأسماء الأماكن قد تكون هناك أخطاء نظرا للاختلاف البين بين الإملاء الفارسي الذي كتب به الأصل والذي يمكن أن يكون قد حدثت فيه

وعلى مايفهم من مضامين هذه الوثيقة، فإنه لما انتشر نور الإسلام في هذه الأنحاء بجلادة سيف عبدالله بن عمر رضي الله عنه، كانت أنحاء (دەشتەتالّ) في إدارة رجل كافر يدعى (قەقون). و(دەشتەتالّ) هذه تشكل القسم المهم من (بانه) المتاخمة لحدود قضاء (شهربازار) التابع للسليمانية والتي هي تحت إدارة إيران اليوم. وعندما أنعم عبدالله المشار إليه على المنطقة المذكورة بنعمة الإسلام، قتل (قەقون) المرقوم وأجلس ابنه في مقامه وسماه علياً. وتلميحا لتسليم هؤلاء أنفسهم للمجاهدين الكرام وتعاونهم الجدي معهم، ذكرت أسرتهم بلقب (خيار الدين)[٧] وانتقل هذا اللقب إلى أنسالهم بالتسلسل ومازالوا يذكرون به، وامتدت امارة (دەشتەتالّ) باسم نسل خيار الدين حتى عهد خان إسماعيل سلطان، وهذه الوثيقة التاريخية تؤكد وتصدق حق حاكميتهم.

وبما أن خان إسماعيل سلطان هذا كان حاكما جائرا، فقد تخلى عن الحكومة إثر الحلم الذي رآه وانزوى في صومعة للعبادة وخلفه خان أحمد سلطان.

وعندما كان أسكندر بيگ ابن خان إسماعيل سلطان يحكم (ماوەت)، أنهت سيطرة بداق خان[٨] حياة حكمه ودخلت المنطقة تحت رايته.

كان خان بداق يقضي فصل الشتاء في (دارشمانه) وفصل الربيع على تل يبعد نصف ساعة عن قرية (قلعه دزه)[٩] العامرة التي هي اليوم مركز قضاء، وفصل الصيف في (سەردەشت) وفصل الخريف في قصبة (ماوەت). وقد كان غرضه من هذه التنقلات تبديل المُناخ حسب طبائع الأقاليم ومراعاة خصوصية وأمزجة أهل كل منطقة عن كثب ولضمان ولائهم ومودتهم.

وبغية توسيع نفوذه الإداري، نقل مقر حكمه في السنة ١٠٧٥هـ (١٦٦٤-١٦٦٥م)

أخطاء أيضا، وبين الإملاء الكردي الذي كتبناها به زيادة في الايضاح ولا نستبعد أن يكون اسم القرية الموضوعة مكانه النقط بين قوسين أكثر من مرة بعد اسم (سيادەمه) (نەمەشير) الذي سلم من أيدي العابثين – المترجمان.

(٧) ورد اللقب من قبل على أنه (اختيار الدين) – المترجمان.

(٨) يلاحظ أن في الأصل أيضا تارة يتقدم الاسم (بداق) على اللقب (خان) وأخرى بالعكس (خان بداق) – المترجمان.

(٩) مايزال في سفح هذا التل قرية تسمى (گربداغ) وهي مخفف (گرد بداق) أي تل بداق – المترجمان.

إلى قصبة (ماوەت). ومع أنه أضاف (سيتەک) و(سەراو) و(بەرکێو)[١٠] إلى سلسلة إمارته، فإن المنية وافته ولم تدع له المجال لمزيد من التوسع ووضعت رحلته الأبدية حلا لآماله الدنيوية.

إمارة مير سليمان بن خان بداق

بعد وفاة خان بداق تبَّوأ مقامه ابنه مير سليمان. لم يكن مير سليمان ليقل عن أبيه شجاعة وشهامة، وإن كان عصبي المزاج حاد الطبع. ومع ذلك فبتغلبه روح العطف والشفقة لديه على عصبيته وحدة مزاجه، لم يدع مجالا لخلل يعتور نفوذ رئاسته. فما إن جلس على دست الحكم، حتى أخذ يسعى لتوسيع ملكه.

وبعد أن بث سيطرته على مناطق (قزلجه) و(سروچك)و حول عنان صولاته نحو (قەرەداغ) و(بازيان) و(شهرزور). وباستيلائه على هذه الأنحاء وسع محيط حكمه. ولأنه كان يطمح في (سنه) وماوالاها التي كانت تعرف بمنطقة (أردلان)، نقل مركز حكومته في العام ١٠٨٠م (١٦٦٩م- ١٦٧٠م) إلى (قەلاچوالان).

واستاءت الحكومة الإيرانية من محاولات الأمير التوسعية، فساق عليه حاكم (لورستان) على رأس أربعين ألف مقاتل. وما إن علم مير سليمان بذلك، حتى استعد لملاقاته على رأس جيش قوامه خمسة آلاف بطل من أبطال بابان.

ومع أن الفريقين وقفا وجها لوجه على ضفتي نهر (دياله) في منطقة (شەميران)[١١]، إلا أن الفصل كان ربيعا وكان النهر في موسم الفيضان. ولذلك تعذر على الفريقين العبور ولم يكن في مقدورهما أن يتلاقيا في تماس حربي.

وكلما طال أمد هذا العائق من نهر دياله، اشتدت الروح الحربية لدى مير سليمان ضراوة وحدة، فلم يكن ليريد أن يفوت الفرصة التي وفرتها له لكسر شوكة العدو حملته الوقحة، كما لم يكن ليريد كذلك أن يفتح ثغرة في المجال الذي تسنى له لتحقيق بغيته

(١٠) وربما كان مصنِّف كتاب ... الإظهار ... في النحو العربي من هذه القرية أو القصبة – المترجمان.

(١١) نقلا عن بحر الأنساب. هكذا في هامش الأصل، ولكن أي بحرأنساب يقصد المؤلف، مادامت هناك كتب عديدة بهذا الاسم ؟ – المترجمان.

في غزو إيران. ولكن ما العمل؟ فقد كان الفيضان غدا عقبة بوجه التحقيق العاجل لهدفه ذلك، وقطع عليه طريق الزحف وطال أمد العائق أياما طويلة. ومع امتداد أمده، كانت روح مير سليمان الحربية تزداد بطشا، فقد كان يحس في نفسه كرهاً شديداً للإيرانيين بسبب التعصب المذهبي[١٢].

أجل، لم يكن مير سليمان ينظر إلى الإيرانيين بوصفهم خصوما مغرضين حسب، إنما كان يرى فيهم خونة للدين ومهينين للمذهب كذلك. ومن هنا فقد كان يرى مخاصمتهم ومجاهدتهم فريضة دينية عليه.

لم يكن مير سليمان رئيس عشيرة، إنما كان أميرا مستقلا يحكم قسما مهما من كُردستان الجنوبية. وكان قد أبلغ والي بغداد في واقع الأمر بارتباطه بالسلطنة السَّنيَّة بعد أن نقل مركز إمارته إلى (قەلاچوالان)، وكان غرضه من ذلك الوفاء بواجبه الديني، ففي ارتباطه هذا كان ينشد الانتساب إلى مقام الخلافة التي كانت تمثل وحدة راية الجامعة الإسلامية. ومع ذلك فإن انتسابه هذا لم يَمَسَّ حاكميته بأي تعقيد ولم يقض على استقلال حكمه وحكومته.

كان مير سليمان مؤمنا صادقا يستند في آماله وأعماله إلى مباديء الدين ودستوره الإداري أحكام الشريعة الإسلامية، فما كان ليغض الطرف عن الذين يتخطَّون هذه الأحكام في تصرفاتهم.

وكان مير سليمان متشوقا إلى توسيع ملكه، باذلاً المساعي في سبيل ذلك، مقتضيا في نهجه هذا آثار والده وجده. ومع ذلك فقد كان يبغي تحقيق مآربه هذه من خلال الوسائل المشروعة، ولم يكن يميل إلى الإجراءات المتطرفة بدافع من رغبة ذاتية.

ولذلك كانت الأرض الإيرانية الهدف الوحيد الذي يراه جديرا بصولته للاستيلاء عليه، فقد كان يرى أن الانحراف المذهبي الذي أخرج البلاد المذكورة عن الطريق القويم للدين الإسلامي، قد أوجد ثغرات عديدة وعوامل فرقة كثيرة مما أدى إلى القضاء على وسائل إعلاء شأن الإسلام، لاسيما أن الآثار المؤلمة للأعمال الدموية والوحشية التي كان اقترفها الشاه عباس بحق بغداد وكُردستان، لم تكن قد زالت عن الأذهان بعد، مما كان يثير حب الانتقام في نفس مير سليمان أكثر من أي شخص آخر.

(١٢) يسمى النهر في هذه المنطقة (سيروان)، ولايتغير اسمه إلى (دياله) إلا بعد اجتيازه المنطقة الكردية ودخوله المنطقة العربية- المترجمان.

وخلاصة القول أن الغيظ الشديد الذي كان يضمره مير سليمان للإيرانيين، لم يكن مردُّه إلا إلى أحاسيس التعصب المذهبي، ولذلك فما كان ليكل من عدائهم أو ليضيِّع الفرص التي قد تسنح له للقضاء عليهم.

كان مير سليمان رجلا جسورا، وكان من الحزم والتصميم في جرأته على درجة عالية، فكان لاينظر إلى الهزيمة إلا على أنها مرض قلبي لايستند إلا إلى الأوهام النفسية، وأنها ضعف ناتج عن الخوف والخوّر، وكان يرى في هذا الضعف جبنا يعتري الرجال.

لم يكن مير سليمان يعتبر الخوف بالنسبة إلى الرجال إلاَّ مرضاً قلبياً وإن كان بالنسبة إلى النساء غريزة فطرية. وبغية أن لاينمو هذا المرض القلبي بين أبناء قومه، بل في سبيل أن لايترك المجال لنموه، ما كان ليتأخر عن تعريضهم للمهالك والمخاطر. فكان يريد بذلك رفع مستوى متانتهم القلبية وجرأتهم الروحية. ومنها أنه لم يعدّ لمقابلة الخطر الإيراني أكثر من خمسة آلاف مقاتل، في حين أنه كان يستطيع أن يجهز لهذا الغرض جيشا مقداره ثلاثون بل أربعون ألف شخص. لم يكن مرد هذا الإجراء الأولي تصوره هذا.

ولكن الفيضان كان يواصل إزباده وإرعاده ويستمر في وساطته المتهورة. ومع وضعه الذي كان له للحيلولة دون تصادم الطرفين، ماكان أيضا ليتأخر عن تعجيزهما. ولذلك كان مير سليمان هو الآخر يحتد وينوي تحدِّيَ الفيضان وعدم إعارته أي أهمية، عاقدا العزم على العبور، قائلا فليكن مايكون!

واقتنع الفيضان من جانبه بأن لا فائدة في مواصلة الحدة والشدة، وأن تهديداته الإرهابية خفت وطأتها، واقتنع بأنه لن يستطيع الحؤول دون النفاق الجشع في الخلق الإنساني والإساءات الدامية التي يرتكبها الناس بعضهم ضدَّ بعض.

وعلى ذلك، ففي الطرف المقابل أخذ يرفع بصخبه الحزين صرخاته التي تناشد البصيرة الإنسانية أن تنفتح لرؤية العواقب الأليمة التي تتأتَّى من غرور الغفلة البشرية التي ليس وراءها جدوى.

أجل، كان الفيضان يسرد بصخبه الحزين تلك الحالة المشؤومة التي تتضمنها ظلمة الجهالة الكامنة في غفلة الغرور، ومصائب الدهر التي تتمخَّض عنها، فكان يعبر بعويله الأليم عن أشكال أحزانه. ولم تكن روح البطش في مير سليمان ضد الإيرانيين تنسجم مع ملاحظات معنوية كتلك، فكان كل همه محصورا في أن يلقنهم درسا

يؤدبهم ويعلمهم أصول التربية، وليكن بعد ذلك مايكون!

وإذ استبدل الفيضان بتأثره الحزين على هذا النحو تهديداته المرعبة، اغتنم الأمير ذلك فرصة، من دون أن يختبر ما إذا كان هناك مجال للعبور، فتيمَّن بذكر الله وخاض غمار النهر ممتطيا صهوة جواده في منتصف الليل. كان ذلك هو مير سليمان نفسه.

كان الإيرانيون في غفلة عن جسارة البابانيين الحربية. منهمكين في تناول الحشيشة والأفيون، مسترخين في أحضان الدعة على أسرّة الغفلة. وإذ داهمتهم هذه الحملة المباغتة، لم تبق لهم من فرط ما أصابهم به الرعب والخوف من اضطراب وهلع، قوة للرد، ذلك لأن ماكان قد تركته لهم الدهشة وهول الموقف لم يكن ليتعدى الملاحظة الحسية من أجل أن ينجوا بأنفسهم. لقد تشتت الإيرانيون شذرَ مذرَ مهزومين وفي وضع مضطرب. أما أبطال (قەلاچوالان) المتعطشون لدماء العدو، فقد زادوا سيوف جلادتهم وغلبتهم قوة على قوة، فمزقوا إرباً إرباً من صادفوه في طريقهم أيا كان. وعندما طوى الليل سرادق ظلماته، كان من تبقى من الإيرانيين في سوح القتال إما من المجاريح والقتلى والأجساد التي غادرها الروح.

وبعد هذا الانتصار المجيد عادت القوة البابانية إلى بلادها، نشوى بعزة الظفر، محملة بالغنائم التي لاتعد ولاتحصى.

وبهذه الهزيمة الفاضحة لم تعد للدولة الإيرانية الصفوية جرأة للهجوم مرة أخرى على مير سليمان، فألقت مهمة تأديبه على عاتق الدولة العثمانية من خلال اتصالات سياسية بدأتها معها.

غير أن مشاعر الجهاد الديني والمصالح الوطنية كانت قد زالت بين رجال الإدارة والسياسة ذوي المقام والنفوذ في الدولة العثمانية آنئذ. أجل، كانت المباديء الأخلاقية فقدت فضيلتها الأساسية وانفصلت عن مقتضيات الحمية الدينية وحب الوطن، وأمور الإدارة قد ضمرت بين أخذ وردّ المطامع الشخصية والتمزقات الداخلية أصابت سياستنا الخارجية بأزمة الانعزال والانطواء. وحاصل القول أن السلامة العامة والأمجاد الوطنية قد محيت بكل معناها من أفكار الرأي العام.

وفيما يجب على كل دولة أن تستوعب يوميا بل وفي كل ساعة ودقيقة قيمتها السياسية وتعرف وجهات تحركها، وتدرك كيف تفكرّ، فإن الدولة السَّنيَّة كانت تعتقد أن الدولة الصفوية الإيرانية ماتزال تعيش أيام مجد الشاه عباس،

ولذلك فقد كانت ترى تحقيق مآربه عملا يجب المبادرة إليه والاستعجال فيه، رغم

أنه لايحق لأي دولة ارتبكت أمورها الداخلية وتضعضعت سياستها الخارجية أن تعمل لإعادة القوة إلى دولة أخرى آلمتها ونالت الأذى عن يديها. ليس هذا حسب، بل عليها، بمقتضى أصول السياسة الدولية، أن لاتفوت اغتنام فرصة ضعفها وخورها للانتقام منها.

ولئن كنا نستنكف عن الأخذ بهذا المبدأ الفلسفي، آخذين بنظر الاعتبار مروءتنا الخلقية، فقد كان علينا على الأقل أن لانساعد تلك الدولة على انبعاثها وإعادة النشاط إليها، لئلا تصيبنا أضرارها تارة أخرى، وكان علينا بصورة خاصة أن لا نكسر سلاحنا من أجل عدو توالت أضراره ولم يكف في أي فرصة سنحت له عن إظهار قسوته وغلظة قلبه.

فمن الثابت تأريخيا أنه منذ أن أشرقت شمس الدولة العثمانية التي أنارت فجر سعادة الإسلام، وإلى أواخر أيام العهد السابق[١٣] لم تعد الدولة الإيرانية الخائنة أكثر من كونها شوكة موجعة لحياة الإسلام، أي ماهية سليمة. ولم تكن الدولة السَّنيَّة في غنى يوما ما عن وجود عنصر مثل مير سليمان على مناطقها الحدودية. وقد أثبت ذلك بعد فترة وجيزة الهجوم الخياني لنادر شاه أفشار على بغداد والعراق.

إن السياسة الصائبة هي إدراك هذه الأخطاء التي لايعقبها إلا الندم، والحذر منها يتيقظ قبل وقوعها.

ولكن ما الفائدة! فأولياء الأمور الذين كانت طموحاتهم مبنية على أطماعهم، قصر نظرهم عن إدراك هذه المهمة السياسية، فعينوا الوزير يوسف پاشا والي دياربكر وحسن پاشا والي حلب وأرسلوهما تحت قيادة والي بغداد حسن پاشا لتأديب مير سليمان، ولم يكن ذلك ليخلو من خطأ سياسي مهم إزاء الطريق المعوجِّ الذي كانت تتعقبه إيران منذ وقت غير بعيد، فهي لم تكن دولة صديقة لنا من حيث الأساس. وبما أن مير سليمان أيضا لم يكن صديقا لإيران فقد كان يوجه إليها نار خصومته.

وفيما أورده فريدون بيگ في تقسيماته التي ذكرها في مجموعته بشأن القرن الحادي عشر، لم يتطرق إلى أي شيء عما إذا كان لمير سليمان ومنطقة حكومته ارتباط بجهة ما أم لا.

ومن هنا يتضح أن هذه الأسرة لم تكن لها أي رابطة إدارية مع الدولة العثمانية في

(١٣) يقصد المؤلف، كما يبدو، العهد الصفوي – المترجمان.

ذلك التأريخ، إنما ارتبط مير سليمان حسب رغبته بإيالة بغداد وانضوى في كنف رأفة الدولة السَّنيَّة بعد أن نقل مركزه إلى (قەلاچوالان)، ملحقا بذلك بالممالك المحروسة ما استولى عليه من أراضي تابعة لإيران. وزيادة على ذلك فإنه لم يرتكب يوما ما خيانة بحق دولته المتبوعة، ولا أساء إلى تبعيته لها. وعلى هذا الأساس، فإن اللجوء إلى القضاء عليه بقصد إسداء الجميل إلى خصم أزلي، إنما يعتبر مخالفة للمروءة الخلقية، علاوة على أنه خطأ إداري وسياسي.

ولنفترض أن مير سليمان كان يشكل في رأي أولياء الأمور غائلة للدولة السَّنيةَّ في المستقبل، لكن هذا لم يكن أكثر من مجرد احتمال. وحتى لو صح هذا الاحتمال، فما كانت غائلته لتزيد خطورة ورعبا عن غائلة نادر شاه الأفشاري. فما كان ليسَعَ مير سليمان مهما أوتي من مكنة أن يقف بوجه اقتدار السلطنة السَّنيَّة، علاوة على أنه كان مسلما سني المذهب.

ولكن هيهات! فإن أولياء الأمور آنئذ الذين غرتهم أوهامهم فانساقوا إلى شباك السياسة الإيرانية، ماكانوا ليفكروا في الخطأ الذي كانوا يرتكبونه بالتضحية ببطل إسلامي مثل مير سليمان من أجل إيران. *إلا أن السلطان محمد خان الرابع الذي كان يعرف قدر الناس، لم يكن قد سمح، لحسن الحظ، للجيش الهمايوني الذي توجه للتنكيل بمير سليمان، بقتله، إنما أمره بالاتيان به إلى إستانبول سالماً معافى.*

كان مير سليمان في هذه الأيام منهمكا في الإعداد للزحف على أردلان. وفي تلك الأثناء علم بالاجراءات المتخذة ضده، فأصابه هذا النبأ بغاية الحيرة، فما كان ليرى في نفسه خطأ وتقصيرا يشير سخط السلطنة السَّنيَّة. وبعد تأمل طويل وإمعان نظر دقيق، توصل في آخر الأمر إلى *أن مالم تستطع الدولة الإيرانية أن تفعله بنفسها فعلته بواسطة السلطنة السَّنيَّة.* وبناء على ذلك فإنه لم يستبعد احتمال أن تهاجمه إيران كذلك. ولذلك فقد شطر القوة التي كان قد أعدها للزحف على إيران شطرين وضع شطرا منهما تحت قيادة أخيه تيمورخان تحوطا لمواجهة أي تحرك إيراني قد يلحظ، وتوجه بنفسه على رأس الشطر الثاني لمجابهة الجيش الهمايوني فأحكم إغلاق منافذ (طاسلوجه – ودوگمه)[١٤]. وعندما وصلت القوات الحربية العثمانية إلى سهل (بازيان) استفسر مير سليمان عن سبب هذه الحملة من قائد القوة الزاحفة فأبلغ جوابا

(١٤) لم نعثر على مثل هذا الاسم في المصادر المتوافرة بين أيدينا.

على استفساره بأنه إذا أطاع الأوامر الصادرة إليه، فإنه سيؤخذ إلى إستانبول سالما معافى. أما إذا عصى فستكون عاقبة أمره الخيبة والخسران، وأبلغ أن استسلامه خير له وأولى.

لم يفهم مير سليمان من هذا الجواب شيئا. لماذا يأخذونه إلى إستانبول؟ لئن كان المقصود مجرد سفره إلى هناك كفى لتحقيق تلك الغاية مجرد أمر يصدر. إذاً فلِمَ سوق الجيوش والزحف عليه؟ لم يكن يدرك ماذا ينبغي عليه أن يفعل؟ هل يجيب على الطلب أم يرفضه؟ ماذا يعني الاستسلام؟ إن مثل هذا الأمر *إنما هو من النوع الذي يصدر إلى الجناة*، في حين أنه لايجد في نفسه جريمة تجعله في عداد أولئك! وإن كان يلاحظ أن لابد من أن يكون هذا الإجراء من تدبير الدولة الإيرانية. ولكن إيران لم تكن صديقة للدولة العثمانية، بل على العكس كانت عدوتها الأبدية التي تتحين الفرص دوما لإيقاع الضرر بها، ولذلك فقد *كان على الدولة العثمانية أن لاتعادي قوة سحقت رأس عدوتها هذه، بل كان عليها على العكس أن تعتبرها صديقة لها*.

وخلاصة القول أن هذه النقاط المبهمة وغير المنطقية في القضية أخلت بتوازنه الفكري، فكان الأمر باستسلامه يعتصر حميته الروحية.

أفليس الأمر كذلك؟ ترى أنَّ أمرا بالاستسلام جديرا بمجرم ضيق عليه الخناق وخيّر بين سبيلين على مفترق طريق الحياة والموت والخضوع والعصيان يختار إحداهما، كان أمرا جديرا برجل مثل مير سليمان بادي السعد، لم يصادف في تقلبات حياته الحافلة بدواعي الاعتزاز أي نوع من الضيق، ولم تلقه في طريقه أي عثرة، رجلِ ظل يطلق عنان جواده دوما في ميدان تحقيق أمانيه التي أرادها، وقضى حياته في الحكم *مستقل الفكر والقرار*؟ وهل كان استعمال مثل هذا التعبير بحقه من مقتضيات مصلحة الإرادة أم كان لجوء إلى التهديد السياسي؟

ولكن يبقى هناك أنه في حين تعتبر مراعاة اللين والمجاملة حتى مع أكابر الكفرة من مقتضيات التعاليم القرآنية فإن اللجوء إلى مثل هذا النوع الفظِّ من القول بغية إطباق القفص على ليث لم يقع قبل أبدا في شباك الابتذال لسعد أي صياد، فظل كما كان بمنأى عن أن يُنال، لم يكن مناسبا و لا ملائما، وماكان ليكون كذلك، وإلا فكيف كان من الممكن أن يشق رجل كمير سليمان بقي دوما مثال الصلابة الدينية، عصا الطاعة؟ إن مثل تلك الكلمات القاسية التي أخرجته عن طوره وانحرفت به عن سبيل الطاعة، هي التي ساقته في الطريق الوعر، طريق المجابهة العسكرية مع جيوش الإسلام.

أجل، عندما أدرك مير سليمان أن مثل تلك التعابير إنما يستعمل بحق مجرم سدت بوجهه سبل الخلاص، ووضع بين الحياة والموت أمام اختيار الحل الأخير يائسا من غيره، فقد رأى من الأوفق أن يقتحم ساحة الرجولة للحفاظ على شرفه وكرامته، بدلا من أن يستسلم ذليلا طائعا منكس الرأس، ولاسيما أنه كان يستبعد أن يرى نفسه في مثل ذلك اليأس الاضطراري. *ومن هذا المنطلق قرر المقاومة دفاعا عن النفس*.

استمرت المبارزات والمناوشات بين الفريقين أياما، ولم يعرض نور النصر من بدر الغلبة سيماه من أي من الجهتين، رغم أن القوة المعادية المهاجمة كانت قد تجاوزت القوة المدافعة أضعافا مضاعفة.

لم يكن مير سليمان ليظهر في هذه المعركة بطشته القتالية، فقد كانت يداه لاتطاوعانه أن تمتد للمساس بجنود الإسلام، وما كان ليريد إراقة دماء المسلمين أو يرى هزيمة منكرة تلحق بجيوشهم، لذلك فقد كان الهدف من قتاله محصورا في صيانة مواقعه وفي الدفاع عن النفس.

استمرت الصيحات الحربية تدوي أيام عدة دونما طائل. ودعي مير سليمان ثانية في رسالة جديدة للطاعة، وكتب له في هذه الرسالة الجديدة «إن إراقة الدماء دونما سبب ليس في محله، وإن القضاء على حسن نظر الخلافة غباء وتمردا ليس إلا عامل شقاء لك ولاسيما أن ما من نية سيئة مبيتة في الموضوع. وعلى ذلك فأولى لك أن تترك المكابرة والعناد وتنهى القتال والخصام، وتبادر بدلا من ذلك لإنجاز مستلزمات السفر والالتحاق بنا بغية التوجه نحو إستانبول، وكلما كان ذلك أسرع، كان أفضل».

وعلى أساس من هذه التوصية عاد مير سليمان يفكر من جديد. لقد فكر وقدر، فلم ير في مخاصمة السلطنة السنية غير الإثم والوبال الذين ينجمان عن معارضته الخلافة الإسلامية، وتوصل إلى أنه لن يوفق أبدا إلى النجاح في ذلك مهما أبدى من صلابة ومتانة في المقاومة، وسيضطر في آخر الأمر إلى الانقياد والخضوع مغلوبا على أمره، وسيخسر بالاستسلام نتيجة للهزيمة أساس شرفه وكرامته وسيهان ويحقر. ولذلك تقبل توصيات قائد القوات العثمانية بهذا الشأن، ورأى في ذلك ماهو *أوفق لمصالحه الراهنة والآنية*.[١٥]

وعلى ذلك فقد أجرى مخابرات تحريرية ضَمَّنَ من خلالها سلامة موقفه ومقامه

(١٥) تأريخ راشد – المؤلف.

ومصالح بني قومه وعين مكانه أخاه تيمور خان بيگ وسلم نفسه في السنة ١٠٩٨هـ (١٦٨٦م-١٦٨٧م) للجيش الهمايوني وأخذ إلى إستانبول.

وعند وصوله إلى إستانبول، قدم إلى المقام السلطاني، وهو في *بزته الحربية القومية*، فحصل شرف صدور الإرادة السلطانية باستقباله. لم تكن الأسلحة النارية قد شاع استعمالها آنئذ في كُردستان، وكانت الحروب تجري بوساطة السيوف والدروع والرماح، وكان المقاتلون يلبسون الدروع ويضعون على رؤوسهم الخوذ اتقاء ضربات السيوف وطعنات الرماح، وعلى هذا النحو سار مير سليمان للقاء السلطان. وإضافة إلى ذلك كان مير سليمان ذا ملاحة رجولية بالفطرة، وكانت ملاحته هذه تضفي على سيماء وجهه وقارا ومهابة شخصيتين، وكانت ملابسه الحربية ودروعه تزيد من وجاهته وهيبته درجة أخرى.

وعندما وصل، وهو في هيئته البطولية تلك إلى المقام السلطاني، قال السلطان مقدرا إياه ومستغربا صورته: «واى. بابام، بابام!» «أي» وى، يا أبي! يا أبي!» ووصلت هذه العبارة إلى كُردستان محرفة فصارت (بابام) (بابان)، وغدت الكلمة علماً إضافيا لهذه الأسرة، كما تقول الروايات المحلية المتواترة.(*)

كنت قد رأيت فيما سلف من الأيام صحائف قديمة مدونة باللغة الفارسية، في شكل خواطر، وقد دونت فيها الحوادث التأريخية التي جرت لمير سليمان كما ذكرنا، فترجمتها نصا، إلا أنني رأيت الموضوع نفسه في الصفحة ٤٨٦ من الجزء الثاني من تأريخ راشد، ولذلك أورده حرفيا: «كان ولاة شهرزور يسكنون جميعا *في قلعة كركوك*، وكانت شهرزور وأطرافها تغدو بذلك خالية من تنقلات أولي الأمر، فاغتنم بهبه سليمان الفرصة واستولى على تلك الديار وجمع عساكر كثيرة من القبائل والعشائر وكثرت جماعته. ولأنه كان إضافة إلى عدم انقياده للولاة وعدم إطاعته إياهم، يتعدى أيضا على حدود بلاد شاه العجم التي ظلت سنوات طوالاً تحت جناح رعاية الدولة العلية، وأخذ يربي في خياله الأوهام الباطلة في الغزو وإعلان الاستقلال، فقد سار سفراء إيران إلى بغداد والباب العالي يرفعون شكاواهم منه إلى السُّدَّة العلية. والواقع أن هذا الرجل بعد أن رفع راية الطغيان والبغي داخل حدود الممالك المحروسة ضد ممالك شاه إيران، وزعزع أمن المنطقة وصدرت الأوامر مرارا وتكرارا لسحب يده عن شؤون تلك الوديان

(*) راجع التعليق في نهاية المدخل بشأن هذه الروايات - المترجمان.

وامتنع هو عن الانقياد والامتثال، ثارت ثائرة بادشاه العالم، وعلى ذلك فقد اقتضى الأمر أن تسيّر عليه العساكر لكسر شوكته وإجباره على التزام سمت الطاعة، فعين والي بغداد حسن باشا قائدا للجيش ووضع تحت إمرته كل من الوزير يوسف باشا، والي دياربكر والوزير حسن باشا، والي حلب مع جيوش إيالاتهم وجميع الفرق العسكرية الأخرى، وأعطوا الأوامر والتوجيهات الضرورية مقرونة بالاهتمام اللازم لغرض إلقاء القبض على بهبه سليمان المذكور.

«ومع أن بهبه سليمان الآنف الذكر كان قد غدا منذ سنين رئيسا لعساكر وأجناد خارجة عن دائرة التعداد من طوائف الأكراد المختلفة فإنه عندما علم بقدوم الجيوش الكثيرة المهاجمة أخذته الدهشة وألقى الغضب الهمايوني في روعه الفرق والفزع والهلع، فلم يجرأ على المقاومة ومقاتلة المهاجمين وهرب إلى جهة هكاري ووان لائذا بالفرار إنقاذا لنفسه. ولكن كتخداه وستة عشر من أعوانه وأعيانه من البيگات والأمراء لم يستطيعوا أن ينجوا بجلدهم من قبضة طلائع العساكر الهمايونية فأسروا ونالوا عقابهم الذي يستحقونه وأرسلت رؤوسهم المقطوعة إلى السدة السنية».

أما في المجلد الأول من تأريخ جودت فان هذه الحادثة قد دونت على النحو الآتي:

«توجه سليمان بيگ بصحبة الجيش الهمايوني إلى هذه الأنحاء (يقصد الآستانة- المترجمان) وبعد أن قضى نحبه في أدرنه ظلت بعض الأماكن التي كانت تحت تصرفه، في يد نجله بكر بيگ، في حين ظلّ ماتبقى منها تحت تصرف عشيرة الزنگنة التي كانت تتصرف فيها من قبل».

فإذا أخذت التفاصيل الواردة في هذين الكتابين التأريخيين بعين الاعتبار، أمكن الاستنتاج أن القضية لاتخرج عن إطار ماورد في تلك الصحائف الفارسية القديمة التي نقلناها مترجمة، ذلك لأن تأريخ راشد وان كان قد أيد أسباب الحركة وكيفيتها بصورة مطابقة (يقصد: لماورد في الصحائف الفارسية القديمة المشار إليها- المترجمان)، الا أنه لايدعو كونه يتحدث عن هروب مير سليمان دونما مقاومة باتجاه هكاري ووان وإرسال الرؤوس المقطوعة لسبعة عشر من أعوانه وأعيانه إلى إستانبول. فاذا كان مير سليمان قد ترك موقعه دونما قتال واختار الهروب، فأين يكون قد قتل كتخداه وبيگاته وقطعت رؤوسهم؟ في حين أن تأريخ جودت، على النقيض تماما من تأريخ راشد، ينقل الحادثة من دون أن تخرج عن دائرة ما ورد في الصحائف الفارسية القديمة المشار إليها. إذاً فإن الأرجح في حقيقة هذا الاختلاف التأريخي هو مايفهم ضمن ماثبّت في الصحائف

الفارسية القديمة.

وطبقا للإرادة السَّنيَّة أرسل مير سليمان إلى أدرنه وأمر بالإقامة فيها حيث ظل حتى توفي في سنة ١١١٠هـ (١٦٩٨م-١٦٩٩م) ودفن هناك.

عهد إمارة تيمور خان بيگ

سبق أن ذكرنا أنه بعد ماتوجه مير سليمان بيگ مع العساكر الهمايونية إلى إستانبول، ناب منابه على كرسي الإمارة أخوه تيمورخان بيگ. كان تسفير مير سليمان قلّل من جرأة تيمورخان بيگ وما كان منشأ ذلك من خوفه ولكنه كان يخشى أن يؤدي العكس من *ذلك إلى إلحاق أذى بمير سليمان*.

كان تيمورخان بيگ شخصا جسورا. وبقدر ماكان جسورا كان كذلك متأملا بعيد النظر. فكان يفكر ويقدر في كل حالة وعند الحصول على أية معلومات جديدة ويقلب الموضوع في ذهنه على أوجهه المختلفة ويحدد وفقا لذلك خطأ التحرك ويرى نفسه مضطرا لإيثار السكون لئلا يسبب بحركته أذى لمير سليمان. ومع ذلك فإن هذا السكون لم يكن في صورة ضعف يؤدي إلى خلل في أموره الإدارية. أجل إنه لم يكن يألو جهدا في اتخاذ التدابير والإجراءات التي يقتضيها سواء حسن جريان الانتظام الداخلي أم منع التجاوزات الخارجية.

لقد كان يدير المملكة إدارة سليمة ويحكمها حكما متزنا ولم يكن ليحيد عن العدل والرأفة قيد أنملة، وكان قد كسب أفئدة بني قومه بخصائله الفاضلة الحميدة ونال احترام جيرانه.

دامت أيام وكالته طيلة بقاء مير سليمان على قيد الحياة. وبعد وفاته أيضا ظل يحكم خمس سنوات أصالة، ولم تقع إبان حكمه حوادث عنيفة تستحق التسجيل.

توفي تيمورخان بيگ في العام ١١١٥هـ (١٧٠٣م-١٧٠٤م) بعدما حكم وكيلا وأصيلا مدة سبعة عشر عاما، وترك وراءه ثلاثة أبناء صغار السن هم خانة بيگ وفرهاد بيگ وخالد بيگ.

عهد إمارة بكر بيگ

وبعد وفاة تيمورخان بيگ ناب منابه بكر بيگ بن مير سليمان. عرف بكر بيگ هذا بـ (بەكربەگى سوور)، أي بكر بيگ الأحمر وبهذا اللقب ذاع صيته.

سار بكر بيگ في إدارة شؤون إمارته على نهج سلفه تيمورخان بيگ. فما كان ليريد إزعاج جيرانه بالأعمال العدوانية والتجاوز عليهم، وكان يهمه بصورة خاصة أن لايفكر في الاستيلاء على أراضي جيرانه الإيرانيين.

كان الهيام الروحي لبكر بيگ ممارسة الزراعة. كان يسره كثيرا أن ينشغل بأمور الفلاحة حاملا المسحاة والمعوَل من مطلع الفجر حتى غسق الليل. لم يكن ليَكل من متاعب الزراعة. وله من الآثار الزراعية التي ماتزال تذكر به حتى اليوم أثران يخلّدان اسمه إلى الأبد ويجعلانه على ألسنة الناس، ينطقون به ولاينسونه. وأحد هذه الأثرين هو النهر الواقع غربيَّ السليمانية على مسيرة ساعة واحدة من المدينة ويروي المناطق الواقعة جنوبيَّها الغربي ويدرُّ من الريع سنويا عدة آلاف ليرة وقد سمي باسمه. إذ يدعونه (بەكره جۆ) اي (جدول بكر). وهذا النهر اليوم من أملاك الدولة تتصرف فيه وتزرع منه الأراضي الواقعة على مسيله. أما الأثر الثاني فهو قرية (بەكراوا)، أي (معمورة بكر) الواقعة في سهل شهرزور على مسيرة ساعة من حلبجة مركز قضاء گلعنبر. وهناك على مقربة من هذه القرية متصلا بها، تل اصطناعي أطلق عليه اسم (گردى بەكراوا) أي (تل معمورة بكر) كما يسمى (گرده بەرزه) أي (التل العالي). وماتزال تشاهد على هذا التل خرائب قلعة. والقلعة مبنية من جانب بكر بيگ، ولكننا لاندري ما إذا كانت موجودة من قبل أيضا أعمرَّها هو، أم بناها ابتداءً؟ هذا غير معروف.

ومع أن الزنگنة(*) نهضوا ورفعوا رأسهم في عهد بكر بيگ، إلا أنهم لم يحرزوا أي نجاح، بل إنهم اضطروا على العكس للتخلي عن قسم من الأراضي التي كانت بحوزتهم خائبين خاسرين.

وبسبب من الضربات التأديبية التي أنزلها بكر بيگ بالزنگنة، فان أشواك الخلاف والشقاق لم تقم بوجه حكومته فيما بعد، ولم تتعرض الزراعة والفلاحة في أيامه إلى

(*) راجع مقدمة كتاب «كردلر» (الكرد) لـ. د. فريج مستعارا اسمه بشأن أصل هذا الاسم.

عقبات من أي جماعة مشاغبة. وهكذا فقد قضى سنوات حكمه التي بلغت اثنتي عشرة سنة في غاية الهدوء وصرف أيامه بعيدا عن المتاعب والمشاكل.

توفي بكر بيگ في العام ١١٢٧هـ (١٧١٥م) تاركا وراءه ولدين هما سليم بيگ وشير بيگ، ولايعرف مدفنه.

عهد المتسلم(*)

لم يلخف بكر بيگ وراءه بعد موته ابنا بالغا سنَّ الرشد يستطيع تدبير الأمور. وتيمورخان بيگ، وإن كان أعقب ثلاثة أبناءهم خانة بيگ وفرهاد بيگ وتيمورخان بيگ، إلا أن أيا من هؤلاء أيضا لم يكن قد بلغ سنا تساعده على إدارة دفَّة الحكم.

كان أكبر هؤلاء جميعاً خانة بيگ الذي لم يكن تجاوز الثالثة عشرة من عمره. أما فرهاد بيگ وخالد بيگ فكانا أصغر منه بسنة وسنتين. وكان سليم بيگ و شير بيگ أصغر من أولئك أيضا. ولذلك فقد كان صغر سن هؤلاء كلهم مما لايساعد بحال على إدارة الأمور وتمشية مصالح الحكم. فبعثت حكومة الإيالة إلى قەلاچوالان بمتسلم نجهل اسمه للوصاية على حكومتها، ولكن كيفية تعيين هذا المتسلم وإرساله إلى قەلاچوالان كانت ضربة وجهت إلى الأسرة البابانية، ذلك لأن المتسلم المذكور كان يفتقد كل مقدرة. وكما لم يكن بوسعه الحفاظ على المقام، كان جاهلا وعديم الخبرة كذلك في أمور الإدارة ولذلك فقد كانت الأسرة البابانية تقترب بسرعة من الانقراض.

(*) المتسلم: مصطلح إداري أطلق قبل عهد التنظيمات العثماني على مديري السناجق والأقضية التابعين للولاة والمتصرفين. وكانوا يسمَّون «Voyvoda» (قد تكون الكلمة شائعة في معظم أنحاء يوغوسلافيا سابقاً. فطرق سمعي هذا المصطلح لأول مرة، عند دخولي حدود يوغوسلافيا، قادماً من المجر ...). وفي عهد محمود الثاني، إلى أن تأسس نظام المركزية، كانت تدار مناصب الوزراء وأمير الأمراء (ميير ميران) في أثناء اشتراكهم في الأسفار الحربية، من قبل هؤلاء المتسلمين. كانت عوائد هؤلاء تجبى من لدن هؤلاء وترسل من قبلهم إليهم. وكان يعطى من لدن لهؤلاء أيضاً مقدار من النقود إلى ذوي المناصب في الإقطاعيات الطائعة ونصف الطائعة. وربما تولى هذا المتسلم إدارة المنطقة يومئذ لسيادة جو من عدم الطاعة للدولة العثمانية في الأكثر – شكور مصطفى.

وقبل أن يعين هذا المتسلم، لم يكن الجيران وسائر الناس قد ولوا وجه الاحترام والتقدير عن هذه الأسرة، بل على العكس من ذلك كانوا يواصلون بذل الاحترام والرعاية القديمتين لها بحماس أشد، وما كانوا ليقصروا في أداء واجب الخدمة. في حين أنه بعد تعيين المتسلم تغيرت نظرة الاحترام إلى شيء آخر بسبب من انحلال الأسرة وكونها أوشكت على الانقراض، فاستيقظت النزعات التمردية، وأخذ كل يرفع رأسه من موقعه ويستولي على الأراضي المحيطة به.

ما كان المتسلم ليستطيع أداء مهمته في الوصاية، ولم يكن قادرا على الحفاظ على موقع الإمارة. ولذلك فقد اضطربت أوضاع الأسرة البابانية وغدت في مهب الريح وانفرط عقد النظام فيها واتخذت الأمور شكل الصراع والتنافس بين المتنفذين ولاسيما أحمد خان الزنگنه الذي كان يتحين الفرص وكان قد سبق الجميع في خرق العهود والمواثيق، فوسع حدود حركاته الاعتدائية أكثر مما ينبغي، وكيف لا وروحه وقلبه كانا ينطويان منذ سوالف الأيام على الحقد ورغبة الانتقام. والواقع أنه إذا كانت قوة قاهرة قد حالت حتى ذلك الوقت دون إظهار غيظه وانفعاله النفسي هذا، فإن تلك القوة القاهرة أصيبت الآن بذلة ومسكنة فسحتا له المجال، ففكر أنه إذا لم يستفد من هذه الفرصة، فعليه أن ينفض يديه عن حياة الشهامة والغيرة ويقطع صلته بها. وهكذا فإنه لم يكتف باديء ذي بدء باسترجاع مناطق (سەنگاو) و(قرەداغ) التي أخذها البابانيون منه بل مدّ يديه إلى مناطق (بازيان) و(شهرزور) كذلك، وضم قسما من أنحاء بازيان وأنحاء (دزيبايش) في شهرزور أيضا إلى حريم ملكه.

ولم تتوقف أطماع هذا الرجل وحملاته الاستحواذية عند هذا الحد، بل إنه اجتاز جبل (ژاژيله) الذي يفصل منطقتي السليمانية وقرەداغ عن بعضهما، ووصل نهر (تانجەرۆ) الذي يرتبط بتلك المنطقة السهلية التي تقع فيها مدينة السليمانية.

أما المتسلم، فلم يكن لتهمه هذه الحركات الاستحواذية، فكان ينظر إلى الأحداث الجارية نظرة شخص أجنبي.لم يكن عمر خانه بيگ قد تعدى في هذه الآونة ستة عشر عاما، ولكن إحساس الحمية والغيرة قد سبق فيه العمر وغدا في غليان. ومع أنه كان مايزال صغير السن عندما قضى عمه نحبه، لكن روحا كبيرة كانت تخفق بين جنبات جسده الصغير. كان يدرك أن موت عمه ألقى على عاتقه مهمة كبيرة وثقيلة، ولكن صغر جسمه كان يخفي كبر روحه. ولذلك كان نفاذ أقواله غيرمتوازن مع سمو روحه بل دونه بكثير.

لو أن خانه بيگ كان يملك من النفوذ قدر ما كانت روحه وفكره ودماغه، لبدرت منه أعمال تفوق ماكان يمكن أن تظهر من جسارة أبيه وعمه معا، ولما غدا عاجزا أمام صولات أحمد خان الزنگنة، بل كان يتخذ له كثيرا من أمثال أحمد خان خدما على أعتاب قصر مجده وجلاله.

ولكن، ما الجدوى! فصغر جسمه كان يحول دون أن يقدِّر بنو قومه علوّ نفسه الفطري وعظمته الروحية لتغدو طاعته فريضة عليهم فيأتمروا بأمره. ولذلك فان الأحداث والوقائع الأليمة التي كانت تجري إنما كانت تؤثر فيه وحده، ولم يكن هو ليجد من يقاسمه همومه وآلامه. ولكن عندما هجم أحمد خان الزنگنه هجمته الأخيرة واجتاز جبل ژاژيله وبلغ نهر تانجرو، كان خانه بيگ قد بلغ السادسة عشرة من عمره، فلم يعد يرى نفسه في عجز الصبا. فقد كانت شجاعته الغضنفرية تنمو أكثر مما كان ينمو جسده، وهكذا فقد نفذ صبره ولم يعد في حالٍ منه يعينه على السكون إزاء الأوضاع والأحوال المزرية. وهكذا فقد بات لزاما عليه «أن يقتسم الخروق[١٦]» مع أحمد خان الزنگنه كيفما كان الأمر. ولكن هذا مالم يكن يتيسر له وهو وحده، فكان عليه أن يجد بأي حال من الأحوال قوة كبرت أم صغرت توآزره في ذلك. وللحصول على هذه القوة كان عليه أن يتوسل باتخاذ بعض التدابير المهمة والإجراءات الفعلية. فقد كان وجود قومه لايبدون أي احتمال لإطاعة أوامره ومساعدة حركاته ومحاولاته. ولم تكن الظروف الزمانية والمكانية قد أبقت لديه على بقية من إمكانات التأني والصبر، إذ كان أحمد خان سيحتل في حملته المقبلة، ولا ريب، قەلاچوالان نفسها ولايترك أي مجال آخر للدفاع. كان وجود الأسرة البابانية ينحدر نحو مهاوي العدم، ولذلك فقد كان خانه بيگ يريد أن يضمن لنفسه الأخذ بزمام المبادأة قبل أن يبدأ أحمد خان هجومه. وعلى هذا وفي سبيل أن يدرك تماما مايدور في مخيلة جماعته وينظف الطريق من كل ما فيها من أشواك التفرقة والنفاق، ودعا وفق ما رتبه في نفسه وجوه قومه للاجتماع. وعندما اجتمع أركان القوم وأكابرهم أخذ خانه بيگ يشرح الأوضاع معيدا إلى الأذهان فتوح آبائه وأجداده وأعمالهم البطولية. وواصل حديثه إلى أن بلغ في شروحه العصر الذي كانوا يعايشونه. وفي حديثه عن هذه الفترة شكا بإسهاب اعتداءات أحمد خان الزنگنه وأبدى آلامه ومراراته، وأضاف أن أحمد خان وإن كان رجلا خانثا بالعهود نهازا

(١٦) مثل لم نسمع به بين الأكراد، ولعله تركي، ويكنى به عن حسم الأمور- المترجمان.

للفرص، إلا أنه رجل، وإن شرط الرجولة والسمة التي يبلو بها الرجال رجولتهم أن يقضوا وطرهم من النساء. لقد كان أحمد خان يعلم في حينه أن هذه البلاد هي ميدان الرجال الفحول، ولذلك فلم يكن يقف عند حد عدم التفكير من أن يتجاسر علينا، بل كان يلبس في كل يوم لبوسا ويتخذ في كل يوم صورة لئلا ينظر إليه كما ينظر إلى النساء. كان يستجدي سلامته وحريته من رأفة هذه الأسرة ورحمتها حتى *إنه كان يأخذ على عاتقه أداء أحقر الخدمات بقصد استجلاب التفاتة منا فقط*، وكان يعتبر أداء تلك الخدمات شأنا له وشرفا وقد سمع مثل هذه الأقوال منهم بالذات. إلا أنه عندما رأى في الآونة الأخيرة هذه الديار وقد خلت من الرجال وأدرك أنه لم يبق فيها أبطال، أخذت أحاسيسه الشهوانية ورغباته النفسية تثور، وتغيرت نظراته السابقة المبنية على الاحترام والتقدير إلى نظرات الحرص والطمع، فغدا يتطلع إلى الأماكن التي أخذناها بحد سيوف الأجداد. وفي سبيل اختبار النجاح في طريق الحصول على المآرب المذكورة المبنية على الأطماع هاجم باديء ذي بدء قرەداغ. وإذ علم أن ليس في طريقه قوة تقتحم غروره وأطماعه استولى على قرەداغ وعلى (سەنگاو) كذلك. ومدّ يد الطمع إلى (بازيان) وشهرزور أيضا، وإذ لم يعترض سبيله عائق يستفزُّ فكره وغروره، أدخل تلك المناطق كذلك داخل جدران مطامعه.

لقد زاد من جسارته فراغ الميدان ورخاوة الناس، فتجرأ وتقدم شطر تانجرۆ أيضا. وهكذا غدا من الطبيعي أن يزحف اليوم أو غدا على قەلاچوالان كذلك، فيغدو حاكما على أولئك الناس وتلك الديار التي كان لهم ولها رقيقا منذ القديم.

ولئلا يبادر هو إلى جسارة من هذا القبيل، فإن علينا أن نتوسل بالوسائل الكفيلة بصرف نظره عن ذلك. وهذا يقتضي منا اختيار أحد سبيلين: فإما أن ننهض بوجهه ونفهمه أن قوما من الأبطال يمكن أن يأخذهم النوم ولكنهم لايموتون أبدا، أو يتخلى قومنا عن شرفه وكرامته فيتوسل كيفما كان بأحمد خان ليقبل بجبل ژاژيله حدا فاصلا بيننا. فأي السبيلين ترونه أقوم وأوفق لمصالحنا وأنسب لسلامة حالنا فلنتهيأ منذ اللحظة لانتهاجه. إنما عرض خانه بيگ هذا السبيل المهين الثاني ليكشف مناوئيه، ولم يكن يهدف من ورائه إلى شيء عدا المغالطة. كان يريد من خلاله أن يبدي كل واحد من الحضور رغباته ومنوياته بصراحة. وفي الحقيقة غدت هذه المغالطة سببا لأن يكشف له كل واحد من الحضور عن شخصيته بوضوح ويزيح الستار عن ماهيته بنفسه.

أخذ خدر آغا وصديق له لم يعرف اسمه يتحدثان بإسهاب عن الاتفاق معتبرين

المهادنة عملا حسنا وصالحا. أما بقية الآغوات فقد التزموا رأيا مخالفا لهذا الرأي ورأوا الصلح مع أحمد آغا ذلا بعينه والامتناع عن إبداء أي مقاومة، إظهار للعجز والمسكنّة أمام العدو، وذلك مالا ينتج عنه شيء سوى إثارة المزيد من أطماعه، فضلا عن أن الأعمال الاعتدائية للخان المذكور قد تجاوزت كل حدود الحلم والصبر وغدت تعني ضربا فوق العادة من الوقاحة، وذكروا أنهم إذا كانوا قد سكتوا عن هذه الاعتداءات حتى اللحظة، فما كان ذلك إلا بسبب إهمال المتسلم، ولم يكن لذلك أي دافع أساس وضع عن طريق المصادفة عقبة في طريق وحدتهم، وأبدوا رفضهم لقبول فكرة المصالحة. وإذا أدرك خانه بيگ أن أفكار أكثرية كبيرة من الحضور تطابق أفكاره، فرح لذلك فرحا شديدا وقدّر عاليا ما عبروا عنه من حيوية وغيرة وأضاف في هذا المجال امتنانه إلى سروره وبلغهم شكره الجزيل. أما خدر آغا وصديقه فقد طردهما من المجلس لما أبدياه من تنكر للشرف القومي وألح إلى رجاله المتهيئين لإنزال العقاب المستحق بهما، ثم وجه إلى الحضور البيانات الآتية:

إنكم تعلمون أن الوهن والأوهام تشكل جدارا من العجز يقف حائلا بين الإنسان والحركة والسعي وإحراز النجاح. إنها المرض المزمن الذي يسمونه كابوس الخيال. والظهور بمظهر المتعب أمام هذا المرض وإبداء العجز أمامه إنما هو الموت المعنوي. والموت المعنوي إسهام في انحطاط انعدام الشرف وفقدان الحمية وانفصام عن حياة الرجولة والشهامة. إننا إذا نظرنا إلى أعمال أجدادنا البطولية بعين البصيرة، رأينا أن هذه الحالة المبتذلة التي نعيشها حتى الآن والتي أخضعنا رقابنا لقيودها الاستعبادية، أخرجتنا عن أن نكون جديرين بالانتساب إلى أولئك الفاتحين الشجعان والأبطال الجسورين، ولاريب في أن أرواحهم تمطرنا باللعنات جرّاء مانحن فيه من ذلة ومسكنة.

الحياة محدودة. أما الاسم المقرون بالشهامة فمداه رحب. والانسلاخ عن تقاليد الأجداد والاسم المقرون بالشهامة في سبيل العيش أياما إضافية إنما هو موت تحت ستار الحياة.

ولكنَّ هناك بونا شاسعا بين هذا الموت والموت الحقيقي، ففي الموت الحقيقي احتمال للمغفرة في ظلال رحمة الله الواسعة، ولكن الموت تحت ستار الحياة إنما هو دينونة بالخزي الأبدي بين الألوف من عباد الله.

من المعلوم أن قوما تعودوا على الحرية لايقبلون أبدا أن يكونوا محكومين، وإذا قبلوه فإنهم لايستطيعون أبدا أن يبرهنوا على أنهم ولدوا من نطفة الحمية، فالحمية

مادة علوية فطرية ولايمكن لجوهرها المتحرك أبدا، بأي صورة من الصور، أن يفرض الرذائل على الإنسان ويجعله يقبلها ويخضع لها. إنني لن أصف هذا الامتنان الذي حصل لي الآن جراء حياة الحياة وبقاء الحميَّة فيكم، ولكن عندما يأتي يوم أتضرج فيه بدمي أمام أدنى فرد منكم في سبيل التعالي القومي، ستقتنعون بأني وفيت بالواجب الذي في عاتقي.

وفي تلك الأثناء جاءوا برأسي خدر آغا وصديقه وألقوهما بين أيدي الجماعة، فقال خانه بيگ صارفا سياق حديثه نحو هذا الشأن الجديد، ليتكم كنتم تعلمون بأي تصورات مدهشة كنت منشغلا قبل ساعة من الزمن، فقد كنت أظن أنه ليس كل الموجودين هنا، ولكن معظمهم يفكرون كما كان يفكر صاحبا هذين الرأسين. وعلى ذلك فما كنت لأترك موقعي ذليلا لأحمد خان، ولم أكن أستطيع أن أهضم أن يستولي هو على ديارنا ويحكمنا. وبناء على ذلك فقد كنت توصلت في نفسي إلى قرار قطعي، فإمَّا أن أصفي حسابي برجولة مع أحمد خان أو أذهب إلى حيث أجدادي شامخ الرأس ناصع الجبين. ولهذا السبب فقد كان عليّ أن أفعل بجميع مناوئي ما فعلت في هذا الوقت ووفق الخطة التي كنت قد وضعتها (وأشار إلى الرأسين المقطوعين)، لعلني أستطيع أن أجد في هذا الميدان قوة تستطيع أن تتصدى لأحمد خان. ولو لم أستطع الحصول عليها لكنت وضعت النهاية الحاسمة لحياتي الذليلة ولجأت إلى الانتحار دونما تردد.

أما الآن فإن بقائي على قيد الحياة إنما هو بفضل الأمل الذي أنعشته حميتكم أنتم. أجل إن الافتراضات المعتمة التي كانت تشغل قبل ساعة من الزمن ذهني وتفكيري، تحولت الآن إلى إحساسات عالية، وبدلا من تلك التصورات المدهشة التي زالت، توافر لديّ الأمل العالي بالنجاح. إن الغاية التي نتوخَّاها منذ الآن هي إما أن نعيش رجالا باستعادة عزَّتنا وكرامتنا أو أن نترك لأولادنا وأحفادنا الاسم المقرون بالمجد بعدم النكوص عن التضحية بالروح.

والواقع أن النجاح، وإن كان في الظاهر متوقفا على السعي، إلا أنه منوط في الحقيقة بحكم القدر. وكيفما نفذ القدر حكمه الأزلي فإن ابتسامة الظفر لاتبزغ إلا على شفاه المكافحين. فلنكافح ولنعطف نحونا بكفاحنا ابتسامة الظفر الذي كتبته الأقدار. ولاريب في أن التوفيق الصمداني لايترك مساعينا العادلة والمشروعة عقيمة. إن مايجدر بالملاحظة ما كان يفكر فيه قبل ساعة هذان السيدان تحت أثقال طول الأمل من

أفكار دنيوية ومنافع مقبلة، وكيف عبرا عن آرائهما المعاكسة وكيف أظهرا مخالفتهما.

واضح أنهما كانا قد رأيا سلامتهما وهناءهما في ما أدليا به من ملاحظات وقدرا مصالحهما الشخصية والحيوية في ذلك النوع من التفكير. إلا أن حكم القدر لم يترك المجال لنواياهما السيئة لتتحقق، فحاق بهما المكر السيء الذي مكراه، فما أضمراه من انتهاج طريق الخيانة بحق وطنهما وارتكاب الإهانة بحق قوميتهما، لم يكن من الآثام التي تعتبر عادية. ولاريب في أن التنكر للحقوق القومية ما كان ليبقى دونما تبعة أو حساب. وكل ما بذل بهذا القصد من محاولات شريرة كان من الطبيعي أن ينتهي إلى مصير مشؤوم. ولعل هذا المصير المشؤوم هو الذي حال دون تأجيل القضية، فأدى إلى التعجيل بتنفيذ جزاء الخيانة التي اقترفت بحق الشعب والوطن.

وخلاصة ما أريد قوله أن أحكام القدر حاسمة وسرعان ماتتحقق. إلا أن حسن النوايا والمضمرات الطيبة تتسبب في رفع أنواع المضار ومجابهة ضروب المشاكل الأساسية. ومن هنا فإن الوقائع والأحداث التي تجري اليوم وضعت أمام أبصارنا هذه العبر والحقائق المعنوية. وبناءً على ذلك فكلما تجاوزنا الآمال المتعلقة بمصالحنا الشخصية الفردية وفكرنا في خدمة المصالح القومية والاجتماعية، كنا في مأمن من الضربات المنهكة لاعوجاجات القدر، وقطعنا مراحل على طريق الوصول إلى الهدف.

إنكم جميعا تعرفون أي حياة ذليلة حيينا في عهد هذا المتسلم. حقا إن المغلوبية أمام العدو محنة كبرى على الإطلاق، لكنها إذا كانت أمام عدو تافه، كانت - إذا شئنا أن نقول الحقيقة- محنة مشفوعة بالذلة والمهانة، محنة لاتطاق أفليس الموت أفضل لنا بكثير من أن نقهر إزاء أحمد خان، ونحن الذين لم نكن نعير أي أهمية لدولة شديدة العريكة قوية الشكيمة كإيران، حتى كنا نحصر غزواتنا في أرضها؟

ومهما يكن من أمر، لم يكن لنا بد من أن نتعلم من كل ضروب صفحات الحياة دروسا في الاتعاظ والاعتبار، فالحياة التي لاتمر بتجارب يتعظ بها ويعتبر، لن تسلك الطريق القويم صوب التكامل، لاسيما إذا كانت تلك الحياة حياة قومية، فحينئذ تكتسب أهمية مضاعفة.

ما من شك في أن تقوية الروح وتعزيزها إنما تتوقف على ما يحدث لها من انتصارات ونكسات في الحياة. فما لم يحدث لها مثل هذه الانتصارات والنكسات ومالم تمرَّ بتجارب الحياة وأحداث الكون، فإنها لن تجد طريقا للتكامل والتعالي ولن

تكتسب القدرة على تلمس ذلك الطريق. فإذا كنا قد بدأنا الشطر الأول من حياتنا ونحن نعاني من أنواع العوارض والتحديات، كان ذلك لنا بمثابة نصب سلالم للارتقاء نحو التعالي والتكامل والعروج إلى القمة صعدا. وعلى هذا فإننا سنكون في حرز، بعون الله، من أن تصيبنا حالات الذل والهبوط. وإذا أصابتنا فإننا نكون بذلك قد كشفنا عن حرماننا من خصائص التيقظ والإحساس بالانتباه من خلال الدروس التي علمتنا إياها التجارب والعبر.

والآن فإن الأحداث والوقائع الطبيعية أرست لنا أساس وحدتنا وأزالت ما بيننا من أشواك الخلاف. وهذا آية نضج الأحداث التي مرت بنا. وعلى ذلك فإننا سنحاول، من دون أن نفرط بحبل روابطنا القومية المتين، أن نعالج جروح القلب ونتلافى الحطة المهينة التي أورثتنا إياها الظروف الطارئة الخاصة، فنسلك السبيل القويم، سبيل السعي لنيل شرف المقدرة على الانتزاع ونخوض المعمعة.

لتكن هنا خاتمة حديثنا، ولكن أرى لزاما عليّ أن أضيف أن وضعنا لم يعد يتحمل أي شكل من أشكال التسويف وأي مظهر من مظاهر الصبر والتأني، ذلك لأننا لسنا قادرين في حالتنا الراهنة التي تحيط بنا على مقاومة الهجمات المفاجئة التي قد يشنها علينا العدو، إذ أرى مشاعر الشجاعة القومية، وهي شيء أساس، ضعيفة خاملة. ولذلك فإني أرى من الضروري أن نبادر منذ هذه اللحظة إلى إزالة كل مايشلُّنا من خور وخمول إزاء هجمات العدو الفعلية والمحتملة، وأن نسارع لتحقيق هذه الغاية إلى التحرك. وعلى هذا فإنني سأتوجه بنفسي غدا مع المتواجدين في المركز وسأكون بانتظاركم في اليوم التالي في ژاژيله، فإنني أريد أن نباغت العدو بالإطباق عليه. أما أنتم فما عليكم إلا أن تتهيأوا كذلك بنشاط وفعالية منذ اللحظة وتكملوا استعداداتكم وتلتحقوا بي في الموعد المقرر.

لقد استغرب الآغوات مشاريع خانه بيگ الجريئة والقاطعة للغاية تمام الاستغراب. وإزاء إيضاحاته المعقولة والمنطقية التي أدلى بها، لم يبق أمامهم سبيل اخر إلا الاقتناع والتسليم، فأخذ كل واحد من الحضور يعود إلى موقعه للتحضير للمشاركة وإكمال الاستعدادات الضرورية لها. وفي اليوم التالي توجه خانه بيگ على رأس قوات المركز، فشن حملة مباغتة على قوات عشيرة زنگنه المعسكرة عند جبل ژاژيله، فقتل من قتل منهم ولاذ الباقون بالفرار، وأخذت القوات البابانية تصل وتنضم إلى خانه بيگ تباعا.

وإذ أدرك أحمد خان مايرمي إليه خانه بيگ من تعرضاته تصدى له، ولكنه فقد

القدرة على مواصلة المقاومة بعد معارك ومصادمات عدة، فولّى وجهه شطر هاوية الهزيمة، وضمت جميع الأراضي التي كانت بحوزة عشائر زنگنه إلى مناطق السيطرة البابانية. وهكذا أعطي لأحمد خان الأمان.

وإذ ذاق خانه بيگ لذة بواكير الفتح والظفر هذه، تضاعفت بسالته أضعاف ما كانت، فأخذ يصلح الآثار التخريبية التي تعرضت لها تلك الإمارة التي تأسست بسواعد شجاعة آبائه وأجداده وينظم شؤونها، فاستعادت بلاد البابانيين ثانية حياتها المتجددة.

كان خانه بيگ واقفا عن كثب على الآمال العظيمة التي طالما جاشت في صدر مير سليمان إزاء إيران وأردلان، فأخذ على عاتقه تحقيق مالم يحققها منها هو وإكمال مالم يكملها، فقد كان يرى أنه إذا ما استطاع أحد أنسالي الراحل أن يحقق آماله ونواياه التي ظلت بوفاته عقيمة وتعرضت لضربات الأقدار، فإن روحه ستُسرُّ بذلك في العوالم العلوية. وفيما كانت جلادة خانه بيگ وبسالته تتجاوز ماكان لأجداده من شجاعة، كان يرى في نفسه القدرة على اقتحام كل المعضلات التي يُظنّ أنها مستعصية.

كانت مطامح خانه بيگ في إيران ترتكز على مقاصد عدة:

أولا: توسيع رقعة إمارته.

ثانيا: التعصب الذي كان لدى الإيرانيين من وجهة الاختلافات المذهبية.

ثالثا: الأسباب المتعلقة بالأحداث التي أدت إلى هلاك مير سليمان.

هذه النقاط الأساسية الثلاث، يضاف إليها من جهة أخرى عقدة الخصومة التي حملها معه مير سليمان إلى القبر، كانت قد كونت لدى خانه بيگ نية جارفة في الكفاح ضد الإيرانيين، فعالج بحاذق فكره حالة الخَوَر والخمول التي ابتليت بها الحياة القومية منذ زمن، وأذكى بإكسير شجاعته روح تلك الحياة.

وما إن قضى على التخريبات الداخلية حتى زحف في عام ١١٣٤هـ (١٧٢١م-١٧٢٢م) على أردلان. وبعد حروب ومعارك استمرت طويلا لم يبق للوالي الإيراني على أردلان الذي لم نتمكن من معرفة اسمه طاقة الصمود فهرب من ساحة الوغى ودخل خانه بيگ مدينة سنه التي كانت مركز الإيالة، وأضاف منطقة أردلان إلى ممالكه ومتصرفاته واتخذ من مدينة سنه مركزا له، كما سلم إدارة قهلاچوالان إلى أخيه خالد بيگ.

وفي عام ١١٣٦هـ (١٧٢٣م-١٧٢٤م) أعلن والي بغداد، أحمد پاشا الحرب على

إيران. وضمن التعبئة العامة التي قام بها لمحاربة الإيرانيين وجه الدعوة إلى خانه بيگ أيضا[١٧]، فلبى هذه الدعوة مسرورا من أعماق القلب نظرا للاعتبارات الدينية والمنافع القومية وانطلاقا من نواياه الخاصة، وقصد الانتقام الذي كان يضمره في قلبه للإيرانيين، فالتحق بالجيوش العراقية المقاتلة على رأس قوة مؤلفة من ألف خيَّال. وتوجهت القوة العراقية المحاربة شطر كرمانشاهان، وكان خالد بيگ يتولى على رأس قواته قطاع الاستطلاع آخذا بذلك مسؤولياته على عاتقه. ومع أن كرمانشاهان استسلمت دونما مقاومة، إلا أن همدان أبدت طيشا ورعونة لأن الإيرانيين كانوا قد أعدوا مستلزمات الدفاع عن المدينة وحصنوها وقرروا المقاومة. ولذلك لم يتمكن العراقيون من احتلالها رغم الهجمات المتكررة التي كانوا يشنونها عليها، فاضطر خانه بيگ أن يختار سبيل حمل المدافعين على طلب الأمان عن طريق تطويق المدينة وحبس المتحصنين داخلها باعتبار ذلك أسلوباً أكثر إنسانية. استمرت المحاصرة أياما وأسابيع كانت الاصطدامات اليومية خلالها مستمرة. وكلما حاول الإيرانيون فك الحصار والخروج عن الطوق المضروب حولهم اصطدموا بهجمات القوات العراقية واضطروا للعودة إلى داخل تحصيناتهم مثقلين بالضحايا الدامية. استمرت الحال على هذا المنوال عشرين يوما، لم يصل خلالها أي إمدادات من أي جهة للمدافعين عن المدينة، ولم يحصلوا من دفاعهم من الداخل كذلك على أي نتيجة، بل على العكس كانت خسائرهم تزداد يوما بعد آخر سواء من محاولاتهم اليائسة للخروج والهروب أو بسبب ضنك العيش الذي كانوا يعانون منه لنفاد أرزاقهم في الداخل. ولذلك لم يبق أمامهم حل يلجأون إليه إلا التفكير في كيفية الخلاص بأنفسهم والخروج بسلام. وهكذا استطاعوا أن يجدوا في إحدى الليالي فرصة ما لإخلاء المدينة واقتحام ظلام الهزيمة والهروب. وفي صباح اليوم التالي دخلت القوات العراقية همدان.

وبعد أن تم احتلال المدينة على النحو الآنف الذكر، أدخل أحمد باشا الولايتين (كرمانشاهان وهمدان) ضمن المناطق التي يحكمها، ولم ير ضرورة للتقدم أكثر من ذلك مكتفيا بأن ألحق تلكما الولايتين بالعراق، ثم أصدر أوامره بإقامة المؤسسات المدنية والعسكرية فيهما واتخاذ مايلزم للدفاع عنهما إن اقتضى الأمر وعاد بنفسه إلى بغداد.

---

(١٧) ولكن ليس للاستمداد منه فقط بل لهذا الأمر وما كان يبيِّته له من نوايا أخرى.

وتقديراً للخدمات البطولية المشكورة التي قدمها خانه بيگ في هذا المضمار، خلع عليه الوالي بقفطان ثمين إضافة إلى إنعامه عليه بلقب الباشا.

وعاد خانه بيگ كذلك على رأس فرسانه محفوفا بأكاليل الغار، وبصحبته أخواه خالد بيگ وفرهاد، فخلفهما في قهلاچوالان وواصل بنفسه سيره إلى مدينة سنه.

وفي عام ١١٣٩هـ (١٧٢٦م-١٧٢٧م) عزل خانه بيگ أخاه خالد بيگ من إمارة قهلاچوالان ونصب مكانه أخاه الأصغر فرهاد. وبعد أن توفِّي هذا في عام ١١٤١هـ (١٧٢٨م-١٧٢٩م) عين خالد بيگ ثانية حاكما على قهلاچوالان من قبل أخيه خانه بيگ. وفي عام ١١٤٣هـ أرسل التعيس طهماسب شاه آخر شاهات الأسرة الصَّفويَّة نادر الأفشاري الحائز على لقب (اعتماد الدولة) على رأس قوة كافية لاسترداد ولايتي همدان وكرمانشاهان.

كان نادر، وهو رجل عادي، من قبيلة الأفشار(*) إلا أنه ذو عقل ودراية وشجاعة، قد دخل في عداد أعاظم الرجال الإيرانيين، مستغلا الأوضاع العامة وغفلة الشاه عن متابعة الأمور حتى وصل أخيرا أرقى المراتب العالية فغدا من حاشية الشاه. وبمقدار ماكان نادر هذا شجاعا، كان كذلك مغرورا وباحثا عن الجاه، كما كان عنودا وحقودا، لايتورع عن ارتكاب أي شيء ولا يؤثر فيه أي شيء ولايتألم لأي شيء. فمن وقع بين يديه ألحق به ماشاء من الأذى والأضرار لقسوته وهمجيَّته، من دون أن يلتفت في ذلك إلى مقتضيات الزمان والمكان، حتى إنه أخذ يطمع في عرش شاهه الذي أطعمه من جوع وأكسبه الجاه والشأن ومنحه الشرف الرفيع، ذلك لأن الشاه كان قد غرق في لجة السفاهة حتى أعماق السفالة، وبات في حالة لايميز فيها بين الغث والثمين. ولم يكن له من يخلفه من بعده إلا طفل رضيع في الأسابيع الأولى من عمره، ولذلك فقد غدا عرشه وتاجه محط أنظار نادر الأفشاري فكان يرى مفتاح النجاح في تحقيق مطامعه في القضاء على الشاه طهماسب، وكان ذلك يتوقف على أن يدخل صميم سرائره وأموره الخاصة. وهكذا استطاع بأضاليله وخدعه وأحابيله أن يسيطر على مقدرات الشاه وقوة الإرادة فيه.

(*) يعتبره الباحثون الاتراك كردياً نزحت أسرته من مدينة «كلات» قرب آمد(؟). راجع كتاب المرحوم د.محمود الجليلي، عن الجليليين وهو مازال مخطوطاً، حيث ترجمت له رسالة عن نادر شاه، تذكر بصراحة أنه كردي الأصل، هاجرت أسرته من «كلات» قرب آمد ... شكور مصطفى.

لم يكن الشاه طهماسب السيء الحظ يدرك حقيقة من قدر له أن ينهي حياته ويستأصل أولاده وأحفاده ويقضي على تاجه وعرشه وسلطنته، بل على العكس كان يتصور كل ماكان تسوله له نفس نادر من أجل نيل المنزلة والجاه وعلو الشأن ونشر الضجيج والدعاوات حوله ضربا من ضروب الشَّطارة والذكاء والبراعة؛ ولذلك سرعان ماكان يوافق دائما على أي تدبير يتخذه نادر، ويفسر كل ملاحظة وإبداء وجهة نظر منه على أنها آية الإخلاص والصداقة. إلا أن نادراً الأفشاري ماكان ليبلغ آماله ونواياه بمجرد نيل ثقة الشاه وصيرورته موضع اعتماده، وإنما كان يفتقر كذلك إلى الحصول على تأييد الجيش وعليَّة القوم. ولذلك فقد أثار موضوع استرداد همدان وكرمانشاهان وأقنع الشاه بالتحرك لتحقيق هذه الغاية. لم يكن هذا الموضوع عديم الأهمية في ظاهر الحال من وجهة النظر الوطنية، بل كانت مهمة اجتماعية ملقاة على عاتق الحكومة والشعب يرتاح لها الجميع، وانطلاقاً من ذلك فقد تم إعداد الوسائل العسكرية وهيأت مستلزمات التوجه نحو ساحة المعركة. وكان نادر نفسه هو الذي تولى قيادة الجيش وأخذ على عاتقه استرداد المناطق المحتلة. كانت مساعي نادر في هذا المضمار وما أثير حولها من تطبيل وتزمير، نضالاً وطنياً في الظاهر، أما محتواها الحقيقي فلم يكن كذلك بالطبع؛ إذ كان نادر يريد في واقع الأمر أن يثير أحاسيس أفراد الجيش ويستميلهم إليه ويكسب ود أمرائهم وأركانهم.أجل، إنه كان يريد من وراء حرب من هذا القبيل أن يكسب ثقة الشاه ومحبته ضعفين، ويتصل في الوقت نفسه بأفراد الجيش الإيراني مباشرة ويتعرفهم عن كثب ويستأنس بأمزجتهم الشخصية من خلال تفحصه مشاعرهم وميولهم النفسية. ولتحقيق هذه الغايات، فقد ساق الجيش بإمرته نحو الجهة المطلوبة، من دون أن يسد بوجهه أبواب الظفر من خلال إتاحة الفرصة للعدو للاستعداد للرد، بادر إلى تحريك قواته وأطبق على همدان على حين غرَّة وطوقها. ومع أن والي همدان وقائد حاميتها العسكرية أصابتهما الحيرة إزاء هذه الأحداث غير المتوقعة، فإنهما لم يتوانيا عن الدفاع والاستعداد لمقابلة المهاجمين، إلا أنهما لم يستطيعا إعداد أي وسيلة لصدِّهم، فما كانا ليتصورا قبل ذلك أن القوات العثمانية في المدينة ستتعرض لهجوم مباغت مثل ماتعرضت له. ولذلك فقد فكرا في الأمر وتوصلا إلى التَّيقُّن من أنه لايمكن القيام بعمل شيء إزاء قوات العدو التي تفوق مالديهما من قوة أضعافا مضاعفة. ولذلك فإنهما لايقدران على الحفاظ على المدينة، فاضطُرَّا في النهاية إلى التراجع وإخلاء همدان، كما تعرضت كرمانشاهان كذلك على

هذا النحو إلى استيلاء قوات نادر الأفشاري عليها.

وإذ وصل الأخبار إلى الباب العالي أنَّ الإيرانيين نقضوا العهد وأخذوا يتعرضون إلى القوات العثمانية وأنهم استعادوا همدان وكرمانشاهان، صدرت الأوامر إلى الوزيرين مصطفى باشا والي دياربكر، وحسين باشا، والي سيواس وإلى كل من أمير الأمراء إبراهيم باشا متصرف مَرْعَش وسليم باشا، متصرف كنغري، وحسين باشا الجليلي، متصرف الموصل بالتوجه تحت قيادة أحمد باشا بن حسن باشا والي بغداد لصدْ الإيرانيين والتنكيل بهم، فأخذ الوالي أحمد باشا بدوره يحشِّد الجيوش من مختلف المناطق العراقية واستنهض ضمن ذلك خانه باشا، للاشتراك، فتوجه هذا إلى بغداد مع من كان لديه من قوات مستجيبا للنداء الموجَّه إليه.

وهكذا أخذت القوات المنظمة تصل بغداد تباعاً وتحتشد فيها، فسار الوالي المذكور مستعينا بتوفيقه تعالى نحو كرمانشاهان. وإذ وصلت جميع القوات المشتركة لأولئك القادة إلى شهرزور بلغها نعيُّ السلطان أحمد باشا الثالث وتولي السلطان محمود خان الأول عرش السلطنة، فأدى ذلك إلى تأخير تحرك القوات التي اضطرت للانتظار لمعرفة رأي السلطان الجديد الفتيِّ بهذا الشأن وتسلُّم أوامره.

طالت مدة الانتظار ثلاثة شهور، ثم تبين أن الإرادة السلطانية إنما تدور في دائرة الإجراءات المتخذة من قبل، وأن هذه الإجراءات مقرونة برضاه واستحسانه. وهكذا فقد بدأت القوات العثمانية المنظمة بالتحرك نحو كرمانشاهان واستقبلت من أهالي المدينة وأشرافها وأعيانها الذين جددوا ولاءهم وبيان عبوديتهم وإطاعتهم.وبعد أن نالت القوات العثمانية قسطا من الراحة خلال أيام عدة في كرمانشاهان، توجهت نحو همدان. وكان خانه باشا، شأنه في المرة السابقة، يتولَّى قيادة مقدمة الجيش. ورغم وقوع بعض المصادمات في طريقه أحيانا، فإن الغلبة كانت له في نهاية الأمر وهو الذي رفع راية النصر. ولكن همدان، على العكس من كرمانشاهان ذات الميول والمظاهر الدينية، لم تتأخر عن إعلان المجابهة، فأغلقت أبواب سورها وتحصن المدافعون عنها في قلاعهم.وكان الشاه طهماسب قد نصب خيامه على مسافة ثلاثة فراسخ قبالة همدان على رأس مئات الألوف من القوات المحتشدة، فأخذ القادة العثمانيون يناقشون فيما بينهم ما إذا كانوا يهاجمون قوات الشاه طهماسب بغية تدميرها والاستيلاء عليها أو يحاصرون همدان، واستقر رأيهم في آخر الأمر على الهجوم مباشرة على قوات الشاه طهماسب المحتشدة باعتبار أنها القوات الأصلية في المعركة ورجحوا ذلك على قضاء

الوقت في محاصرة همدان وترك الحرية للشاه طهماسب وقواته يفعلون مايشاؤون. ولذلك أخذت سرايا الاستطلاع وقوات خانه باشا التي كانت تشكل مقدمة الجيش، تتعرض منذ صباح اليوم التالي لقوات الشاه طهماسب، وكان على خانه باشا أن يقطع مسافة ثلاث ساعات أخرى قبل أن يصل إلى مقر الشاه طهماسب عندما اصطدم بوحدة عسكرية إيرانية شدية البأس كانت هي الأخرى مكلفة بمهام مقدمة الجيش. ففجأة رأى نفسه وجها لوجه أمام هذه الوحدة، فهاجمها بجنوده من دون أي اكتراث وكانت النتيجة أن قتل أكثر من نصف أفرادها وماتبقى منهم من دون أن يتعرضوا لحد سيوف المهاجمين ولم يكن بقي لهم من حول ولا قوة، فانهزموا وانتشروا في كل حدب وصوب مولِّين الأدبار. وعندما وصلت القوات العثمانية الأصلية صباح اليوم الثالث اشتبكت بالقوات الإيرانية في معركة حامية الوطيس استمرت ثلاثة أيام بلياليها، دحر الإيرانيون خلالها واضطروا للرجوع إلى الوراء تاركين في ساحة الوغى آلافاً من جثث قتلاهم، وكان من حظ ماتبقى من القوات الإيرانية أن يتشتت أفرادها هنا وهناك شذَرَ مذَرَ، وهرب الشاه طهماسب بنفسه بصحبة خمسمائة من خاصة أتباعه نحو قزوين، حتى إنهم بسبب من الذعر الشديد الذي انتابهم وخوفهم على حياتهم وحرصهم على المحافظة عليها، خلعوا ملابسهم الرئيسة لئلا يثقل عليهم حملها فتعيقهم عن الهروب. وهكذا بقيت التجهيزات الحربيَّة والأرزاق والمؤن المخصصة لمئات الألوف من الفرسان الإيرانيين في أماكنها وغدت غنائم من نصيب العثمانيين الشجعان. وعادت الوحدات العثمانية التي أرسلت لمطاردة الأعداء، وقدمت كل وحدة قائمة ضحاياها على حدة، وكانت نتيجة الحساب والتدقيق أن القوات العثمانية خسرت خمس مئة وخمسين قتيلا مقابل خمسة آلاف ضحية وقعت في صفوف الأعداء، فزادت الفرصة التي عمت القلوب بمعرفة هذه النتائج عما غمرتها من قبل بفتح همدان.

وبعد أن تم إزالة شرور الحرب وضمان الاستقرار الضروري، حان وقت المكافأة والإنعام فنال كلٌّ جزاء خدماته.

ولما تحقق في نظر أحمد باشا بالذات مما كسبه خانه باشا من مجد رفيع في اقتحام صعابَ الحرب، فقد أدخل البهجة في قلبه بالإنعام عليه بالقفطان والسيف. ولكن ماذا كان في ذلك من جدوى؟ فالخدمات والتضحيات التي قدمها خانه باشا منذ البداءة وحتى تلك الأيام، أدت كلها في النهاية إلى هلاكه وموته. أجل لقد غدا المومأ إليه هدفا لمنافسات المقربين من الوالي، فأخذوا يشيعون عنه الأقاويل وينشرون ضده

الدعايات ويبثون بشأنه الوشايات والأحابيل وينسبون إليه النوايا الشريرة قائلين: مادام هو يطمع في الاستيلاء على العراق، ونيته هذه بادية للعيان، فمن الأفضل الإيقاع به والانتقام منه منذ الآن وهو مايزال بين أيدينا، وقد وقع في الفخ بوجوده بين ظَهْرانَيْنا، فالتغافل في هذا المجال والتسامح إزاءه إنما يعني أن نضع في يده السلاح الذي يضمن له الظفر بتحقيق نواياه التي يضمرها. وإذا كان الأمر كذلك، فلا حاجة لترك الأمور حتى تنزل على رؤوسنا المصائب فتقع الحروب وتكون عاقبتها الهزيمة، ولنسلم إليه بغداد منذ الآن. وهكذا نشر هؤلاء أنواع السِّعايات والوشايات من هذا النمط ودبروا له من المكائد ما استطاعوا، حتى صار الوالي من جراء الشكوك والأوهام والتصورات، قائلا في نفسه إنه لمن الدلائل المهمة على الغفلة أن يفسح والٍ ما، المجال في محيط ولايته لنشوء ركائز ودعائم تساعد على رجحان احتمال التغلب على نفوذه هو، فكان يرى نفسه مقصرا ومستحقا للعتاب على مابدر منه في هذا الباب من غفلة. وكلما كان يستعيد في ذاكرته في هذا المضمار ماضي خانه باشا وماجرى له، كان يفترق أكثر من ذي قبل من وشايات ذوي النوايا الشريرة ومكائدهم التي دبروها له.

فعلى سبيل المثال أن خانه باشا كان يبدو في صورة متدنية لامبالية. فما كان ليحضر مجلس الوالي إلا بعد رجاء وتوسل، وكان يبدي في كل أمر ترفعا وعزة نفس، وكان مثل هذا التصرف من بيگ يتولى أمر أحد السناجق ويتبع ولاية أحد الولاة إزاء واليه، غير منسجم مع آداب اللياقة وحسن النية من جهة، كما يدل على عدم الاحترام بل على الغرور والأنانية، إن شئنا قول الحقيقة من جهة أخرى. فالتابع الذي تبدو عليه أمارات الغرور والكبرياء اليوم، لايتوانى عن التمرد غدا من دون ريب.

فكانت هذه النقاط وهذه الملاحظات تتعاقب في آن واحد على ذهن الوالي مسببة له الانفعالات النفسية، في حين أنها لم تكن في حقيقة الأمر أكثر من خلل يصيب الفكر بسبب من نوبات الأوهام التي تعتري المرء. ومع أن خانه باشا كان مجبولا بالفطرة على عظمة روحية، فإن حرصه على عزة نفسه لم يكن بأي حال يدل على استغنائه وعدم اكتراثه تجاه من هو أعلى منه مرتبة. فالوقار الفطري والحياء الذاتي والاحتراز عن التملق والمداجاة لايعني الاستعلاء والاستكبار، والفضائل الخلقية التي تصون للمرء جديته، لايتوقع منها السوء أبدا، فالجدية في الخلق والاستقامة في الرأي والثبات عليه أمران توأمان. ومن كان واقفا على فلسفة الحياة سابرا أغوارها، فلن يكون بمنأى وحسب عن اتهام خانه باشا بتلك التهم غير المقبولة التي نسبت إليه، بل إنما ينظر إليه

على العكس بعين التقدير والاعتبار أكثر ممن لم يكن واقفا عليها ضعفين.

ولكن ما الفائدة في كل ذلك؟ فالوالي أحمد باشا، وإن كان وزيرا لائقا، إلا أنه كان يفتقد المزايا الأساس للفضائل الخلقية. كان يعوزه الوجدان الذي يقدر خدمات خانه باشا التي أبداها في الحرب الإيرانية ولم يكن بمكنته أن يقوِّم المصالح الاجتماعية التي يستطيع تأمينها رجال عظام من أمثال هذا الرجل ؛ لذلك فقد تورط في سعايات الساعين ووشايات الواشين وإفسادات المفسدين وصمم على إزهاق روح خانه باشا وقتله من دون وجه حق.

لقد ارتكب أحمد باشا خطأ جسيما في واقع الأمر بما فعله، وما كانت الأضرار التي نجمت عن الخطأ الذي ارتكبه لتنحصر في شخصه فقط، فالأخطاء التي تصدر عن كبار الرجال تتسع دائرة آثارها وعواقبها السيئة، وأساس السيئات التي حدثت فيما بعد إنما يرتكز – كمايبدو في الصفحات الآتية – على ذلك الخطأ الإداري الذي اقترفه أحمد باشا.

من البدهيِّ أنه يتحتم على كل مسؤول حكومي مكلف بخدمة الهيئة الاجتماعية، اعتبارا من المراتب العليا وحتى المراتب الدنيا، أن يكون حائزا على قدر من المعلومات الإدارية والسياسية يتفق مع درجة الخدمة المكلف بها. فالمصالح الحيوية للأمة مرهونة بالمستوى الإداري لدى المسؤولين ومدى وعيهم. وكل مسؤول مكلف بتأمين أسباب النجاح حاضرا ومستقبلا والتفكر في ذلك. والسياسة إنما هي مراعاة الخصوصيات التي تخدم المصالح الراهنة والنجاحات الآتية، أي إنها عبارة عن الاسترشاد بالعقل لاتخاذ التدابير التي تسهل حل المشاكل التي تعترض المصالح الحالية وتوفر الوسائل التي تضمن إزالة العوائق المحتملة التي تقف بوجه تحقيق المصالح المستقبلية، قبل الأوان. ومع ذلك، فمن الخطأ الإخلال بالمصالح المستقبلية بالانصياع لفكرة الحرص على المصالح الحالية. فالتدبر في العواقب يشكل أس الأساس في السياسة. وعلى ذلك يجب النظر دائما إلى أمام وإبصار الأخطاء التي تتراءى من بعيد قبل اقترابها وإدراكها واستيعابها. إن إهمال الوالي التفكير[١٨] فيما يحول دون الغوائل التي لم يكن هو نفسه غافلا عن أن إيران ستوقعها بالدولة العثمانية، وحصره ذهنَه فيما كان

(١٨) من الأصل: إن تفكير الوالي ... الخ، وقد لاحظنا أن ذلك لاينسجم مع ما يأتي فيما بعد من قوله «وحصره ذهنه ... الخ» فاستقر رأينا على أن خطأ وقع فيه عند الاستنساخ – المترجمان.

يلقيه من روعة هذا وذاك من تسويل وتحبيذ وتزيين، ذاهلا عن المهمة السياسية التي كان لابد من أن يلاحظها لإعداد مستلزمات الدفاع عنها وضمان تحقيق أهدافها، كل ذلك يعني أنه لم يستطع أن ينجز تحقيق المصالح الاجتماعية التي كان مدينا بها، ولم يكن يملك في حد ذاته الحد الأدنى من الفكر السياسي.

من البيِّن أن تقديم الأهم على المهم قاعدة منطقية ولاريب، وحتى في حالة افتراض وتقدير صواب توقع الضرر من خانه باشا، كان بالإمكان أن يصار إلى التأنِّي في الإقدام على ما أقدم عليه بالنظر إلى أن إيران لم تكن لتتخلف بحال في إحداث الغوائل المتوقعة، ولاسيما أن صفوة آمال الموما إليه ومطمح نظره كانا معطوفين على إيران، عدوة الدولة العثمانية. أما أن يذهب سوء ضحية تفسير ماكان يستدعيه وضعه وخلقه النبيل من اعتزاز بالنفس، بدلا من أن يقابل بما يليق وشأنه وشرفه من التلطيفات المشرفة بسبب من كونه البطل الوحيد في فتوح إيران والعامل الفريد في إحراز الانتصارات التي تمت في تلك الفتوح، ويستفاد منه لأداء المزيد من هذه الخدمات الجلَّي وتحقيق الكثير من تلك النتائج المثلى، فذلك مثلما كان بادي عقاب معنى، كان كذلك مدعاة عتاب مادَّةً.

في الواقع لم يمض وقت طويل على ماجرى حتى آذنت العواقب المشؤومة لعقوبته المعنوية بظهور طلائعها. أجل لقد وضع نادر شاه الأفشاري يده، في السنة الحولية الثالثة، على عرش الشاه طهماسب نتيجة حركاته ومحاولاته الاحتيالية.

لقد وقع نادر منذ أول أمره في أحلام تجربة حظه كشاه في مقارعة الدولة العثمانية. وبعد أن استرد كلاً من كرمانشاهان وهمدان، سار لمحاصرة بغداد وأطبق عليها، وبقي أحمد باشا في المحاصرة عدة أشهر وهو الذي كان قد قاد القوة التي أصابت الجيش الإيراني بالاضمحلال والدمار وأجبرت الشاه طهماسب على التضرع إليه والتوسل به، فهلك ثلثا سكان المدينة بسبب من ضائقة العيش ومافتكت بهم من أمراض المجاعة، ذلك لأنه كان قد خسر كردستان فحرم من تحقيق ماكان يصبو إليه تجاه إيران، وهكذا فإن السياسة التي انتهجها لم تثمر سوى هذه النتيجة، إلا أن المسألة لم تكن عبارة عن هذا فقط، وإنما كان الأساس الفاسد لهذه الإساءات التي سنتناولها بالتفصيل قريبا هو السبب الرئيس الذي أفضى إلى توالي الغوائل والمتاعب.

وبسبب من انتساب المشار إليه (أي خانه باشا) إلى المرحوم الشيخ إسماعيل العبد (العبدالاني) وهو من أعاظم المشايخ، فقد ووري جثمانه التراب إلى جانب ضريحه

هو. وقد استمرت حكومة ابنه في سنندج إلى أن استولى نادر شاه على الحكم في البلاد الإيرانية. وعندما حمل على بغداد اضطُرَّ هذا إلى ترك المدينة.

حكومة خالد باشا

بعد رحيل خانه باشا المفجع آلت رئاسة حكومة بابان في قهلاچوالان إلى أخيه خالد بيگ. ولما كان المشار اليه الغصن الأريب والنجل النجيب لأسرة الشجاعة والبسالة، فقد كان متصفا بكل الفضائل الخلقية.

وعلى الرغم من حدوث بعض المنازعات عقب استشهاد خانه باشا، إلا أن الأمور أعيدت إلى نصابها وتمت السيطرة على النظام والأمن دونما تلكُّؤ.

وعندما بدأ نادر شاه بالتعرض إلى حدود الدولة العثمانية طلب أحمد باشا من خالد باشا أن يعاونه، إلا أن خالد باشا أجابه بأن موقعه ممر لعبور جيوش نادر شاه ولايسعه الفَكاك منه، وتعلَّل باتخاذ التدابير للمحافظة على موقعه من مشاكل السطوة النادرية.

وعندما توجه لطفعلي بيگ نائب الحكومة في تبريز على رأس القوات الآذربايجانية نحو قهلاچوالان، توقف بقواته في سَرْدَشْت متخذا موقع الدفاع استنادا إلى التقارير التي وردته من عيونه استعدادا لصد التعرضات المخبر عنها.

وإذ علم لطفعلي بيگ أن خالد باشا يستعد لمقابلته والقيام بوجهه بالأعمال المعادية، أرسل إليه رسالة ينبئه فيها بأنه لايضمر أي نوايا سيئة لحكومة قهلاچوالان ولايقصد الخصومة معها، وإنما يريد فقط أن يلتحق بنادر شاه، وأنه ليس أكثر من عابر سبيل يتوجه نحو بغداد، وإذا أراد خالد باشا الاشتراك بنفسه في السفر إلى هناك، فسيكون مظهر ألطافه وإنعامه. كان خالد باشا رجلا رقيقا، ذا صلابة دينية وعظمة وجدانية، وهو وإن كان متألما من الكيفية التي أعدم بها أخوه، وفي قلبه غَصَّة من ذلك، إلا أنه رأى، بالرغم من ذلك، الإعراض عن مقام الخلافة بالمشاركة في معاداتها عملا غير منسجم مع الصلابة الدينية والتديُّن السليم. وعلى ذلك فقد ذكر في الرسالة الجوابية التي بعث بها إلى لطفعلي بيگ الآنف الذكر أنه مسلم ومن أهل السنة، ولذلك فإنه يرفض الاشتراك في البدع السيئة التي تؤدي إلى الكفر كالتمرد ضد الدولة

الإسلامية والاتفاق مع المذاهب الخارجة المعادية وإراقة دماء الإخوة في الدين، وسيضحِّي بآخر قطرة من دمه من أجل عدم فسح المجال لأعداء الإسلام بأن يمروا من أراضيه ؛ ولذلك فإنَّه بغية الحفاظ على حياده هو، يجب على لطفعلي خان أن يختار له طريقا آخر للمرور. وهكذا اضطر الموما إليه لتغيير اتجاهه وتبديل مساره المستقيم.

عندما مر نادر شاه من شهرزور إلى بغداد، كان سليم بيگ بن بكر بيگ يتولى الأمر في تلك المنطقة. وإذ لاحظ أن ليس بمقدوره الحيلولة دون مرور قوات نادر شاه عبر أراضي منطقته، وأن هذه القوات تمر من خلال الأراضي البابانية بيسر، وهو لايملك من القوة مايحول دون مرورها، تألم كثيرا. ومع ذلك فقد أراد أن يفهم البابانيون أنهم ليسوا في وضع يجعلهم يؤثرون الذلة والمسكنة إزاء جيش زاحف كجيشه ويخفون أنفسهم هنا وهناك. وبناء على ذلك فعليهم أن يوجهوا ضربة في الأقل إلى مؤخرة الجيش الإيراني المحملة بالأثقال الخاصة بنادر شاه نفسه لإثبات وجودهم، وقد هاجموها بالفعل وقتلوا بعضا من حاميتها واضطر البعض الآخر منهم للهروب واستولوا على أثقال المؤخرة وغنموها.

وعلم نادر شاه بماجرى، وكان يحرص على انتهاج سياسة لاتستفز الكرد بل يوقع بينهم الخلاف والشقاق مهما أمكن ذلك وتثير بعضهم ضد بعض ليحول دون ان يقدموا مساعداتهم إلى والي بغداد. وعلى ذلك فقد أرسل رسالة إلى سليم بيگ ذكر فيها أنه يقدر فيه عدم تردده في التعرض للجيش الإيراني القهار الذي يرفع راية العظمة للموكب الشاهاني واستيلاءه على أثقال هذا الموكب وإقدامه على العمل المتجاسر بقتل حاميتها، وطالبه بإعادة الأثقال المنهوبة، كما ذكر أنه يرغب في إظهار لطفه وحبه إزاء رجال شجعان من أمثاله، وبناءً على ذلك فإنه يود أن يلتقيه شخصيا. فإذا كان سليم بيگ موافقا على هذا العرض، فإنه سيستضيفه في مقره الخاص. وهكذا دعا نادر شاه سليم بيگ إليه.

ولم يُبدِ سليم بيگ أي تردد إزاء الرهبة التي قد يتسبب فيها العمل الجسور الذي أقدم عليه ضد أمجاد شاه قاسي القلب كنادر شاه، فلبَّى الدعوة دونما وجل.

وعندما التقى الرجلان وجها لوجه، قال نادر شاه مخاطبا سليم بيگ:

– ما الذي جعلك تتجاسر بالرغم من مهابتي وسطوتي التي تهتز أمامها الأراضي والجبال، فتعرضت لموكبي وقتلت حراسه؟

– أيها الشاه! إن طبيعة الناس في هذه الأطراف والأكناف أنهم رجال. ومن سمات

الرجال الفطرية الجسارة والمهابة. والمتانة الفطرية خالصة من الوهن والخلل، وإنكم إذ مررتم بهذه الديار كنتم تأخذون بنظر الاعتبار وجود الحكومة البابانية بالذات فيها. ولو لم يكن ذلك محطَّ أنظاركم الشاهانية، لكانت في نظر ملوكيتكم بمثابة منطقة عارية عن الأهمية. ولذلك ومن أجل أن أكشف أمام بصركم الشاهاني مُفاد تلك الحقيقة اللَّدنِيَّة التي تحويها حكمة المرحوم سعدي الشيرازي القائلة:

لاتظنن أي غابة خالية
فلربما كان هناك نمر نائم
وجدت نفسي مضطراً لإظهار تلك الجسارة.

– مادمتم تفتقدون قدرا من البصيرة والتفكر يجعلكم تدركون النتائج الوخيمة التي تنجم عن هذه الجسارة، بل هذا الجنون، فكيف تستطيعون الحفاظ على ذلك الوجود الذي أشرت إليه بحفنة من الكرد ؟

– إن الحفاظ على الوجود، أيها الشاه، ليس بالكثرة والعنصرية، إنما يكمن في العزيمة والمتانة المستندتين إلى توفيق الله سبحانه وتعالى. إن أجدادنا لم يخلفونا من بعدهم لنجعل الحكومة التي أنشأؤها بشجاعتهم فداءً لوهننا وخيانتنا، بل على العكس فإن كل واحد منا سيضحي بدمه في سبيلها. لقد خَلَفَنا أجدادنا من بعدهم لنوسِّع ملكهم ونحافظ على عُمرانه. إننا إن لم نحافظ في نطاق الشرف والعزة والكرامة على الخصوصية القومية لهذه الكتلة الاجتماعية الصغيرة التي أوجدها آباؤنا بحد سيوفهم، وجب أن يحكم علينا بأننا لسنا من أنسال تلك الأسرة الجليلة. أجل، أيها الشاه! إنه، في الحقيقة، لإفراط في التفسير وصف التضحية التي وجدنا أنفسنا مضطرين للقيام بها لمواصلة حياة وطننا، بالجنون. إننا إن لم نكن نُحسُّ بهذه التقاليد الروحية ولم نناضل في سبيلها بجدارة، فذلك يعني أننا نعذِّب أرواح أجدادنا، وبذلك نكون قد برهنّا على أننا لسنا أحفاد أولئك الأبطال. إذاً فالأصحُّ والأصوب أن تسموا الذين يجدون أنفسهم مكلفين بمتابعة هذا الهدف فدائيين، بدلا من وصفهم بالمجانين.

– أنتم مخطئون في هذا ياولدي! فالانتصار الذي يتحقق بوساطة حفنة من الناس إنما هو انتصار محدود. نعم، إنكم تستطيعون إثبات وجودكم في وجه أناس من أمثالكم وأن توفَّقوا في ذلك ... أما التحدث عن الوجود في وجه الحكومات والدول، أعني التحدث عن وجود تلك الكتلة الاجتماعية والقومية التي ذكرت، فاني أراك أسرعت بحديثك عنها إلى دفعها نحو هاوية الزوال والفناء. يجب عليك أن تتأمل وأن

تلاحظ ماهي أهمية ضياء مصباح إزاء ضياء الشمس، وماهي نسبة تأثير هذا الضياء؟

– أيها الشاه! نحن نلاحظ أن الإنسان يقضي بداءة حياته، وهو في القماط، وتتبادله الأحضان فيما بينها وتشد يداه وساقاه، ويُنام في المهد من دون أن يكون له الخيار في كل ذلك. ولكن الطبيعة تزيده نموا يوما بعد يوم وتمنحه المزيد من فرص الارتقاء حتى يكتمل خلقه ويأخذ قيافته وصورته النهائية في آخر الأمر. لقد ذكرتم أن ضياء المصباح لايساوي شيئا من حيث الأهمية بالقياس إلى ضياء الشمس، في حين أن من الممكن إدامة استمرارية ضياء المصباح بوساطة مواصلة إشعاله، ولكن الشمس تغرب عندما يحل الليل فيسود الظلام، ثم تعود لتثبت نورها في الصباح حسب أحكام الطبيعة.

– مادمت تقول إنك مكلف بحماية شرف الأسرة ومجدها وصيانة ممالكها وتوسيعها، فلماذا آثرت السكوت ولم تقتص لعمك ولم تأخذ بثأره بعدما قتله والي بغداد، أحمد باشا بتلك الطريقة المهينة المذلة، مكافأة له على كل تلك الخِدْمات والتضحيات التي بذلها لانتصاره وبعد كل تلك البطولات التي أبداها في سبيله فاستولى له على كرمانشاهان وهمدان في حين أن روحه المظلومة ماتزال تنتظر الثأر عن أيديكم؟

– إن التمرد على الدولة العثمانية الحائزة لصفة الخلافة مخالف لديننا. إننا بحكم كوننا مسلمين، مكلفون بحكم نصٍّ القرآن الكريم بإطاعة أولي الأمر.

– إن تعصبكم المفرط هذا ليس إلا جهلاً وتوحشاً. نحن أيضا نعتبر أنفسنا مثلكم مسلمين ونحترم تلك المكانة المقدسة أكثر منكم. ومع ذلك فإنني لا أطلب منكم التمرد على خليفة المسلمين، بل على العكس أراكم جديرين بالتعيير لأنكم لم تنتقموا لذلك المغدور المظلوم من ذلك الخليفة المعادي للإسلام. وكلما تذكرت شجاعتكم وتضحياتكم في هذا المضمار وفكرت مليا في الأمر، رثيت لحالكم وضحكت من أعذاركم، إذ تضعون عدو الإسلام مثل أحمد باشا في مقام الخلافة، في حين أنكم إن كنتم تقولون ذلك على أساس ظن حقيقي[١٩] فإني ليأخذني العجب في الواقع من أن يبلغ بكم الجهل مثل هذا الحد. أجل إن جلادا للمسلمين يقتل أبطالهم ويفنيهم تحت شعار الإسلام

(١٩) الظن الحقيقي هو أن يتأرجح الحكم بين ٩٠٪ و ٥٠٪ وهو على ماحدده سبنسر الحكم الغالب. ونقيضه الشك وهو تأرجح الحكم بين حدين متساويين والله أعلم بقصد القائل – شكور مصطفى.

ولايتورع عن ارتكاب أي فجيعة وفضيحة، ومع ذلك تضفي عليه القدسية لحد وصفه بكونه خليفة المسلمين، إن ذلك ليس سوى الغلظة والجهل. ومن الطبيعي أننا أيضا نعتبر أنفسنا حكومة إسلامية، ونقدر ارتباطنا الديني بمقام الخلافة ونقدس كذلك دوماً هذا الارتباط المعنوي، ولكننا نرى أنفسنا مضطرين إلى إزالة هذا الشخص الذي عهد إليه بشؤون العراق اعتمادا من مقام الخلافة على صدقه في إسلامه، في حين أنه أساء إلى اعتماد ملاذ الخلافة وثقته.

– هذا الرجل، وإن لم يكن جديرا بالاحترام، فإن نفوذه وصفته الرسمية إنما هما باسم الإسلام، وذلك استنادا إلى فحوى قاعدة (الوكيل كالأصيل). ولهذا ليس لنا من حل سوى الطاعة والخضوع.

– ألم أقل لكم إن جهلكم يحول دون أن تدركوا الحقائق؟ لاشك في أن خليفة المسلمين لايريد أن يؤمِّر خونة الإسلام وسافكي الدماء. وليس هذا حسب، إنما لايريد أن يعيشوا أيضا. ولكن الخونة لايكشفون للخليفة عن أحوالهم السيئة، ولايدعون المجال للكشف عنها كذلك. ومن هنا فإن الذين تستنهضهم دواعي الرجولة يتعين عليهم أن يحموا أنفسهم من أمثال هؤلاء الظالمين، وأن يبادروا إلى السعي للثأر منهم بالذات.

وانطلاقا من هذا الأساس، وللحيلولة دون استمرار المظالم والتعديات التي مايزال يمارسها أحمد باشا بحق مواطنينا الإيرانيين الذين يشدون الرحال إلى زيارة العتبات المقدسة، فقد وجدت نفسي مضطرا بالذات إلى اختيار هذه الحرب. ومن الطبيعي أني سأثأر بها للمرحوم خانه باشا الذي مضى زمن من دون أن تستطيع أنت الثأر له.

أما عمكم خالد باشا الذي ليس إلا خادما فكريا لأحمد پاشا في رأيي، وقد تحققت من ذلك تماما، فإنما أحيل أمر القضاء عليه وإزالة وجوده إليك. وماغرضي من إحالة هذا الأمر إليك إلا إثبات مدى ما أكنه لأسرتكم من احترام، والبرهنة لكم على ذلك؛ ذلك لأنني لا أريد القضاء على أسرتكم ولايرتضي ضميري تدمير بلدكم، في حين لايراعي الجيش الذي سأرسله بإمرة قائد أجنبي هذه الملحوظات (ولن ينجو آنئذ رأس غنم من الذئب[٢٠]. وعليه، ولكي تنحصر أعمال التأديب التي ستجري، في مستحقيه وتبقى حياة الأبرياء من الناس وأموالهم مصونة، فسأعهد إليك بهذه المهمة وأوجه إليك حكومة قهلاّچوالان. وبعدما تصدقني الوعد وتؤيد وتثبت وعدك بالعمل، فسأحافظ

(٢٠) مثل تركي، كناية عن الإبادة – المترجمان.

عليك تحت حمايتي وأعينك على شتى النجاحات والتوفيقات وأظاهرك عليها وسأوصلك إلى مدارج العز والإقبال التي لم يصل إليها أجدادك العظام.

أما إلى أي مدى استطاع نادر شاه أن يواصل إغراءاته وإغفالاته، وكم سعى أن يقنع سليم بيگ بأكاذيبه وخدعه، فلسنا نعلم.

إلا أن سليم بيگ الذي أغار على قافلته هو، وهي في حماية الجيش ونهبها وقتل حاميتها وسار للقائه بنفسه من دون حذر ولم يستسلم للخوف والرهبة وجرؤ على الإقرار بالجرم بتلك الفظاظة والحرية وكان مقتنعا بأنه بطل يستطيع أن يخدم أهواءه ورغباته بكل معانيها، أقول إن سليم بيگ هذا سولت له نفسه الرغبة في أن ينسلك تحت أمر نادر شاه ونفوذه، إذ يوقظ فيه هذا كوامن رغباته ويبدد عنه وحشته الفكرية ويلين يبوسة روحه ويحتوى بجاذبية كلامه وبسط بيانه هذا الغضنفر الوحشي ويضمَّه إلى حريم آماله.

إن الهدف الإداري والسياسي الذي استهدفه نادر في هذا الباب إنما يستند إلى ملحوظتين أساسيتين: إحداهما قطع الارتباط بين سليم بيگ وبغداد، وذلك بتبريد الموما إليه وتنفيره من الوالي أحمد باشا، وإظهار مشروعية حركته في نظر العالم الإسلامي، وذلك من خلال كتم وإخفاء نواياه التوسعية والاحتلالية ومعاقبة خالد باشا الذي وقف ضد نائب الحكومة في تبريز لُطفعلي بيگ ومنعه من التقدم إلى كردستان، والأخرى الرغبة في استمالة وجهة ارتباط الإمارة البابانية نحو نفسه وجعل كُردستان تحت سيطرته والنجاح في وضع بغداد تحت رحمته ومن ثم الحيلولة دون أن تكون كُردستان هي القوة التي تحمي بغداد، وإزالة القلق بشأن الاحتمالات المتوقعة، فمادام نادر لم ينجح في إقناع سليم بيگ بمشاغلة خالد باشا، فإن الأخير سيبادر إلى معاونة بغداد وبهذا يكون باستطاعته أن يقف بوجه نجاحه ويخلق المشاكل في طريقه. ولهذه الأسباب وجد نادر شاه نفسه بحاجة ماسة إلى استمالة سليم بيگ وجعله منقادا إليه في أي حال من الأحوال.

لم يكن صعبا بالنسبة لنادر الأفشاري وهو الذي لم يكن يملك قوة ولم تكن وراءه جيوش، ولكنه استطاع بالاعتماد على قوة عقله وتأثير كلامه ودقة حيله أن ينتزع دولة معظمة قديمة كالدولة الإيرانية من صاحبها الشرعي ويضعها تحت تصرفه، وأن يدخل كبراء إيران وسادتها في دائرة إطاعته كما يدخل الفُصَّ في دائرة الخاتم، أقول لم يكن صعبا بالنسبة لنادر، وهذا شأنه، أن يوقع في شباك أحابيله شخصا عديم التجربة غريبا

عن أمور الإدارة وشؤون السياسة، حريصا على الجاه والمنزلة، مثل سليم بيگ. والحق أن نادر شاه استطاع منذ اللحظة الأولى للقائه سليم بيگ أن يستعبده بما نثره له من وعود بتحقيق آماله المختلفة ويجعله منقادا لأوامره، فأرسله على رأس قوة كافية للهجوم على خالد باشا.

لم يكن التعيس سليم بيگ يحس أي جرح رهيب أحدثه بضربته المشؤومة هذه، في حياة أسرته ووجودها، ولم يكن يفهم إلى أي حد تسري الأثار الشاملة لآلام هذا الجرح، التي يظل يتجرعها إلى الأبد، ذلك لأن طمعه في الجاه والمقام قد أعمى بصيرة إدراكه وعطل يقظة فكره وجعله عاجزا عن فهم المخاطر التي ألقى مسؤوليتها على عاتقه وواجباته الوظيفية التي هي من الخواص الأساس للمهمة التي كان يتولاها، فانخدع بتلك الأقوال المعسولة الممزوجة بالسم، التي بذلها له دسَّاس كنادر الأفشاري في تصرفاته المبطنة الأهداف والمقاصد معه، فنسي شعبه وقومه ورمى عرض الحائط تقاليد احترام الصغير للكبير وإطاعته إياه، تلك التقاليد التي كانت دستور الحياة والعمل لدى البابانيين الذي توارثه الآباء عن الأجداد، ولم يتورع عن أن يهجم بقوته المنظمة على خالد باشا. ولأن جانبا من البابانيين كانوا من أنصار سليم بيگ، فقد أيقن خالد باشا أنه لاطاقة له بالصمود والمقاومة، ولذلك فقد قرر التوجه إلى إستانبول وتحرك نحوها فعلا حتى إنه وصل أورفه، ولكنه لسبب ما لم يشأ أن يواصل سفره بعدها، فعاد إلى الموصل واختار الإقامة فيها حتى توفي عام ١١٦٥هـ (١٧٥١م- ١٧٥٢م) و ووري جثمانه الثرى هناك.

سُرَّ نادر كثيراً لاستطاعته تطويع سليم بيگ على ما أسلفنا القول، فشرع يفكر في فصل كُردستان عن محور السياسة العراقية، ولكنه أراد أن يعزز تحقيق فكرته هذه بربطها بالرابطة الدينية، ولذلك فقد ارتأى أن يستميل إليه حضرة الشيخ حسن گله(زدەرده)، فبعث إليه برسالة دعاه فيها إليه، وفيمايلي نصها الحرفي:

«مني إلى ذي المآرب والمنن، أعني به السيد حسن، أمابعد، فإن حبي لجدكم لايكاد إنكاره، وإن مرامي ترويج مذهب جعفر الصادق، فبورود العريضة لابد أن تتشرف إليّ، وألا يكون سببا لقهري [٢١].

ولكن حضرة الشيخ لم يكن ممن يخدعون بخدع نادر وتسويلاته. والموما إليه من

(٢١) أبقينا نصَّي الرسالتين كما وردا في الأصل من دون أي تصحيح - المترجمان.

أحفاد الشيخ عيسى. وقد هاجر الشيخ عيسى مع أخيه الشيخ موسى من همدان عام ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وأقاما في قرية (برزنجه) التابعة لناحية (سروچك) في السليمانية اليوم، حيث بنيا لهما منزلا واستقرا هناك. وبدأت القرية المذكورة تتوسع شيئا فشيئاً وهي اليوم قرية يسكنها ٥٠٠ – ٦٠٠ عائلة. ولم يخلف الأخ الأكبر الشيخ موسى خلفا من بعده، ولكن أحفاد الشيخ عيسى انتشروا في أنحاء السليمانية وكركوك وفي أماكن أخرى، وهم اليوم يعدون بالألوف. وساكن الجنان المرحوم حضرة كاك أحمد الشيخ غصن كريم من هذه الدَّوحة الجليلة. وكان معظم أولاد وأحفاد الشيخ عيسى، ومنهم كاك أحمد الشيخ، من أولياء الله تعالى ومن أصحاب الكرامات. وهناك روايات صحيحة موثوقة تستوعب مجلدات عدة عن كشوفهم وكراماتهم.

والجواب الذي أجاب به حضرة الشيخ حسن على رسالة نادر شاه كاف للبرهنة على فضيلته الذاتية وقوته المعنوية. وهذا هو نصه الحرفي:

«أخذت كتابكم ووافانا بالدين خطابكم. أمابعد، فإن قولك «فإن حبي لجدكم لايكاد إنكاره» إن كان يعني أنَّ تلك المحبة غير ممزوجة ببغض سائر الأصحاب، فطوبى لك في الدنيا وفي يوم الحساب. وإلا فالوبال على صاحبها. وأما قولك: «وإن مرامي ترويج مذهب الجعفر الصادق، فإن جعفر الصادق، وان كان من أجلّ التابعين وجدّنا، ليس له مذهب مدوّن. ولو كان له مذهب مدوّن اتبعناه. وأما قولك فبورود العريضة لابد أن تتشرف إليَّ» فليس لي إلا أن أقول: إني رجل كسيف البال وضعيف الحال فلن أقدر على المشي. ولكن أوصيكم بوصايا تعملون بها فتكونوا في نجوة: «*أن لاتحارب السلاطين العثمانية؛ إذ اطلع كثير من أهل الكشف على أنهم باقون إلى يوم القيامة. أما ما أنت مضمر إياه في قلبك من تخريب الموصل، فلاتفعل، وإلا كان سببا لهلاك جندك. وعليك أن تعجل في التوبة لأنه يقتلك بعض أقاربك الذين الآن معك*».

انزعج نادر شاه كثيرا من هذا الجواب الذي تلقاه من حضرة الشيخ، ولكنه لم يجرؤ على إزعاجه باتخاذ أي إجراء ضده لكونه غصن دوحة السيادة التي هي من جعفر الصادق وينتمي إلى حضرة الإمام الحسين.

إلا أن ثمة أمراً يجدر تذكُّرهُ والتأمل فيه وهو ما بشَّر به حضرة الشيخ من بقاء السلسلة العثمانية المعظمة إلى قيام الساعة فهذه البشرى وثيقة سعادة للأمة الإسلامية لايستطيع اللسان وصفها ولايقدر القلم على أن يحيط ببيان مداها ولاتقوّم بثمن. ولذلك فإن بقاء هذه البشرى حتى الآن في درج الإخفاء أمر مؤلم.

أجل، إن هذه البشرى حياة أبدية وسعادة سرمدية للعالم الإسلامي ؛ لذا كان ينبغي ألاَّ تحفظ في درج الإخفاء، بل ترفع على سارية راية السلطنة العثمانية السنية، فهي حجة قاطعة على ديمومة هذه السلطنة(*) ثم ها نحن نرى اثنتين من النصائح الثلاث التي نصح بها حضرة الشيخ نادر شاه، وقد تحققت عواقبهما التي حذَّره منها إذ أهمل الأخذ بتلك النصائح. ويدل ذلك على صحة النبوءة التي ضمنها نصيحته الثالثة أيضا. ولذا فإن إهمال ماقاله وعدم الاعتقاد به أو الأخذ به مع الشك والريبة، إنما يعني إنكار القوة المعنوية الكامنة في المعجزات الدينية. وهذا مالايتفق وصلابة الإيمان.

إن الأسرة العثمانية النبيلة جديرة بأن تكون مظهراً لمثل هذه المكافأة وهي تستحق ذلك لخدماتها التي قدمتها للعالم الإسلامي، فلكل خدمة جزاء، وتلك قاعدة أساس اجتماعية وإنسانية، لاسيما إذا كانت تلك الخدمة لذي الجلال والإكرام، فحينذاك ينبغي أن تكون المكافأة متناسبة مع مقام من قدمت له، وهذا ماوعد به القرآن الكريم. لذلك فان مكافأة الأسرة المذكورة إزاء خِدْماتها وجهادها في سبيل المقتضيات الدينية، بخلود سلطنتها، تليق بالجلال الإلهي.

ولاريب في أن الخدمة التي تؤدى في سبيل سلامة الدين وصيانة مصالحه لاتبقى من دون جزاء. ولاتكون المكافأة مادية دائما، فمنها المعنوية أيضا، كما لايكون كلها عاجلة كذلك، فمنها ماهي آجلة.

إن الأعمال الصالحة المتعلقة بالحدود الشرعية والقضايا الوطنية قد تعتريها غيوم التنافس، إلا أن ذلك إنما يكون في الظاهر فقط، من دون أن يكون له أدنى علاقة بالإساس أو أي تأثير فيه.

أجل إن العوارض المعاكسة إزاء الأعمال الخيرة إنما هي كَقِطَع من الغيوم الداكنة

(*) لايمكن تفسير هذا الاعتقاد الجازم من صاحب الرسالة والمؤلف الكريم إلا بحمله على الإيمان والرغبة فيما يؤمن به المرء إيمانا ينبع من حسن النية وليس على معطيات العلم. وإلا فإين هي «الدولة العلية- السَّنية وإلى آخر ما هنالك من ألقاب ؟! وهل يخفى على أي ذي بصيرة ما آل إليه أمر السلطنة العثمانية التي كانت قائمة على نظام إقطاعي توسعي طفيلي ليس له من هم سوى نهب الشعوب باسم الخلافة الإسلامية وإقامة نظام الحريم ... حلت محلها تركية التي تفتقد هويتها الحقيقية في خضم التقليد الأعمى لمقومات الغرب وتتخبط خبط عشواء بين علمانية مزيفة مستوردة من فوق وإسلامية هامشية ليست بأحسن حالاً مما هو في البلدان التي تدعي بأن دين دولتها الرسمي الإسلام – شكور مصطفى.

السوداء بالنسبة للشمس والقمر في فصل الربيع، قد تعتريها ولكنها سرعان ما تنقشع وتزول، ولايصح فسح المجال للفتور والبرودة بسبب ماقد يطرأ من عوارض من هذه القبيل. إذاً، فعلينا استناداً إلى البشرى التي زفَّها حضرة الشيخ حسن، أن نعتصم بهذه السلالة الطاهرة بمنتهى الحرارة الروحية، ولاندع للغفلة والتهاون في أداء واجب الامتنان والثناء سبيلا.

عهد حكومة سليم بيگ

بعد أن تخلى خالد بيگ عن الحكم وتوجه نحو إستانبول، اتفق أن تولَّى سليم بيگ مقاليد إدارة بابان مكانه. ولأن سليم بيگ هذا أقام نظم الإدارة الحكومية وفق ماكان يفكر فيه نادر شاه ويريده، فقد اختل النظام الداخلي وانحرف عن نهجه الأساس الذي كان مطَّرِدا في العهود السابقة. ومن هنا بدأ عهد الانتساب إلى إيران وإلى العثمانيين في الظهور. لقد قطع سليم بيگ ماكان يربطه ببغداد من علاقات وأقام صلات مباشرة مع نادر شاه، من دون أن تكون رغباته الروحية الخاصة قد استقرت بعد على أسس ثابتة، ورغما عن ضرورة التمسك بالاعتدال. وهكذا اخذت أعمال سليم باشا وتصرفاته الارتدادية التي اتخذت لها مجراً طبيعياً، تسير في دائرة ميول نادر شاه ومطالبه، وتطورت الأمور في هذا السياق إلى درجة أن الحكومة البابانية غدت معها في صورة واحدة من المستعمرات الإيرانية.

لذلك استصحب أحمد باشا والي بغداد قوات الجبهة العراقية معه وتوجه في عام (١١٦٠هـ (١٧٤٧م) للزحف على سليم باشا، ولكن مشايخ المنطقة وعلماءها أعلنوا أن القتال ضد جيوش الإسلام كفر، فغدا سليم باشا مع أعوانه وحيدين في الميدان، ولذلك وجد نفسه مضطرا للتحصن في قلعة (سروچك)، كما تحصن أخوه شير بيگ في قلعة (قەمچووغه). ولكن ما إن انكشف مكان اختفائهما لدى الوالي المشار إليه حتي زحف على شير بيگ، فهرب هذا من مخبئه. ولأن مكان اختفائه الجديد ظل غير معلوم لدى الوالي، فقد حول عنان عزيمته متوجها نحو سليم باشا في قلعة (سروچك). وعندما وصل (شهرزور) تفشى مرض فتاك بين أفراد جيشه فخارت عزيمتهم القتالية. وكان المرض يؤدي كل يوم بالمئات منهم، حتى إن أحمد باشا نفسه لم يبق بمنجىً عن

هذا المرض الفتاك.

فأرسل إليه سليم باشا ابنه طالباً الأمان والدخول في الطاعة. وكان الوالي قد أنهكه وجيشه المرض فعفا عن سليم باشا الذي تعهد له بأن يقطع صلته بالإيرانيين ويعيدها بالدولة العثمانية، وعاد بنفسه على رأس جيشه إلى بغداد، وفي الطريق وعند الوصول إلى دلي عباس التي تبعد عن بغداد مسافة عشر ساعات قضى نحبه فأعيد جثمانه إلى بغداد، وعين مكانه صهره وكتخداه سليمان باشا واليا على بغداد بدرجة وزير.

كان سليم باشا قد تسممت أفكاره وأخلاقه، ولذلك فقد ارتد عن ولائه لولاية بغداد، وكان قد تأيرن نهائيا، بل إن نادر شاه كان قد قتل جزاءً وفاقا لما اقترفت يداه، إلا أن سليم باشا ظل متمسكا بانتسابه إلى إيران واستناده إليها غير متخلف عن ذلك قيد أنملة. وكان والي بغداد الجديد، والحق يقال، وزيرا مطلعا على شؤون الإدارة ذا تجربة وممارسة، وكان سليمان باشا قد حذَّر سليم باشا أكثر من مرة ليعود عن الطريق غير المستقيم الذي كان يسلكه، لكن تحذيراته كلها ذهبت هباءً ولم تؤثر في الموما إليه شيئا، بل إنه أخذ يتعرض بالاتفاق مع عثمان باشا متصرف كويسنجق وحرير إلى مناطق زَنگاباد وأطرافها من مضافات بغداد.

حشد سليمان باشا في عام ١١٦٤هـ (١٧٥٠م-١٧٥١م) القبائل المجاورة ووحدها مع قوات الجبهة العراقية وتوجه بها نحو قەلاچوالان. ومرة أخرى حال سادات المنطقة ومشايخها بين الأمراء البابانيين ومقاتلة الجيوش الإسلامية، ففر سليم باشا هارباً مع أعوانه إلى إيران.

وما إن وصل الوالي المذكور نقطة قريبة من قەلاچوالان حتى استقبل بحفاوة من قبل الأمراء البابانيين وأركان الإمارة الذين جددوا له روابط الصداقة وعهود الولاء، فتولى سليمان باشا ابن خالد باشا سُدَّة الحكومة البابانية مكان سليم باشا. وبعد أن زوَّد الوالي المذكور أمراء البابان وأركان الإمارة بالتنبيهات والتوجيهات اللازمة، حول توجه عنان عزيمته نحو عثمان باشا متصرف حرير. وإذ تلقَّى الوالي أخبار فرار عثمان باشا واختفائه آثر الإقامة في كركوك بانتظار ماتسفر عنه التحريات والتحقيقات التي أمر جواسيسه بالسَّعي لإجرائها بغية الكشف عن مخبأ عثمان باشا.

عاد جواسيس الوالي إليه بأخبار مفادها أن عثمان باشا يقيم في جبال (ئاوەكورت) على مسيرة ثلاث ساعات من كويسنجق ومعه ألف وخمسمائة من أتباعه، وإنه ادَّخر لديه ذخائر وأرزاقا كثيرة ليستطيع الصمود والدفاع عن نفسه. وهكذا حوصرت الجبال

المذكورة ونصبت المدافع على المواقع المشرفة على مخابئ العصاة وأقيمت المتاريس ودمرت جميع الجداول والنهيرات التي يصل منها الماء إلى القلعة. وإذا استمر الحصار أسبوعا وشدد العطش الخناق على المحاصرين وأصابهم باليأس والقنوط، خرجوا من مكانهم في حركة مغامرة مفضلين مايخبئه لهم القدر على الموت عطشا، قاصدين الفرار، ولكن حركتهم هذه لم تؤدِّ بهم إلى ساحة الخلاص، بل بالعكس، قفد فتكت بهم السيوف جميعا إلا النزر اليسير منهم.

وهكذا أسر عثمان باشا وأخوه إبراهيم وسليمان وابنه حسن بيگ وذبحوا جميعا، وأرسلت رؤوسهم إلى إستانبول.أما قوچ بيگ أخو عثمان باشا الذي استطاع الإفلات كيفما كان من طوق الحصار، فقد فر إلى أربيل. وما إن علم الوالي أنه تحصن في قلعتها حتى أمر بضرب الحصار على القلعة المذكورة أيضا. ولما كان عليه الوالي المتصف بمكارم الأخلاق من عطف وشفقة، طلب من قوچ بيگ في أول الأمر إعلان الطاعة. وإذ رفض قوچ بيگ أن يوافق على طلب الوالي هذا، أمر الوالي بتشديد الحصار وتضييق الخناق عليه. ونتيجة للحصار أسر قوچ بيگ وبعض رؤساء العشائر الذين كانوا معه، فجزت رؤوسهم أيضا وأرسلت هي الأخرى إلى إستانبول.

وبعد أن رتب سليمان باشا أمور كُردستان على هذا النحو وأعاد إليها الأمن والأمان عاد إلى بغداد.

عهد حكومة سليمان باشا المعروف بالمقتول

بعد أن هرب سليم باشا إلى إيران اختير سليمان باشا ابن خالد باشا من قبل الوالي سليمان باشا لتبوء عرش الحكومة البابانية، وكان ذلك في السنة ١١٦٤هـ (١٧٥٠م-١٧٥١م).

كان سليمان باشا المقتول، فضلا عما اتصف به من صلابة دينية وفضائل خلقية، على قدر من الرزانة والوقار كذلك بلغ من الإفراط حد تفسيره بالكبر والغرور، في حين أن بطشه وغضبه أرعب الجميع، وهو ما حقق الأمن والاستقرار في الداخل.

وإنه لمما يثير العجب أن الوالي المذكور ألحق مقاطعات كويسنجق وحرير وآلتون كوپرى وزنگاباد وبدرة وجصَّان بالحكومة البابانية على أن يكون سليمان باشا قادرا

على الحفاظ على المنطقة من المخاطر والهجمات الإيرانية التي لاريب في أنه كان سيثيرها له سليم باشا [٢٢].

كما سمح بصرف المبالغ التي كانت تستحصل من المداخيل المحلية للعائلة البابانية مما جرت العادة بتسليمها سنويا إلى خزينة الولاية، وكذلك ماكانت تستحصل من رسوم وضرائب، على إعداد الجيوش وتجهيزها وتهيئة العُدَدْ واللوازم الحربية، ذلك أن العائلة البابانية كانت مستقلة في إدارة أمورها بنفسها، ولم تكن مرتبطة إزاء الولاية إلا بأمرين أحدهما أن تدفع لها كل عام من وارداتها المحلية مبلغا معينا، والثاني أن تقدم لها العون العسكري كلما احتاجت إلى ذلك. وقد استمر هذا النهج في الإدارة ابتداءً من تلكم الأيام التي انتقل فيها الأمير سليمان إلى قەلاچوالان وسلم بغداد زمام الولاء وحتى انقراض الحكومة البابانية.

كان ما دعا الوالي سليمان باشا لتقديم هذا العون النقدي لتوسيع منطقة النفوذ البابانية وتعزيز تشكيلاتها الحربية وتجهيزاتها القتالية نابعا من أن الولاية كانت بحاجة ماسة إلى هذه الأسرة. وفي الحقيقة كان الإحساس بالحاجة إلى قوة من هذا النوع على الحدود الناجمة من أن الولاية تحادُّ إيران وأن خيانات الإيرانيين إزاء الدولة العلية غدت ثابتة، من بنات أفكار الوالي المشار إليه التي أفرزتها مواهبه السياسية، وكان ماأوحى إليه بمثل هذه الأفكار الانتصارات التي أحرزها خانه باشا في إيران والاعتداءات والأعمال التخريبية التي قام بها نادر شاه. وانطلاقا من ملاحظاته ونظراته هذه، فإن شعوره بوجود البابانيين وضرورة تعزيز مكانتهم بالاعتماد التام على صداقتهم ومكانتهم الدينية السامية، يثبت أنه كان حكيما دينيا ووطنيا وفطحلاً سياسيا عظيما، كما سيتأكد هذا فيما بعد.

انشغل حاكم بابان سليمان باشا في نطاق ما سمح له به الوالي سليمان باشا وأصدر له التوجيهات الخاصة، بإعداد التشكيلات العسكرية وبتهيئة اللوازم الحربية. وقد كانت الأسلحة القتالية وقتذاك عبارة عن المدافع والقنابر والمجانيق قاذفات السهام والسيوف والرماح وما أشبه من الأدوات الجارحة.

لندع الآن جانبا الكلام عن سليمان باشا المنهمك في المشاغل السالفة الذكر، لنتحدث قليلا عن سليم باشا الهارب إلى إيران.

---

(٢٢) لم نفهم وجها لتعجب المؤلف في هذا المقام - المترجمان.

كان الاختلال الداخلي في إيران بعد مقتل نادر شاه يتفاقم أكثر فأكثر، وقد سقط التاج الشاهنشاهي المتوارث بالتسلسل عن البيشداديين والساسانيين والكيانيين، عن رؤوس الأفشاريين أيضا، وغدا مطمح جميع الرؤساء والزعماء الإيرانيين. وفي هذا الخضم غدا المعتمدون على قواهم وقدراتهم في مضمار سباق عنيف للتفرد بالأمر، فكانوا يشهرون السلاح كل منهم بوجه الآخر، وقد غاصوا في لجة الحرص على الموت والقتل من أجل مستقبلهم الموهوم. وما كانت الدوافع لذلك سوى إغفالات شيطانية وتسويلات نفسانية أورثت عدداً كبيرا من عليَّة القوم العواقب المذلة للغرور الإنساني.

حينما فر سليم باشا إلى إيران وجدها غارقة في هذا الهرج والمرج. ورغم كل ماكان يبذل من جهود وتشبثات، لم يكن يجد علاجا لمشكلته في الثأر غير المشروع لآماله ومآربه التي كانت إهانة لكرامته الوطنية. فأينما كان يولي وجهه، وأياً كان يراجع، كان أحقَّ بالعون منه وأحوج إليه. وهكذا ظلَّ يطرق الأبواب واحدة بعد أخرى سنتين ويبحث تائهاً عن مَعينْ، ومامنْ مَعينْ.

وفي آخر الأمر استطاع كَريم خان الزندي، وكان واحدا من رؤساء الكرد في إيران ورئيس عشيرة الزند، أن يوطد موقعه بعض الشيء في مناطق اصفهان واستقر فيها، فانتسب إليه سليم خان وقدم إليه خدماتٍ جلَّى في سبيل تحقيق المآرب التي كان الموما إليه يكافح في سبيلها وأفاده فوائدَ كثيرةً. وعندما تمكن كريم خان من أن يصب مركزه في قالب حالة متحررة من الغوائل والعوادي، وضع سليم باشا على رأس قوة عسكرية مؤلفة من اثنى عشر ألف مقاتل ووجهه نحو إمارة بابان. وقد وصلت هذه القوة بصورة جد مباغتة إلى مريوان. ولم تكن حكومة قەلاچوالان على علم بهذا الهجوم الفجائي الذي شنه سليم باشا. وعندما بلغت القوة الإيرانية وعلى رأسها سليم باشا إلى مريوان، بادر المسؤول الباباني المقيم في قزلجه إلى إرسال ساعٍ مخصوص إلى قەلاچوالان حيث أعلمها بكيفية الحال.

كان سليمان باشا قد تناول غداءه حسب المعتاد وأخلد إلى ما اصطلح على تسميته بالقيلولة. ولم يكن لديه آنئذ قوة تستطيع الوقوف بوجه هذا الجيش الذي اقترب على حين غرَّة ليستخدمها في المقاومة والصد. بل إن المسألة كانت قد تعدت هذا الطور من إمكان المجابهة بأن يوجد حلٌّ للمشكلة بتعويق وصول قوات العدو وما إلى ذلك. ومما زاد الطين بلَّةً أن أحدا لم يكن ليجرؤ على إيقاظ سليمان باشا من نومه!! في حين أن قوات العدو بلغت في تقدمها حد أن لم يبق بينها وبين الوصول إلى قەلاچوالان إلا

مسيرة ثماني ساعات فقط، بل إنه حتى لو كان بالإمكان إعداد قوة للدفاع عن قەلاچوالان، لكان العدو في مكنته أن يهاجم قەلاچوالان رغماً عن تلك القوة. كانت قەلاچوالان مرتبكة في حيرة واندهاش، فما كان بوسع الأمراء الموجودين هناك أن يتجرأوا على اتخاذ إجراء ما من دون تلقي الأوامر من الباشا. ومن جهة أخرى لم يكن هناك من يجرؤ على إيقاظ الباشا. ولذلك أصابت الجميع حالة من الذعر والهلع، وما كان هناك من يستطيع وضع خطة للتحرك. ولكن أحد ندماء الباشا قرر أخيرا أن يقترب من مخدع الباشا وليكن بعد ذلك مايكون! وهكذا أخذ هذا النديم يضغط بأنملتين من أنامله على أصابع قدم الباشا حتى أيقظه من سباته. فسأله الباشا بمنتهى الحدة والغضب: ماذا تريد؟ فأجابه النديم: إن العدو وصل مريوان، وإن من المحتمل أن يداهم قەلاچوالان أيضا، ومالنا من قوة للدفاع والوقوف بوجه الغزاة. ولذلك فإن الأمراء ينتظرون أوامركم السَّنيَّة. ورداً على جواب النديم ازداد الباشا حدةً وغضباً، وقال: وماذا ينتظر الأمراء وضباط الجيش؟ هل يريدون أن يخلدوا إلى الدعة والهدوء كالنساء، وأذْهبُ أنا للقتال لحراستهم والحفاظ عليهم؟ اغرب عن وجهي! وهكذا طرد الباشا نديمه وعاد إلى وضعه النائم كما كان. وإذ نجا النديم على هذا النحو من غضب الباشا شكر الله تعالى على مامَنَّ به عليه من نعمة السلامة وعاد لينقل ماجرى إلى الأمراء وضباط الجيش.

لقد جرح الباشا بتوبيخه غير المحق هذا كرامة أمراء جيشه الأبطال وخدش حميتهم، فارتدى اثنا عشر بطلا هم سليم بيگ الملقب سىتەنگه وهو من أبناء عمومة الباشا، ومحمود بيگ، وجواميير آغا رەنگينه، وبريندار آغا، وزلال آغا، ومحمد بيگ مەرگەيى، وأحمده رَش داروغا، وأكرم ملا حمزه، وأربعة آخرون لم نتوصل إلى معرفة أسمائهم، ومجموعهم اثنا عشر شخصا- ارتدوا زيهم الحربي وتسلحوا بأسلحتهم واستعدوا للتوجه إلى القتال واستصحب كل منهم خادمه الخيَّال وتحركوا باتجاه معسكر العدو. إن «فرسان مريوان الاثني عشر» الذين يحملون عنوان الفخار، ستظل سيرتهم الحماسية مقرونة بالتبجيل والتعظيم مادامت الدنيا، وسيعلو بهم شأن أمتهم التي أنجبتهم ويتألق شرفها التأريخي، فلم يكن هدف أولئك من حركتهم التي قاموا بها أن يحافظوا على حياتهم، إنما كانوا يبغون من ورائها التضحية بأنفسهم في سبيل حياة شعبهم والحفاظ على كيانه. ويدل على هذا أنه كان من الممكن تفسير تحركهم بدون صدور أمر من الباشا حركة طائشة، وتعتبر عملا من أعمال التمرد والعصيان ؛ إذ كان

عليهم كيفما كان الأمر أن ينتظروا إمكان استمزاج رأي الباشا. ومع ذلك فما أصابهم وهن ولا استكانوا، ولم ييأسوا مما سيترتب على ذلك من نتائج صِدامٍ مدهشٍ وعواقب أمور جرى بها قلم القضاء، معتمدين في كل ذلك على التوفيقِ الصمداني، بل كان الشوق والنشاط الروحي يقطران من سيماهم. كانت روحهم المعنوية تشع نورا. فكانت فساحة الرجولة تلك التي كانوا يقصدونها كانت توفر لهم فرصة الوجود في ميدان سباق تأريخي، وتهبهم مجال إتحاف للملأ تحكي قصة البسالة الجماعية. وكأنهم لايتوجهون إلى النزال، وإنما إلى الجنان، وكانوا يسرعون الخطى مليئين إحساسا بأنهم سائرون لنزهة وليس إلى القتال. من أجل ذلك كله، ولئلا يكونوا قد فرَّطوا بلطافة ربيع هذه النزهة كانوا يبدون من أنفسهم العجلة، مسيرين بروحية متلهفة، للوصول إلى الهدف المنشود. وهكذا تحركوا مساءً، ووصلوا، وهم على هذا الإحساس العالي إلى داخل معسكر العدو الذي كان يبعد عنهم ستين كيلومترا.

كانوا رسموا برنامج تحديد حركتهم على النحو الآتي: حددوا لكل واحد منهم نقطة انطلاق معينة في أطراف معسكر العدو، على أن يبدأوا هجومهم في الثلث الأخير من الليل، مكبرين، ليخلقوا في نفوس الأعداء إحساسا شاملا بأنهم مطوقون تطويقا تاما. وفي الوقت نفسه يبدأ الفرسان الذين معهم بدق الطبول بشدة كلٌّ من مكانه. آنذاك يشعر الإيرانيون أنهم متعرضون لهجوم كاسح ويرتبكون، فيبدأ القادة الأبطال كلٌّ من مكانه بالتعرض للأعداء والهجوم عليهم. ومن أجل أن يُشْعِر بعضهم بعضا بأنه مازال سليماً معافى، عليهم أن لايفضلوا عن رفع أصواتهم بالتكبير.

ووفق هذا البرنامج، وفي دائرة الترتيبات المقررة، اتخذ الأبطال مواقعهم في ميدان الشجاعة كالأسود، وأخذ ناقروا الطبول يدقون على طبولهم مع حلول الموعد المرسوم الموعود. كانت أصوات التكبير تهزُّ ميدان المعركة، وصيحات الهجوم من كل جانب تبلغ العَيُّوق. وما إن استيقظ جيش العدو على حين غرَّة حتى ارتبك وأصيب بالذهول من هول ماكان يجري، وأخذ أفراده يتخبطون فيما بينهم وكل واحد منهم يضرب أي شبح يراه شاخصا أمامه. وهكذا أبادوا أنفسهم بسلاحهم. أما قادة البابان فكانوا مستغرقين في هجومهم من اليسار إلى اليمين ومن اليمين إلى الشمال، وهم يثخنون الأعداء جراحا. واستمرت الحال على هذا المنوال حتى حلول الفجر. وطوال هذه المدة لم يستطع النجاة بنفسه من سلك سبيل الهروب من الإيرانيين إلا نفر قليل منهم.

لقد كان سليم باشا مثالا متجسدا للشجاعة، ولكنه لم يستطع وسط ذلك الضجيج

وفي خضم تلك الفوضى الضاربة أطنابها أن يدرك الحقيقة، كما لم يستطع أن يعيد الإيرانيين المرتبكين المذعورين إلى خط الاعتدال ويعيد تنظيم صفوفهم. وفي الحقيقة كان قد سمع الصيحات المهيبة التي كان أمراء بابان قد أطلقوها، وكان مقتنعاً بأنه تعرض إلى حملة، إلا أنه لم يستطع رغم مابذل من مساعٍ أن يرتب وضعاً دفاعياً منتظما بين صفوف قواته. ولذلك فقد عزَّ عليه كل وسيلة لمعالجة الورطة التي وقع فيها.

كانت الألوف من جثث القتلى متناثرة في أطراف المعسكر، وكان الجرحى بالنسبة نفسها يتخبطون في دمائهم وتؤلف أناتهم لحنا فجيعا يصهر الروح، وكانت ساحة المعركة قد تحولت إلى واد من النجيع القاني.

كانت تجهيزات الجيش المعادي وأثقاله متروكة في ساحة الوغى من دون أن يكون لها من يرعاها. ومن أبطال بابان قد استشهد سليم بيگ سێ تەنگە وأكرم ملا حمزة وجوامير آغا رەنگينه وأحمد آغا وزلال آغا ومحمد بيگ مەرگەيى وأربعة آخرون من رفاقهم من دون أن تعرف أسماؤهم، كما جرح منهم ثلاثة. لقد مثل هذا النصر المؤزر الذي يوشح أمجاد كردستان التاريخية وقائع الرجولة في أحضان تأريخ العالم الحافل.

ومن جهة أخرى نهض سليمان باشا ذو قلب الأسد من نومه دونما قلق وأدى صلاة الظهر، وتناول غليونه وأخذ ينفث دخانه في الهواء، ثم طلب إيضاحات حول زحف العدو ووصوله إلى مريوان، فقدمت إليه الرسالة الواردة من مسؤول قزلجه وشرحت له قضية تحرك الفرسان الاثني عشر، فتأثر كثيرا من تحرك أولئك الأبطال دونما قوة تصحبهم وجنود مدججين يتبعونهم، فهو، وإن كان واثقا من أنهم سيحرزون النصر، إلا أن انتصارهم الذي سيحرزونه ولابد من أنهم سيدفعون عنه رؤوسهم ثمنا غاليا، كان في نظرهم بمثابة الهزيمة. وبناءً على ذلك فقد تحرك بنفسه دونما إبطاء إلى ساحة الوغى على أن تلحقه أفواج قواته تباعا، وسار مسرعا حتى وصل قزلجه.

وفي قزلجه ألقيت على مسامعه قصة الملحمة الحماسية التي صنعها والنصر المؤزر الذي أحرزه الأبطال، فتألم كثيرا لما آلت إليه مصائرهم أكثر مما سُرَّ لنصرهم. ولكن ماذا يجدي الألم؟ فقد جرى ماجرى، وغدا تلافي الواقع خارج دائرة الإمكان. وعلى ذلك فقد أمر بالسيطرة على ماهو حربي من الغنائم وترك ماتبقى منها لفقراء المنطقة، واستصحب معه جثث الشهداء وكذلك الجرحى إلى قەلاچوالان. لقد كان غياب الأبطال الضحايا الأبدي يشكل فراغ كبيرا للبابانيين. ولكن هؤلاء قد تركوا بعدهم ثلاث رايات

للمجد والفخار أتحفوا شعبهم اياها: الراية الأولى هي دحر عدو قوي مهاجم وإبادته وإفناؤه عن بكرة أبيه، والراية الثانية هي إظهار القدرة الذاتية أمام الإيرانيين بنسبة واحد إلى ألف، والراية الثالثة إضافة النصر المعجز لهذه الشجاعة الخارقة إلى الأمجاد التأريخية للبابانيين والذي لم يسبق أن ظهر مثيل له بين أي مجموعة بشرية من قبل.

إن هذا النجاح الذي يعتبر بمثابة براعة استهلال للعظمة القومية، أحدث مثل هذا التأثير في نفوس الأعداء والأصدقاء على حد سواء، وعزز القدرة الجوهرية للإمارة أكثر من ذي قبل، وأفهم الجميع حياة الكرد الشجاعة، ولاسيما أن الحكومة التي كانت تحت إدارة غضنفر مثل سليمان باشا المخلوق في صورة الإنسان، أظهرت أنها تتناسب وشخصيته ومهابته.

لقد أثرت عودة سليم باشا مع فلول قواته من الإيرانيين مشيَّعاً بهذا الاندحار الشنيع تأثيراً سلبياً في نفس كريم خان الزند (الزندي)، ولكنه بسبب من أن سفينة إدارته كانت ماتزال تتقلب وسط طوفان الفوضى واختلال الأمور، لم يكن قادرا على إعداد قوات أكبر من تلك وسوقها. ولكن حرارة الحرص في نفس سليم باشا ما كانت لتخمد، فسعياً وراء وضع يده الملطخة على كرسي الحكم البابانى كان يهيم على غير هدى ويتشبث كالغريق بكل حشيش.

وعلى أي حال وكيفما كان، استطاع في العام ١١٧١هـ (١٧٥٧م-١٧٥٨م) أن يستدرج رؤساء العشائر في جهات سنه وبيجار، ونجح في جمع قوة بوساطتهم واستصحبها معه للزحف على بابان. علم سليمان باشا بأمر هذه القوة وأنها في طريقها إلى قەلاچوالان، فأثار ذلك حفيظته وأغاظه حتى تعدَّت حدة المزاج التي كانت أمرا فطريا فيه، حدَّ التهور وضراوة السباع، فقرر أن يحسم أمر سليم باشا نهائيا ويضع الحد الأخير لمخاطره، وليكن بعد ذلك مايكون. ومن أجل تنفيذ ماصمم عليه، توجه بنفسه إلى ساحة النزال. ولضمان الظفر به وبغية قطع طريق الفرار عليه ساق قسما من قواته عن طريق هورامان، وتقدم بنفسه على رأس القسم الآخر منها نحو جبهة القتال، والتقت القوتان المتحاربتان في قزلجه، غير أن الإيرانيين لم يكن قد بقت لهم أي قيمة حربية. وفي أول لقاء بين الفريقين وجها لوجه تحطمت سطوة الإيرانيين أمام صولة البابانيين وتناثرت جثث معظمهم على الأرض بضرب السيوف وأسنَّة الرماح. لم يكونوا بقادرين على تعرض، ولا على مجابهة، ولاعلى دفاع عن أنفسهم، بل حتى إنهم لم يستطيعوا أن يتراجعوا بصورة منتظمة، وفي حالة بالغة السوء تشتتوا شذَرَ مذَرَ. لقد

كانوا في حالة من التخبط والضياع، لم يكن بوسعهم معها أن يعملوا شيئا غير الاستنجاد وطلب الأمان، إلا أن آلام الشهداء الذين سقطوا في المعركة الأولى قد سدت أبواب الرحمة بوجوههم، ولذلك فقد قتل منهم من قتل ولقنوا درسا بالغا وأكثر منه في الاتعاظ والاعتبار من التجرؤ على النزول إلى ساحة الخصام مع البابانيين.

أما سليم باشا فلم يبق أمامه علاج في الضائعة الشدية التي أوجدها له بنفسه من خلال تصرفاته، إلا المحافظة على نفسه بالاختباء في الغابات الموجودة بين الجبال المجاورة. وإذ أيقن أنه لن ينال تارة أخرى شيئا من الحكومة الإيرانية، ولم ير له من مخرج إلا التوسل بأذيال عطف الوزير سليمان باشا. ولكن الوزير المشار إليه الذي كان من أصحاب الفكر والبصيرة الذين يدركون المصالح الأساس الكامنة في استمرار الأسرة البابانية، كان يرى أن عليه في سبيل ضمان اطراد هذه المصالح أن يظل ملتزما بالحفاظ على اتفاق التعامل مع الجهة الواحدة، ولذلك كان يرى أن الأصوب أن يزيل سليم باشا من الوجود لتأيرنه وفساد طبيعته الفطرية بمفاسد أخلاق الإيرانيين، بدلا من إبداء العطف والشفقة عليه. إلا أنه كان يجب عليه كذلك أن لايدع لسوء الظن بوعود الحكومة مجالا فيتسرب إلى نفوس أولئك الذين يستسلمون لها ويعلنون أمامها الولاء والطاعة، ولذلك أمر بإعدام سليم باشا بصورة سرية قبل أن يشيع خبر استئمانه واستلامه.

بعد انتهاء مخاطر سليم باشا على نحو ما أسلفنا، عاشت منطقة بابان سنوات عدة حياة متحررة من المشاغل والمشاكل.

كان للمرحوم خانه باشا ابن اسمه محمد بيگ. وبعد أن قتل خانه باشا من قبل الوزير أحمد باشا ظلت أسرته برئاسة محمد بيگ هذا في بلاد أردلان حينا من الزمن. وعندما زحف نادر شاه على الديار البابانية، ترك محمد بيگ أيضا بلاد أردلان وخرج منها.

وفي العام ١١٧٥هـ (١٧٦١م-١٧٦٢م) توجه محمد بيگ هذا على رأس قوة مهمة من منطقة باجلان للزحف على قەلاچوالان. وإذ اطلع سليمان باشا على النبأ خرج لمقابلته. والتقت القوتان في بيباز. وبعد حروب ومعارك هزم محمد بيگ وهجم عليه سليمان باشا بنفسه وقتله.

وفي العام ١١٧٥هـ أيضا توفي والي بغداد سليمان باشا، فعين علي كهيه من كهيات الولاية واليا بدرجة وزير على بغداد والبصرة. كان الموما إليه إضافة إلى عدم

درايته بالأمور الإدارية، رجلا نفعيا، وفي الوقت نفسه أنانيا وأسير أوهام.

ومع عدم كفاءته في إدراك المصالح وتقديرها وعدم استيعابه الدقائق الخفية في طبيعة السياسة، كان يعتبر نفسه من الفضلاء.

ففيما كان سلفه المرحوم سليمان باشا قد ترك المبالغ التي كان المعتاد أن تدفعه حكومة بابان لولاية بغداد، مع المبالغ الأخرى الحاصلة من المداخيل المحلية، مقابل إعداد الأخيرة للمهمات الحربية والتشكيلات العسكرية التي أسسها في صورة قوة أساس للوقوف بوجه الاعتداءات العسكرية المحتملة، كان علي باشا يفسر في تقديره لهذه الناحية كل ماكان لسلفه من تقديرات وإجراءات في هذا الباب انطلاقا من حرصه الشخصي على عبادة النقود.

فقد قام بطلب الضرائب حتى ماتراكم منها في الأعوام السابقة من الحكومة البابانية. ورغما عن كل ما أجاب به سليمان باشا عن مساعدات الوالي السابق واتفاقه معه. ورغم اعتذاره عن تأدية هذه الضرائب، لم يتمكن من إقناع علي باشا بقبول اعتذاره. ومع كل ما تحدث إليه عن التزامه باقتحام كل المخاطر الإيرانية جميعها نظرا لقرب موقعه من إيران، إلا أنه لم يستطع أن يخمد حرص علي باشا الساعي إلى المنافع الذاتية، بل ورغم إبدائه الاستعداد لتأدية الضرائب من الآن فصاعدا في موعدها المحدد، على أن يصرف النظر عما صرف على إعداد الجيش وتجهيزه بالمعدات الحربية في السنين الماضية، استنادا إلى أمر سليمان باشا، فإنه لم يتمكن من إطفاء لهيب الجشع للمال في نفس علي بيگ.

كان تسديد ضرائب اثنتي عشرة سنة للولاية دفعة واحدة وهي ما كانت تشكل مبلغا كبيرا، أمرا خارج حدود الإمكان. وعليه لم يبق له جواب يرد به على طلب علي باشا إلا الرفض.

وفي سنة ١١٧٦هـ (١٧٦٢م-١٧٦٣م) أعلن علي باشا عن حملة يشنها على قهلاّچوالان، فبدأ بتحشيد الجنود من كل الأطراف. وإذ سمع سليمان باشا بقيام علي باشا بتحركاته، أخذ يبدي بوجهه المماشاة والمداجاة، إلا أن ذلك لم يكن ناشئا من كونه يتوجس منه خيفة، إنما كانت الرابطة الدينية التي تربطه بالخلافة الإسلامية هي التي تلجئه إلى ذلك.

وفي حين أن المبالغ المطلوبة كانت قد صرفت باسم مقام الخلافة المقدس وبناء على إذن من الوالي السابق المرحوم سليمان باشا لإعداد القوات العسكرية وتجهيزاتها

الحربية، فإن الحاح علي باشا في المطالبة باستيفائها لم يكن إلا تصرفا فضوليا نابعا من السعي وراء المنافع الذاتية من خلال استغلال الوظيفة بوجه سيء. ومن هنا فإن الباشا البابانى سليمان لم يكن يرى أي مانع شرعي يحول دون التصدِّي لعلي باشا ومجابهته. ولذلك فقد استعد للقتال ووفر مستلزماته. لم يكن علي باشا قد تحرك بعد، فاقام سليمان باشا التحصينات اللازمة في جبال قَشْقه الواقعة على مسافة ١٣٠ كيلومترا من بغداد. كان تعداد قواته المحاربة ستة آلاف خيَّال وثمانية آلاف من المشاة وكان لديه عدد من المدافع والمجانيق وسائر العدد واللوازم القتالية.

تحرك علي من بغداد ووصل دلي عباس، فاقترب منه سليمان باشا مسافة ٣٠ كيلومترا. ومن جديد اتصل به وأبلغه تارة أخرى أن مجابهة الجيوش الإسلامية والاصطدام بها أمر لايتفق وشعائر الإسلام، ورجاه الانصراف عن تلك البدعة السيئة التي ابتدعها بغية الخلاص بذلك من هذه الحرب الوشيكة الوقوع. التي ليس لها مبرر شرعي، فهؤلاء المسلمون الذين ستحصد الحرب أرواحهم أو تجعلهم معوقين، إنما يجب الاحتفاظ بهم لمقاتلة الكفار أعداء الوطن. وإضافة إلى رجائه هذا فقد انسحب من سلسلة جبال قَشْقه المذكورة التي هي نقاط سيطرة وتحكّم، إلى أطراف جسر نارين لتحاشي الاصطدام بقوات علي باشا وعسكر هناك بانتظار الجواب.

ولو أن سليمان باشا قبل بالقتال ردا على المعاملة الخشنة التي عامله بها علي باشا، لما عاد من حيث أتى متخليا دونما مقاومة عن مضيق (صقال طوتان) الذي لايوجد ممر آخر سواه يجتازه الجيش.

ورغم كل ذلك فإن مطامع علي باشا ونواياه السيئة لم تكن لتنسجم مع هذه المنطلقات الدينية والملاحظات الاجتماعية التي عبَّر عنها سليمان باشا. وعلى ذلك فإنه لم يتخلَّ عن أعماله العدوانية بأي شكل كان، بل على العكس حمل محاولات سليمان باشا محمل الضعف وفقدان الجرأة ولم يرعوِ عن تشديد تعرضاته له.

وانسحب سليمان باشا من جسر نارين كذلك حتى الموقع المسمى (كوشكى زەنگى) الواقع بين كفري و(دوانگزه ئيمام)، وهناك أيضا عاود الاتصال بعلي باشا فذكر له في رسالته التي بعث بها إليه أنه استنتج أن الموما إليه (أي علي باشا) إنما يسعى من أجل غرض شخضي لايدرك له سببا ذا صفة رسمية، وإن إراقة دماء المسلمين في سبيل الأغراض الشخصية لايتفق وشعائر الإسلام، وإن إيقاع الحرب بين فئتين مسلمتين من أجل الأهداف الشخصية والأطماع الذاتية (إنما يورث القائم به وزرا ووبالا، وذلك

مالاينسجم مع الخلق الديني والكرامة الإسلامية، وأعرب عن أمله في أن يصرف النظر عن هذا الغيظ النفساني. ولكن هيهات! فإن عناد علي باشا للحصول على ما حرص عليه لم يكن قابلا للخمود. وعلى هذا فقد تلاقى الجمعان في كوشكى زەنگى والتهبت ساحة القتال بكل حدة وشدة، واستمر الوضع كذلك أياما وأسابيع، وكانت نائرة الحرب يشتد أوارها يوما بعد يوم. كان استمرار هذه الحرب الفضولية غير المستندة إلى أي مبرر أو ضرورة شرعية تزيد دوما من آلام سليمان باشا الروحية عن ذي قبل، فمنذ اليوم الأول لتولي آبائه وأجداده مقاليد الأمور، كانت تلك أول مرة تحارب فيها الإمارة البابانية جيوش الدولة الإسلامية وتراق دماء المسلمين بين الفريقين. ومع أنه حاول مراراً وتكراراً أن يحول دون نشوب هذه الحرب، وتوسل أكثر من مرة في سبيل ذلك بعلي باشا، إلا أنه لم يحصل على علاج يقف عائقا دون اشتعال أوارها.

وفي الليلة الخامسة عشرة منذ بدء القتال أدى إلى فراشه وهو في حالة تأثر نفسي شديد للغاية. وما إن أطبق الكرى جفنيه أو لم يطبقهما بعد حتى انتفض من مضجعه في حالة غريبة تماماً، فقد رأى في منامه حلما عجيبا استنتج منه الكوارث والويلات المادية والمعنوية الفظيعة التي سيجرها معه استمرار الحرب، فاستدعى أخاه الصغير واعلمه بأنه قرر ترك الجيش والتوجه إلى إيران لأنه ممنوع من القتال وإراقة دماء المسلمين، وعليه هو (أي أحمد بيگ) أن يواجه علي باشا، وأوصاه بعدم فسح المجال لاستمرار القتال. ثم أخذ معه حاشيته الخاصة وتوجه شطر كريم خان الزند عن طريق كرمانشاه.

وفي صباح اليوم التالي استصحب أحمد بيگ معه عددا من الشخصيات البابانية وسار لملاقاة علي باشا وأبلغه بسفر سليمان باشا وماجرى له، فنصب علي باشا أحمد بيگ أميرا على بابان، كما نصب تيمور بيگ الكويسنجقي نجل عثمان باشا القتيل متصرفا على كويسنجق وحرير وعاد بنفسه إلى بغداد.

وعندما وصل أحمد باشا إلى حيث كريم خان الزند، نصبه هذا حاكما على بلاد أردلان. ومن الجهة الأخرى عاد أحمد باشا إلى قەلاچوالان حيث تولى زمام الأمور.

وفي العام ١١٧٧هـ (١٧٣٦م-١٧٦٤م) كان على علي باشا أن يتوجه بنفسه لتأديب قبيلة كعب، فأخذ يحشد الجيوش لهذا الغرض. وفي هذه المناسبة تلقى أحمد باشا أيضا دعوة دعاه فيها علي باشا للإسهام في الحملة، فعين أحمد باشا أخاه الصغير محمود بيگ في مكانه وترك قسما من قواته تحت إمرة أخيه الأصغر مصطفى

بيگ للحفاظ على الأمن والهدوء في المنطقة واستصحب البقية الباقية منها متوجها إلى بغداد.

بعد انتهاء المشكلة التي أثارها علي باشا حاول سليمان باشا مراراً العودة إلى بلاد بابان. ولكن أخاه أحمد باشا الذي تولى الحكم مكانه، كان يرجح الإمساك بزمام الرئاسة والحكم على مراعاة أواصر الأخوة، فلم يسمح له بالعودة. وعندما علم سليمان باشا بسفر أخيه إلى بغداد نصب ابنه خالد بيگ مكانه في حكومة أردلان وعاد بنفسه إلى قەلاچوالان حيث تولى زمام الأمور.

كان أحمد باشا قد نال التقدير من علي باشا في سفره معه لتأديب عشيرة كعب. وعندما عاد إلى بغداد، تلقى وهو في منزل (نهر عمر) نبأ عودة سليمان باشا إلى قەلاچوالان وتوليه مقاليد الأمور من جديد. وعندما وصل بغداد وضع علي باشا جميع القوات التي كانت معه تحت قيادته وأرسله لاسترداد مقامه. ولما علم سليمان باشا بكيفية الأمر، تحاشى من جديد الاصطدام والقتال وعاد مجددا إلى سنه.

كان علي باشا الذي ارتقى إلى مقام الوزارة دون العديد من أمثاله وأقرانه ودونما جدارة لذلك أو كفاية له، قد غدا هدفا لحسد الحساد وحقد الحاقدين. وفي العام ١١٧٧هـ انفجرت خميرة المؤامرة التي كان يجري الإعداد لها ضده منذ زمن طويل، ونهض الأهالي بوجهه نهضة شاملة، وتحولت بغداد إلى ساحة هائجة تقص صورة يوم قيام الساعة. وبسبب المعارك والمذابح التي وقعت بين الثوار وقوات الحكومة امتلأت شوارع بغداد وأزقتها بجثث القتلى وسالت فيها الدماء، ودام هذا السباق القتالي الفوضوي أياما بأكملها. وفي آخر الأمر هوى نجم علي باشا وسقط من كرسي الولاية وكما قتل العديد من أنصار الحكومة أعدم علي باشا هو الآخر كذلك.

وهكذا نال علي باشا جزاء إصراره على إراقة دماء المسلمين دونما مسوغ في الحرب التي أثارها رغم جميع محاولات سليمان باشا حاكم بابان تجنب القتال والحيلولة دون وقوعه.

وتولى مقاليد الأمور عمر كهيه من رجال الانتفاضة البارزين، واعتبر أشراف المملكة وأعيانها الحركة حقا ومشروعا وطلبوا من الباب العالي في محضر وقع عليه الجميع إقرار ولاية عمر كهيه والمصادقة عليها. وهكذا ارتدى عمر كهيه خلعة الوزارة حينا من الزمن وغدا مظهر فرمان الجلوس على أريكة الولاية ونال مرامه.

كان عمرباشا يكنّ المودة لحاكم بابان (السابق) سليمان باشا ويحفظ له حقوق

الصداقة. ولما جلس على كرسي الولاية وتولى منصب الوزارة أصالة، أصدر أمره بتوليته (أي سليمان باشا) الحكم في بابان ومنحه الخلعة وبتفويض الأمور في كويسنجق ومناطق أربيل وآلتون كوپرى وقره حسن وزهنگاباد وبدرة وجصّان إليه ثانيا كالسابق، وأرسل إليه الأمر مشفوعا بالخلعة إلى سنندج بوساطة رسول خاص.

فترك سليمان باشا حكومة سنندج لابنه خالد بيگ وعاد بنفسه إلى قەلاچوالان. وعندما علم أحمد باشا بماجرى أخذ معه عائلته وأتباعه الخواص وتوجه في أول الأمر إلى العمادية ومنها سار إلى الموصل.

وقد أثار اختياره الإقامة في الموصل الرأفة الوجدانية والشفقة القلبية لدى الوالي عمر باشا، فجلبه إلى بغداد وخصص له مقاطعات كافية لتأمين إدارة معيشته منها.

لم يكن هناك بعد ماجرى ماينتظر أن تثور منه المتاعب بوجه سليمان باشا، فما كان ليبدو معارض له بوسعه إحداث مشكلات ومنغصات.ولكن هيهات! فالدهر لايمنح أحدا سعادة الحال وراحة البال. وإن منحها إياه، فلن يتركه يقضي أيامه في هناء، بل يختطف من بين أصابعه السعادة والراحة.

فليشع السعد ماشاء أن يشع! فضائقة النحس التي سيكشف عنها الزمان فيمابعد، لن يترك منه أثرا إلا بمقدار طيف يمر في الخيال ولاشيء سواه.

كان العام ١١٨٧هـ (١٧٦٤م-١٧٦٥م) عندما راجع شخص يدعى فقي إبراهيم حكومة سليمان باشا لرفع شكوى في قضية امرأة، ولكنه لم يجد سبيلا للوصول لعرض شكواه. أجل! إذا أراد حكم القدر الأزلي أن يتجلى لينفذ قضاءه فيمن قضي به عليه، في الوقت المقرر له، هيأت له القوة المعنوية الأسباب الظاهرية كذلك أيضا وقدرتها له. وهكذا سعى فقي إبراهيم هذا أيام عديدة وبذل جهودا ومحاولات شتى، إلا أنه لم يوفق في إسماع شكواه، ولم يكن الموضوع الذي يريد أن يشكوه مما يمكنه تأخيره وتعويقه. كان لظى الانفعال وشواظ التأثر يلهبان روحه لحظة بعد أخرى، ولكن ما الفائدة! إن ما كان يستعر في قلبه، كان مادة منوية خاصة بشخصه[٢٣]. ومع كل ما كان يبذل من مساع، لم يكن ليجد من يبث له شكواه ويشركه معه في آلام مأساته، في حين أن أوجاعه والتهاب قلبه كانت في ازدياد مستمر.ولكي ينتقم عما كان فيه من يأس

(٢٣) أي كان الموضوع يتعلق برغبة جنسية خاصة به بالارتباط مع الإمراة التي كان يبغي تقديم الشكوى من أجلها.

وخيبة أمل من سليمان باشا وأفراد أسرته، صمم على قتله، وليكن بعد ذلك مايكون، وتخلى عن محاولاته السابقة لإيجاد طريقة لرفع شكواه إليه، وانهمك في البحث عن سبيل لتحقيق هدفه بدافع سوء النية.

وفي ليلة من الليالي جاء بعد منتصف الليل بسلّم كان قد أعده حاملا إياه على منكبه، ودخل دار الباشا وإرتقى سطح المطبخ، ومنه أنزل السلم إلى الفناء الداخلي للدار ونزل بوساطته من السطح إلى الداخل وأخذ يسترق السمع ويفتش مختلف الأطراف والزوايا، فأيقن أن مامن أحد مايزال سهران في تلك الساعة من الليل في الدار، فدخل غرفة الباشا واقترب من السرير الذي كان نائما عليه، فأخرج من جيبه رسالة ووضعها تحت وسادة الباشا، ثم استل خنجره ووضع إحدى يديه على فم الباشا وبيده الأخرى أغمد خنجره حتى مقبضه في صدره، وبعد أن أيقن تماما من أنه نال مقصده عاد من حيث أتى ساورا في أضغاث أحلامه الغيبية.

وفي الصباح بزغت الشمس ولما ينهض الباشا من نومه كعادته لأداء فريضة الصلاة. ظنت الحاشية أنه مايزال نائما. ومع ذلك كان السر الكامن وراء هذه النومة الطويلة غير العادية قد وضع أهل المنزل في قلق شديد. ولذلك اقترب أحد المحارم من مخدع الباشا وأزاح الغطاء عن وجهه. وعندما رأى جسده مضرجا بدمه، صرخ صرخة مفزعة وشرع يبكي ويولول وأخذ الناس يأتون مسرعين وهم يتساءلون كيف وقعت تلك الفاجعة للباشا. وفي لحظات عم الهرج والمرج وشاع الاضطراب والفوضى في المدينة. إن هذا الخطب الجلل الذي كان مشهدا من يوم النشور، أربك كل شيء.

ترى أذراعاً بشرية كانت الذراع التي تجرأت على سوء القصد لباشا أم قوة روحانية؟ لم يكن البت في هذا الموضوع أمرا ممكنا. فاحتمال أن يكون للذراع البشرية مثل تلك القوة والجسارة كان أمرا خارج التصور.

وخلاصة القول أن الحيرة والاندهاش بشأن كيفية وقوع الحادث عمَّا الجميع. كلَّ وما أكثر ما كلّت أذهان الناس في كشف السِّر غير أنهم لم يتوصل تفكيرهم إلى نقطة أو شبهة تدور حول أحد، ولم يغدوا قادرين على إدراك حقيقة الأمر. وفي غمرة هذه الحيرة والاندهاش رفعت جنازة الباشا. آنذاك عثر على الرسالة الموضوعة تحت الوسادة. كانت مدونة بشيء من التفصيل بالنسبة لتلك الظروف. في بادئ الأمر لم يعيروا تلاوتها اهتماما كبيرا ولكن ما إن تليت الكلمات الأولى حتى توجهت إليها الأسماع حائرة وأخذت الأيدي تتلقفها الواحدة بعد الأخرى حتى أوشكتا أن تُهرَّأ.

كانت مندرجاتها على النحو التالي:

«لاتنسبوا قتل الباشا إلى أحد، ولا توآخذوا أو تعذبوا من أجله أحدا. إنما أنا قاتله، أجل، إن فقي إبراهيم الذي يهيم على وجهه في أزقة قهلاچوالان ذليلا حائرا منذ زمن، هو الذي أقدم على هذه التضحية المهمة بدافع من يأسه الناجم من أنه لم يستطع أن يبث ظلامته إلى أحد ويسمعه أنين شكواه ولم يرفع عنه الحيف الذي أنزل به. وبذلك وضع قيمة العظمة الإنسانية وماهيتها أمام أنظار بصيرتكم أنتم وجميع بني البشر.

العظمة لله وحده. والذين يدعون هذه الصفة الإلهية لأنفسهم يغدون ضحايا ذليل بائس مثل فقي إبراهيم. إن العظمة الشخصية إنما تتجلى مع العدالة والشفقة والرفق والرأفة. وعدم الإصغاء إلى شكوى بائس مثلي قادم من مسافات بعيدة لرفع الحيف عنه بما يقضي به العدل، وعدم إمكانه العثور على مسؤول بوسعه أن يسمع الباشا شكاته لاينسجم ابدا مع العظمة الشخصية.

وفي حين نرى الله سبحانه وتعالى قبل بالحكام وأمر باطاعة أوامرهم لغرض تحقيق أحكام العدالة في الشؤون الدنيوية، لم يستمع الباشا إلى شكواي، بل حتى إنه لم يوفر لي موظفا أبلغه ما أشكو منه، رغم أنني لم أكن أجد مرجعا آخر أتوسل إليه لعرض شكواي. ولذلك فما دامت المسألة لاتخرج على نطاق اليأس والتشرد، فقد فكرت في نفسي أن أتخلّى عن منافعي الذاتية وأقدم خدمة للأهداف العامة وتجاسرت على الإقدام على ما أقدمت عليه. ولئن كان إقدامي هذا خاليا من أي منفعة ذاتية لي، فإن فيه فائدة لأرباب المصلحة من الوجهة التي ذكرتها. إن ضميري ليس معذبا بأي حال. إن واجبي الوجداني الأخير أن أقر بجرمي ولا أدع شبهة في ذلك تكون منفذا لوضع تبعة عملي على عاتق أناس غير مذنبين، فيتأذوا ويتعذبوا من وراء ذلك. لقد ارتكبت هذا العمل ووفّقت فيه. *وإني لآمل أن يزول بما أعطيته من دروس في الاتعاظ والاعتبار مايكتنف إحقاق الحق ومتابعة العدل من عدم مبالاة يعتبر نقصا في دستور الحكم من شأنه أن يؤدي إلى حدوث ثغرات كبيرة في حياة الشعب الحقوقية والروحية.*

المظلوم والمظلوم في هذه القلعة «فقي إبراهيم»

إن الحكومة التي بيدها مقدرات الشعب مكلفة بتوزيع العدالة فيما بين مواطنيها على قدم المساواة دونما تفريق أو تمييز، لما لأفراد الشعب في الهيئة الاجتماعية من

حقوق شخصية ومدنية. وإن الحفاظ التام على هذه الحقوق وحمايتها راجع إلى الهيئة الحاكمة التي بيدها مصائر الشعب. فإذا لم تتابع الحكومة في رعايتها لمصالح العباد الحق في توزيع العدالة تكون قد زادت بالفعل أسس الظلم والاستبداد. وإن عدم إحقاق الحق وعدم إجراء العدالة أمران هدامان كل منهما قوة مخربة ومحرقة، وعليه فإن التصدِّي لهما وعدم فسح المجال لنموهما الإضافي أمر ضروري.

ولئن كان الإهمال والتسامح جائزين لشخصهما، فإنهما غير جائزين بأي حال للموظفين المكلفين بتحقيق العدالة الحكومية. والحكومة التي ليس بوسعها تأمين إدارتها الداخلية ولن يكون بوسعها كذلك أن تنظم سياستها الخارجية. فالرجل العليل العاجز عن الحركة، والسفينة العاطبة الماكنة، المتوقفة عن العمل، المفتقدة القوة والقدرة على الجري، ليست قابلة لانتظار التحرك منها. والشعب الذي يريد إظهار قابليته واستعداده الفطري أو قدرته ومكنته السياسية، عليه بادئ ذي بدء أن يدخل الحلبة بإعداد وضعه الداخلي، أي يجب كسب مودة أبنائه عن طريق توزيع العدالة فيما بينهم وضمان حقوقهم وترصين وحدتهم بمداراتهم وإبداء اللين معهم.

والمحرومون من حقوقهم مستاؤون من حكومتهم دوما، والشعب المستاء من السلطة لايستطيع المحافظة على التزاماته بصورة جدية، ولايمكن انتظار الجدية والإخلاص من القلوب المتألمة. أجل! يجب تلطيف أحاسيس الناس الروحية بنعمة العدالة ليمكن الاستفادة بحق من المواهب الشخصية لأفراد الشعب. على الحكومة وهي تمثل الهيئة الاجتماعية، أن تبذل مساعيها دونما تقصير لصيانة حياة أفراد شعبها وحماية حقوقهم، كما يسعى الأب لرعاية أولاده ويهتم بكل لطف وشفقة بضمان تربيتهم وسعادتهم، فبقاء الوطن مرهون ببقاء وجود أولاده، ووجودهم مرهون بالحفاظ على حقوقهم وإشباعهم بنعمة العدل. ولأن فقي إبراهيم كان محروما من نعمة العدالة فإنه لم يكتف بأنه لم يعر بالاً لحياته الخاصة هو،! إنما وضع حدا كذلك لحياة غضنفر هصور إسكندري الشيم كسليمان باشا، ذلك العظيم الذي كان تهتز من هوله الناس والجبال. ولو أنه قُفيت له مآربه التي ضمن مقتضيات العدالة، وروعيت له حقوقه، لما أصابه هذا اليأس وتَلطخت يداه كذلك بالعمل الذي ألجأه إليه يأسه، ولما أقدم على عمله المتجاسر بسبب ذلك.

دفن سليمان باشا في المقبرة الخاصة بالأسرة في قهلاچوالان، وهذا ترجمة ماكتب على شاهد قبره:

ثقب مفسد في منتصف الليل بالخنجر
جوهر جسمه العزيز[٢٤]
وكانت مدة حكمه ثلاثة عشر عاماً.

حكومة محمد باشا بن خالد باشا

وإثر وفاة سليمان باشا، أوصى عمر باشا بتولية أخيه محمد باشا حاكما على البابان باعتباره أرشد الورثة، وإن كان أخوه الآخر الحاكم السابق أحمد باشا يعيش في بغداد تحت حمايته هو.

لم يكن محمد باشا من أولئك الذين تغريهم المطامع ويلطخهم الحرص على الدنيا، ولم يكن قد فكر في الإمارة حتى تلك اللحظة، ولم يبذل للحصول عليها المساعي أو يتشبث من أجلها بأحد. والآن إذ تولاها لم تأته نتيجة سعيه إليها وبحثه عنها، وإنما أتته بحكم كونه أرشد أفراد الأسرة الحاكمة، وذلك كان حقا طبيعيا له.

وطبقا لما جبل عليه من رغبة في العدل والرأفة أخذ منذ توليه الأمور في اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتحقيق رغباته تلك، وأقام المؤسسات المقتضاة لذلك. وهكذا استطاع كسب خالص مودة الجميع عن طريق صيانة حقوقهم وتنفيذ العدل بينهم.

وفي العام ١١٧٩هـ (١٧٦٥م-١٧٦٦م) رأى عمر باشا من الضروري تأديب عشيرة الخزاعل. وبغية إشراك محمد باشا في هذه العملية استدعاه إلى بغداد ضمن الذين استدعاهم فتوجه إليها محمد باشا على رأس قوة قوامها ألفا مقاتل امتثالا لأمر عمر باشا. وبعد وصوله خرج بصحبته الباشا لتأديب العشائر المذكورة. وبما أبداه من جدارة في المعارك وما ناله من انتصارات كسب امتنان عمر باشا وتقديره. وبعد عودتهم غالبين غانمين استأذن الباشا وعاد إلى قەلاچوالان. لقد أيقظ جلوس محمد

(٢٤) النص الاصلي بيت فارسي وهو:
مفسدێ نیمەشبی با خنجر
جوهر جسم گرامیش سفت
وفي النص كتبت كلمة (بسفيد) بدلا من (سفت) وهو خطأ لغة، فضلا عن أنه يخل بوزن الشعر. و (بسفت) هي الكلمة المطلوبة في هذا المقام ووزن من الرَّملَ المسدَّس المجنون الأصلم: فاعلا فعلاتن فع لن - فاعلاتن فعلاتن مع فع لن كقول الشيرازي:

باشا في مقام الحكومة على بلاد بابان غيظ أخيه أحمد باشا وحنقه وحفيظته، إذ لم يكن يأخذ حقه الراجح في تولي الحكومة بوصفه الابن الأرشد للأسرة بنظر الاعتبار.

كان علي باشا قد عين أحمد باشا من قبل حاكما على بابان لعدم وجود أحد غيره آنئذ يتولى هذا المقام، وذلك بعد الحادثة التي سافر فيها سليمان باشا للتصدي لقوات علي باشا، ورأى خلال ذلك حلما ترك أثره القتال فنفض يده عن إراقة دماء المسلمين فيما بينهم ووضع أمر الاتفاق صلحا في يد الوزير علي باشا وتوجه بنفسه إلى إيران. واستنادا إلى ذلك كان أحمد باشا يرى الحكم حقا له ويعتقد أنه مادام هو على قيد الحياة فإنه لايحق لأحد غيره تولي ذلك المقام. وهكذا وقع في لجة الحرص على الحكم والطمع فيه، وها هو الآن يحرم من هذا الحق ليعطي محمد باشا واياه، ولذلك استبد به الغضب حتى بلغ به حد الجنون، لكنه لم يكن يرى الظروف ملائمة للمجاهرة بذلك.

أما محمد باشا فكان على عكس أحمد باشا في وجهة نظره، وكان في تصوراته وتأملاته على مستوى عالٍ. كان يرى أن أحمد باشا قد انقطع عن الوطن منذ مدة طويلة وأقام في بغداد. وفي بغداد زادت احتياجاته بمقتضى وضعه ومقامه فيها، فكان يعيش في ضائقة من العيش، ولذلك فإنه ليس من المروءة والمودة الأخوية في شيء تركه يعاني من حالة اليأس والحرمان تلك، إنما ينبغي إبراز أحاسيس اللطف والعطف إزاءه ترغيبه في العودة إلى قەلاچوالان وإقناعه بذلك. فأرسل أخاه الأصغر محمود بيگ حاملا معه وجهة نظره السامية هذه إلى بغداد، مسترحما في الوقت نفسه عمر باشا من جهة أخرى للمساعدة على تحقيق هذا الهدف. ولكن عمر باشا كان يدرك جيدا مطامع أحمد باشا وحرصه وانفعالاته النفسية. وقد لاحظ أنه لو عاد أحمد باشا إلى قەلاچوالان لقضت مطامعه في الحكم على علائق المودة في قلبه إزاء أخيه وساقته الرغبة في المجد نحو ميادين العداء تجاهه. لذلك كان يرى المصلحة في بقائه في بغداد. ولذلك فإنه وان أظهر لأحمد باشا رغبته في البقاء معبراً له عن عواطفه والتفاتاته من دون أن يبدي شيئا من وجهة نظره الخاصة، إلا أن ماكان يعانيه أحمد باشا من ضَنَك العيش كان يسد الطريق بوجهه لتطاوعه نفسه بقبول ماكان يرجوه منه عمر باشا، في حين أن بيان حاله لعمر باشا كان على طرفي نقيض مع عزة نفسه التي كانت تأبى

«وه كه در عشق چنان مێ سوزم
كه بەيک شعله جهان می سوزم»
- المترجمان

عرض حاجته. أضف إلى ذلك أن الشوق إلى أرض الوطن كان قد جعله في وضع يهون من دونه اقتحام كل مايرد بالبال ويجول في الخاطر من احتمالات.

وعلى الرغم من أن أحمد باشا قدم شكره لعمر باشا على ما أبداه إزاءه من علو المشاعر وسمو العواطف، إلا أنه استرحمه للإذن له بالعودة. ولذلك فإن أحمد باشا الذي لم يكن يحب أن يكرر خاطره، وجد نفسه مضطرا للموافقة على عودته، مع أنه لم يكن يريد ذلك في قرارة نفسه. وبناءً على موافقة الباشا هذه وسماحه له بالرجوع إلى الوطن، توجه مع أخيه محمود بيگ شطر قهلاچوالان. وما أن وصلها حتى هب محمد باشا لاستقباله والترحيب بمقدمه وتطييب خاطره وعهد إليه بإدارة الأمور في كويسنجق وقرهداغ.

وهكذا عاش الأخوان في مودة ووئام نحواً من سبع أو ثمان سنين. غير أن أحمد باشا وقع أخيراً في شباك التزوير والإغراء التي نصبها له المفسدون ومخربو مابين الإخوان وفارطو عقد الأخوة بين الخلاَّن، فترك أخاه مستاءً وتوجه نحو زهنگاباد حيث استعان بعمر باشا فأعانه بأن ولاه على مقاطعات مندلي وبدره وجصَّان.

كان هذا الإنعام على أحمد باشا من قبل عمر باشا مقيدا بشرط أن لايخاصم أخاه محمد باشا أبدا، في حين أن حرص الأمير وانفعالاته النفسية لم تكن مما تهدأ بما فعله له عمر باشا. ولكن وجود عمر باشا على كرسي الولاية في بغداد كان قد سد بوجهه الطريق لمحاولة أي حركة أخرى، ولاسيما أن الدمار الهائل الذي أحدثه الطاعون ذلك المرض الفتاك الذي أخذ يتحكم في البلاد والعباد، كان قد أغلق تماما أي باب يمكن أن ينفتح على الآمال الشخصية التي كان يغمرها أحمد باشا في نفسه، ولذلك كان على أحمد باشا أن ينتظر ما سيؤول إليه الصراع الدائر مع هذا العدو اللدود.

ظل المرض المذكور يجري إرادته عدة اشهر أخرى، فقتل من قتل وأردى من أردى، فأخذت قواه تخور شيئا فشيئا، وارتفعت الهامات مرة أخرى بحصول الأمل في الحياة، مبددا ما كان يثيره اليأس القاتل في النفوس من نفور واشمئزاز. كان حوالي ٤٠٪ فقط من الناس قد نجوا من الموت، وكان قسم من هؤلاء غدوا على شفا الهلاك في الكهوف الواقعة في الجبال في انتظارهم الأليم لساعة الأجل، فأخذوا يظهرون تباعا من مخابئهم معربين عن أنهم مازالوا أحياءً.

وكان محمد باشا قد انتقل إلى كويسنجق واتخذها مركزا له بسبب تفاقم المرض إلى درجة بالغة في قهلاچوالان.

وإذ علم أحمد باشا أن المرض آيل إلى الانحسار وأن محمد باشا في كويسنجق ورأى في اضطراب الأوضاع والأحوال ماقد يكفل له تحقيق مبتغاه، رأى الظروف ملائمة له لوضع أخيه المزاحم له في سعادته والغاصب لحكمه في قبضة قهره. ولذلك أعد العُدَّة وهاجم محمد باشا الذي كان مايزال في كويسنجق. غير أنه لم يكن محقا في تفكيره ومحاولاته ولم يكن لديه وجه شرعي يستند إليه، فقطع الله عليه سبحانه وتعالى بسبب ذلك سبل النجاح. وهكذا فالأمطار المنهمرة بغزارة كالماء المنهل من القراب المقلوبة كونت من كل حدب وصوب فيضانات عظيمة، ونهر الزاب الذي كان يقع على طريقه زادت مناسيبه إلى درجة فوق المعتاد، ففاض. وهكذا فإن أحمد باشا الذي كان قد قطع عليه طريق العبور اضطر إلى التوقف حيثما كان ريثما يهدأ الفيضان وينزل منسوب المياه. ومن جهة أخرى كان محمد باشا قد علم بما يضمره له أخوه من نوايا سيئة، فتصدى للوقوف بوجهه بما لديه من قوة. وكان هو الآخر لايجد طريقا للتعرض إلى أخيه فآثر كذلك التوقف في الجهة المقابلة بانتظار انحسار الفيضان.

غير أنه تجمعت خلال هذه المدة قوى كثيرة لمساعدة محمد باشا سواءٌ من قهلاچوالان أو من كويسنجق، ولكن نهر الزاب كان قد فصل الأخوين أحدهما عن الآخر، وهكذا لعب دوره في الوساطة أياما عديدة غير سامح لهما بالاقتتال، وهرع السادات وعلماء الدين ووجهاء المنطقة للتوسط بينهما مستشفعين بالمصحف الشريف فحالوا دون استمرار النزاع وأصلحوا بينهما على أن تكون قرهداغ وكويسنجق لأحمد باشا كما كان الأمر في السابق. وهكذا عاد الفريقان كل إلى مكانه الأصلي.

ولكن ما الفائدة! إذا كان المزيفون والمزورون لايفسحون المجال لتعايش الأخوين معا في رحاب الأخوة. لم يكن محمد باشا مطمئن البال من أخيه أحمد باشا، وكان مقتنعا بأنه إذا وجد الفرصة سانحة له قتله من دون أن يمهله، ولذلك فقد اتفق معه على الالتقاء في قزلجه لاتخاذ التدابير اللازمة بشأن منطقة أردلان التي احتلت من قبل الإيرانيين منذ أيام سليمان باشا وأدخلت ضمن المنطقة التي تحكمها دولتهم. وهكذا دعاه إلى هناك، ولم يكن أحمد باشا على علم بنوايا محمد باشا وما يضمره له في قلبه، فاستجاب لدعوته فورا وتوجه إلى قزلجه، فوجد محمد باشا الفرصة سانحة له هناك فألقى القبض على أحمد باشا وسجنه في قلعة سروچك.

كان محمود بيگ يلتزم جانب أحمد باشا لأنهما كانا من أم واحدة، ولذلك سير

محمد باشا قواته عليه في قرەداغ ولكن محمود بيگ كان قد سبق له العلم، بما يبيته له أخوه، ولذلك لم يقع في قبضته. وإذ علم بما فعله محمد باشا مع أحمد باشا، ذهب إلى بغداد لعرض الموضوع على مسامع الوالي عمر باشا، فأخذ منه عمر باشا ميثاقا بأن لايلجأ إلى أعمال مخلة بالأوضاع ومثيرة للخلاف، ومقابل ذلك خصص له بعض المقاطعات ووضعها تحت إدارته.

إن هذا الانحطاط الذي أصاب مجد محمد باشا أعمى فهمه وبصيرته، وجعله غافلا عن متابعة طريق النجاح. وهكذا فقد زعم في نفسه أن محمود بيگ قد عزز مركزه تحت حماية عمر باشا عند سفره إلى بغداد. ومن منطلق هذا الوهم، تنكب لعمر باشا وانغمس في الانجرار مع تسويلات كريم خان الزند وإغراءاته التي كان يبذلها له في تلك الأيام لترغيبه في الانضمام اليه. وهكذا نسى الامتنان الذي كان عليه أن يحفظه دوماً وأبداً لعمر باشا وألقى مصلحته الأساس ظِهريًا، في حين أن عمر باشا إنما كان يتصرف في سبيل حماية الأسرة البابانية والمحافظة على وجودها موحدة، وعلى مصالح البابانيين القومية وتعالى شأنهم أكثر من أبناء الأسرة أنفسهم. ومنذ جلوسه على كرسي الوزارة وتوليه قاعدة الولاية لم يقصر فيما لم يدركوه بأنفسهم من رعاية لمصالحهم ومنافعهم. وإن موقف محمد باشا هذا من المشار إليه بما عرف عنه من لطف وسمو وجداني، البالغ هذا الحد، لهو من الأخطاء التي لن يتسامح بشأنها التاريخ ولن يعفو عنها بأي حال.

وإذ علم عمر باشا بهذه الحماقة غير القابلة للهضم والتسامح إزاءها التي أقدم عليها محمد باشا، عين محمود بيگ حاكما على ولاية بابان ومنحه رتبة الباشوية، وأرسل متسلم البصرة سليمان آغا على رأس عساكر بغداد وكركوك وعشائرهما لإلقاء القبض على محمد باشا.

آنئذ أدرك محمد باشا وخامة الوضع والمشكلات الحالية والمستقبلية التي عرض نفسه لها، فترك قەلاچوالان وتوجه إلى سنه. وإذ علم محمود باشا بهروب محمد باشا إلى إيران، ولم يكن قد دخل قەلاچوالان بعد، أطلق سراح أخيه أحمد باشا من السجن، واحتراما له بوصفه شقيقه الأكبر تخلى له طواعية وعن طيب خاطر عن حكومة بابان التي كانت في عهدته.

وعندما وصل محمد باشا إلى سنه اطلع كريم خان الزند على كيفية الأوضاع، فرجا كريم خان من عمر باشا أن يعيد توجيه حكومة البابان إلى محمد باشا ثانية، إلا أن

عمر باشا لم يقبل رجاءه المتضمن معنى التحكم.

وكان كريم خان الزند قد انتصر في غمرة الصراع المستديم من أجل الاستحواذ على تاج الشاهية بعد مقتل نادر شاه كما سبق القول، ووضع التاج المذكور على رأس انتصاره، على أن هذا الانتصار قد أغرقه في نشوة الغرور والكبرياء الزائدين عن حد الحاجة. وقد مس عدم قبول رجائه من قبل عمر باشا بشأن محمد باشا نخوته وغروره، فعهد بتحقيق رجائه ومآربه إلى حد السيف بعد أن لم تتحقق له باسم الصداقة. لذا فقد سيّر علي خان مراد الذي كان يعتبر حاكم إيران الثاني في حيازة النفوذ والقدرة إلى قەلاچوالان على رأس قوة كافية.

حتى إذا اطلع أحمد باشا على حقيقة الأمر تشبث باستعداداته المتقابلة للدفاع. وإذ ذاع نبأ زحف الإيرانيين بقوة عظيمة على قەلاچوالان، وقع جميع من كانوا في إمرة المتسلم سليمان آغا من عساكر بغداد وكركوك وعشائرهما في الوهم فولوا هاربين لايلوون على شيء، فوقعت مسؤولية التصدِّي للعدو على عاتق حمية أبطال بابان وبسالتهم أنفسهم.

ولما كان سليمان آغا رجلا شهما غيورا في حد ذاته ومن أرباب الحمية والشجاعة، فقد تألم كثيرا من التصرف الخياني لأفراده الذين كانوا في معيته. ومع ذلك فلم ينفصل مع من بقوا معه من أتباعه الشخصيين عن أحمد باشا.

كان أحمد باشا قد دخل قەلاچوالان منذ وقت قريب وتولى الحكم فيها، وكانت الأكثرية العظمى من أهلها مايزالون موالين لمحمد باشا. ولذلك فإن نفوذه هو لم يكن قد تمركز بعد. ولهذا السبب لم يستطع أن يحشد أكثر من حوالي ألف شخص لمواجهة ذلك العدو القوي الزاحف، وكانت قوته هذه لم تدخل بعد مرحلة التحرك، في حين أن قوات العدو كانت قد بلغت جبل سەرسير الواقع على مسيرة ثلاث ساعات شمالي قەلاچوالان، فتعرضت لها قوات بابان من خمس جبهات بقيادة كل من أحمد باشا ومحمود باشا وقائد القوة العراقية سليمان آغا وعثمان بيگ بن محمود باشا وبريندار آغا. وإثر معركة دموية دارت رحاها من الفجر حتى العصر بين هجوم ودفاع انهارت معنويات القوات الإيرانية العظيمة مرة واحدة. وبسبب من الاضطراب الناشئ من الهزيمة وقع علي مراد خان في حيرة من أمره لايميز طريق الفرار فوقع في شباك أسر عثمان بيگ، وأعمل الأبطال الآخرون سيوفهم في كل من وقع في طريقهم، وتعدّت جثث الإيرانيين القتلى الآلاف وأرسلت الرؤوس إلى عمر باشا. ومع أن علي مراد خان

كان قد وقع في الأسر، فإنه عومل المعاملة الكريمة اللازمة دونما تقصير بحقه، فأعد له مقام خاص فرشت فيه الأفرشة الممتازة وهيئت له فيه جميع وسائل الراحة، وبعد عدة أيام نال خلالها قسطاً من الراحة أرسل معززا مكرما إلى بغداد. وعند وصوله إلى هناك أنزل أيضا في مكان خاص واستقبل من قبل عمر باشا وهيئت له كذلك وسائل الراحة المتوفرة كافة.

ومن جهة أخرى فإن شتات القوات الإيرانية المهزومة تحشدت من جديد في جبل گاران بين مريوان وسنه، وأخبرت كريم خان الزند بما أصابها من هزيمة وبلاء بما فيها وقوع علي مراد خان في الأسر، وظلّت هناك منتظرة ورود الأوامر. وما إن بلغت الأنباء مسامع كريم خان الزند حتى سيَّر قواته للزحف على كُردستان والعراق من كل جهة، فأرسل أخاه صادق خان على رأس قوة قوامها عشرون ألف شخص إلى البصرة، وأرسل نظر علي خان إلى بدره وجصَّان ومناطق كرمانشاه على رأس قوة مكونة من اثني عشر ألف شخص، وأرسل خان شفي كذلك على رأس اثني عشر ألف شخص إلى قەلاچوالان. ولئلا تسوء علاقات الصداقة بين الدولتين الإسلاميتين ولاتتعرض الروابط السياسية بينهما إلى مخاطر الحروب والمعارك، وبغية ترضية كريم خان الزند، أعاد عمر باشا علي مراد خان إلى كريم خان وعزل أحمد باشا وأحال حكومة بابان بعهدة محمد باشا ثانية، وخصص مقاطعات أربيل وآلتون كوپرى لأحمد باشا لتوفير العيش الكريم له.

ولكن ما الفائدة! لقد كان عمر باشا متأخرا في تدابيره التي اتخذها، فلو أنه استجاب لرجاء كريم خان الأول وأعاد محمد باشا حاكما على بلاد البابان لما أخلَّ بكرامته الشخصية وشرفه الرسمي ولما ترك مجالا لوقوع هذه المشكلة أيضا. أما وقد بلغ الأمر هذا الحد في تطوره فكان ينبغي المبادرة إلى إظهار متانة وجهة النظر تلك بالاستعجال في إعداد وسائل الدفاع وإقامة مقتضياته.

والحال أن التشبث بمحاولات منافية لطبيعة الظرف وشرف المكانة وكرامتها مثل إطلاق سراح علي مراد خان وإعادته إلى بلاده وعزل أحمد باشا الذي كان من شأنه أن يفرِّق صفوف قوات البابان، كان يشكل تقصيرا وخطأ غير مأمولين من عمر باشا. وحال ماتسلم أحمد باشا أمر عزله توجه مع أخيه محمود باشا واتباعهما نحو كركوك وأقام هناك منتظراً الأوامر التي تأتيه.

وبدأ نظر علي خان تعرُّضاته من جبهة كرمانشاه لمناطق درنه وباجلان وتقدم حتى

وصل پيرحياتى[٢٥] وجبارى وقرەحسن من ملحقات كركوك ودمر كل تلك الجهات وقتل كل من لقيه في طريقه ونهب كل ما وقعت عليه يداه من أموال وحيوانات ومواشٍ. وبما إنه لم يكن هناك من يتصدَّى له فإن أحمد باشا وجد نفسه مضطراً لمقابلته بقوته الصغيرة المؤلفة من أقاربه وأتباعه. وإذ سمع نظر علي خان أن أحمد باشا ينوي التصدِّي له، فكر في نفسه وتوصل بالقياس إلى قضيته علي مراد خان إلى أنه لايستطيع منازلة صقر من صقور البسالة كأحمد باشا، ولذلك عاد من حيث أتى. وقد حاول أحمد باشا مسرعا اللحاق به ومطاردته إلا أنه لم يوفق في ذلك. ومن جهة سنندج كان محمد باشا وخان شفي أخذا يهاجمان، فدمرا ما صادفاه في طريقهما من قرىً ومزارع وأبادا كل من وجداه من بني البشر.

أما صادق خان فقد حاصر البصرة وشدد الخناق عليها. وهكذا فإن عمر باشا الذي تعرض إلى الهجوم والتضييق عليه من ثلاث جهات وظل محروما من كل وسيلة للدفاع عن نفسه، لم يبق أمامه إلا عرض الحال وواقع الوضع على السُّدَّة العليَّة.

إلا أن إعلام الباب العالي بواقع الحال لم يؤثر في الموقف، ذلك لأنه لم يكن الباب العالي في تلك الآونة في وضع يستطيع معه أن يحك رأسه نتيجةً لانغماره في مخاطر الروس. وعليه فقد تم تعيين شخص باسم أفندي وهبي ليتولى معالجة الموضوع عن طريق العمل من أجل تحويل الخلاف إلى وفاق بوساطة المباحثات.

كان القائد سليمان آغا قد ذهب إلى كركوك مع الأخوين أحمد باشا ومحمود باشا بعد عزل الأول. أما تيمور باشا متصرف كويسنجق وحرير، فرغم دخوله معهم في اتفاقهم إلا أنه لعدم موافقته على مصاحبتهم طيلة تلك المدة، عاد إلى محله.

لقد أبلغ سليمان آغا عمر باشا بعدم موافقة تيمور باشا على مصاحبتهم وعودته إلى محله. وبناءً على ذلك فقد تم عزله وأعطي أحمد باشا مناطق آلتون كوپرى وحرير وأربيل أيضا. فتوجه إلى كويسنجق مستصحبا معه أخاه محمود باشا وسليمان آغا بغية القبض على تيمور باشا. وإذ اطلع هذا على الوضع اضطر إلى الفرار بعد أن أدرك أنه لن يستطيع المقاومة. ومع أن أحمد باشا ومحمود باشا تمكنا من كويسنجق إلا أن سليمان آغا عاد إلى كركوك ثانية بعد أيام قلائل. ولما كان للوضع من ذلك الوقت في

(٢٥) توجد الآن قرب كركوك شرقيَّ چمچمال قرية باسم (پيريادى) ولعلها هي المقصودة – المترجمان.

تلك المناطق من خطورة، فقد عُيِّن سليمان باشا الجليلي الموصلي برتبة وزير واليا على كركوك، فاتخذت مركز الولاية.

أما وهبي أفندي فقد توجه إلى إصفهان للالتقاء بكريم خان الزند نفسه لإقناعه بوقف الحرب والتحول إلى المباحثات السياسية، إلا أنه لم يوفَّق في إحراز أي نجاح فعاد إلى دار السعادة. ولم يكفَّ صادق خان عن تشديد الحصار على البصرة وتضييق الخناق عليها، في حين لم يقصِّر متسلم البصرة هو الآخر في الدفاع عن المدينة كما ينبغي. واذ أيقن الباب العالي تمام الايقان انه لايمكن تهدئة القضية بالطرق الدبلوماسية ومامن احتمال ابدا للعلاج السياسي، تقرر اعلان الحرب ضد إيران. وعين والي دياربكر عبدالله باشا الطويل والوزير مصطفى باشا الاسبيناغچي لانجاد العراق ووصل الاثنان معا على رأس القوات التي تحت امرتهما إلى بغداد. لم يكن من المناسب للدولة العثمانية وهي في مشاكلها مع الروس أن تختلف مع إيران في الوقت نفسه. وكان الباب العالي قد استفسر في حينه والي كركوك سليمان باشا إبان تكليف وهبي أفندي بمعالجة المسألة، عن إمكان أو عدم إمكان حل الموضوع بالطرق السياسية، وكان الموما إليه قد أبان في مطالعته الجوابية بهذا الشأن أن سبب وقوع المشكلة واتساع مضاعفاتها يعود إلى سوء ادارة الوالي عمر باشا، ولذلك فإن عزل المشار إليه واحد من التدابير السياسية الكفيلة بإخماد نار الخصومة. وعلى هذا فقد عزل عمر باشا وعين متصرف الموصل أمين باشا الجليلي مكانه. ولكن عزل المشار إليه الذي صادف وصول القوات العسكرية بعد طول انتظارها للمساعدة على إنقاذ البصرة ومنع سائر التجاوزات الإيرانية، لم يكن له من نتيجة سوى تخييب جميع الآمال المعلقة على وصولها وإفشال كل المساعي التي بذلت في هذا السبيل. كان أمين باشا قد أنبئ لتوه بتعيينه واليا على ولاية بغداد، أو لم يكن قد أنبئ به بعد عندما حل أجله الموعود. فعين مكانه مصطفى باشا الأسبيناغچي وهو من قادة القوات التي وصلت للمساعدة على إنقاذ البصرة. كان إجراء كل هذه التغيرات والتبدلات التي جاءت في غير أوانها وكان من الممكن ان تؤدي إلى ضياع المنطقة العراقية نهائيا، رغم ضرورة الاستعجال لإنقاذها، خطأ إداريا جدَّ كبير لم يكن من المنتظر ارتكابه من لدن أولياء الامور. والواقع أنه بالرغم من ان عمر باشا قد تسبب في حدوث كل تلك الاضطرابات في ظروف سياسية بالغة الدقة بالنسبة للحكومة، إذ أخطأ في رد رجاء كريم خان الزند بشأن إعادة حاكم البابان محمد باشا إلى الحكم، إلا أن خطأه هذا لما

كان قد وقع بدافع من إحساسه بضرورة الحفاظ على شرف الحكومة والشعب ولما كان يستند إليه من غرض نبيل، لم يكن مما يستحق العقاب كثيرا، بل إن عقابه أدى إلى نتائج معكوسة، فضلا عن أنه كان بوسعه بالاعتماد على القوات العسكرية الآتية لإمداده أن يعالج الخطأ المرتكب في هذا المضمار، مما كان يسد كل مجال بوجه المساوىء التي حدثت فيما بعد. بل يمكن القول إنه بمعاقبة عمر باشا أضيف خطأ ثانٍ أبشع بكثير إلى الخطأ الأول الذي اقترفه عمر باشا.

إذاً يمكن القول إن أولياء الأمور كانوا يفتقدون الشعور بالمصلحة القومية والاجتماعية أو الالتزام بها. بل على العكس كانوا يرون ظروفا كهذه أنسب لهم بكثير ليغتنموا الفرصة فيها لنيل مآربهم، وإلا فكيف عينت شخصيته مثل مصطفى باشا الإسبيناغچي في ظروف دقيقة كتلك الظروف، في حين ما من أحد كان يعرف حقيقة هذه الشخصية. ولنفترض أنها عرفت، فكيف أودعت المنطقة العراقية شخصا كان يبيع دينه وإيمانه لقاء كأس من الخمر أو لذة عابرة يقضيها مع فاحشة ما! والجانب الأسوأ في الخطأ أنه كان في الأساس ناتجا عن أن متولي أمور الدولة هم أنفسهم الذين ارتكبوه. فما دام عزل عمر باشا قد تم بناء على ضرورات طرحها متصرف كركوك سليمان باشا، فإن وضع المسؤولية[٢٦] في عاتق سليمان باشا نفسه كان أوفق للمصلحة العامة من أن يصار إلى عزل عمر باشا. وفي أوائل العام ١١٩٠هـ تولى مصطفى باشا على أريكة الحكومة لمنطقة العراق بكل مافي الوزارة من أبهة. كان الهدف الوحيد سواء بالنسبة لمصطفى باشا نفسه أو بالنسبة لأولئك الذين فعلوا ما أدى إلى تعيين مصطفى باشا لحماية ذلك الهدف، هو الحصول على هذا المقام والانتفاع بفوائده، وهذا ماحصل. وإلا، ترى هل وجد مصطفى باشا يوما ما، بعدما تولى هذا المقام، وسيلة لإنقاذ البصرة والمحاصرين فيها، أو هل فكر يوما ما أبداً بأن تلك مهمته وأنه مكلف بها؟ كلا! في حين أن المحاصرين البائسين في البصرة كانوا منذ أكثر من عام تحت الحصار من دون أن يقصروا في الدفاع عن المدينة، وكانوا يعيشون في ضروب من الحرمان والبؤس والأذى، وفي حين كانوا ينتظرون في كل دقيقة وصول الإمدادات إليهم. بل على العكس من ذلك، كان مصطفى باشا مشغولا بكل ما وصلت معه من

(٢٦) أي مسؤولية معالجة مسألة البصرة. وعلى هذا فإن المؤلف يرى أنه كان من الضروري إبقاء عمر باشا واليا على بغداد ليتفرغ لشؤون الولاية- المترجمان.

قوة، لتدبير المؤامرات لاغتيال عمر باشا الذي كان قد انتقل إلى الجانب الآخر من دجلة ؛ إذ كان على أهبة السفر إلى إستانبول، بدلا من السعي للأستفادة منها لإنقاذ البصريين. ولهذا فإن الهدف الذي كان يسعى إليه مصطفى باشا هو تسليم البصرة إلى الإيرانيين لإلقاء المسؤولية في ذلك بكل بساطة على عاتق عمر باشا لدينونته بها وإرسال رأسه إلى استانبول عقابا له على جريمته هذه!

في حين أن عمر باشا كان غافلا تمام الغفلة من هذه المكائد والدسائس كلها. لقد كان مشغولا بحزم أمتعته استعدادا للسفر مبكرا، ولم تكن هموم الرحيل قد أتعبته وأرهقته، فكان مسترخيا في فراش المنام، وإذا به يستيقظ فيجد نفسه مطوقا من الجهات الأربع. لم يكن عمر باشا من الذين يستسلمون بسهولة إلى الهوان، بل على العكس قاوم محاصريه حتى الفجر ودافع عن نفسه ولم تهن عزيمته القتالية البطولية ولم يعط الأعداء فرصة. وفي الصباح والقتال مايزال على أشده، ترك أولاده وعائلته وأحماله لكيلا يعكس موقفه الدفاعي لدى الباب العالي على أنه عصيان مسلح، واختار الهروب بنفسه، إلا إن أعداءه لم يكفوا عن ملاحقته ومطاردته. ومع أن عمر باشا كان قد أخذ معه حوالي عشرة أشخاص من أتباعه، إلا أن هؤلاء الأتباع مهما بلغوا من البسالة والشجاعة، لن يستطيعوا انتزاع النصر أبدا من عدو مهاجم يقدر بالألوف. وفي سبيل أن لايقع في أيدي أتباعه وينجوا بجلده كيفما كان، لكز عمر باشا جواده محاولا الابتعاد، ولكن القدر إذا أراد تنفيذ حكمه استحال الخلاص من بين يديه. وهكذا فقد كيان جواده فوقع معه فارسه. وعند وقوعه ارتطم رأسه بصخرة شقت جمجمته. وفي تلك الأثناء داهمه أعداؤه وفصلوا رأسه عن جسده وأرسلوه هدية فاخرة إلى إستانبول. ومن جهة أخرى كان سكان البصرة البائسون مستبشرين بالقوات التي أعلمهم عمر باشا بقدومها لإغاثتهم، وكانت هذه البشرى قد قوّت معنوياتهم وأذكت فيهم روح المقاومة، فكانوا ينتظرون وصولها لحظة لحظة، ولكن انتظارهم كان يطول دائما، وكانت أمانيهم تتحول إلى يأس وقنوط، ولذلك فقد بادروا إلى طلب النجدة من الولاية مرة أخرى، فكان رد الولاية كمايلي: «ليس لدينا مانبعث به إليكم من قوة. فاما أن تدافعوا عن أنفسكم بأنفسكم، وإما أن تفتدوا أنفسكم بالمال. وإن لم يُجدكم لا هذا ولا ذلك نفعا، فاستسلموا لكي تأمنوا على حياتكم وأعراضكم!». أجل! كان ذلك عاقبته الصمود أربعة عشر شهرا في الدفاع عن المدينة والمعاناة والبؤس والحرمان في سبيل الذود عنها. ورغم هذه النتيجة التي آل إليها أمر البصرة، فقد أبلغ الباب

العالي بأنه تم الصلح مع إيران وأن البصرة المحتلة من قبل، أوشك أن يخليها الإيرانيون وينسحبوا منها. فاي وقاحة هي هذه التي ارتكبها مقدموا هذا البلاغ، وأي صفاقة يتضمنها هذا التضليل الذي ضللوا به مركز السلطنة دونما تقية وحذر! لم تنحصر مظالم مصطفى باشا الدموية في القضاء على عمر باشا، فقد مدّ يد التطاول إلى أتباعه كذلك، فقتل منهم من وقع بين يديه. وفي تلك الأيام كان كهيته عبدالله آغا الذي نجا بجلده هربا، قد راح إلى أطراف مندلي واستقر فيها. وفي فترة وجيزة عظم عدد الملتفين عليه من الذين نالتهم مظالم مصطفى باشا حتى إنهم بلغوا حدا غدا الباشا يحسب معه لهم الحساب وتزوغ عيناه من مشهدهم. وإذ أيقن أنه لاقبل لديهم، ولايستطيع أن يمسهم بسوء، اتصل بالباب العالي طالبا منه النجدة والعون، ولكن اتصاله هذا لم يسفر عن نتيجة لصالحه، بل على العكس. وهكذا خلق المتاعب والمصاعب لنفسه بنفسه، فقد تم عزله استنادا إلى النظرية القائلة بأن الوالي العاجز عن تأديب كهيته لايجوز أن يكون واليا، وعين مكانه عبدي باشا. ولكن المشار اليه عزل هو الآخر بعد وصوله بغداد بسبعة عشر يوما.

سبق القول إن عبدالله آغا كيهة الباشا المرحوم كان قد هرب توقيا من مظالم مصطفى باشا إلى اطراف مندلي، وإنه جمع حوله خلقا كثيرا من الذين ذاقوا مرارة ظلم الباشا. لقد تم تعيين عبدالله آغا هذا واليا. فعندما كان خارج بغداد يرأس حشدا من المنضوين تحت رايته، قدم استرحاما إلى الباب العالي تعهد فيه بأنه إذا ولي على بغداد فسيسترد البصرة ويعيد الأمن والطمأنينة إلى الربوع العراقية وسيقضي على جميع الأخطار المحيقة الآتية من إيران. وكان وصول استرحامه هذا إلى إستانبول قد صادف وصول الشكوى التي بعثها ضده مصطفى باشا، فغدت الشكوى وثيقة تثبت كفاية عبدالله آغا وقدرته. وعلى هذا الأساس بودر إلى تلبية استرحامه وعين بدرجة وزير واليا على بغداد. كما تم عزل سليمان باشا إذ آثر في حينه الصمت إزاء الأعمال الخيانية التي اقترفها مصطفى باشا ولم يخبر بها الباب العالي وعين مكانه حسن باشا كهية الوالي الأسبق سليمان باشا.

وعندما اتضحت تماما حقيقة الأمر بشأن سقوط البصرة ووقوعها تحت سيطرة الاحتلال الإيراني أمام أنظار الباب العالي، أرسل على الفور مأمور خاص لإعدام مصطفى باشا، في حين أن مصطفى باشا كان قد غادر بغداد فور عزله قاصدا إستانبول، وعند وصوله دياربكر التقى المأمور القادم لقبض روحه، وهكذا جز رأسه

وأرسل إلى إستانبول. وما من شك في أنه كما تولى المأمور المادي الخاص أخذ رأسه إلى إستانبول، تولى المأمور المعنوي كذلك قبض روحه وأخذها إلى جهنم.

كان الغرض من توليته عبدالله باشا على بغداد وحسن باشا على شهرزور[٢٧] إنقاذ البصرة من قبضة الأعجام. ولذلك أبلغ كل منهما على انفراد بالتعليمات اللازمة وطلب منهما العمل معا متعاونين متحدين والمبادرة لاسترداد البصرة، وزودا بمختلف انواع الأسلحة والأعتدة، كما وضعت المبالغ الكافية تحت تصرفهما.

ووفق الأوامر السلطانية أكمل حسن باشا استعدادات السفر واستحضارات الحرب بقدر مايتعلق الأمر به واستفسر والي بغداد عبدالله باشا عن خطته للتحرك، ولكنه لم يتلقَّ أي جواب منه، فكرر الاستفسار وظل ثانية من دون جواب، ومازال يستفسر مرارا وتكرارا من دون أن يجد من يُصغي إليه.

أجل! أن مسؤولا لم تسير أغواره ولم تدرك ماهيته ولم تجرب مقدرته فيما يسند إليه من وظيفة، وإنما أودع المسؤولية على غير هدى، ليس من شأنه أن يكون أفضل ما كان عبدالله باشا هذا، ولن يبدي نشاطا أكثر مما أبداه هو. فللوصول إلى برِّ الأمان ببلد تعرضت سفينة إدارته إلى العواصف وتقاذفتها الأمواج المتلاطمة فضلت استقامة الطريق، يجب تسليم القيادة وإيكال الأمر إلى شخص مجرب محنك استطاع أن يبرهن على مستواه السامي بالفعل في مجابهة معضلات الإدارة وغوامض السياسة، لا إلى أناس لوثوا أخلاقهم في مستنقع الدناءة والسفالة. وإنه لواضح أن إيداع الأمور إلى ذوات من طراز مصطفى باشا وعبدالله باشا الذين لم يكونا يمتلكان أي مستوى أكثر من عرض سيمائهما البشع من الدرك الأسفل لسوء الأخلاق، لن تكون نتيجته أحسن من هذه النتيجة.

وإذ لم يتوصل حسن باشا إلى الحصول على أي جواب لاتصالاته المتوالية بعبد الله باشا ومراجعاته المتكررة له، وعلم أنه لن يحصل عليه ولن يكون بالإمكان أن يحصل عليه، أخذ يبادر بنفسه لمضايقة الإيرانيين والتعرض لهم. فاستدعى محمد باشا بابان متصرف كويسنجق وأحمد باشا متصرف حرير وكلف الأول منهما بالتحرك نحو «زهاو» كما كلف الثاني بالتحرك نحو سنندج وأعطى كلا منهما أربعين ألف ذهب نفقات سفر،

(٢٧) كانت كركوك في بعض فترات الدولة العثمانية مركز ولاية وكانت الولاية تسمى (ولاية شهرزور) - المترجمان.

ولكنه أعاد إلى الخدمة تيمور باشا متصرف كويسنجق وحرير السابق المعزول من قبل عمر باشا والمختفي عن الأنظار بمعونة أحمد باشا. ولذلك تألم أحمد باشا كثيرا، فلم يرد أن يخدم قضيته نجاح حسن باشا أكثر مما خدمهما. وقد كان ذلك أمرا طبيعيا تماما. فمن حصلت له القناعة بأنه أذيق ضروبا وألوانا من الظلم والإجحاف وانتقل من يأس إلى يأس، لن يحافظ على التزامه الجاد إزاء من أذاقها إياه، فالالتزام الجاد قوة دافعة توجدها قناعة المرء باقتطاف ثمرات ذلك الالتزام.

إن كل فرد من بني البشر يبغي الحصول على فوائد ومنافع بمقدار مايقدم من جهود، وهو يسعى في سبيل تحقيق وجهة نظره هذه. وعلى العكس عندما يدرك المرء أن عاقبة متاعبه لن تكون إلاَّ خيبة آماله، يكون من الطبيعي أن لايختار ثانية سبيل المتاعب تلك.

كان الثواب الذي حصل عليه أحمد باشا نتيجة لخدماته السابقة هو العزل[٢٨]. وكان جزاء العصيان الذي أعلنه تيمور باشا برفضه اطاعة الأوامر في أدق الظروف والأوقات حراجة إبهاج خاطره. وإذا غدت الأمور تجرى في مثل هذا المجرى المعكوس، فلاشك في أن أحمد باشا لايظل محافظا على صدق إخلاصه وجده. وعلى هذا، فهو وإن تحرك نحو زهاو كما أسلفنا القول محافظا على الطاعة، إلا أنه عندما تلقى نبأ إعادة تيمور باشا إلى الخدمة، توقف في زهرگه- وهو اسم مكان - بحجة المحافظة على الحدود، واتصل من هناك بكريم خان الزند وانتسب إليه.

أما محمد باشا فقد خرج من قهلاچوالان ووصل قزلجه. ومن هناك دعا حاكم بانه صالح خان إلى الطاعة. وإذ أجاب الموما إليه جوابا عدائيا، بدأ محمد باشا حملته الأولى على بانه. وبعد شن حملة أو حملتين عليها انهزم البابانيون وهرب صالح خان، فجزَّت رقاب الرؤساء الذين خروا صرعى في المعركة وأرسلت من خلال حسن باشا إلى إستانبول. لقد أوقع اندحار صالح خان الرعب في قلب حاكم سنندج خسروخان، فركز كل نشاطه على حشد العساكر والجنود وخرج لمقاتلة محمد باشا بقوة كبيرة، وتلاقى الجمعان في المرتفعات المجاورة لقرية كيلچان من قرى مريوان. ولما كان البابانيون

(٢٨) يقصد إعادة تيمور باشا إلى الخدمة متصرفا على كويسنجق وحرير اللتين كان احمد باشا ومحمد باشا متصرفين كل على إحداهما، هذه الإعادة التي تعنى عزل الأخوين البابانيين - المترجمان.

يعرفون منذ القديم مدى جبن الإيرانيين لم يترددوا في الهجوم عليهم بلا اكتراث ومن دون إعارتهم أي وزن يذكر، واستمر القتال يومئذ حتى المساء وإلى العصر من اليوم التالي فكانت نتيجة المعركة انتصار البابانيين ووقوع خسائر جسيمة في صفوف الإيرانيين، فلم يبق أمامهم غير اختيار طريق الفرار.

وفي خضم الفوضى والارتباك اللذين أوقعتهما في صفوف الإيرانيين هزيمتهم التي جعلتهم يولون الأدبار ويرجعون القهقري، سار كل واحد منهم في جهة، ومن وقع منهم بين أيدي البابانيين امتشقوا بوجهه الحسام وشطروه شطرين، وتمكن خسرو خان من النجاة بنفسه باختفائه في جبل ميشه‌لواز. وقد بلغ عدد رؤوس مشاهير الإيرانيين الذين كانوا بين قتلى المعركة ٢٣٣ رأس أرسل إلى حسن باشا، وقدم حسن باشا هذه الهدية الإيرانية كماهي إلى الباب العالي، ونال مكافأة له على ذلك أنواع الخلع والهدايا التي تلائم منزلته ومقامه، كما أنعم على محمد باشا كذلك بأربعة آلاف ليرة وفرو سمور.

أطار اندحار خسرو خان صواب كريم خان الزند تماما، فاستدعى إليه أحمد باشا الذي سبق أن بيَّنا ولاءه له وانتسابه إليه، فأرفق به اثنى عشر ألف مقاتل بقيادة كلبعلي خان من أشهر أمراء الجيش الإيراني، وسيره لمقاتلة محمد باشا ولكن محمد باشا آثر ترك موقعه واتجه إلى تيمور باشا متصرف كويسنجق وحرير لا لأنه كان يميل إلى مجاملة الإيرانيين، بل لأنه علم بوجود أخيه أحمد باشا مع الزحف الإيراني ولأنه أدرك أن قواته لن تستطيع الصمود بوجه هذا الزحف. وإذ علم كلبعلي خان بهروب محمد باشا، خيل إليه أنه هرب خوفا من قوته هو وشخصيته، فأصابه غرور وحشي جعله يفكر في تدمير كُردستان كلها، إلا أن أحمد باشا أعاده إلى رشده وألزمه حدود الأدب.

ورغم النجاحات المتلاحقة التي أحرزتها فعاليات حسن باشا كما أسلفنا، إلا أن أي أثر إيجابي لنجاحاته تلك لم يظهر في الوزير عبدالله باشا مما أوجب موآخذة المدعو سليم أفندي من ندماء السلطان وهو الذي كان قد زكى عبدالله باشا فعين واليا على بغداد. ولكن سليم أفندي استرحم ثانية سمو العواطف السنية لتأجيل معاقبته ريثما يذهب بنفسه إلى بغداد ويعود حاملا معه بشرى استرداد البصرة، فإن لم يوفق في ذلك كان مستعدا لتقبل أي عقاب ينزل به. وقد تمت الموافقة على استرحامه هذا. وعندما وصل الموما إليه إلى بغداد نسى المهمة الضرورية الأساس التي جاءت به من إستانبول إلى هناك، وكأنه جاء تلبية لدعوة وجهت إليه لحضور مجالس التمتع واللذة والشرب

والأنس التي يقيمها عبدالله باشا لا لغرض آخر، فخاض غمار اللامبالاة وطمس في عوالم السفاهة.

وكان محمد آغا عجم أوغلو خازن عبدالله باشا يطمع في نيل منصب الوزارة، فرأى في أخلاق سليم أفندي نديم السلطان وطبيعته المائلة إلى الخلاعة والمجون ما يلائم مقصده ومرامه، وأدرك انه قد يمكنه إغفال سليم أفندي وإيقاعه في فخاخ الخداع. والواقع أن محمد آغا عجم أوغلو هو الذي كان قد حال حتى ذلك الحين من دون بذل أي محاولة والقيام بأي حركة لاسترداد البصرة. فهو بالاستفادة من ميول الوزراء الماجنة كان يناغي ما افتتنت به نفوسهم حسب انحرافاتهم الخلقية ويلعب بهم وفق مآربه.أجل، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار، فالمشار إليه كان بالرغم من أخلاقه الرديئة ومسلكه الخسيس ورذائله النفسية يعمل في سبيل المصالح الوطنية لبني قومه ولا يتغافل لحظة واحدة عن مهامه المسلكية وحبه لقومه. فكان قد استطاع بالاعتماد على صفاته الدنيئة التي أشرنا إليها أن يعزز موقعه ويوطد نفوذه الشخصي، وكان يعرقل الحركة لتحرير البصرة بالاستناد إلى نفوذه هذا الذي اكتسبه ووطده، في حين أنه كان قد حصر جميع شؤون الولاية الإدارية في شخصه وكان نفوذ الوزراء وقوتهم قد غدا خاتما في أصبع عجم أوغلو هذا يحركه كيفما شاء.

فلما قدم سليم أفندي إلى بغداد كان أول ما فعله عجم أوغلو اختبار أخلاقه وسجاياه، فتبين له على أتم مايكون أنه، أي سليم أفندي، من أولئك الذين يستطيع استغلالهم بسهولة لخدمة أهدافه ومراميه.

ولكن لنتوقف هنا برهة لنبين للقراء من هو عجم أوغلو هذا؟

محمد آغا أوغلو كان واحدا من الروافض الإيرانيين، قدم في حينه إلى بغداد بوصفه مطربا وموسيقيا. كان جد ماهر في فنونه، ولكنه كان أمهر بما لايقاس في تدبير المكائد والدسائس والحيل. كان يستطيع أن يلقي هواة فنونه الطربية، بسهولة، في حبائل أحابيله. كان رأسماله الذي ضمن له النجاح، في المقام الأول، إنه يستخدم في الغناء والرقص في مجالس عشرته وأنسه محارمه من الإناث، ويؤنس المتفرجين بهن ... قدم عجم أوغلو هذا إلى بغداد واستطاع في فترة وجيزة أن يكسب صيتا ذائعا وشهرة عالية. لقد عرّفته مهاراته الفنية بكل الباحثين عن اللذة والمتعة والعيش السفيه. وفي ظلال شهرته هذه غدا مصدر سفه الوزراء الدائم. وبفضل رغبة الوزراء فيه والنعم التي كانوا يغدقونها عليه أضحى مستغنياً عن التردد على المجالس العادية، بل بات

لايتنازل بالذهاب إلى مجالس غير الوزراء مادامت مجالسهم هم مفتوحة أمامه. وهكذا علا مركزه تدريجيا وبلغ شيئا فشيئا من الخصوصية مع الوزراء حدا كان يعاملهم معه بعدم اكتراث بالغ وصار الاختلاط بينه وبينهم قويا إلى درجة أنه كان بوسعه أن يقول لهم مايشاء ويطلع من أسرارهم على مايشاء، والأعمال التي كان يصعب على القشرة العليا من رجال الدولة اتيانها أو لايستطيعون اتيانها، كان عجم أوغلو ينجزها بسهولة دون أن تعترض طريقه أي مشاكل. ولذلك فقد صار مرجعا لكل المراجعات في العراق، وكانت ثروات العراق كلها تنهال في كيس عجم أوغلو.

عين عجم أوغلو خازنا في أيام مصطفى باشا، ولكنه كان يرى منصب الخازن ضئيلا بالنسبة إلى ذاته. فقد كان يطمع في الوزارة. ولكي يغدو مرشحا للوزارة كان يريد أن يصير كهية. وكان عبدالله باشا قد وافق منذ أمد أن يتخذه كهية له، ولكنه كان رغم كل شيء لايتجاسر على أن يفعل ذلك، وفي بغداد من الوجوه والأشراف القدماء ذلك العدد الكبير الذي كان فيها. أما الآن فقد قيض الله له ظهيرا نافذ القول يستطيع أن يستند إليه في تحقيق هذه الرغبة ألا وهو سليم أفندي دون غيره.

أجل! فعندما أدرك عجم أوغلو مدى انهماك سليم أفندي في المجون والخلاعة، غدا يعتبر نفسه كهية بالفعل. وفي الحقيقة لم يكن عجم أوغلو مخطئا في تصوره هذا الذي استند فيه إلى خلق سليم أفندي الرديء. فمن خلال القصف والعربدة في بعض مجالس العشرة أضحى مالكا لإرادته، وبتقديم بعض الهدايا النقدية إليه بات متحكما مطلقا في جميع خياراته. وكما يذكر صاحب «گلشن خلفا»[٢٩] نقلا عن بعض المصادر الموثوق بها، كانت الهدية التي قدمها إليه عجم أوغلو كيسين من المجوهرات الثمينة كل منهما بحجم يستوعب ستين سنتيمترا.

سبق أن ذكرنا أن عبدالله باشا لم يكن أقل بحال في الود القلبي الذي كان يكنه لعجم أوغلو مما كان سليم أفندي منقادا إليه. وأضفنا إلى ذلك القول أنه نظرا للماهية الدنيئة التي كان لعجم أوغلو والتي لم تكن تنسجم مع توليته منصب الكهية. وحتى إذا حاول عبدالله باشا توليته ذلك المنصب، كان من المحتمل كثيرا أن يتعرض

(٢٩) من حسن الحظ أنه قد تمَّ العثور أخيراً على الجزء الثاني من « ذيل گلشن خلفا » الذي كان يظن أنه لا وجود له، وهو يبدأ من العام ١٢٣٧هـ بترجمة حياة إسماعيل باشا منذ يوم ميلاده والخ ويعكف شكور مصطفى منذ مدة على نقله إلى العربية- المترجمان.

للموآخذة والعتاب من أشراف بغداد وأكابرها. لهذه الاسباب مجتمعة لم يجرأ عبدالله باشا حتى ذلك الحين على القيام بذلك. أما الآن فإن الموضوع كان يتخذ له مسارا آخر.

أجل! فعندما وجد عبدالله باشا نفسه مدعوما بتأييد سليم أفندي ومساندته، وهو الذي قدم إلى بغداد مع نخبة من كبار المسؤولين الممتازين من ندماء الذات السلطانية، لم يعد أمامه محذور يحول دون تنصيب عجم أوغلو كهية له.

واستنادا إلى هذه النظرية عزل عبدالله باشا كهيته إسماعيل آغا من منصبه، وكان من ذوي الشرف والكرامة، ونصب مكانه عجم أوغلو كهية له. ولكن كان لخطأ عبدالله باشا هذا وللدناءة التي ارتكبها ثمن باهظ سواء بالنسبة له هو أو للحكومة أو للشعب.

أجل! فقد مات عبدالله باشا بعد أسبوعين، وبموته فتحت على مصاريعها أبواب منافسة حامية الوطيس وعداء بالغ أشده بين عجم أوغلو والكهية السابق إسماعيل آغا. وكان عجم أوغلو يتمتع بقوة كبيرة سواء باستناده إلى دعم سليم أفندي ومساعدته له أو بسبب من أولئك الأدنياء والسِّفْلة الذين جمعهم حوله مما يثيره يمينا أو شمالا من أموال وهدايا وهبات. فكان يستطيع بقوته تلك أن يقف بوجه إسماعيل آغا. لقد استمرت المصادمات داخل المدينة أياما وأسابيع عديدة، ولكن النصر لم يكشف عن نفسه لصالح أي من الفريقين المتنازعين.

وفي هذه الأثناء عاد الحاج سليمان أفندي الشاوي إلى بغداد، وكان رجلا محايدا، فتوسط بين الطرفين على أن لايتولى أي من عجم أوغلو وإسماعيل آغا منصب الوزارة وأن يغادرا بغداد فورا، وتعهد الفريقان بذلك، فوضع بذلك حد للقتال وانتهت إراقة الدماء.

وما لبث أن ترك إسماعيل آغا بغداد طبقا للإتفاق وسار إلى كركوك فاستقر لدى واليها الوزير حسن باشا، ولكن عجم أوغلو لم يفِ بالوعد الذي قطعه على نفسه فظل مصرا على تحقيق مطامعه. وهكذا أخذ كلا الطَرفين يتموضع داخل بغداد ويقيم استحكاماته وخنادقه فيها واستأنفا القتال من جديد بكل شدة وحدة. وفي هذه المصادمات تولى الحاج سليمان آغا بنفسه قيادة التصدي لعجم أوغلو الذي لم يراع القرار الذي تم التوصل إليه بوساطته. وفي هذه الآونة كان وضع سليم أفندي قد تدهور إلى حد كبير، فكان يدرك أنه يقف وجها لوجه أمام الخطر المحدق به في كل لحظة، وبناءً على ذلك فقد غادر ترك بغداد في إحدى الليالي وتوجه نحو دياربكر.

وفيما كان القتال والصراع مستمرا بين الفريقين المتنازعين قدم كل منهما طلبا إلى

الباب العالي يسترحم فيه توجيه الولاية إليه، ناسبا الوزر والتقصير إلى الجانب الآخر ومتعهدا باسترداد البصرة. وكان إسماعيل آغا قد أوضح في عريضته التي رفعها ما آلت إليه الأمور في بغداد وخيانة سليم أفندي. وبناءً على ما عرضه وبينه هو صدر الأمر بقطع رأس سليم أفندي، وما إن وصل دياربكر حتى صودرت أمواله وأمتعته ونقوده بالجملة وجز رأسه وأرسل إلى إستانبول.

وإذ أدركت إستانبول أن الصراع على كرسي الولاية في العراق قد أوقع بغداد في يوم نشور من الفوضى واختلال الأمور، أوكل أمر وضع حد لمشاكل تلك الولاية إلى الوزير حسن باشا وإلي شهرزور اعتمادا على نشاطاته وخدماته السابقة هناك، إضافة إلى منصبه. إلا أن حسن باشا كان مشغولا بإصلاح ذات بين البابانيين وإنهاء ما كان يمزقهم من خصومات شديدة كانت تنجم عنها المحاذير السياسية، وكان منهمكا في تهيئة أرضية المصالحة والتاليف فيما بينهم. ولهذا السبب فقد أناب عنه إسماعيل آغا. وإذ علم إسماعيل آغا أن عجم أوغلو قد يئس من نيل مراده ولم يستطع تحقيق مبتغاه عن طريق التوسل بالقوة، اعتقله وأودعه السجن ريثما يصل حسن باشا إلى بغداد.

وفي العام ١١٩٢هـ (١٧٧٨م) وصل أحمد باشا بصحبة القوة التي كان على رأسها خان كلبعلي إلى ديار بابان، مما أضطر محمد باشا للاحتماء بكويسنجق وحرير حيث تيمور باشا، وتولى بنفسه العرش البابانى وأعاد كلبعلي خان إلى بلاده. ولما علم محمد باشا بعودة كلبعلي خان بقواته ساق هو قواته مع تيمور باشا على أحمد باشا. وإذ علم أحمد باشا بالنية السيئة التي يبيتها له محمد باشا، خرج بقواته لمقابلته، فالتقت القوتان في قرية جيشانه في سفح جبل ژاژيله وحمي وطيس القتال بينهما واستمر طيلة النهار، وكانت نتيجتها أن انتصر أحمد باشا ودحر قوات محمد باشا وأسره هو وتيمور باشا، فأعدم الثاني في الحال ولكنه رأف بحال أخيه ولم يقتله بل اكتفى بحبسه في قلعة سروچك.

ولما انتهت المسألة البابانية إلى هذا المصير، لم ير حسن باشا أن يزيد الأوضاع سوءا ولم يرد أن يخلق مشكلة ثانية وبغداد تعاني من اختلال أمورها ماتعاني فآثر الصمت واستصوب مجاراة الأمر الواقع وترك المنطقة على ماهي عليه وتوجه بنفسه إلى بغداد. وعندما وصل بغداد رأى أمور العراق في هرج ومرج شاملين، فلم يدرِ أين يبدأ العمل وظل حائرا في كيفية معالجة الأوضاع لأنه كان لايقدر النجاح لنفسه في هذا الأمر الذي

تصدى للقيام به، أو أنه كان يخشى أن تؤول الأوضاع إلى عكس ماكان يريده وتتدهور أكثر وتزداد سوء، فكيف يعالجها آنئذ وكيف يتصدى للمشاكل الجديدة، ياترى؟ كان موضع استرداد البصرة قد أوجد له مشغلة فكرية، ولم يكن ذهنه ليفرغ دقيقة واحدة عن اتخاذ الإجراءات اللازمة بهذا الشأن. ولذلك، وفي سبيل إحراز النجاح في تلك القضية التي كانت محور تفكيره وهدفه الأسمى، رأى من الأصوب غض النظر عن الثورة القائمة في بغداد، التي كان يعتبرها من الأمور الفرعية، ولذلك أعلن العفو العام عن القائمين بها ولكنه لم يقرر شيئا ولم يتخذ أي إجراء بحق عجم أوغلو السجين وأبقى مسألته معلقة، فاغتنم الموما إليه فرصة سنحت له بعد عدة أيام وهرب ملتجأ إلى رئيس عشيرة الوند ابن الخليل آغا، فأدى هروبه إلى إفشال خطط حسن باشا السامية التي كان يبيتها آنئذ بشأن استرداد البصرة، كما أدى إلى القضاء على كرامته الذاتية وضياع مساعيه. لقد ترك موقف الإغماض والتسامح تجاه ذوي الطبائع العقربية من الناس الذي من شأنه أن يورث المضارّ، الحكم في الموضوع متروكا لرأي حسن باشا وقراره.

أجل! فلو أن حسن باشا كان قد حلل الماهية الأساس لعجم أوغلو ومواقفه من قضية بغداد، لأدرك أن الإبقاء على حياته يغدو عقبة في طريق نجاحه ولاسيما أن مطلبه الأساس وهدفه الأسمى كان إيجاد علاج لاسترداد البصرة، وأن احراز النجاح على هذا الطريق كان متوقفا إلى حد كبير على مدى تمتعه بالقوة في بغداد وتمكنه من الإمساك بمقاليد الأمور فيها. وهذا في منطق الإجراءات الرادعة التي كان يتطلبها الوضع آنذاك، كان منوطا بالمبادرة إلى إعدام عجم أوغلو وأعوانه وأشياعه بالجملة فور وصوله إلى بغداد، ولو أنه سلك هذا السبيل لاستقرت له الأمور واستتبت. ففي سبيل النجاح في تحقيق عظائم الأمور ينبغي البدء من الجزئيات والأمور الفرعية، وعكس ذلك إنما هو بمثابة البدء بالبناء من دون وضع الأساس له. ومن الواضح أن أي مسعى يبذل للبناء من دون إقامته على الأساس، لن ينجم عنه إلا العمل العابث الذي لا طائل تحته.

ومادام حسن باشا لم يستأصل بؤرة الفساد والخيانة التي اكتوت بغداد بنار فجائعها وفظائعها حوالي ستة أشهر وأصابت مركز العراق بأشد أنواع الفوضى واختلال الأمور، فإن نفوذه لم يكن ليستقر بالطبع. ولذلك فإنه كان يسد طريق نجاحه بيده ويقضي على آثار فعالياته ونشاطاته السابقة كلها ويجعلها ضحية إهماله هذا وقلة مبالاته.

سبق أن ذكرنا أن عجم أوغلو هرب والتجأ إلى ابن الخليل أحمد آغا رئيس عشيرة الوند. وكان أحمد آغا هذا قضى ردحا من الزمن في خدمة حسن باشا بعنوان. ولجفوة ماوقعت بينهما لم يطب له المقام عنده ولم يتمالك نفسه فعاد ليرأس عشيرته وسلك طريق الشقاوة. وعندما كان لدى عبدالله باشا ارتباط بعجم أوغلو فكونا فيما بينهما صلات وعلاقات، فاتفقا على إدارة دواليب الفتنة معا:

أما عجم أوغلو فمن داخل بغداد، وأما أحمد آغا فمن خارجها. لقد كان أحد هذين الوحشين المفترسين المخلوقين في صورة إنسان داخل القفص، فكان إطلاق سراحه ضربة كبيرة ليس للحكومة والوطنية معاً حسب، إنما للانسانية كلها كذلك.

والواقع أن حسن باشا وإن لم يقم بهذه العملية كعمل مفروض عليه، إلا أنه ارتكب به خطأ فادحا غير قابل للتبرير إطلاقا. غير أن خطأه مهما يكن كبيرا، ماكان ليعادل خطأ إعلاء شأن منحط من أسافل الناس إلى هذه الدرجة ووضعه في مقام عال يسيطر منه على مقدرات الجبهة العراقية. ومع ذلك فإن خطأ حسن باشا كان منشؤه مجرد اجتهاد خاطئ.

ولم يكن حسن باشا ليهمه ماقد يتضمنه اجتهاده هذا من إهانة لشخصه، فقد كان يستهدف منه غرضا نبيلا هو استرداد البصرة التي وقعت تحت نير الاحتلال الأجنبي. ولكن الوزراء السابقين الذين وضعوا أساس هذه المشكلة ومهدوا الأرض لحدوث تلك الأوضاع الشائنة والمخزية، فإنهم إذا لعنهم التأريخ كان ذلك في محله تماما. وكيف لا؟!

إن التاريخ الذي لا يلعن خيانة استغلال المخاطر السياسية العصيبة المستعصية التي كان يمر بها مركز السلطنة من أجل تحقيق رغبات سفيهة، ولايعم بالعار التضحية بجزء مهم من الوطن الإسلامي مثل البصرة قربانا لعيني راقصة من راقصات عجم أوغلو، لن يكون جديرا أبدا بأن يحمل اسم التأريخ.

ومما يؤسف له أن المؤرخين الذين تتبعوا أحداث العراق ووقائعه هذه اخطأوا في توضيحها على حقيقتها، فهم وإن كانوا قد تحدثوا واحدا واحدا عن نبذ منها، إلا أنهم لم يبينوا دقائقها ولم يلتزموا جانب إعطاء كل ذي حق حقه فيها. ولكن الذين يريدون التوصل إلى فهم الحقائق بشأن هذه المسألة من خلال جمع بيانات وإيضاحات أولئك المؤرخين والربط بينها ومقارنة بعضها ببعض، فإنهم يستطيعون فهمها بوضوح

ويستبينون مدى تهافت أولئك في بيان حقيقة هذا الأمر. ولكن إذا أخذت الأحداث المقترنة باسم عجم أوغلو من الكتاب[٣٠] وأضيفت إلى ماتضمنه كتاب (ذيل گلشن خلفا)[٣١] أمكن التوصل إلى معرفة حقيقة تلك الأحداث.

لنترك هذا الموضوع عند هذا الحد، ولنلقِ نظرة على تفاصيل الإهانة التي غرز الوزراء مديتها حتى المقبض في حياة الوطن واستقرار البلاد.

فبعد أن التحق عجم أوغلو برفيق سيئاته ابن الخليل ويئس من الحصول على كرسي حكم العراق الذي طالما سعى إليه حتى اعتبره ملكه الشخصي، مسخ من صفة البشرية وغدا في حال السُّعار والعُقر، لذلك لم يكن يتورع عن تخريب وتدمير أي مكان يمر به ومن قتل وتمزيق أي إنسان يلاقيه في طريقه.

إن المظالم المتلاحقة التي ارتكبها هذان المتعطشان للدماء، المكمل أحدهما فظائع الآخر، عرضت بغداد وضواحيها إلى الأهوال والمصائب، فانقطعت طرق المواصلات وغدت الحياة العامة وأمور المعاش في ضيق شديد.

ولم تحرز القوات التي جردها حسن باشا للتنكيل بهذين الشقيين واستئصال شأفتهما أي نصر غير الاندحار الشنيع. وهكذا أخذ خونة المرقومين يتزايدون يوما بعد يوم حتى بلغوا مايربو على ألفي خائن. لقد أنست هذه الغائلة مشكلة البصرة. على أن حسن باشا وإن كان قد حصر كل تفكيره في القضاء على هؤلاء، إلا أن ذلك كان دونما جدوى، فقد عبس النصر بوجهه وغدت مساعيه في سبيل استمالته عقيمة.

---

(٣٠) يقصد «گلشن خلفا» أنهى مؤلف كتاب «ذيل گلشن خلفا» الأديب والشاعر الكردي، الموسوم حاوي الكركوكي، الجزء الأول من كتاب وهو بالتركية العثمانية حتى وصل العام ١٢٣٧ للهجرة، وقد ترجمه الأستاذ موسى كاظم نورس عضو جمعية المؤلفين والكتاب وطبعه ضمن سلسلة الكاتب العربي في بيروت/ مكتبة النهضة - بغداد تحت عنوان «دوحة الوزراء في تأريخ وقائع بغداد وذكر أن «المؤلف، أي حاوي الكركوكي، كان ينوي أن يردف كتابه بمجلد ثان يتناول فيه سرد الحوادث التي وقعت بعد سنة ١٢٣٧هـ. إلا أن المنية عاجلته وتوفي إلى رحمة الله سنة ١٢٤٠هـ. فكان كتابه هذا هو المجلد الأول والأخير»، غير أن المؤلف كما اكتشف أخيراً، كان قد أكمل الجزء الثاني، وهو الآن قيد الترجمة إلى العربية من قبل شكور مصطفى. والكتاب بجزئيه ذيل لكتاب مطبوع بالتركية بعنوان «گلشن خلفا» لمؤلفه زاده مرتضى أفندي - المترجمان.

(٣١) سبق الإشارة إلى هذا الكتاب وهو الجزء الثاني من كتاب (ذيل گلشن خلفا) أي دوحة الوزراء لمؤلفه حاوي الكركوكي - المترجمان.

وفي آخر الأمر لم يبق من علاج إلا إرسال محمد بيگ الشاوي للاستنجاد بالبابانيين وطلب العون من أحمد باشا، فوصل محمد بيگ قەلاچوالان وأبلغ أحمد باشا دعوة حسن باشا إياه مبينا له الغرض منها، فسار أحمد باشا مستصحبا أبطال البابانيين للقاء الخونة المذكورين وحمل عليهم شر حملة، فقتل الكثير منهم وضيق الخناق على الباقين حتى طلبوا الأمان. أما عجم أوغلو وابن الخليل فقد احتميا بشهامة أحمد باشا وحرزه، فرجا لهما العفو من حسن باشا فنالا العفو وصرف النظر عن سيئاتهما السابقة على أن يكفا عن كل إخلال بالأمن ويلتزما الطاعة المطلقة.

وعاد أحمد باشا إلى موطنه كما عاد الأشقياء المذكورون إلى أماكنهم السابقة، إلا أنه لم يمضِ وقت طويل حتى أخذ هؤلاء يعدون أنفسهم للثأر للضربة التي تلقوها، وبدأوا بأعمالهم التخريبية بصورة أكثر دقة وإحكاما وعلى مدى أوسع من ذي قبل. وما كان للقوات العراقية معهم حول ولا قوة، فكانت الهزيمة عاقبة كل حملة تشنها عليهم حتى فقدت الجرأة على التصدِّي لهم. أما الأشقياء فكانوا يزدادون بأساً يوما بعد يوم، وفي كل انتصار يحرزونه كانت جسارتهم تتضاعف لنيل المزيد.

وهكذا باتت بغداد في حصار أشد وأقسى، فخرج محمد بيگ الشاوي إلى عشائر العبيد مستنجداً بها، فحشدت العشائر المذكورة قوة، كما جمعت القوات المختلطة للعشائر المجاورة والعساكر المحلية ورتب أمرها وأرسلت بقيادة عثمان آغا كهية الولاية لمساعدة تلك القوة، لتزحف جميعا معا على البغاة والخونة آنفي الذكر، ولكن هذه القوات المجتمعة دحرت في المعركة الأولى شأنها شأن سابقاتها واضطرت إلى التراجع في وضع مؤلم. فاضطر حسن باشا مرة أخرى لعرض حاجته وافتقاره إلى همة أحمد باشا الغضنفرية لاستئصال القتلة والتنكيل بهم، وهو ماكان من شأن شجاعة البابانيين الأبطال التي لاتوجد فيما سواهم.

وأوفد محمد بيگ الشاوي ثانية إلى قەلاچوالان لهذا الغرض. ولكن أحمد باشا كان غير مطمئن من ناحية أخيه السجين محمد باشا ولذلك لم يكن ليجرؤ على ترك دياره. ومع ذلك كان يرى المبادرة إلى القضاء على تلك المحنة التي تعرضت لها بغداد فريضة مقدسة على عاتقه.

لقد أربكه تردده وقلقه بين ضرورة الإسراع للتوجه لإنقاذ بغداد من وضعها المؤلم الذي تعيش فيه من جهة، وخوفه من ضياع سلطانه إذا ترك قەلاچوالان من جهة أخرى. فلم يكن يستطيع أن يحدد الخطوة السليمة التي عليه اتخاذها. ولكنه حسم الموضوع

في آخر الأمر بأن قلع عيني أخيه محمد باشا فوضع بذلك حدا للهواجس التي كانت تنتابه، فلم يبق عائق ما، على ما كان يبدو في الظاهر، من دون التحرك بصحبة محمد بيگ الشاوي. ولكن هيهات! فقد كان العائق الحقيقي والأكثر مرارة يظهر لتوه.

فبعد أن قلع أحمد باشا عيني أخيه ندم ندما شديدا على ذلك العمل المخالف لقيم الأخوة. وكان هذا الندم يمزق نياط قلبه في كل لحظة. ومع أنه كان في اضطراب روحي شديد ويعاني من آلام نفسية مفرطة نتيجة ندمه على عمله ذاك، إلا أنه لم يتغافل لحظة واحدة عن ضرورة الإسراع في التحرك لئلا تفوته الفرصة لمساعدة بغداد في محنتها. وفي غمرة اضطرابه الفكري هذا، وفي اليوم نفسه الذي أقدم فيه على ذلك العمل بحق أخيه، خرج مع رجاله. ولكنه ما ان اجتاز جبل أزمر الواقع على مبعدة ساعة ونصف تقريبا من قەلاچوالان حتى أصيب بنوبة حمى، ومع ذلك لم يتأخر عن السير ولم تفتر عزيمته لقدسية وأهمية المهمة التي كان يسعى إليها. وإذ وصل قرەداغ، اشتدت به الحمى أضعافا مضاعفة. وبغية التعجيل في أداء الواجب الوجداني، وضع على نقالة وهو في غاية الخور والانحلال، من دون أن يكشف عن أي عجز عن تحمل النقل بتلك الصورة، ولكنه فارق الحياة بمزيد الأسف في سفح جبل سگرمه[٣٢] على مسافة ثلاث ساعات تقريبا من قرەداغ.

لم تتجاوز فترة حكومة هذا البطل في مراته الثلاث جميعا أربع ساعات ونصفا، وكان قد زوج كريمتيه من ولدي أخيه محمود پاشا عثمان بيگ وعبدالرحمن بيگ. وقد ووري جثمانه الثرى في قەلاچوالان.

وهذه هي الكتابة التي على شاهد قبره:

«شاه غازى أحمد لشكرشكن

آنكه تيغش قلب اعدا ميبريد»

أي: «الشاه الغازي أحمد هازم الجيوش، ذلك الذي كان سيفه يمزق قلوب الأعداء.

كان العصيان في بغداد يشتد يوما بعد يوم، ولم يكن حسن باشا ينتظر الخلاص من تلك المحنة إلا من شجاعة البابانيين. ولذلك فإن حادثة وفاة أحمد باشا في ظرف دقيق كتلك الظروف أحدثت في نفسه أثرا جدَّ مؤلم. وللإسراع في إنهاء تلك الأوضاع الصعبة أرسل أمر الباشوية وخلعتها باسم محمود باشا الشقيق الأصغر للمرحوم أحمد

(٣٢) ورد الاسم في المدوّنات العثمانية «سگرتمه» وهو جبل يقع شرقي كركوك - المترجمان.

باشا الذي تولى مقام الحكم، وأكد عليه ضرورة الاستعجال في الوصول دقيقةً قبلُ، فتحرك محمود باشا فورا بما كان متوفرا من قوة في منتهى السرعة نحو بغداد.

وإبان هذا التأخر الذي كان من صنع الأقدار كانت شرور الأشقياء المذكورين قد بلغت ما وراء أسوار بغداد، وكانت فجائعهم الدموية أغرقت المدينة في لجة اضطرابات مرعبة. وإذ كانت بغداد وضواحيها محاصرة في تلك الضائقة الشديدة، وصل محمود باشا فأنزل بمقدمه السكينة والبهجة والفرح في قلوب الجميع. وفي اليوم الثاني لوصوله أمر قوات بغداد المحاصرة بالتحرك ثانية بقيادة الكهيه عثمان آغا مع قواته هو. لقد ترك وصول البابانيين إلى بغداد أثره الكافي في ابتعاد الأشقياء المذكورين. ومع ذلك بدأ محمود باشا بمطاردتهم مسترشدا لمعرفة الطريق بالكهية عثمان. كان عثمان بيگ الابن الأكبر لمحمود باشا يتولى مهمة الاستطلاع لهذه القوة، فالتقى بالقرب من الخالص بقوة للأشقياء مكونة من ألف رجل، فامتشق بوجهها الحسام وحمل عليها بجنده، فلم تستطع ثعالب العجم الصمود بوجه هذه الصولة الغضنفرية، كما أن من نجا منهم من الموت في هذه المعركة لم تتيسر لهم فرص النجاة. لقد قتل منهم عند الحملة الأولى أكثر من نصفهم وراحوا فداء لضربات السيوف البتارة التي أصابتهم، والمهزومون الباقون، وإن فروا نحو مقرهم في وادي الوند، إلا أنهم لم يقر لهم القرار هناك أيضا، فولوا هاربين نحو مندلي. ولم يتوانَ محمود باشا عن ملاحقتهم فطوقهم في الموقع المعروف بـ (يدى دگيرمان)[٣٣] الذي كانوا يتحصنون فيه.

ولئن تمكن عجم أوغلو وابن الخليل من النجاة بجلدهما والفرار إلى كُردستان، إلا أن معظم أعوانهما فرُّوا صرعى بسيوف المهاجمين وأسر منهم مئتا شخص وتم الاستيلاء على أموالهم وأمتعتهم ومواشيهم كغنائم حرب.

وفي السنة ١١٩٣هـ (١٧٧٩م) توفي كريم خان الزند، فقامت الفوضى والاضطرابات مجددا في إيران، واستولى زكي خان ابن عم كريم خان بالقوة على مقاليد الحكم. وإذ بلغ هذا النبأ مسامع صادق خان أخي كريم خان الذي كان في البصرة، دغدغته أحلام الاستيلاء على مقام أخيه الذي كان يراه حقه المشروع. فترك البصرة طائعا أم مكرها، وأخذ معه جنوده وعساكره إلى إيران.

ولما بلغ خبر تخلية البصرة بهذه الصورة إلى أسماع حسن باشا في بغداد أرسل

(٣٣) كلمة تركية تعنى الطواحين السَّبع.

شخصا يدعى نعمان أفندي إلى البصرة ليكون متسلما لها.

أما سليمان آغا متسلم البصرة السابق الذي دافع عن المدينة أربعة عشر شهرا ثم تسلم أمرا من مصطفى باشا بالاستسلام وأرسله صادق خان إلى شيراز أسيرا، فقد أطلق زكي خان سراحه من الأسر وأعاده معززا مكرما إلى مقام وظيفته مصحوبا بموظفين خاصين. وعندما وصل الموما إليه إلى الحويزة وسمع نبأ تعيين نعمان أفندي متسلما للبصرة وعلم أنه باشر وظيفته فيها وتولى تقاليد أمورها، توقف هناك وأخذ يراسل أشراف البصرة وأعيانها. ومع أن عودة الموما إليه إلى البصرة كان مدعاة سرور البصريين جميعا، إلا أنه نظرا للنفور القديم الذي كان بينه وبين شيخ المنتفك، حيل بينه وبين العودة من قبل الشيخ المذكور. وقد راجع باشا بغداد كثيرا بشأن عودته إلا أنه أجيب من قبله بأن الوقت قد فات وأن متسلما جديدا قد عين للبصرة، وأن عليه أن يعود إلى بغداد وسيدخل السرور إلى قلبه بصورة أخرى، وبناءً على ذلك عاد إلى إستانبول.

وفي هذه الآونة اقتضت الضرورة اللجوء إلى السلاح لحل نزاع شديد وقع على قضية قبلية بين عشيرتي المنتفك والخزاعل، فاصطدمت العشيرتان ببعضهما، وبعد معركة دامية هزمت عشيرة المنتفك وقتل الشيخ المناوي لسليمان آغا.

وكان الشيخ الجديد الذي تولى مقام الشيخ القتيل من محبي سليمان آغا، فجاء بنفسه إلى البصرة وولى سليمان آغا مقام الحكومة فيها. وما إن تولى سليمان آغا منصب المتسلمية حتى بادر إلى إلقاء القبض على نعمان آفندي وزجه في السجن.

إن عجم أوغلو وابن الخليل الذين سبق أن هزمهما محمود باشا وهربا إلى كُردستان، لجأ إلى حماية علي مراد خان الذي سبق أن وقع في أسر سيف جلادة المرحوم أحمد باشا ثم أطلق سراحه وأعيد إلى كريم خان الزند وتسلط فيما بعد على مقاليد الحكم في إيران بعد وفاة كريم خان وقضائه على زكي خان.

لقد نال عجم أوغلو وابن الخليل الالتفات من لدن علي مراد خان لما قدماه له من خدمات في سبيل انتصاره. ولم تكن النوايا الثابتة في نفس هذين الشخصين إزاء بغداد قابلة للإخماد. حتى إذا اقتطف علي مراد خان ثمار سعده اتصلا به ليبديا له تعضيدهما، فاصحبهما علي مراد خان من القوة قدر مايجب مكافأتهما به عن ما قدماه له من خدمات بارزة.

أعاد عجم أوغلو وزميله في الخبث ابن الخليل النظر في الزحف على بغداد بالقوة

واتخذا جهة بعقوبة هدفا لحملتهما. وفي تعرضهما هذا الذي كان يقع هنا وهناك، لم يفرقا في ما كانا يصادفانه في طريقهما بين إنسان وحيوان بل كان يتلفان كل شيء ويدمران القرى والمزارع ويخربانها. ولذلك فقد بادر حسن باشا بنفسه لتحشيد ما كان يمكنه تحشيده من قوات لمقابلتهما، ولكن من دون جدوى. فقد كان سبحانه وتعالى قد سد بوجهه طريق التوفيق وجعل مساعيه كلها عقيمة تنتهي بالفشل، فلم يحرز أي انتصار، بل رجع القهقري مهزوما، وطارده العصاة حتى باب الأعظمية.

لقد أدت هزيمة حسن باشا هذه إلى هبوط منزلته بين الناس إلى حد كبير وغدا مثار نفوس الرأي العام، وفكر سكان العراق في أن بقاءه واليا عليهم قد تنتهي بكارثة، فثاروا عليه وطردوه بالقوة من البلاد ونصبوا مكانه الكهية إسماعيل آغا، فترك حسن باشا بغداد يائسا خائبا إلى دياربكر. ومع أنه بشر بتنصيبه واليا عليها فور وصوله إليها، إلا أنه لم يلبث أن قضى نحبه لفرط ما عاناه من آلام نفسية شديدة بسبب فشله في معالجة الأزمة في بغداد وما آل إليه أمره هناك.

وكان متسلم البصرة سليمان آغا قد استرحم الباب العالي إبان اختلال الأمور في بغداد بتعيينه واليا عليها، متعهدا لقاء ذلك بضمان سيادة الأمن والاستقرار في العراق كله. وعند تعيين حسن باشا واليا على دياربكر، عين سليمان آغا كذلك واليا على بغداد والبصرة وشهرزور برتبة وزير، بعد أخذ تعهداته بنظر الاعتبار.

وضع سليمان آغا نصب عينيه إعادة الأمن والهدوء وضمان الاستقرار في ربوع البلاد قبل أن يجلس على كرسي الولاية، وبدأ باتخاذ الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الغاية. وفي سبيل أن يقيم دعائم نفوذه على الهيبة والمهابة بادر إلى إعدام إسماعيل آغا الكهية رغم أنه سار لاستقباله حتى مشارف البصرة، كما ألقى القبض على عدد من الأشراف والأعيان ممن كانوا بصحبته وزج بهم في السجن، وكتب إلى محمود باشا البابان يدعوه للقدوم إلى بغداد على جناح السرعة.

لاحظ محمود باشا أن ليس هناك حاجة خاصة لمواجهة عجم أوغلو ورفاقه الأشرار ليقتضي الأمر سفره إلى بغداد. ولذلك أرسل نيابة عنه ابنه عثمان بيگ على رأس خمس مئة فارس، فوصل الأمير المذكور إلى أطراف بغداد حيث التقى سليمان باشا. وإذ رأى سليمان باشا أن محمود باشا اكتفى بإرسال ابنه عثمان باشا بدلا منه، في حين أنه طلب قدومه هو بالذات، استنتج من ذلك أن الباشا البابانى وجد نفسه مستغنيا من تلبيته الدعوة، وهذا مما لايمكن اغتفاره بالنسبة للوزير الجديد الذي كان

كل همه منحصرا في فرض هيبته على جميع الأطراف والأكناف.

ومع أن عثمان بيگ لم يكن يقل عن أبيه مقدرة وكفاية إن لم يفقه، إلا أن سليمان باشا المنهمك في بسط نفوذه على كل متنفذ، لم يكن يجد في مسلك محمود باشا هذا ما يمكن التسامح بشأنه.

وصل سليمان باشا في طريقه إلى بغداد باب الأعظمية ولكنه أعلن أنه لن يدخل دار الحكومة ببغداد قط مالم يقضِ على فتنة عجم أوغلو، وكان يهدف من وراء ذلك إلى ضمان الأمن وكسب عطف الرأي العام ووده، فأخذ في إعداد العدة ومستلزمات التنكيل بالعصاة وهو في مقره خارج المدينة. وبعد أن حشد قواته وأكمل لوازمها وعددها توجه لضربهم وسحقهم رغم ما كان يراوده من شكوك في أنه قد ينجح في ذلك بقوة قوامها أربعة آلاف شخص يقابلهم عشرة آلاف من العصاة. ولكن عثمان بيگ أخذ على عاتقه تمزيقهم والقضاء عليهم بفرسانه الخمسمائة. فحمل عليهم قرب بعقوبة، واشتبك الجيشان في معركة استمرت من الصباح حتى المساء، ولم يطق الإيرانيون المقاومة بوجه فرسان البابانيين الذين كان على رأسهم عثمان بيگ، فقتل ثلثاهم وآثر الباقون النجاة بجلدهم فاختاروا طريق الفرار. وفي هذه المعركة قتل ابن الخليل وقدم عثمان بيگ رأسه المقطوع هدية لمقدم سليمان باشا. أما عجم أوغلو الموسيقار فلم يجرؤ لسوء الحظ على خوض عاصفة الوغى، وقبل أن تلحق بزمرته تلك الهزيمة الشنعاء التي لحقت بها، كان هو قد آثر الهزيمة وفر بجلده.

وبعد أن لقيت شرذمة العصاة هذا المصير، جرى التحري عن كل الذين آووهم وقدموا لهم يد العون فألقي القبض عليهم وعوقبوا العقاب الذي يستحقونه. إن الأثر المرعب الذي أحدثه في النفوس هذا الانتصار الباهر، زاد نفوذ الوالي بدرجة كبيرة، فانتهى كل مظاهر التمرد والشرور التي اتقدت نيرانها في أيام حسن باشا مرة واحدة.

لقد رأى سليمان باشا في عثمان بيگ السبب الأول لإحراز هذا الفتح المبين، ولذلك أنعم عليه برتبة (مير ميران) وأعاده إلى دياره. وبما أنه لم يكن قد بقي ما يسبب له القلق والهواجس القلبية، فقد دخل بغداد فخورا غانما ظافرا.

أما في حقيقة الأمر فبالرغم من أن سليمان باشا قد أنعم على عثمان بيگ برتبة مير ميران وأعاده إلى دياره، إلا أن ذلك لم يكن بقصد إظهار الامتنان للنخبة المختارة من البابانيين، بل إنه على العكس من ذلك كان عدم استجابة محمود باشا لدعوة سليمان باشا قد خدش روح الاستعلاء والاستكبار الكامنة فيه وأحدث في قلبه جرحا

عميقا من الغيظ والانفعال. فكل ما اتخذه سليمان باشا من إجراءات كان في سبيل إعلاء شأنه ومضاعفة نفوذه هو بالذات، في حين أن موقف محمود باشا بعدم تلبية دعوته كان يعني تحقيرا لذلك النفوذ واستصغاراً له وتقليلاً من شأنه. فهل كان سليمان باشا يتسامح إزاء ذلك؟ هذا ما يكشف لنا عنه الآتي القريب.

بدأ سليمان باشا حال دخوله بغداد باتخاذ الإجراءات الكفيلة بضمان الأمن الداخلي واستقرار الأوضاع وبإزالة العراقيل التي كانت تعرض السلامة العامة واطمئنان الخواطر إلى الأذى.

ومع أن حاكم البابان محمود باشا كان ينفذ جميع الأوامر التي يصدرها إليه سليمان باشا بالذات، إلا أنه لم يذهب بنفسه للقائه، فكان عزوفه هذا عن السفر إلى بغداد واللقاء بسليمان باشا، منافيا للعظمة الروحية للوزير المشار إليه. ومن هنا فإن الكره والحقد الذين رسخا إزاءه في قلب الوزير منذ اليوم الأول لتنصيبه، كان يشتدان أكثر فاكثر ويتسع مداهما. إلا أن الطاعة التي كان يبذلها محمود باشا لم تكن خاصة بسليمان باشا شخصيا وبصورة مباشرة. إنها كانت إطاعة لسلطان خليفة الإسلام، ومن هنا فانه لم يكن يني عن إطاعة أي أمر يصدر إليه والانقياد له، وكان يؤدي واجبه بحق كتابع إزاء متبوعه، ولكن سليمان باشا كان يهين الكبار والعظماء لا لشيء إلا لترسيخ شهرته وإشاعة هيبته، ولذلك فإن محمود باشا كان يتحاشى الالتقاء به، فكان سليمان باشا يزداد غيظا وضغينة لذلك ويشتد انفعالا، ولهذا السبب كانت سورة الحقد والغضب تعصف به إزاء البابانيين كلهم وتقض مضجعه، إلا أنه ما كان يجد متنفسا ليفجر كوامن حقده هذا بوجوههم، أو يجد له طريقا ملائما لذلك مع ضمان النجاح فيه، فقد كان يدرك جيدا أنه لن يستطيع حسم أمره معهم عن طريق اللجوء إلى القوة. وإذا لم يستطع أن يفعل شيئا عن طريق اللجوء إلى القوة، فماذا عليه أن يفعل؟ لقد أخذ يدبر أموره لقهرهم وتدميرهم عن طريق الأساليب السياسية.

وما هو الطريق إلى ذلك؟ لا طريق لذلك بالطبع إلا إيقاع الفرقة بينهم وبث الخلاف في صفوفهم وإثارة بعضهم ضد البعض الآخر. ومن هذا المنطلق دعا سليمان باشا إبراهيم بيگ ابن أحمد باشا أبرز أمراء البابان آنئذ إلى بغداد. وعند وصوله فاتحه بالقول إنه إن استطاع إلقاء القبض على عمه محمود باشا عزله عن منصبه وعينه هو مكانه فورا، ولكن ما كان من إبراهيم بيگ إلا أن أجاب بأن محمود باشا بمنزلة والده، ومادام هو في قيد الحياة، فلن يتقلد أمور الحكومة.

بعد أن افتضحت مساعي سليمان باشا ضد البابانيين، حاول معالجة الموضوع لئلا يستفزهم ولا يغضهم من حوله. وفي سبيل ذلك ومن أجل أن يستطيع في الوقت نفسه استمالة إبراهيم بيگ إليه وتطويقه لأهدافه، طيب خاطره وأبقاه لديه في بغداد.

وفي تلك الأيام وصل بغداد خبر عصيان عشيرة الخزاعل وتمردها، فأرسل سليمان باشا إبراهيم بيگ على رأس قوة عسكرية لتأديبها. وإذ قام إبراهيم بيگ بماينبغي لقمع تمرد العشيرة المذكورة وعاد إلى بغداد، كان فصل الشتاء قد أوشك أن يحل، ولم يكن لسليمان باشا حتى ذلك الحين القوة الكافية لتحويل تصوراته ضد البابانيين إلى مساع فعلية وتحقيقها.

وفي أول شهر من ربيع ١١٩٦هـ (١٧٨٢م) حشد سليمان باشا قوة من القبائل والعشائر المحلية وساقها بمصاحبة القوات العسكرية الرسمية الموجودة في الديار العراقية للزحف على محمود باشا. وعند وصوله إلى كركوك عين حسن بيگ بن خالد باشا بن سليمان باشا المقتول حاكما على ديار بابان بعنوان مير ميران. وكانت الاستعدادات اللازمة تُجرى لتسيير القوات التي استصحبها معه سليمان باشا لاعتقال محمود باشا، عندما وصلت بعثة الوساطة التي أرسلها محمود باشا إلى الوالي المذكور للشفاعة.

كتب محمود باشا في عريضته التي وجه الخطاب فيها إلى الوالي سليمان باشا أن الأسرة البابانية التي كانت دائما ومنذ قديم الزمان دافعة خراج مطيعة للحكومة العثمانية مازالت منقادة لجميع أوامرها وهي تأمل التخلي عن خطة إفنائها من خلال تمزيق صفوفها وإلهاء أفراد الأسرة بقتل بعضهم البعض وتصفية آثارهم. وقد أسهب أعضاء بعثة الوساطة في بيان هذا الطلب ورجوا الوالي كثيرا لتهدئة خاطره وتسكين انفعاله. وفي آخر الأمر أرسلت البنود التالية مع سليمان بيگ الشاوي إلى محمود باشا كشروط لمنع اشتعال نار الحرب ضد البابانيين. وقد اضطر محمود باشا لقبولها، وهي:

١- دفع ثلث مئة كيس آقجه[٣٤] من دون أي تلكؤ في التسليم.
٢- التخلي عن سنجق كويسنجق وحرير.
٣- طرد عثمان آغا الكهية من منطقة إمارة بابان.

---

(٣٤) مسكوكة فضة تساوي الكيس الواحد منها خمسمائة غروش - المترجمان.

٤- إقامة إحدى عوائل محمود باشا في بغداد لضمان إطاعته.

وفي إطار هذه الشروط قبض سليمان باشا عدا ونقدا ثلث مئة كيس آقجه، كما قبض ثلث مئة كيس آقجه آخرى من محمود باشا ابن تيمور باشا مقابل إعطائه الولاية على كويسنجق وحرير، وعاد بنفسه إلى بغداد.

لم يكن في هذه الشروط الأربعة التي فرضها الوالي على محمود باشا بابان نقطة واحدة تتعلق بالمصالح الوطنية والاجتماعية، بل بالعكس كانت الشروط المذكورة تخص المآرب الشخصية للوالي لاغير.

فالشرط الأول وهو دفع ثلث مئة كيس آقجه نقدا لم يكن له أي معنى غير الطمع الشخصي.

في الواقع أن الدليل الفعلي على ثبوت تبعية أي تابع لمتبوعه يتوقف على إعطاء التابع مايكلفه متبوعه بدفعه. ولكن هذه التكاليف لاتعني دخولها جيوب عجم أوغلو ونظائره لصرفها على أوجه السفاهة. إنها على العكس أمانة مقدسة تدفع لضمان المصالح القومية والحفاظ على الوطن وعلو شأن السياسة الاجتماعية. وإذا صرفت هذه الأمانة خارج الأبواب المخصصة لها، فإن سليمان باشا يكون مقصرا في تسلمها. ومادام المشار إليه لم يكن يودع هذه المبالغ في صندوق بيت المال ويصرفها على المصالح الدينية والوطنية أو يسلمها إلى الحكومة المركزية، فإن صرفها على الوجوه المحلية كما كان يرتأي المرحومان سليمان باشا وعمر باشا كان أوفق. ذلك أن البابانيين كانوا بمثابة الخندق الأمامي بوجه الإيرانيين لما لموقعهم ووضعهم الجغرافي من أهمية بالغة. وبغض النظر عن هذا، فإن هذا المبلغ من المال لم يكن كثيرا بالنسبة للبابانيين الذين كان في أيديهم ميزان ضبط الأمن والاستقرار، وكانت الحاجة إلى وجودهم وقوتهم وبسالتهم ضرورة سياسية لايمكن الاستغناء عنها إطلاقا.

أضف إلى ذلك أنه لو قدمت هذه المساعدة الصغيرة اليهم لكان في ذلك مايعني أن الروابط الأساسية معهم أعيرت ماتستحقه من عناية، وتم بهذه الوسيلة كسب تعاطفهم الفكري والنفسي أكثر فأكثر. نعم، إن وقوع العكس كان كذلك محتملا، إلا أنه كان ثمة أمر وهو أن حال البابانيين ومسلكهم كانا واضحين، فقوة الرابطة التي تربطهم بالخلافة الإسلامية والحكومة العثمانية والعصبية الدينية التي كانت تعزز هذه القوة متانة، كانت واضحة. فلو لم تتخذ قضية الضرائب وسيلة لدفعهم إلى العصيان، ولو لم يكن في أسلوب إدارة سليمان باشا ما كان فيه من خلل قد يُتَّكأ عليه كذريعة، لما كان

بالإمكان تصور تقصير منهم سوى المنافع والخدمات الجليلة. وفضلا عن كل ذلك كان ينبغي مراعاة الحيطة إزاء ما قد يفرزه تطور الأوضاع من انقلابات. ولم يكن اتقاء هذا المحذور النابع من افتراض احتمال كما ذكرنا، من شأن البابانيين وحدهم، بل كان على الحكومة المركزية في المقام الأول أن يأخذه بنظر الاعتبار، وكان عليها أن ترى في الحفاظ على هذه الأسرة ورعايتها ضرورة ملحة. فبمقدار ما كان نفوذها قد عم، وصلاحياتها قد اتسعت، ونخوتها واستكبارها قد ازدادت، غدت كذلك بالمقابل محرومة من حقوقها الوطنية والاجتماعية. وعلى ذلك فإن ضرورة اتخاذ الاحتياطات الافتراضية إزاء ما قد يأتي به الزمن، كان أرجح.

لقد انتزعت كويسنجق وحرير من أيدي البابانيين، فمن ذا أعطيتا؟ إنهما أعطيتا محمود باشا بن تيمور باشا ومحمود باشا هذا حفيد عثمان باشا الكَّك الذي قتله المرحوم الوالي سليمان باشا. فهل سبق لهذه الاسرة أن قدمت خدمة عدا أعمال العصيان والشقاوة؟ إنه لمن الثابت بشهادة (دزيل گلشن خلفا) وسائر تواريخ بغداد أن البابانيين أنقذوا هذه المدينة مرارا وتكرارا من مضايقات الأعداء وحصارهم ومنعوا كرات عديدة تجاوز الإيرانيين عليها، وقد ألقوا في شباك الأسر رجلا مثل علي مراد خان من أعاظم الإيرانيين وأخمدوا مشاغبات وثورات داخلية عديدة، وكانوا في طليعة القوات العراقية في تأديب الأشرار. وبصورة خاصة لايمكن تجاهل أن البابانيين هم الذين وسعوا نفوذ سليمان باشا نفسه ورسخوا مقامه ووفروا له الهدوء والراحة.

أجل، لو لم تقض قوات البابانيين على مخاطر عجم أوغلو، فهل كان لسليمان باشا أن يقضي عليها بقواته العراقية؟ وعجم أوغلو هو الذي تصدى أكثر من مرة لتلك القوات ووضعها في غربال التصفية وتغلب عليها.

إذاً، فحتى لو غضضنا النظر عن كل هذه الخدمات، ما كان جديرا بشأن وزير أن يبيع حقوق البابانيين من خائن لقاء دراهم معدودة.

وكان الشرط الثالث طرد عثمان آغا من ديار بابان.

كان عثمان آغا كهية حسن باشا سلف سليمان باشا في الولاية. وعندما طرد حسن باشا من بغداد ذليلا مقهورا، سار معه عثمان آغا إلى دياربكر عرفانا لجميله ووفاء بحقوقه. كان سليمان باشا مفتونا بوفاء عثمان آغا ومزاياه الخلقية الأخرى، فطيب خاطره بعد وفاة حسن باشا واستعاده إلى بغداد، إلا أنه لم يعده لمنصبه بعد دخوله بغداد ولم يوله مقامه ومسؤوليته السابقة، بل أرسله إلى منطقة مندلي حيث أقطعه

بعض المقاطعات لينفق منها على شؤون معيشته، ولما لم تستقم أموره هناك بما أقطع له،طلب إعادته إلى بغداد ، فاستاء سليمان باشا من طلبه هذا ونفاه إلى كركوك.

والآن يطرح هذا السؤال نفسه: وهو إذا كان عثمان آغا الكهية لم يتخلَّ عن حسن باشا رغم كل ماتعرض له الأخير من هوان وتحقير، بل سار معه إلى دياربكر صائلا جائلا بذلك بجواد الأخلاق في أعلى طبقات الوفاء ورعاية الحقوق، وقد أعيد تقديرا لمزاياه الخلقية هذه من دياربكر إلى بغداد ، فلماذا لم يعد إلى منصبه؟ ومادام لم يعد إلى منصبه، فلماذا لم توفر له معيشة كريمة في الأقل؟ ولماذا عوقب بالنفي لمجرد أنه قدم استرحاما للسماح له بالعودة إلى بغداد ؟

أما الشرط الرابع فقد كان إقامة إحدى عوائل محمود باشا في بغداد لضمان دوام طاعة.

ولكن متى أبدى محمود باشا مظهرا من مظاهر عدم الطاعة، وأي تفكير بدر منه، وأي محاولة للاعتداء على منطقة عثمانية ما أو الاستيلاء عليها ، وأي دعوة وجهت إليه للطاعة ولم يستجب لها ؟

في الواقع إن محمود باشا ، وإن كان لم يحن هامة الخضوع لسليمان باشا ، إلا أنه كان قد بادر بنفسه بالذات لإغاثة بغداد في أحلك الظروف بالنسبة لها ، كما أنه أرسل ابنه عثمان بيگ في المرة الأخيرة لإنقاذها. أما عدم الاستسلام إلى جلادي سليمان باشا إرضاءً لنزواته في ذيوع صيته وشهرته، فلا يعتبر خروجا عن الطاعة بأي حال من الأحوال.

ومع أن محمود باشا قبل بالشروط الأربعة المذكورة التي فرضها عليه الوالي ونفذها فعلا، إلا أنه لم يجعل من نفسه فداء لشعشعة نفوذ الوزير. كان رفض محمود باشا التضحية بنفسه بذلك الأسلوب الذليل الذي أراده منه الوالي تقوية لنفوذه وترصينا لمقامه، من خطاياه التي ما كان من شأنها أن تغتفر. ولذلك فان الحقد الذي كان قد استقر ضده في ضمير سليمان باشا قد تضاعف بذلك الرفض، فقرر في نفسه أن يوجه إليه ضربة ماحقة كيفما كان. وكان نجاحه في ذلك متوقفا على بذر بذور الشقاق والنفاق بين البابانيين وإثارة بعضهم ضد البعض وجعلهم متعادين فيما بينهم، وكان رفع حاجته هذه وتحقيق مآربه مرهونا بجعل إبراهيم بيگ ينصاع لقبول حاكمية الإمارة، في حين أنه كان خيب أمله في هذا المجال ورفض ما كلفه به.

وفي العام ١١٩٦هـ (١٧٨١م-١٧٨٢م) كانت أعمال محمود باشا متصرف

كويسنجق وحرير المتسمة بانعدام الاتزان والمسؤولية خرجت تماما عن مدى صبر محمود باشا حاكم بابان، فساق عليه قوة يقودها ابنه عثمان بيگ، كما بين في الوقت نفسه لسليمان باشا الأسباب الموجبة التي اضطرته لذلك. أما سليمان باشا الذي كان قد استطاع حتى ذلك الحين إفساد كل ما كان في الفطرة الأساسية لإبراهيم بيگ من أخلاق فاضلة وزرع في نفسه بذور الحرص والطمع وانتزع من قلبه أحاسيس الاحترام للكبير من الصغير، وخلاصة القول إنه كان قد ألبسه لبوس رداءة يخدم أغراضه هو، فقد قابل عمل محمود باشا بابان هذا إزاء محمود باشا بن تيمور باشا بتعيين إبراهيم بيگ متصرفا على كويسنجق وحرير، في حين أن محمود باشا بابان كان قد أرسل ابنه عثمان بيگ حاكما على تلك الأصقاع. وكان سليمان باشا يهدف من وراء تعيين إبراهيم بيگ إلى إيقاع الخلاف بينه وبين عمه محمود باشا بابان وتحويل قرابتهما إلى عداوة لشطر البابانيين بهذا الأسلوب إلى شطرين، فقد كان يبحث منذ زمن عن وسيلة يصرف من خلالها حقده وكمده عليهم، وفضلا عن ذلك فقد كان له هدف إضافي آخر وهو معرفة مدى مقدرة إبراهيم بيگ ومقدار صداقته له، وماهي النقطة الأقرب لينطلق منها لتسويد أفكار أمراء قهلاچوالان وتسويل بعض الأمور لهم. وفي الحقيقة إنه ما إن وصل إبراهيم بيگ مناطق كويسنجق وحرير حتى بدأ بفتح الثغرات في وحدة الوجود البابانى وأخذ يفرط عقد روابط مابينهم الاساس بإلقاء أفكار الخصام والشقاق في نفوسهم وأعدّ أرضية صالحة لأحاديث وإشاعات كثيرة. واستنادا إلى مافهم من أن هذه الإشاعات المستندة إلى ما كان يبثه إبراهيم بيگ بين الناس، منشؤه محمد باشا الأخ الأعمى لمحمود باشا وابن عمه عمر بيگ، فقد أعدم كليهما.

وإذ علم سليمان باشا من إبراهيم بيگ في العام ١١٩٧ هـ (١٧٨٢م-١٧٨٣م) أنه في وضع يمكنه معه إحراز النجاح في تحقيق نواياه وغاياته الأساس، استكمل في فترة وجيزة تحشيداته العسكرية ومستلزماته السوقية وسار باتجاه قهلاچوالان، حتى إذا وصل كركوك التحق به إبراهيم بيگ تلبية لأمر أصدره إليه.

فكر سليما باشا في مختلف جوانب عوامل النجاح التي قد يكون الظن خانه في أحدها فلم يستكمل مستلزماته، وأمن جميع احتياجاته التي كان يمكن أن تكون ناقصة، ذلك أن النقطة الاساسية التي كان يتوخاها منذ زمن، أن يخرج من محاولاته هذه مرفوع الرأس، فهو إن لم يحرز النجاح في مثل هذه الحملة، وهي بصورة خاصة ضد البابانيين الذين طالما عرفوا باقتدارهم وبسالتهم، فإنه فضلا عن كونه لم يستطع اشباع

نهمه الروحي المبني على أوهام الشعور بالكبرياء والعظمة، سيعرض ما اكتسبه حتى ذلك الحين من اعتبار لنفوذه، إلى الانهيار والضياع. وعليه فقد أخذ بنظر الاعتبار احتمال اي فرضيته معكوسة تحول دون بلوغه غاية آماله وأمانيه. ووفق هذا كان يحصر نظر اهتمامه في استكمال استعداداته بدقة.

هل كان بالإمكان أن يبدي البابانيون الساعون إلى إدامة بقائهم في ساحة الوجود أي خصوصية ذاتية بوجه الانهماك في الاستعلاء لتمثال للأنانية مثل سليمان باشا، المأخوذ بتوسيع نافذة نفوذه؟

لاشك أن ذلك لم يكن ممكنا، بل ما كان في الإمكان أن يكون متاحاً. فسليمان باشا بما جبلت عليه نفسه من حسد، لم يكن من شأنه أن يعطي غيره حظا من الاحترام، ليفسح له المجال لذلك بالطبع، ولم يكن بوسعه أن يهضم شيئا من هذا القبيل قط.

كان في صحبة إبراهيم بيگ ممن ظاهروه ووالوه أخوه خالد بيگ وحسن خان ابن شير بيگ أخي المرحوم سليم بيگ وحسين بيگ وسائر الأكابر الذين كانت تربطه بهم أواصر صلات مخصوصة، ومعهم قواتهم الخاصة التي استصحبوها معهم.

وإذ سمع محمود باشا نبأ وصول سليمان باشا إلى كركوك وأنه على وشك الهجوم عليه من جديد، حصن دربندى بازيان وأرسل ابنه عثمان بيگ للوقوف هناك مدافعا بوجه سليمان باشا. ولكنه ما إن علم أن جانبا كبيرا من أمراء بابان انفضوا من حوله وانفصلوا عنه كما كان ديدنهم في الماضي وانحازوا إلى جانب إبراهيم بيگ، حتى سحب ما تبقى له من قوة للحيلولة في ظروف مشكوك في احتمالاتها كتلك، من دون إراقة دماء الأخوة فيما بينهم، وسار مع عوائله إلى إيالة سنندج في إيران.

وعنما سمع سليمان باشا أخبار تخلي محمود باشا عن فكرة اللجوء إلى القتال وتوجهه إلى إيران، هدأ غليان الحقد وجيشان الغضب في نفسه وارتفعت نخوته الروحية، فعبر عن امتنانه لإبراهيم بيگ وأظهر له ألطافه.

ولكن هيهات أن تتنازل مثل هذه العظمة الروحية أبدا لميل في التواضع! فهي لاتقرّ بأن ما تحرزه من توفيق ونجاح قد يكون سببه شجاعة شخص آخر وجلده، إنما تنسبه إلى تلك القدرة الخارقة التي في فطرتها هي والتي أودعها فيها التأثير المعنوي للإعجاز اللَّدُنيِّ. ومع ذلك فإنه امتثالاً للوعد الذي قطعه على نفسه لإبراهيم بيگ، أسند إليه حكومة بابان وكويسنجق وحرير ومنحه رتبة الباشوية وعاد بنفسه مزهواً فخوراً إلى بغداد.

أما محمود باشا، فبغية الاحتراز من الوقوع في الفخ الذي نصبه له سليمان باشا لجرِّه إلى حرب اقتتال بين الإخوة البابانيين أنفسهم، شأنه في السابق، فقد نقل مستقره مع عوائله إلى إيالة سنندج في إيران[٣٥].

لقد كنا نود لجميع البابانيين أن يكونوا متخلقين بهذا المستوى الملائكي العُلوي من الأخلاق، لا أن يتورطوا في تسويلات الإفساد المبنية على إسقاط وجودهم الاجتماعي، ولكن هل ينفع التمني؟ إن أحاسيس الحرص والطمع المنفورة، المكنوزة في الفطرة الإنسانية غالبة على جميع المحاسن الخلقية، وخضوع الناس لإغراءات هذه الأحاسيس اضطرار جِبلِّيٌّ. وبناءً على ذلك فإن القوى الإنسانية القلبية كالشجاعة والجسارة والصبر، إنَما هي خيارات أو ضرورات ذليلة أمام تأثير تلكم الأحاسيس المتحكمة. كما أن مشاعر الطاعة والاحترام التي كانت موجودة في التربية الأساسية لإبراهيم بيگ، خمدت إزاء ميول الحرص والطمع التي أيقظها فيه سليمان باشا.

فلو أن محمود باشا تورط هو الآخر في الأطماع وخاض غمار المعركة، فمن ذا الذي كان يقدمه ضحية في المعارك التي كانت ستقع، ودم من كان سيراق فيها؟ لاشك في أنه كان يزهق فيها روحه هو، ويقتل فيها فلذات كبده هو. لذلك فقد فكر محمود باشا مليّاً في هذه الجوانب وضحَّى بالمنافسة على المطامع وألقى بها تحت أقدام المصالح القومية وسعادة المستقبل وترك موقعه وسار إلى إيران من دون أي قتال.

أما إبراهيم بيگ فقد كان أسير شؤم حس الطمع المنفور هذا، وقد تورط في عمى التحول إلى آلة لتنفيذ أحقاد سليمان باشا وإفناء الوجود القومي.

وعندما وصل محمود باشا إلى سنندج أخذ يفكر في الحصول على إدارة منطقة أردلان التي كانت قد انتزعت مؤخرا من أيادي خانه باشا وسليمان باشا المقتول وخالد باشا بن سليمان باشا. فأرسل ابنه عثمان بيگ إلى علي مراد خان المتبوِّئ عرش الحكومة الإيرانية الذي كان أسيراً لدى أحمد باشا فنشأت الصداقة بينهما منذ ذلك الحين.

كانت إيالة آذربايجان حتى ذلك الحين لم تستجب لدعوة الطاعة التي وجهها إليها علي مراد خان، فأصدر أمراً إلى محمود باشا للاستيلاء على منطقة صاوجبلاق التي تفصل بين الحدود الشمالية الغربية لإيران وبين منطقة بابان بغية تأمين إدخال إيالة

(٣٥) هذا نموذج آخر لتكرار ماسبق ذكره في هذا الكتاب – المترجمان.

آذربايجان في ربقة الطاعة بوساطة البابانيين. وعندما وصل محمود باشا إلى قصبة سقز التي تقع في نقطة تتوسط سنندج وصاوجبلاق أبلغ بوداق خان حاكم صاوجبلاق مضمون أمر علي مراد خان.

ومع أن بوداق خان أجاب بعنف، إلا أنه لم يكن يجهل أن ليست تحت مدية تلك القوة التي يقف بها بوجه محمود باشا، فاستعان بخوانين خوي وسلماس ومراغه وأرومية للحفاظ على موقعه وأخذ بنفسه يحشد القوات ويبني الاستحكامات للوقوف بوجه محمود باشا على رأس جيش قوامه اثنا عشر ألف شخص.

كانت قوة محمود باشا تتألف من خمس مئة فارس، وقد احتل بقوته هذه منطقة مكري وهي من الأقسام المهمة من بلاد صاوجبلاق. وعندما أخذ يهاجم صاوجبلاق كانت قوات بوداق خان أيضا قد اقتربت من الموقع المذكور، فالتقى الجيشان. ومع أن كثرة أفراد قوة بوداق خان أقلقت محمود باشا في بداية الأمر إلا أن ابنه عبدالرحمن بيگ شجعه وقوى عزيمته بالقول إن القوات الإيرانية[٣٦] لم تستطع يوما ما أن ترعب البابانيين وأن البابانيين لم يلتفتوا يوما ما إلى كثرة الإيرانيين أو قلّتهم.

كانت القوات الإيرانية مقسمة إلى قسمين.

وبالمقابل قسَّم محمود باشا وابنه عبدالرحمن بيگ قوتهما كذلك إلى قسمين، وأخذا يهاجمان كل على رأس قسم. هزم عبدالرحمن بيگ من جانبه ذلك القسم من قوة العدو الذي كان يقف قبالته وأخذ يلاحقه ويقتل أفراده حتى أوغل بعيدا عن ميدان المعركة. أما محمود باشا فإنه وإن كان قد أحرز الانتصار على العدو شأن ابنه عبدالرحمن بيگ، إلا أنه لم يطارد فلوله كثيرا ولم ير في الابتعاد كثيرا عن ميدان القتال ضرورة. لقد كان واثقا من النصر، فاستراح مع قواته على نبع ماء بانتظار عودة ابنه عبدالرحمن بيگ. وفي تلك الأثناء كان فصيل من قوات الخوانين الذين هبُّوا لنجدة بوداق خان محتشدا على أحد الجبال الشاهقة يتجرع مرارة الهزيمة. ولكن قدرة القادر سبحانه وتعالى أنزلت السكينة والهدوء على قلوب أفراده المتألمة وبدلت أتراحهم أفراحا. أجل في تلك الأثناء جاءت طلقة طائشة وأصابت رأس محمود باشا ونثرت مخه. وعندما

(٣٦) لانرى مبررا لإطلاق المؤلف وصف (القوات الإيرانية) على قوات بوداق خان وخوانين آذربايجان، لان بوداق خان كرديّ والآخرون آذريون، وإيران آنذاك كان يمثلها علي مراد خان الزند حليف محمود باشا، وإن كان كرديَّ الأصل – المترجمان.

رأى بوداق خان والخوانين المتخفُّون في تلك القمة الشامخة ما جرى وكيف اختلت الأمور داخل معسكر محمود باشا وكيف علا الصياح والعويل فيه، أدركوا حقيقة الأمر، فاغتنموا الفرصة وجمعوا مجددا بقية قواتهم المهزومة المشتتة وزجوا بها في ساحة الوغى ولكن جنود محمود باشا فقد أدركوا أن حفنة فرسان عديمة القيادة لاتستطيع أن تعمل شيئا وسط الوف ممن مع الإيرانيين، ولذلك حملوا جثمان محمود باشا وعادوا إلى سقز.

وإذ رجع عبدالرحمن بيگ من مطاردة العدو المهزوم غالبا غانما، رأى قوات الإيرانيين مستقرة في معسكره، فاستطلع حقيقة الأمر فسمع أنباء المحنة التي حلَّت بوالده والهزيمة التي بقواته، فأراد أن يهاجم الإيرانيين بقواته القليلة، ولكن أصحابه منعوه من الإقدام على محاولة انتحارية كتلك. لذلك توجه خائبا مهموما نحو سقز للحاق بموكب جنازة والده. وعندما وصل سقز أرسل من يخبر شقيقه الأكبر عثمان باشا في سنندج بحقيقة الأمر، فاتصل عثمان باشا من جديد بعلي مراد خان وساق قواته لمعاونة أخيه والهجوم على بوداق خان. ولما وصل سقز كان عباس قلي حاكم سقز قد دخل في مراسلات مع بوداق خان. وإذ علم عثمان باشا بذلك قتل عباس قلي خان ونهب سقز وهاجم صاوجبلاق وحاصر بوداق خان.

غير أن حادثة مفاجئة سدت بوجهه طريق النجاح من أخذ الثأر، فالخوانين الذين أرسلهم علي مراد خان لمرافقته، قد سعوا بالوشاية به لدى علي مراد خان فأخبروه بقتل حاكم سقز ونهب المدينة، فأجابهم علي مراد خان بأن يقدروا الظروف بدقة، حتى إذا وجدوا الفرصة سانحة قتلوه وفرسانه الذين معه، وكان توصيته لهم بهذا الشأن مؤكدة. وقد أرسل توصيته هذه عبر أحد الخوانين المعتمدين لديه. والتقى هذا الخان مصادفة في طريقه بعبدالرحمن بيگ على مقربة من سقز، فشك الأخير في أمره وفتش جيوبه ووجد الرسالة فانتزعها منه بالقوة. وعندما اطلع على مضمونها قتل هذا الخان وجميع الذين كانوا معه وأرسل الرسالة كماهي إلى أخيه عثمان باشا. واذ اطلع عثمان باشا كذلك على مضمون الرسالة أرجع بطريقة مناسبة القوة التي كان علي مراد خان أرسلها لمساعدته والتي وشى به قادتها لديه بشأن مسألة سقز وسار بنفسه إلى سقز، وفي طريقه فتك بجميع الإيرانيين الذين صادفهم ممن كانوا حالوا دون نجاحه في الثأر لأبيه. وبمعونة عشيرة بلباس التي انضمت إليه أخرج أسر البابانيين التي كانت في سقز بسلام وأخذها إلى رواندوز، فتركها هناك وسار بنفسه إلى عشيرة بلباس. وبقى لدى هذه

العشيرة عدة أيام غادرها بعدها إلى «ناوكور» ضمن منطقة العمادية. ومن هناك اتصل بسليمان باشا.

ولما علم سليمان باشا بما آل إليه أمر محمود باشا وما جرى لعثمان باشا، أرسل إليه مصطفى آغا آمر الجيش ليقدم له التعازي بوفاة والده ويطيب خاطره ويأتي به إلى بغداد، حيث أقطعه نواحي قزلرباط وعلياوه وخانقين فأمن له معيشة كريمة وقدره واحترمه.

عهد حكومة إبراهيم بيگ

بعد أن تبوَّأ إبراهيم باشا في العام ١١٩٧هـ (١٧٨٢م-١٧٨٣م) على ما أسلفنا مقام الحكومة في قەلاچوالان أخذ يشمر عن ساعد الجد لنشر ألوية العدل في منطقة حكمه ولتوفير مستلزمات الأمن والنظام.

كان المنافس الوحيد لمجده وحكمه محمود باشا. ولكن محمود باشا لم يُرخِ العنان لروح المنافسة ولم يفرط بحميته الوطنية في سبيل المطامع الذاتية، إنما أخذ يسعى لضمان مصالحه عن طرق أخرى، وقد ضحَّى بنفسه في ذلك المضمار.

كان إبراهيم باشا في حد ذاته رجلا حليما خلوقا مطلعا على شؤون الإدارة. وكما أنه حبب نفسه عبر أنواع المداراة إلى بني قومه، أدار دفَّة التعامل السياسي مع سليمان باشا بطريقة لائقة أيضا. ولما كان قد قضى ردحاً طويلا في مدينة آهلة بالسكان مثل بغداد، فقد تعلم آداب الحياة المدنية ولم يعد يرغب في الإقامة في مقام مثل قەلاچوالان الواقعة بين الصخور والغابات والأشواك. وعلى هذا فقد حول في العام ١١٩٩هـ (١٧٨٤م-١٧٨٥م) قرية ملكندي الواقعة في سفح جبل گويژه شمال غربي شهرزور إلى مدينة روبات يفكر في نقل مركز حكومته إليها. ولدى حفر الأساس في المكان المخصص لتشييد مقر الحكومة عثر على ختم نقش عليه اسم سليمان. وقد اعتبر ذلك فأل خير لكل توفيق وبركة. وكما سميَّ إبراهيم باشا المدينة بهذه المناسبة باسم السليمانية وسمى ابنا له أيضا ولد في تلك الأيام سليمان، أخبر الوالي سليمان باشا كذلك ببناء المدينة وبتسميتها باسمه كعمل جميل إزاءه.

وفي العام ١٢٠٠هـ (١٧٨٥م-١٧٨٦م) لم يعد في قوس صبر الحاج سليمان بيگ

الشاوي منزع ليتحمل أكثر مما تحمل المعاملة القاسية التي كان يعامله بها سليمان باشا والغطرسة التي كان يبديها إزاءه، فانتقل إلى هور عقرقوف، في حين أن الحاج سليمان بيگ كان من أشرف الأسر وأنبلها وأصدقها بين رعايا الدولة العثمانية، وكان بصورة خاصة أحد المحبين الصميمين الأوفياء لسليمان باشا المذكور، ولكنه بسبب من التصرفات العصبية والأعمال المفرطة في استعظام الذات من قبل الوزير المشار إليه، ولاسيما أنه كان يتصور أن الوالي سليمان باشا يشتاق كثيرا إلى إراقة دماء الذوات العظام، وجد نفسه مضطرا للهجرة من بغداد. وإذ نقل مقامه إلى عقرقوف إستصحب معه عشيرة العبيد مع مجاميع من العشائر والأعراب. ولما علم سليمان باشا بما جرى، رأى أن الوضع يتجه نحو الدقة، ففكر في أنه قد يختل الأمن والنظام في المدينة، فعجَّل في الاستعانة بدعوة إبراهيم باشا إلى بغداد. وعندما وصل إبراهيم باشا بغداد أصحبه الوالي سليمان باشا عساكرها تحت قيادة حامل أختامه أحمد آغا وسيرهم على الحاج سليمان بيگ. ولما علمت القبائل العراقية أن لاطاقة لها بمقاومة صولات أبطال بابان وعلم الحاج سليمان بيگ أن إبراهيم باشا جاء بنفسه، ألقوا السلاح، وتوجه الحاج سليمان بيگ هاربا نحو الخابور.

ومع أن إبراهيم باشا لم يجد الحاج سليمان بيگ لدى وصوله بقواه المختلطة إلى هور عقرقوف، إلا أنه غنم أموالاً وأمتعة وحيوانات كثيرة مما خلفها هو أو خلفتها القبائل الملتحقة به وعاد بها إلى بغداد. وللحيلولة دون نسبة هذا الانتصار إلى تأثير شجاعة أبطال بابان وبسالتهم، كرم سليمان باشا حامل أختامه أحمد بيگ وعينه كهية لولاية بغداد. أما إبراهيم باشا فلم ينل حتى تكريما شفويا، فعاد إلى بلاده يائساً.

وفي العام ١٢٠٢هـ (١٧٨٧م-١٧٨٨م) جمع الحاج سليمان بيگ ثانية قواه المشتتة وبالاستفادة من غيرها أيضا من القبائل استطاع تحشيد قوة كافية وأخذ يتحرش ببغداد ويتعرض لها. ومع أن الوالي سليمان باشا سير عليه القوات العراقية بقيادة خالد آغا كتخدا البوابين وبرفقته محمود باشا وبكر باشا الكويسنجقلي، إلا أنه لم يحرز أي انتصار، بل انعكس الأمر. فنتيجة لهزيمة اضطرت قواته للرجوع القهقرى قُتل بكر باشا الكويسنجقلي وأسر كل من محمود باشا وخالد باشا وطاردت قوات الحاج سليمان بيگ العساكر المهزومة إلى مشارف الكاظمية. وفي هذه الأثناء استطاع الوالي سليمان باشا بطريقة ما أن يقنع عددا من أتباع الحاج سليمان بيگ ومتعلقاته للتخلي عنه. وهكذا فشل الحاج سليمان بيگ في الاستيلاء على بغداد واضطر للتراجع

بما تبقى من قواته إلى الكبيسة. ومع أنه أطلق في الأخيضر سراح محمود باشا، إلا أنه أبقى خالد باشا في الأسر. ثم أخذ يجوب ديار عشائر الخزاعل والمنتفك فنظمها جميعا ضمن اتفاق عام واستولى على البصرة.

ومن جديد اضطر سليمان باشا الذي كان مثالاً للغطرسة إلى الاستنجاد بحمية البابانيين فاستدعى إبراهيم باشا وعثمان باشا.

كان عثمان باشا أقرب إلى بغداد، فوصل إليها في الموعد المقرر. أما إبراهيم باشا فقد كان أبعد وكان اعداد مستلزمات سفره أصعب فتأخر عن الوصول في الموعد أياما عدة، مما أغضب الوالي سليمان باشا فعزله وعين إبراهيم بيگ مكانه. كان عثمان باشا قد أبلغ أخاه عبدالرحمن بيگ نبأ عزل إبراهيم باشا وتوجيه حكومة بابان إليه هو، كما أبلغه كذلك ضرورة الالتحاق به على جناح السرعة بما يتبقى لديه من قوة، فجمع عبدالرحمن بيگ ماتبقى من القوات في وقت قصير وتوجه بها إلى بغداد.

كان عدد القوات التي استطاع البابانيون تحشيدها حوالي الفي فارس. كان هذا العدد كافيا لتأديب العشائر واسترداد البصرة. وكان سليمان باشا مقتنعا بهذه الحقيقة، فقد كان على علم بشجاعة البابانيين، ومع ذلك فقد كان يصحبهم كل مرة بحشد من المجعجعين بلا طحين الموجودين في بغداد، لئلا ينسب الفتح والظفر إلى البابانيين وحدهم، في حين أن الحقيقة الصارخة لدى الجميع أن كل حركات القوات العراقية التي لم يشترك فيها البابانيون قد انتهت من دون إحراز أي نصر، وأن فتوحات القوات العراقية ونجاحاتها كانت معقودة بنواصي سيوف البابانيين وأسنة حرابهم.

وفي الثاني عشر من جمادى الأولى من السنة المذكورة (١٧٨٨/٢/١٩م) تحرك من بغداد الوالي سليمان باشا بعساكره العراقية فاقدة الروح المعنوية. أما الذين بعثوا الروح المعنوية في هذا الجيش ورفعوا شأن الحياة المتلألئة في نفوس أفراده فهم المقاتلون البابانيون الذين كانوا تحت قيادة ثلاث مجسمات للبسالة ألا وهم إبراهيم باشا وعثمان وعبدالرحمن.

لقد تم في البداية التأديب اللازم لعشائر الخزاعل والمنتفك، ثم استرجعت البصرة بهجوم ظافر، واستطاع الحاج سليمان بيگ أن ينجو بجلده هربا في وقت سابق وعين الخزندار مصطفى آغا الكردي متسلما للبصرة.

كانت نيران الاختلال قد ألهبت المنطقة العراقية برمتها وسرت شراراتها إلى عموم

وادي الرافدين وانفرط عقد الأمن مجددا في العراق وتزلزلت جذوره من الأساس، وكان ذلك ناجما عن التأثير المضني لجبروت سليمان باشا وغطرسته في نفوس الرأي العام الذي كان متألما ومستاء للغاية من أفعاله.

عندما كانت الفوضى ضاربة أطنابها والقبائل مستولية على أطراف بغداد بسبب الثورة الملتهبة التي لم تخمد إلا بمضاء سيوف البابانيين البتارة، كان كل من سليمان باشا وكهيته أحمد آغا قابعين في إحدى زوايا الخيبة واليأس لاحول لهما ولا قوة. فما إن تفتقت ذوآبات شمس النجاح بأسنة رماح بسالة البابانيين وجلادتهم حتى عاد المشار إليهما إلى وادي الغرور والأنانية. وبدلا من التقدير والتكريم، آلما بتكديراتهما الصفيقة وأساليبهما العبوسة التي تشمئز منها النفوس قيادة البابانيين القادمين للقتال. لم يكن في دستور سليمان باشا تقدير لحقوق خدمات المستحقين، فكان يزعم وفق اجتهاده ونظراته أن مثل هذا التقدير يدفع بالمقدّرين نحو الأسوأ ويخلق فيهم روح التجاسر والغرور والاعتداد غير المشروع بالنفس، في حين أن كل من كان يفهم نفسه جيدا ويدرك ماهيته وحدود مقدرته سرعان ماكان يصاب بردة فعل تجاه نظرية سليمان باشا هذه، فما كان ليرجى منه لما أصابه من يأس وخيبة أمل إلا طمس أحاسيسه الوطنية السامية.

لقد كان الكرد يعتبرون تنفيذ أي أمر شخصي للولاة واجبا شرعيا عليهم، ذلك لأنهم كانوا ينطلقون في تصرفاتهم من عصبيتهم الدينية للخليفة ككرد، ومن أن الولاة يجرون أحكامهم باسمه ويدركون أن الإطاحة المعنوية للحكام ضرورية. وعلى هذا فإن البابانيين من أمرائهم إلى سائر أفرادهم كانوا جميعا مقيدين بالعصبية لتلك الأحاسيس الدينية، ولذلك فما كان أحدهم يشق عصا الطاعة بوجه الولاة، وما كانوا ليقدروا على مخالفة ولاة أيامهم.

أخذ الكهية أحمد آغا سواء بتصرفاته المشوبة بالتحقير الناشئة من آمريته التحكمية أو بالاستفادة من مقامه وموقعه ولاسيما ما حصل عليه من نفوذ في كنف سليمان باشا، يسعى بالوشاية إليه ضد البابانيين ويختلق عنهم الأكاذيب مما أدى إلى أن يكدرهم سليمان باشا ويرسل اليهم التوبيخات المتتالية، فآلمهم ذلك إلى حد كبير. لقد كان كهيات الولاية دوما وحسب القاعدة المرعية آنئذ بمثابة أولياء عهد للولاة، وكان تولي أحمد آغا مقام الولاية في المستقبل أمرا طبيعيا كذلك. ونتيجة لذلك كانت سلامة البابانيين وحياتهم الطبيعية تتعرض للتهديدات والمصاعب وتغدو مرشحة

للانقراض. ولذلك كان موضوع اتخاذ التدابير اللازمة قد طرح من قبل متسلم البصرة مصطفى آغا الكردي على عثمان باشا فنال موافقته عليه، كما فوتح الحاج سليمان بيگ الشاوي تحريريا بذلك بعد انتصارات البصرة وهزيمته هو.

عاد سليمان باشا بعد ذلك إلى بغداد لإعادة تنظيم المملكة أو لإعادة ترتيب أمور العشائر. وعاد عثمان باشا مع أخيه عبدالرحمن بيگ إلى السليمانية، أما إبراهيم باشا فقد اختار الإقامة في بغداد.

أيام إدارة عثمان باشا

في العام ١٢٠١هـ (١٧٨٦م-١٧٨٧م) كان إبراهيم باشا قد تخلف، كما تبين من التفصيلات التي سبق ذكرها، أياما عدة عن الوصول إلى بغداد في الموعد المقرر له، وذلك بسبب انشغاله بإكمال إعداد مستلزمات سفره. ولذلك فقد عزل من منصبه وعين مكانه عثمان باشا. وبعد انتهاء السفر إلى البصرة عاد عثمان باشا إلى السليمانية. وعندما وصلها بدأ، شأنه شأن أي حاكم جديد يأخذ زمام الأمور بيديه، بتطبيق القاعدة المتبعة في تجديد تنظيم طرق الإدارة. وضمن تطبيقه لهذه القاعدة المتبعة، عين عبدالرحمن بيگ حاكما على قرەداغ.

كانت حاكمية قرەداغ بالنسبة لأمراء بابان مخصصة لمن يحرز منهم مقام ولاية العهد، إلا أنهم كانوا قد فقدوا القدرة على رعاية هذا التقليد، لما كان يبذره بينهم الولاة من بذور الشقاق والنفاق ويثيرونه بوجههم من أعمال العصيان والشقاوة، فطالما كانوا يحرضون أحد الأمراء ويتخذون منه خصما للأمير الحاكم ويوفرون له من القوة والمنعة مايجعله جديرا بالمنافسة والمخاصمة، من دون أن يكون قد اكتسب حق الحكم في قرەداغ يدفعونه لأن يعلن نفسه حاكما عليها لا لشيء إلا لأن له القدرة على ذلك، فيضطر الأمير الحاكم إزاء كل ذلك إلى اللوجوء إلى إيران. كان اللجوء إلى مثل هذه السياسة يفسد دوما العلاقات بين الدولتين العثمانية والإيرانية ويضع العراقيل والعثرات أمام نوايا الوفاق بينهما، كما أنه كان يحول دون الحد من الاضطرابات الداخلية. هذه السياسة السيئة كانت تخل كذلك بالمصلحة العامة وتدمر العنعنات الخاصة داخل الأسرة البابانية وتحطم أركانها وتقضي على تقاليدها القومية أيضا.

ولكل ذلك لم يبق لمقام ولاية العهد وجود حقيقي.

في العام ١٢٠٣هـ (١٧٨٨م-١٧٨٩م) اتصل الحاج سليمان بيگ الشاوي تحريرياً بسليمان باشا طالبا منه قبول استسلامه وإعطاءه الأمان والعفو عنه، فأجيب إلى ذلك شريطة أن لايسكن بغداد ولايقيم أي علاقة مع القبائل والعشائر ولايخل بالأمن والنظام العام، وسمح له بالإقامة في ممتلكاته الواقعة في (قره أورمان)، كان الحاج سليمان مهتما باستعادة ألطاف سليمان باشا نحوه واطمئنانه من حسن نواياه. ولذلك فقد أرسل إليه يطلب منه إيفاد أحد معتمديه إليه ليسلمه الرسالة المشتركة التي كانت قد تبودلت قبل سنة بين كل من مصطفى آغا متسلم البصرة وعثمان باشا بابان بشأن أحمد الكهية، توثيقا لصدق العلاقة بينه وبين الوالي. فانتفض سليمان باشا عند إطلاعه على هذه المحاولة كما ينتفض الدجاج وبادر إلى إيفاد أحد معتمدي كهية أحمد آغا وهو سليمان آغا إلى الحاج سليمان بيگ الشاوي.

وعندما وصل سليمان آغا إلى الحاج سليمان بيگ الشاوي سلمه هذا، الرسالة المشتركة المشار إليها وأرفقها بجملة معلومات صادقة أو كاذبة زيادة في التوثيق وطلب الصداقة وإعاده إلى سليمان باشا.

ولما اطلع الوالي سليمان باشا على المعلومات المزورة والمبالغ فيها التي أرسلها إليه الحاج سليمان الشاوي أخذته سورة من الانفعال وثارت في نفسه الأوهام، ومن بين أركان الاتفاق وجه أصابع الاتهام إلى سليمان باشا وحده[٣٧]، ولكن قبل أن تبدو على ملامحه شرارات الغضب الملتهب بسبب الاتفاق المذكور، أخذ يفكر في اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على عثمان باشا، ففكر في نفسه وقدر أنه إذا حقق مايريد عن طريق اللجوء إلى الدسائس والحيل كان أوفق، وهكذا بعث إليه رسالة ذكر فيها أنه بدافع من أحاسيس المودة التي يكنها له، الناشئة من خدماته البطولية السابقة، يسره دوما لقاؤه، ولذلك فإنه يرجوه أن يزور بغداد ليفرح برؤيته من جهة وليجري معه بعض المحادثات من جهة أخرى، وسلم الرسالة إلى عبدالله بيگ شقيق أحمد الكهية وأرسلها إليه في حرزه وأمانته.

(٣٧) يقصد أنه لكرهه المتأصل للبابانيين، ولكونه مطمئنا من أن سليمان الشاوي قد استسلم وطلب الأمان وأن مصطفى آغا الكردي متسلم البصرة لايخشى خطره، لم يكن هناك من أركان الاتفاق من يركز عليه للانتقام منه الا عثمان باشا- المترجمان.

وصل الرسول إلى السليمانية وأخذ يحارب عثمان باشا كما صدرت إليه الأوامر ويشرح له كيف أن الوالي لفرط محبته لك يود أن تأتي معي إلى بغداد للتشرف بلقائه. كان عثمان باشا خالي الذهن مما كان يدبر له في الخفاء ولم يكن يرى في المفاوضات التي دارت بينه وبين مصطفى آغا في العام الماضي مادة أساسية جدية، ولذلك لم تثر الدعوة في نفسه الشكوك والأوهام، بل إنه لم يتذكرها بتاتا، ولذلك عبر عن كامل إخلاصه إزاء الوالي وعن محبته لرسوله وجامله واحترمه كثيرا وقدم إليه أنواع الهدايا، واستعد خلال أيام قلائل للسفر باكمال مستلزماته وتوجه ومعه أربعون فارسا إلى بغداد في صحبة عبدالله بيگ.

وفي هذه الأثناء انتقل مصطفى آغا بمشروع الفكرة إلى طور التنفيذ وأثار قبائل البصرة كلها، وبدأت أعمال العصيان تظهر معالمها شيئا فشيئا. وإزاء ظرف دقيق كهذا لم ير الوالي سليمان پاشا الفرصة سانحة لتحقيق نواياه تجاه عثمان باشا، ذلك لأن إطفاء حريق ذلك التمرد كان أمرا غير محتمل التحقيق في الواقع إلا بشجاعة أبطال بابان وحدهم.

ولما كان عثمان باشا قد استجاب للدعوة وجاء إلى بغداد، فإن أي أثر للخيانة والنكاية لم يبدُ على ملامح سليمان باشا، بل إنه أظهر أن عثمان باشا وحده الذي يستطيع أن يعالج مشكلة البصرة، وقرر عدم تنفيذ ما كان يضمر من نوايا سيئة، بل إنه خطب أخته لعبدالله بيگ شقيق أحمد الكهية زيادة في التوثيق وتأكيدا للاطمئنان. وما إن وافق عثمان باشا على ذلك حتى عقد النكاح، وشغل سليمان باشا عثمان باشا ببعض الأعمال أياما عدة وعبر من خلال إظهاره لألطافه الكاذبة عن امتنانه له. وعلى أساس التعهد له بالإسهام في الحملة على البصرة في مطلع الربيع المقبل أعاده إلى السليمانية معززا مكرما.

مع حلول بواكير الربيع بدأ سليمان باشا يستعد للسفر إلى البصرة وأرسل إلى عثمان باشا في السليمانية يطلب منه التحرك. وإذ اكملت الاستعدادات في بغداد وصلها عثمان باشا أيضا مع قواته. وكان مصطفى آغا متسلم البصرة قد قتل قائد قوات منطقة شط العرب في البصرة لأنه كان يعتبره مفتاح أفكار سليمان باشا وكان يخدم أغراضه ومراميه. وقد أثار وصول نبأ هذا الحادث إلى بغداد حفيظة سليمان باشا مما جعله يبادر إلى التحرك نحو البصرة.

ما إن أدرك العصاة أن عثمان باشا بابان لم يكتف بأن لايساعدهم، بل أتى للزحف

عليهم بنفسه حتى تركوا البصرة وولوا هاربين، ودخل الجيش القادم البصرة. لقد كان المشتركون في العصيان قد هربوا جميعا واختبأوا، فلم يبق مايجب القيام به في البصرة عدا إعادة ترتيب الأمور، فعين عيسى بيگ المارديني متسلما للمدينة وتركت له قوة عسكرية يعزز بها موقعه، ونسب حمود الثامر رئيسا لعشائر المنتفك وصدر له الأمر بذلك. وإذ تأكد سليمان باشا من أنه لم تظل هناك حاجة تستوجب بقاءه في البصرة عاد مباشرة إلى بغداد.

لما وصل الجيش العائد إلى ضواحي بغداد أقام معسكره هناك حيث مكث فيه ليلة واحدة وفي اليوم الثاني دخل المدينة، ولكن سليمان باشا أبقى القوة التابعة لعثمان باشا في المعسكر وأخذ معه عثمان باشا وحده في أحد القوارب إلى سراي الحكومة حيث مقره.

لاطف سليمان باشا عثمان باشا كثيرا في تلك الليلة، كذبا وادعاء. وفي اليوم التالي أقيمت حفلة كبرى قدم إليه خلالها أشراف بغداد وأعيانها التهاني لمناسبة انتصاره. وفي ذلك الاحتفال قدمت إلى عثمان باشا قهوة مسمومة حسب تعليمات خفية أصدرها الوالي، وبعد ذلك مباشرة أخرج سليمان باشا من جيبه الرسالة المشتركة المعهودة التي تبودلت بين عثمان باشا ومصطفى آغا وأرى عثمان باشا إياها وسأله عن أسباب خيانته. لقد كان عثمان باشا آنئذ يتلوى من آلامه التي سببها له السم الذي دسّ في القهوة، فلم يطق الإجابة بشيء، وكان الوالي سليمان باشا يرمي من وراء ذلك إلى أن ينسب موت عثمان باشا إلى التأثير الذي أحدثه في نفسه انكشاف الحجاب عن الخيانة التي اقترفها، لا إلى لآماته المنافقة هو.

في الليلة التالية لذلك اليوم فاضت روح عثمان باشا الطاهرة من دار الجلاد إلى فردوس الرحمن فأودع مثوى الغفران في جوار الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان.

إن القلم ليعبر عن عجزه عن وصف شجاعة هذا الرجل ومتانته وصلابته الدينية. إن القضاء على أكابر رجال الامة وأعاظم الشخصيات الإسلامية في سبيل أهواء مغرضة إهانة للدين والوطن كما هو خيانة للإنسانية، إذ يتوقف استمرار السلامة الوطنية على وجود أمثال هؤلاء الرجال العظام وتفتقر الهيئة البشرية إلى أركان القومية ودعائم المجتمع هؤلاء، فضلا عن أن الحسَّ الإنساني الذي يسمَّى الوجدان يتنافى بصورة مطلقة وارتكاب مثل هذه الفجيعة القاسية. إن وقوع فاجعة كهذه إنما هو نتيجة لإيحاءات سجايا السباع الضارية، بل إنه مما تنفر وتشمئز منه النفوس حتى وإن ظهرت من

حيوانات مفترسة.

لقد أثبتت لنا الحوادث والوقائع أن محور النظام والأمن في الديار العراقية كان معقودا بسيف شجاعة البابانيين وبسالتهم، وكلما تعرضت المنطقة العراقية إلى القلاقل والاضطرابات، عزَّ عى أولي الأمر طريق لإزالتها إن لم يقتحمها البابانيون ولم يقضوا عليها. لقد كان بوسعهم، لما كانوا يظهرون من بطولة وشجاعة، وكانوا يظهرونهما في كل حين، أن يستولوا على بغداد في أي وقت شاءوا ويجعلوها رهين قبضتهم، ولكنهم ما إن كانوا يقتنعون بأن التحرش بوكيل خليفة المسلمين يؤول إلى الكفر والمحن، حتى كانوا يمتنعون عن تحريف وجهة الطاعة نحو الجهة المخالفة.

ولنفترض أن عثمان باشا قد غرر به بما حببه إليه مصطفى آغا متسلم البصرة ووافق على الاتفاق ضد أحمد الكهية، لكنه أخذ على عاتقه بنفسه وفي أدق اللحظات وأحرجها قهر مصطفى آغا وتحطيمه، وبرهن على صداقته لسليمان باشا وفي حضوره هو إبان استرداد البصرة. إضافة إلى أنه هو الذي اقتحم مواقع الأعداء وعزز سطوة سليمان باشا وثبت أركانه إبان فتنة عجم أوغلو التي حولت أيام ولاة عديدين إلى ظلام دامس من الفوضى والاضطرابات. ولذلك فإن التاريخ يلعن إلى الأبد سلوك الضواري هذا والقضاء على الشهيد المذكور بمثل تلك الطريقة المهينة، رغم كل خِدْماته ورجولاته.

حكومة إبراهيم باشا الثانية

بعد وفاة عثمان باشا عين إبراهيم پاشا مجددا حاكما مكانه. وما إن انتشرت الأخبار عن كيفية وفاة عثمان باشا وإعادة تنصيب إبراهيم باشا حاكما على بلاد بابان، حتى التحق بعض أتباع عثمان باشا بقواته وعاد البعض الآخر متألمين إلى السليمانية. ولما عادت هذه القوة المتألمة المتهيجة إلى السليمانية توجه عبدالرحمن بيگ شقيق المرحوم عثمان باشا الذي كان يحكم بلاد بابان وكالة مع أتباعه إلى سنگور في إيران واختاروا الإقامة هناك.

وطوال إقامته في تلك الديار لم يسع لاي منافسة يخوضها ولم يبدِ أي محاولة لتحقيق أهداف خاصة باسترجاع إمارة بابان استنادا إلى الإيرانيين وفي ظل قواتهم، بل لم يخرج عن دائرة السكون المُطبِق في زاوية العزلة والحرمان، وظل كذلك طيلة ما كان

وضعه المادي ملائما، إلا أن الضائقة المعيشية أطبقت عليه أخيرا وحطمت صبره وتحمله. ومع ذلك لم يجد التوسل بالاستنجاد بالإيرانيين وطلب العون منهم من أجل التمتع برفاهية العيش عن طريق الإعادة إلى الحكم أو تعريض مقدرات وطنه وأبناء وطنه إلى مطامع حكومة أجنبية، موافقا لحميته ورجولته، بل وجد انتماءه إلى حكومته الإسلامية أوفق على أي حال. وعلى ذلك فقد اتصل بسليمان باشا في العام ١٢٠٤هـ، في حين أن سليمان باشا كان يؤرقه دوما احتمال أن يثير بوجهه عبدالرحمن بيگ مشكلة من إيران لكونه مقيما هناك. ولذلك فقد رأى في الاتصال الذي أجراه به عبدالرحمن بيگ بشير خلاص، فأرسل إليه أحد أشراف بغداد ليأتي معززا مكرما إلى هناك وخصص بعض المقاطعات لمعيشته وإدارة شؤونه، وبذلك وفر له وسائل الرفاه والعيش الكريم. وهكذا اختار الموما إليه الإقامة والسكنى حوالي سبعة أشهر في جوار جلاد أخيه.

وفي هذه الأثناء أبلغ نبأ وفاة محمود باشا بن تيمور باشا متصرف كويسنجق وحرير إلى سليمان باشا من قبل إبراهيم باشا، فأحيلت المناطق المذكورة أيضا بعهدة الأخير.

ولما كان استقرار البابانيين وعيشهم بهدوء وسلام غير منسجم مع النزعة الشخصية لسليمان باشا ومزاجه الخاص، فقد عزل في السنة نفسها إبراهيم باشا دونما مبرر، وعين مكانه عبدالرحمن بيگ.

وعندما وصل عبدالرحمن باشا إلى قرەداغ فكر في أن من المحتمل أن يقاوم إبراهيم باشا ويمتنع عن الانصياع فأرسل أخاه سليم بيگ في المقدمة، في حين أن إبراهيم باشا ما إن سمع خبر تعيين عبدالرحمن بيگ مكانه حتى عقد العزم لما عرف عنه من سلامة طبع ذاتية على التوجه نحو بغداد من دون أن يفكر في اتخاذ أي إجراء عدا الرضا بما جرى والتسليم به، بل إنه أسرع في إعداد وسائل الهجرة وأمر بالتحرك قبل أن يصل عبدالرحمن باشا إلى السليمانية، وأرسل أخاه عبدالعزيز في مقدمة ركبه. وعندما وصل عبدالعزيز إلى گلەزەردە التي تبعد عن السليمانية من جهتها الجنوبية مسيرة ساعتين، التقى سليم بيگ الذي كان هو الآخر في مقدمة ركب عبدالرحمن باشا، فحدثت بينهما مشادة كلامية أدت إلى الصدام بين الفريقين، فكانت الضحايا من كليهما كثيرة، وكانت ساحة الوغى منطقة جبلية ذات وهاد وأخاديد ومليئة بالصخور الناتئة، ولم يطل القتال، بل انتهى في أمد قصير إذ تعثر حصان عبدالعزيز بيگ في أثناء القتال بصخرة فكبا به وأصيب هو نفسه بضربتي سيف، فلم تعد به طاقة المقاومة

ووقع في الأسر، وهزم الفرسان الذين كانوا معه واضطروا للانسحاب حيث أبلغوا إبراهيم باشا بما جرى، ولذلك رأى إبراهيم باشا أن من الأوفق أن يحوّل زمام مسيره باتجاه إيران. وبعد أن مكث في (برنه) الواقعة على مقربة من كرمانشاه أسبوعا، توجه من هناك إلى بغداد.

وإذ أسر عبدالعزيز جريحا من قبل سليم بيگ أمر عبدالرحمن باشا بمداواته. ولما شفى من جراحه أرسل إلى بغداد بطلب من سليمان باشا، فألقاه في السجن فور وصوله بحجة أنه كان بالإمكان أن يؤدي توجه أخيه إبراهيم باشا إلى إيران، إلى انبعاث المشاكل الإيرانية بوجه سليمان باشا مجددا، في حين أن مقصد إبراهيم باشا في الأساس كان بغداد وأنه لم يغير زمام سفره نحو إيران إلا بسبب سوء الفهم والمشادة التي حصلت بين أخيه عبدالعزيز بيگ وسليم بيگ، مما جعله يغير اتجاه سفره من بغداد إلى إيران. وإلا فأي مشكلة كان يريد إحياءها بوجه سليمان باشا أو ما أشبه؟ فلما قطع إبراهيم باشا كل ذلك الطريق إلى بغداد ووصلها لم يبق أي مجال للتردد والشبهات. فاضطر سليمان باشا إلى إطلاق سراح عبدالعزيز بيگ وأسكن بعض أتباعه في كركوك وبعضهم الآخر في بغداد وضواحيها وأقطعهم مقاطعات خانقين وقولاى وعلي آباد وبيشير وتازه خورماتو.

حكومة عبدالرحمن باشا الأولى

أخذ عبدالرحمن باشا فور وصوله إلى السليمانية شؤون الإدارة بيد قدرته وعين أخاه سليم بيگ في قرەداغ.

لنترك برهة من الوقت عبدالرحمن باشا مشغولا بأمور الحكم لنعيد النظر إلى الوراء ولنر ماذا كانت الخاتمة المستحقة لأحمد بيگ الكهية المتخلق بأخلاق الضواري الكاسرة.

لقد جلب علي آغا الخزندار بسيرته وصورته نظر سليمان باشا ومودته وعطفه، فكان يفكر في أن يتخذه صهرا له، ولذلك كان يعبر له عن حبه، وقد أشعره برغبته في أن ينضم إلى دائرة خواصه. ولكن هذه الأحاسيس الودية التي كان يبديها الوالي لعلي آغا ما كانت لتروق لأحمد الكهية، فهو قد كان بخلقه حسودا عصبيا لايرى سواه، وما كان ليتحمل أن يبدي الباشا عواطفه تجاه أي احد. فإذا رآه يميل إلى شخص ما، كان يعتريه

السعار والجنون، وكان يوظف كل ما له من قوة ومهارة واستعداد للدس لإبعاد كل من يحس فيه بقابلية التقرب من سليمان باشا. وإن صادف أن رأى أحدهم وقد غدا مظهر ألطاف الوالي وعطفه، دبر له مكيدة عن طريق السعاية والوشاية والتزوير حتى يمسي محط غضبه وسخطه. وخلاصة القول إنه كان لايعرّف الوالي بأي أحد، بل كان كل همه البحث عن كيفية السيطرة عليه وإخضاعه لمشيئته. فكم من وفي غيور شهم من أمثال عثمان باشا البائس قد بات ضحية أهدافه ونظراته اللعينة.

ولكن هاهو زمام إدارة أمور سليمان باشا الذي كان حتى اليوم في قبضته المتفردة، صار الآن في يد خزندار المتفوقة. لقد أزال علي آغا من قلب الكهية بالمرة وإلى الأبد الهدوء والصبر والسكينة، وكان ما أطار لبه وأصابه بالجنون أكثر من أي شيء آخر أن كل مابلاه بحق الآخرين من سعاية ووشاية وتزوير ظل عاجزا عن أن يؤثر تجاه علي آغا قيد أنملة. لم يكن أحمد آغا الكهية يدري أن الود والاحترام الذين كسبهما علي آغا في نفس سليمان باشا، والحاجة التي يشعر بها هو نحوه، إنما تشكل صفحة أخرى تختلف كثيرا عما كان قد أحرزه هو لديه منذ زمن بعيد. فلئن كان أحمد آغا يمتلك خصوصيته من حيث التربية والتعلم والتعليم، كان لعلي آغا الخزندار جاذبية روحية أثرت في الحريم الداخلي لسليمان باشا. ولئن كان أحمد آغا قد ربح حقا في الاختلاط الرسمي مع سليمان باشا، كان علي آغا أيضا قد غدا مرشحا للتشرف بالانتماء إلى سلك العائلة. وفي هذه الحالة فإن عاقبة الغيرة التي كان يبديها أحمد الكهية لم تكن لتتوقف عند حد عدم الحاق أي أذى بعلي آغا وعدم التأثير فيه في أي ظرف من الظروف، بل كانت تعود بالضرر عليه هو بالذات. وهكذا كانت موآمراته وتخريباته تبقى دونما نتيجة في صالحه، بل إن تصرفاته وحركاته المتطرفة المنبعثة من الحسد أثارت انتباه الوالي وجعلته على يقين من حقيقة أمره. وعندما حصلت له القناعة على حين غرة بأن أحمد الكهية يضمر نوايا سيئة تجاه علي آغا ويدبر مكيدة للقضاء عليه، أطلق للأخير حرية التصرف.

وبناء على هذا السماح والأمر الصادر إليه، أعدّ علي آغا الخزندار بعض رجاله المعتمدين. وعندما كان أحمد آغا الكهية يهم بالخروج من مجلس سليمان باشا، داهمه رجال علي آغا وهو مايزال على سلالم المنزل وأخذوا يضربونه بسيوفهم، فأرسلت روحه الشريرة إلى جهنم كما أرسل جسده الخبيث إلى سفر القبر المليئ بالنيران، فانتقم منه بهذه الصورة من لدن المنتقم الحقيقي لكل أولئك المظلومين الذين أعدموا بيد ظلمه.

لقد غدا هذا النجاح الباهر الذي حصل عليه علي آغا مدعاة لامتنان سليمان باشا وتقديره، فعينه في منصب الكهية مع الإنعام عليه برتبة الباشا. وبعد أيام غدا مظهر السعادة بقبوله داخل حريم المحارم مبتهجا بشرف اتخاذه صهرا.

وفي العام ١٢١٢هـ (١٧٩٧م-١٧٩٨م) استدعي عبدالرحمن باشا من قبل سليمان باشا. ورغم مرضه الذي كان يحول دون سفره فقد أجلس في هودج منصوب على راحلة وأرسل إلى بغداد، وعين مكانه إبراهيم باشا، كما فوضت حكومة كويسنجق وحرير إلى سليم بيگ أخي عبدالرحمن باشا، كنوع من الإحسان إزاءه وصدر الأمر بإقامة عبدالرحمن باشا في بغداد.

حكومة إبراهيم باشا الثالثة

تلقى إبراهيم باشا أمر الولاية وتسلم الخلعة الممنوح إياها وتوجه نحو السليمانية، فاستقبل من قبل أنصاره ومؤيديه ودخل المدينة في أبَّهة منقطعة النظير. أما أنصار عبدالرحمن باشا فقد حزموا أمتعتهم وتركوا المدينة وتفرقوا أياديَ سَبَأ.

في العام ١٢١٦هـ (١٨٠١م-١٨٠٢م) بلغ الضجر بعبد الرحمن باشا بسبب طول إقامته في بغداد غايته القصوى، فاستأذن سليمان باشا بمغادرتها، ولكن الوالي غضب عليه لطلبه هذا، فعزل أخاه سليم بيگ من ولاية كويسنجق وحرير واستقدمه إلى بغداد للإقامة فيها، كما نفى عبدالرحمن باشا نفسه إلى الحلة وفوض حكومة كويسنجق وحرير مع رتبة الباشوية إلى محمد بيگ بن محمود باشا بن تيمور باشا.

وفي السنة نفسها حل بقدرة القادر جلَّ وعلا موعد إنهاء عهد قدرة سليمان باشا. فقد أصيب المشار إليه بمرض أوجاع المفاصل، وكانت العلة تشتد به يوما بعد آخر، وقد بذل معه الأطباء جهودا كبيرة وقدمت له أدوية ومعالجات كثيرة، ولكن كل ذلك لم يجده نفعا ولم يشفه من علته، بل على العكس من ذلك كان مرضه يستفحل ساعة إثر ساعة، ويغدو أشد وقعا عليه وتأثيرا فيه. كان ضعف جسمه واضطراب صحته يزدادان تدريجيا ويشتدان تخريبا فيه. وبعد أن رقد في الفراش بضعة أيام لفظ أنفاسه الأخيرة. وكان في لحظات احتضاره مشهد يليق بأن يكون عبرة لمن يعتبر من المستكبرين الذين يَعلَون في الأرض.

سبحانك اللهم! إلى أي صورة ذليلة ومرعبة انقلبت قيافته العظيمة وسحنته الفخيمة! لكأن القدرة القاهرة إنما مثلت حقيقة الإنسان في خاتمة المطاف بما يعقب الكبرياء والاستعلاء من عجز فطري ومذلة، في صورة سليمان باشا. ليكون عبرة لأمثاله من المتجبرين والمتغطرسين. لقد طار اللون من وجهه وغدا من الضعف والهزال بحيث لم يبق له من قوامه إلا جلده وعظمه، وكان يئن بصعوبة. غير أن قوته الناطقة قوية لم يصبها خلل، فجمع أصهاره الأربعة علي باشا الكهية، وسليم بيگ وداود آغا الخزندار ولفيف آغا رئيس البوابين حوله عند وفاته، ولم يكن قد أكمل وصيته التي كان يبغى أن يوصيها بشأن تولِّي علي باشا مقام الحكومة وإطاعة الأصهار الثلاثة الباقين لأوامره بغية إنجاحه في أداء عمله ولتعزيز مكانته، حتى توقف عن النطق. ومع أنه تلفظ ببضع كلمات مشوشة، إلا أن أحداً لم يفهم ماذا كان يريد أن يقول، فانتفض مرتين بقوة وأسلم روحه إلى بارئها.

لقد كانت تلكما الانتفاضتان، دونما ريب، تراءى له فيهما شبح البطلين المظلومين محمود باشا وعثمان باشا اللَّذين جعلهما ضحيتين لأغراضه اللئيمة، تراءى له شبحاهما وهما يدعوان مخدومهما إلى المحكمة الإلهية الكبرى لإحقاق حقهما.

لم يحضر علي باشا مراسيم تشييع ودفن جثمان سليمان باشا بعد موته، إنما بادر إلى تولِّي مهام منصبه بدافع من المنافسة والجلوس على كرسي الولاية خوفا من أن تثار بوجهه مشاكل وقلاقل بعد موت الوالي بدافع من المنافسة والرقابة الفردية. لقد أخذ بنظر الاعتبار احتمال أن تسري آثار الأحداث والوقائع التي كان يلاحظها، ويتسع مداها، فاتخذ الاحتياطات اللازمة لسد الطريق بوجه القائمين بها.

وبعد أن دفن سليمان باشا إلى جوار الإمام الأعظم وانتهت أيام العزاء، اجتمع وجوه المدينة وأعيانها وأشرافها وبايعوا علي باشا على الولاية كما أوصى به سليمان باشا وصادقوا على الوصية وكتبوا بذلك محضرا عاما وقعوا عليه جميعا وقدموا استرحاما إلى السدة السلطانية المقتدرة بشأنها.

شكل أحمد آغا رئيس الإنكشارية جمعية سرية بالاتفاق مع الصهر الثاني سليم بيگ لانتزاع الحكم من علي باشا وتفويضه إلى سليم بيگ. وقد اشترك معظم الشخصيات البغدادية في هذه الجمعية التي توسعت حتى بلغت حدّ التمكن من بلوغ الهدف الذي تأسست من أجله، وغدا أعضاؤها يكشفون عن مراميهم دونما حذر.

وفي نطاق التدابير الخاصة التي اتخذوها هاجموا علي باشا بغتة. ولكن علي باشا

لم يكن من أولئك العجزة الذين يغلبون على أمرهم بسهولة. فرغم كثرة أفراد العصاة قاوم على رأس قوة جدٍّ قليلة، وبفضل صموده وجسارته في الدفاع استطاع أن يحول دون إحراز خصومه المهاجمين أي نجاح.

فأطلق العصاة سراح عبدالرحمن باشا بابان الذي كان منفيا في الحلة كما أطلقوا سراح أخيه سليم بيگ من بغداد واتفقوا معهما على أن يلتحقا بهم مع أنصارهما، فلم تبق لعلي باشا طاقة بالمقاومة، فصعد في إحدى الليالي على ظهر أحد القوارب واستطاع أن يعبر دجلة إلى الجانب الأخر. وما إن علم الأهالي في ذلك الجانب من بغداد أن علي باشا التجأ إليهم حتى اجتمعوا وأخذوا على أنفسهم عهدا بالحفاظ عليه والذود عنه واسترداد حقه المغتصب وإعادته إلى سُدَّة الحكم وأقسموا على ذلك وأبلغوا علي باشا نفسه بذلك وطمأنوا خاطره. وبناءً على ذلك بدأوا من جهة بإعداد ماينبغي لتحقيق ماتعهدوا به، كما أخذوا يتصلون من جهة أخرى سراً بالشخصيات البغدادية لكسبهم إلى جانبهم وإدخالهم ضمن دائرة اتفاقهم، وقد نجحوا في ذلك. ولما كان العصاة قد قطعوا الجسر الموصِل بين جانبي بغداد، فقد عبروا النهر في إحدى الليالي على ظهور القوارب حيث اتصلوا بحلفائهم وهاجموا جميعا مقر العصاة. ولم تكن لأفراد الإنكشارية ومواليهم الذين كانوا يؤلفون كتلة العصاة قوة للمقاومة بوجه هذا الإجماع الشعبي، فانهزموا وتشتتوا، فضرب من عثر عليه منهم بالسيف ونالوا جميعا جزاء عصيانهم. كما أسر أحمد آغا رئيس الإنكشارية وعبدالرحمن باشا وسليم بيگ الصهر الذين كانوا قد فروا إلى الكاظمية، فأعدم أحمد آغا مباشرة، أما سليم بيگ فهو وإن نفي إلى تكريت في البداءة، إلا أنه نقل إلى البصرة فيما بعد حيث وضع حد لحياته فور وصوله إليها بناء على أوامر صدرت بذلك، ولكن عبدالرحمن باشا لم يمس بسوء. وألقي القبض كذلك على من تبقى من المشتركين في العصيان ممن اختفوا هنا وهناك وأعدموا واحدا واحدا. وبعد أن تم سحق التمرد على هذا النحو وأعيد الأمن والنظام وترسخ حكم علي باشا وتعززت سيطرته على مقاليد الأمور، عادت القوات التي عاونته إبان الفتنة إلى مواقعها وأعيد بناء الأجهزة الانضباطية وقد أخذ بنظر الاعتبار وجهة النظر القائلة بإمكان تكرر الغائلة والعوامل المساعدة على انبعاثها فأرسيت الأسس الكفيلة بالحيلولة دون ذلك واتخذت الاحتياطات اللازمة لاجتثاث جذور مبرراتها.

وبعد حين، ولغرض تسوية الضرائب المتراكمة المتعلقة بعهد المرحوم سليمان باشا،

صدر أمر بتعيين علي باشا والياً بالوكالة، فأرسل ما استطاع جمعه من آقجات مما بقي غير مستوفى منذ أيام سليمان باشا دونما تأخير إلى إستانبول. وبعد أشهر فوضت إليه ولايات بغداد والبصرة وشهرزور برتبة وزير.

في العام ١٢١٧هـ (١٨٠٢م-١٨٠٣م) ورد إلى الباب العالي طلب من الحكومة الإيرانية يدعو إلى تأديب عشائر البلباس بشدة لما كانت ترتكبها من اعتداءات على القرى الإيرانية، فأصدر الباب العالي أمره إلى علي باشا بالتوجه لتأديب هذه العشائر، غير أن محاولة تأديبها من جبهة واحدة كانت غير كافية لإحراز النجاح المطلوب لتعدد المناطق التي كانت هذه العشائر ترعى بها مواشيها ولسعتها. وعلى ذلك فقد كلف علي باشا حاكم بابان إبراهيم باشا بمعالجة قضية أولئك الذين كانوا يسكنون كويسنجق وبيتوين منهم، وتوجه بنفسه نحو أربيل، فقتل وأتلف كثيرا فيما حولها وصادر ألوف الدواب والمواشي والكثير من الأموال والأمتعة المنزلية. وفي أربيل التقاه به إبراهيم باشا بما كان معه من آلاف الدواب والمواشي والأموال والأمتعة البيتية الكثيرة[٣٨].

وبعد تأديب عشائر البلباس على النمط المذكور، فكر علي باشا في تأديب يزيديي سنجار كذلك الذين كانوا يسببون المتاعب منذ أمد طويل لأهالي الموصل باعتداءاتهم وشرورهم. كان تأديب الكفرة[٣٩] المذكورين في تلك الأيام حيث تلك الظروف السانحة، فرصة جدا ملائمة لعلي باشا.

كان علي باشا يرى في وجوده في أربيل على رأس هذه القوة، قريبا من سنجار حيث اليزيديون الكفرة المنحرفون عن الإسلام، عبدة الشيطان السالكون سبيل الضلال، الذين أزعجوا بشقاواتهم وسيئاتهم الإسلام والمسلمين، فرصة ملائمة تماماً لتدمير هؤلاء واستئصالهم والقضاء على مخاطرهم. والواقع أن عدم السعي للاستفادة من فرصة

---

(٣٨) واضح أن هذه الدواب والمواشي والأموال والأمتعة، كانت هي الأخرى منهوبة من العشائر التي تعرض لها إبراهيم باشا - المترجمان.

(٣٩) لمؤلف هذا الكتاب موقف عدائي صارخ تماما من اليزيديين، وذلك مايتضح بمالايزيد عليه من الصفحات التالية من هذا الفصل. ونحن إذ نثبت نصوص ماكتبه حفاظا على الأمانة العلمية من جهة وللتدليل على النمط المتخلف في التفكير الذي لم ينج منه حتى مؤلف الكتاب الذي كثيرا ما يبرهن على سعة أفقه وعمق إدراكه السياسي، من جهة أخرى، نؤكد على أننا نرفض جملة وتفصيلا مثل هذا المنطق غير القومي وغير الإنساني في الوقت نفسه، الذي يشارك فيه المؤلف المهاجمين العثمانيين والبابانيين وكل من سار في دربهم - المترجمان.

كهذه وتركها من دون استغلالها لتيبيس الشجرة الخبيثة لحياة هذه الشرذمة اللعينة واجتثاثها من جذورها، كان يؤلف خيانة دينية واجتماعية عظمى للوالي المشار إليه.

كان علي باشا قد لاحظ هذه الجوانب للمسألة، ولم يكن غافلا عن تقدير أن الحملة على سنجار بلغ حد الوجوب والاضطرار، إلا أنه وجد من اللازم لأهمية الموضوع استشارة أمراء بابان أيضا بشأنه، ذلك أن قوته التنكيلية الأساسية كانت عبارة عن قوة البابانيين، وكانت هذه القوة تحت إمرة إبراهيم باشا الذي كان في رفقته من أمراء بابان أخوه خالد بيگ وعبدالرحمن باشا أيضا.

أطلعهم علي باشا على نواياه وما عقد العزم عليه واستمزج آراءهم بشأن ذلك، فقوبلت مقاصده الخيرية بهذا الشأن من قبلهم بالتصويب والاستحسان. وكان من الطبيعي أن لايشك في تصويبهم لرأيه وتشجيعهم إياه عليه، ذلك أن الإسهام من دون دعوة في مثل هذه الحملة المجزية للثواب كان من مقتضيات الصلابة الدينية للبابانيين. ومع ذلك فإن الإقدام على غزوة دينية ضد اليزيديين الكفرة، وإن كان متصورا منذ أمد بعيد في عالم البابانيين، إلا أنهم يحجمون عن القيام بها لئلا يحمل ذلك على قصد الاستيلاء، وعليه فإنه لم يكن علي باشا ينفي احتمال أن يكون هناك وشاة يضعون العراقيل في طريق رغبته هذه، المبنية على التقرب إلى الله.

وإذ نالت نية الحملة المذكورة استحسان كل هذه الأطراف وغدت محط ترحيبهم واستحسانهم، أمر علي باشا بالتحرك بعد أيام يتم خلالها إعداد العدة الكافية. فما إن صدر أمر التحرك، حتى هاج الشوق وماج بأفراد القوات المحتشدة لأنهم كانوا مشبعين بالرغبة نفسها، بل إن هذا الشوق كان عامًا حتى قبل صدور الأمر، فالشعور الذي كان يمنحهم إياه الإحساس بأنهم سائرون إلى الجهاد ونيل الشهادة، كان شعور من لايرون أنفسهم متوجهين إلى ساحة حرب بل إلى حفلة عرس، شعور من لايرون أنفسهم سالكين طريق المقاتلة بل المجاملة. كان الجنود المسلمون المحتشدون المنتمون إلى عناصر شتى كل صنف منها يحمل شارته القومية وقد اكتسب حقه الخاص في إبراز خصوصياته، يترنمون بأناشيدهم وقصائدهم الوطنية ويعزفون ألحانهم الخاصة. كان هذا الاحتفال الديني السامي يثير حماساً روحياً عالياً ويلين أغلظ الأفئدة ويهيجها ويجعل الناس في حالة يتصورون أنفسهم فيها وكأنهم ليسوا في هذا العالم المادي وإنما يعيشون في عالم معنوي.

في هذا الجو الحافل بالهياج والحماس، تحرك الحشد، وعندما وصل إلى حمام العليل

مر أمام بعثة التقدير والتكريم التي وفدت من الموصل برئاسة واليها لاستقبال المقاتلين، وسار حتى دخل الموصل.

لقد كان الملاحدة المتصفون بصفات الحيوانات الجبلية من الكثرة، ومواقعهم من المناعة بحيث لايمكن قهرهم وإجبارهم على الاستسلام بسهولة. وبناءً على ذلك فكر الوالي في تحشيد قوة كافية معه فأمر بالاستعجال في التحاق قوات الموصل العسكرية به وكذلك القوات التابعة لحاكم العمادية مراد باشا بغية إحراز النجاح والتوفيق رغم كل عقبة ولاقتحام جيمع العقبات التي قد تعترض سير العملية.

ولسد الطريق بوجه الكفرة المذكورين من أن يجدوا الوقت الكافي لتدارك أمورهم أو تتيسر لهم إمكان إقامة تحصيناتهم الدفاعية أرتئي الإسراع في التحرك. ولذلك حددت مدة المكوث والاستراحة في الموصل بيومين. وخلال هذين اليومين أمكن تحشيد حوالي خمس مئة مقاتل من المشاة في الموصل.

كانت المنافسة على أشدها حينذاك بين جليليي الموصل ونيران التنافر فيما بينهم مضطرمة بقوة. لذلك كان من شأن التفكير بإصلاح ذات بينهم وإقرار الأمن والنظام في صفوفهم أن يخل بالهدف الأساس. فحصل الاكتفاء بالخمس مئة جندي الذين كان يفترض أن حاكم العمادية سيأتي بهم معه.

تحرك الحشد الثائر في جلال وأبهة. وكما كان الشأن في كل حملة كانت راية الطليعة في هذه المرة أيضا في أيدي البابانيين تحت إشراف عبدالرحمن باشا. ولما وصلوا سفوح الجبال الواقعة شمالي سنجار اتخذوها مقرا لهم ونصبوا خيامهم. وفي اليوم التالي ترك الكفرة المشار إليهم قراهم ومساكنهم كلها وتوجهوا نحو قمم الجبال وأقاموا فيها الاستحكامات وبنوا المواقع الدفاعية لرد الهجمات التي ستشن عليهم. وكانوا قد أخذوا معهم كل مايحتاجون إليه من مستلزمات وعدد وأدوات. وقد تبين هذا بوساطة الجاسوس الذي أرسل لاستطلاع أخبارهم ومن الطلائع الاستكشافية التي كلفت بترصد أعمالهم. ولذلك فقد صدر الأمر باديء ذي بدء بحرق مساكنهم وقراهم وقطع أشجارهم وتدمير بساتينهم.

والآن لندع الحديث عن أعمال التأديب لتأخذ مجراها من بدايتها إلى نهايتها، لنتفرغ بعض الوقت للحديث عن مجمل العقائد اليزيدية وتفرعاتها الدينية والمذهبية.

تعريف مجمل بطريقة اليزيديين الضالة:

كان اليزيديون حتى القرن السادس الهجري مؤمنين موحدين متعصبين غاية

التعصب للإسلام، خادمين مخلصين له أتم الإخلاص، حتى إنهم لم يكن بينهم شخص واحد خارج حلقة إرشاد الشيخ عدي من مشايخ الطريقة القادرية الكرام. وبعد وفاة الموما إليه لم يخلف من الأولاد من يجلس على سجادة الخلافة فيتولى أمور أتباعه. وبمرور الأيام صرفتهم جهالتهم الأخلاقية ووحشة موقعهم عن طريق الحق والإسلام وصاروا بالتدريج على طريق الغي والضلال، وغدوا يذكرون الشيطان (ملك طاووس) معتقدين بأن كل ما يجري في الكون وكل ما يقدر فيه إنما هو رهن قدرته.

ومع أن هؤلاء يرئسهم رئيس ؛ إلا أن لهم اولاً وقبل كل شيء شيخا، ثم إن لهذا الشيخ خليفة. فمتى انتقل واحد منهما إلى جهنم ناب منابه أحد أولاده. وهذه بعض شروط دينهم. وتحرم عندهم القراءة والكتابة وتنحصر تلاوة القرآن الكريم بينهم في الأولاد الذكور لعائلة واحدة فقط، وجميع كلمات (الشيطان) و(اللعنة) في القرآن الكريم مستورة بالشمع. وقد صنعوا سبعة أو ثمانية تماثيل من الذهب للملك طاووس في صورة ديك. وهذه التماثيل وديعة لدى رئيس الطائفة بصورة خاصة. وفي كل عام ياخذ الخليفة أو أحد المريدين المرشحين للخلافة بعد موته، ممن اكتسبوا الحق حسب الأصول المرعية بينهم، تمثالا من هذه التماثيل في موسم خاص إلى بني دينهم في دياربكر والبلاد الروسية حيث يطوف به فيما بينهم ويجمع منهم مبالغ طائلة بهذه الطريقة. ويصوم اليزيديون ثلاثة أيام فقط من شهر رمضان. وفي المحرّم يجتمعون حول ضريح الشيخ عدي فيزورونه ويطوفون حوله فيغدون بذلك حُجَّاجا. وليست لهم صلاة، إنما يسجدون للشمس عند مطلعها. ويحتفلون بليلة النصف من شعبان وليلة القدر. وبغية الاحتراز من استعمال كلمة (اللعنة) يحرفون كل كلمة فيها حرفا (ل) و(ع)، فتأخذ لها صورة أخرى في لسانهم، فكلمة (نعل) التي تعني المداس يستعملون بدلاً منها كلمة (سول). أما حرف (ش) فإنهم لايستخدمونه البتة[٤٠]. واذا حلَّ بينهم المسلم كان عليه أن يراعي ذلك بالضرورة[٤١].

(٤٠) لاندرى ماذا يقول المؤلف في كلمة (شێخادى = شيخ عدي) التي هي اسم مرشد اليزيديين الاكبر ؟ – المترجمان

(٤١) لا شكَّ في أنَّ الكرد شأنهم شأن أشقَّائهم من الأصل الآريّ، كانوا يعبدون من قوى الطَّبيعة، الشَّمس بوصفها العين البصيرة لقبَّة السّماء الزَّرقاء «وارونه» أو «واژونه» بمعنى المقلوبة، والقمر والأرض ونجمة الشَّعرى اليمانيَّة «گەلاوێژ» والرِّيح والمطر والخ ... حتَّى إذا ظهرت ديانة زرادشت المعروفة تصدَّت لعبدة قوى الطَّبيعة هؤلاء الَّذين كانوا يسمَّون يومئذ (دئيوه يَسنا) (ديوبەنده)

وانتهى الصِّراع لصالح الزُّرادشتيَّة، فاعتنق الكرد طوعاً أو كرهاً الدِّيانة الجديدة. كما أنَّ المسيحيَّة والمانويَّة هما الأخريان قد كسبتا إلى حظيرتهما من أبناء الكرد حصَّتهما أيضاً. وإذ بزغ الإسلام من ظلمات جاهليَّة العرب وغطرسة الأكاسرة وعنجهيَّة القياصرة، لم يجد الدِّين الجديد كبير صعوبة في تقبَّل الكرد تعاليمه السَّمحة باديء ذي بدء، في ظلَّ نظام طبقيٍّ جائر ربَّما كان حظُّ الكرد من معاناتهم إيَّاه أكثر من غيرهم ؛ لبداوتهم وتفرُّقهم المستديم طوال التَّأريخ منذ عهد الكاشيِّين، أجدادهم الأولِّين في إيلام وغيرها.. إلاَّ أنَّ كثيراً منهم لم ينسَوا جذور ديانتهم القديمة، فظلُّوا يلجؤون إليها كلَّما ضاقت بهم السُّبل، وقلب لهم الحاكمون الجدد من العرب المسلمين ظهر المجنِّ وأمعنوا في فرض ما لم يكن في طاقتهم من الإتاوات والضَّرائب الَّتي بلغت أكثر من ستِّين نوعاً من العينيَّات، عدا الغلمان والجواري ... وخلاصة القول إنَّ الكرد الَّذين رحَّبوا بالإسلام في فجره أو ضحاه، لم ينسَوا تنصُّل الولاة والعمَّال في ظهره و عشاه، ممَّا أعلنوه من المساواة بين العربيِّ وغير العربيِّ.

ومن الدِّيانات الموغلة في القدم الَّتي مازالت سائدة بين الكرد ديانة الدَّاسنيِّين الَّتي غدت فيما بعد تعرف بالدِّيانة اليزيديَّة، ديانة عبدة الشَّيطان، وديانة أخرى هي ديانة أهل الحقِّ (العلي أللهيَّة) الَّتي لهما أتباع في كردستان، فمن الأخيرة من يسمَّون «الكاكائيَّة». وممَّا يذكر، أنَّ الدَّاسنيِّين وأهل الحقِّ يلتقيان في بعض معتقداتهما على صعيد واحد، كما أنَّ للمسيحيَّة والإسلام مدخلاً فيهما أيضاً.

ومن المعروف أنَّ اليزيديَّة أو اليزدانيَّة إنَّما تعلَّقت قلوبهم الشَّيخ عديِّ بن مسافر الهكاري منذ أواخر القرن السَّادس للهجرة، كما تعلَّقت قلوب أهل الحقِّ (سلطان إسحاق) «سوهاك» نجل الشَّيخ عيسى البرزنجيِّ، بل قالوا بحلول الإله فيهما.

منذ القرن السَّادس للهجرة تشاهد كلمة «يزيدي» في الكتب. وكان اليزيديُّون يومئذ يدعَون كما مرَّ، الدَّاسنيَّة وعبدة الشَّيطان والكفرة الزَّائغين عن الإسلام. ومازال الكرد المسلمون حتَّى اليوم لم ينسَوا أن يسمُّوهم أحيانا بالدَّاسنيَّة.

وعلى ما ذكرت آنفاً أنَّ الزُّرادشتيِّين كانوا يطلقون على عبدة قوى الطبيعة (دئيوةيَسّنا) (ديوەبەنده). وقد ورد في كتاب (زند آفيستا) الكلمة المذكورة، وهي ترادف «ديو» في اللُّغة الإيرانيَّة والكرديَّة و «شيدا» في الآراميَّة والسَّاميَّة ومعنى «شيدادات» في زند آفيستا هو خالق «أهريمَن» أو خالق «شيداوات» ومن اللاَّفت للنَّظر أنَّ كلمتي «شيت» و «شەيدا» بالكرديَّة تدلاَّن على المجنون. ومن المعتقد عند الكرد أن المجنون هو من مسَّته الجنُّ، فيقولون: «ديّو، جندۆكه دەستى لێ وەشاندووه»، وما أكثر ما يلجأ لطرد الجنِّ والأرواح الشِّرِّيرة، إلى من يعتقد بأنَّ لهم قوَّة سحريَّة لطردها.. ولمَّا كانت كلمة «شيدا» تجمع بزيادة (ان) في آخرها، شاع على الألسن منها بمرور الزَّمان، الاسم «شيدابندگان» أو «شەيتان پەرستان» أي عبدة شَيدا، وكانت الكلمة تطلق قبلذاك على عبدة قوى الطَّبيعة، ثمَّ اشتهر هؤلاء بـ «عبدة الشَّيطان».

إن المزديسنيين، طبق تعاليم زرادشت، ما كانوا ليخشوا الأرواح الشِّرِّيرة، بل كانوا

يحاربونها، ويؤمنون بانتصار الإله في الجولة الأخيرة على الأشرار. إلا أن عبدة الشيطان كانوا يعتقدون بقوتين خيِّرة و شرِّيرة. ولما كانوا يحسون بالغائلة تجاه القوى الشرِّيرة، فبدلا من أن يشتبكوا معها في صراع قاتل، قدموا لها قرابين، وكان لهم حيال ذلك ثلاثة مبررات:

١- تجنبهم أعمالهم الشرِّيرة.

٢- استمداد العون منهم ضدَّ أعدائهم.

٣- هجومهم على الناس من دون أدنى رقيب أو حسيب، ذلك أنهم كانوا أتباع قوى الطبيعة، وإنما كانوا يستغلون هذا تمشية لمصالحهم و استمرارا لقدرتهم.

غير أنهم كانوا في الوقت ذاته يؤمنون بإله أكبر وأكثر عطاء وخيراً، ألا وهو «ديائوس الأب» الذي يعبده الداسنيون (اليزيديون) ويطلقون عليه «ملك طاوس» أو «أب طاوس» أو «عب طاوس». أما كلمة «يزيدي» فلربما تحدرت من كلمة «يزد» أو «يزدان» المشتقة من كلمة «يز» المصدرية الآفيستائية التي تأتي بمعنى العبادة والمدح والتمجيد والحمد، وهي في السنسكريتية في صورة «يج» (YAJ)، ومنها كلمة «YAZATA» الآفيستية الوصفية التي هي الخالق أو المعبود نفسه.

أما في الفهلوية فإن كلمة «يزته» تبدو للوهلة الأولى مخففة في صورة «يزت» (YAZAT)، ثم أبدلت الدال من التاء فصارت في صورة «يزد» (YAZAD) وتجمع على «يزدان» (YAZDAN). ولجهل العرب معنى «يزدان» لفظوها «يزيد». ومنها نسبوا اليزيدين إلى يزيد بن معاوية، فسموهم اليزيدين، على غرار نسبتهم أهل الحق إلى «العلي أللهية» في إيران.

كان الشيخ عدي بن مسافر الهكاري المتوفى في ٥٥٧ للهجرة رجلا زاهدا، مقطوع الصلة بالدنيا عاش في قار بعلبك. ثم رحل من الشام إلى سنجار، فتولى الطَّريقة العدويَّة واستطاع أن يجمع حوله اليزيديِّين ويحملهم على رعاية منهاج الإسلام.

تقبَّل اليزيديُّون مشيخة الشَّيخ عديٍّ وابتعدوا كثيراً عن دين آبائهم الأوَّلين. وعقب وفاة الشَّيخ عديٍّ ودفنه في جبل لالش الواقع في منطقة الشَّيخان، خلفه أخوه «أبو البركات» بن صخر، وبعد أبي البركات، خلفه نجله عديٌّ بن أبي البركات رئيساً للطَّائفة. و كان هو الآخر رجلاً مسلماً تقياً. وبعد أن توفَّاه اللَّه، خلفه ابنه، الشَّيخ حسن الملقَّب بـ «تاج العارفين»، واختير رئيساً للطَّائفة.

في عهد الشَّيخ عديّ حصلت لليزيديَّة شبهات في العقيدة الإسلاميَّة، فعادوا إلى ديانتهم القديمة، فأسبغوا على الشَّيخ عديٍّ مقام الألوهيَّة، وقالوا بالحلول. ومن معتقداتهم، أنَّه لمَّا كان الشَّيطان أو إبليس في القرآن الكريم وفي عمدة الكتب الدِّينيَّة موصوفاً بأنه ملعون، فقد سمَّوه «ملك طاوس» الَّذي يعتبر رئيس الملائكة تجاوزاً لاسمه.. وعلاوة على اليزيديَّة، فإنَّ ثمَّة من العرفاء من يعطون إصرار الشَّيطان على وحدانيَّة اللَّه أهمِّيَّة. وعلى ما ذكر ابن أبي الفداء في نهج البلاغة (ج. ١، ص. ٣٥) أنَ أبا الفتوح، أحمد بن محمد الغزَّاليَّ أخا أبي حامد الغزَّاليِّ قال

ذات يوم على المنبر في بغداد: «إنَّ من لا يتعلَّم التَّوحيد من إبليس فهو زنديق، ذلك أنَّه أمر بأن يسجد لغير اللَّه فلم ينصع». وفي الأبيات لفيردوسيِّ الكرد، رائد القوميَّة الكرديَّة، أحمد خاني الخالد، ما يمكن أن يشمَّ منه مايشبه قول أبي الفتوح، حيث قال:

ئیبلیسێ فەقیرێ بێ جینایەت — هیندی تە هەبوو دگەل عینایەت
هەر رۆژێ دکر هەزار طاعەت — لەورا کو تە دا وی ئیستیطاعەت
سەجدە نەکر لغەیری مەعبوود — گێڕا تە ژ بەر دەرێ خوە مەردوود

ترجمتها: «كان إبليس المسكين البريء طيلة أن كان في حرز عنايتك، يقوم كلّ يوم بألف طاعة، لأنَّك كنت أنت معطيه القدرة والاستطاعة، ولكنَّه لم يسجد لغير المعبود، فجعلته مطروداً من بابك».

إنَّ اليزيديِّين يعتقدون بالتَّناسخ. عندهم أن الأرواح صنفان:

١- الأرواح الشرِّيرة الَّتي تحلُّ في أجساد العجماوات الشرِّيرة الأجناس، وهي في عذاب دائم.

٢- الأرواح الخيِّرة الَّتي تسبح في الفضاء، ومهمَّتها كشف أسرار الكائنات والمغيَّبات لبني البشر الأحياء. وهنَّ على اتِّصال دائم بعالم الغيب.

ولليزيديَّة كتابان مقدَّسان: «مصحفا رەش» و «جلوة»، أي الكتاب الأسود والتَّحلِّي، وهما باللُّغة الكرديَّة الشِّماليَّة. وقد ترجما منذ ١٨٩٥ إحدى عشرة مرة إلى لغات عدة حيَّة.

وكما هو معروف من المصادر الموثوقة أنَّ نسخة خطِّيَّة من مصحفا رەش أودعها تحسين بيگ الشَّيخاني لدى أحد المصارف الأوربيَّة. وتأتي مراتب أفراد الطَّائفة اليريديَّة طبقياً على النَّحو الآتي:

١- الأمير. ٢- بابا شيخ. ٣- الشَّيخ ٤- البير. ٥- الفقير. ٦- القوَّال. ٧- الكوچك.

ومن محرَّمات اليريديَّة:

١- عدم تناول الخسِّ والكلَم و اللّوبياء والخضراوات المسمَّدة بالسَّماد البشريِّ ولحوم الخنزير والسَّمك والغزال والدِّيك لرؤسائهم، لأنَّ «ملك طاووس» إنَّما هو في صورة ديك (؟). ومنها تحريم حلق الشَّارب وجواز تخفيفه. أمَّا بالنِّسبة للقوَّالين و الفقراء والرُّؤساء الرُّوحانيُّون فلا يجوز حلق لحاهم. لا يجوز لليزيديِّ أن يبتعد عن محل إقامته أكثر من سنة، ولا يجوز حضوره في مجالس الطرب واللهو، ذلك إمعانا في تذليل النفس الأمارة بالسوء.

لا يجوز لليزيدي النظر في وجه النساء غير اليزيديات ولا ملاطفتها، ولا يجوز له الزواج في شهر نيسان، لاتصال الملائكة بعضهم ببعض في هذا الشهر، ولا يجوز له دخول مساجد المسلمين ومشاهدة صلاة المسلمين في أي مكان، ولا يجوز ذكر اسم الشيطان ولفظ ما فيه الشين واللام والعين والنون، من الكلمات، كالشلغم والشعر واللعن وإلخ ... ولا يجوز لليزيدي أن يبصق أو يتقيأ على الأرض لما في ذلك من إهانة لـ (ملك طاوس). ولا يجوز استغلال الحصان والفرس لنقل الأحمال ولايجوز ارتداء الثياب الزرقاء اللون. وعادة الختان لديهم مألوفة. لا يشرب اليزيدي الماء من الأكواز ذوات العرى ولا يأكلون بقايا أو فتات الشخص الغريب. يبدأ العيد السنوي عند اليزيدية في أول شهر نيسان الشرقي الموافق ١٤ من نيسان الغربي، فيحتفلون كل

عام يوم الأربعاء فيه. فلو صادف أن كان اليوم الأول فيه الخميس، تجاوزه إلى اليوم السابع منه أي ٢٠ من نيسان الغربي.

يعتقد اليزيدي بأن الصوم ثلاثة أيام وليس ثلاثين يوما كما عند المسلمين، لذا فإنهم إنما يصومون أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس قبل الجمعة من كانون الأول الشرقي التي هي أقصر أيام السنة وأشدها بردا. ويعتبر اليزيدي يوم الجمعة عيدا عاماً، كما يسمونه عيد الصوم ليزيد(؟) وهنا، في قصر الصيام على ثلاثة أيام يلتقي اليزيديون وأهل الحق على صعيد واحد.

من المؤسف أن اليزيديين تعرضوا طوال تأريخهم إلى كثير من الاضطهاد والتقتيل والإبادة عن أيدي غيرهم حتى من أبناء جلدتهم من دون أي وجه حق:

١- خنق الشخ حسن في الموصل العام ٦٤٢ للهجرة.

٢- جزُّ رؤوس مئة شخص من اليزيديِّين وإعدام أميرهم ونبش قبر الشَّيخ عديٍّ وإحراق عظامه عن يد صاحب الموصل العام ٥٣٢ للهجرة، وقد كانوا يومئذ يسمَّون العدويِّين.

٣- تقتيل اليزيديِّين ونهبهم وسلبهم العام ٨١٧ بتحريض جلال الدِّين محمد بن عزَّالدِّين يوسف حلواني الذِّي كان من الشَّافعيَّة ومن علماء إيران وفقهائها المبرَّزين عن يدي حاكم جزيرة ابن عمر والكرد الآخرين.

٤- في العام ١١٢٧ للهجرة تمَّ شنُّ حملة كبيرة من قبل الملا حيدر الكرديِّ والملك مظفَّر على اليزيديَّة وأسر نسائهم وذراريهم ونهب أموالهم. فقد باع الغزاة من باعوا من نسائهم واحتفظوا بمن احتفظوا به من بناتهم وجواريهم لأنفسهم.

٥- وفي السَّنة ١٢٤٧ هـ ١١٨٣م حمل محمد باشا كور، حاكم رواندز على اليزيديَّة وأباد الثُّلثين منهم.

٦- وفي السَّنة ١٣٠٨ هـ سيَّرت الدَّولة العثمانيَّة القائد التُّركيِّ العسكريِّ عمر وهبي على اليزيديِّين من أجل إخضاعهم إلى الخدمة العسكريَّة، فأكره العديد منهم في الشيخان على اعتناق الإسلام، كما أمر ابنه ونائبه عاصم بيگ بتقتيلهم ونهب أموالهم وتخريب أضرحة قدِّيسيهم ونهب تماثيلهم. وأجرى في مقبرة الشَّيخ عديٍّ من الأعمال الشَّنيعة ما يندى له جبين الإنسانيَّة.

٧- وفي العام ١٣٢٥ للهجرة اتَّهمت الحكومة الملكيَّة العراقيَّة اليزيديِّين بالعصيان على الانخراط في الخدمة العسكريَّة والتَّواطؤ مع المسيحيِّين في خدمة مصالح الفرنسيِّين في سوريَّة فقامت بقمعهم، الأمر الَّذي أدَّى إلى مقتل أكثر من مئة شخص منهم وإبعاد العديد منهم إلى الأماكن النَّائية وفرار من استطاع الفرار منهم وإعدام عدد آخر منهم، ولكن ما زاد حنُّون في الإسلام خردلة ...

يعيش اليزيديُّون في المدن: دهوك، الشَّيخان، سنجار في كردستان العراق، وكما يعيش عدد منهم في كردستان سورية وجورجيا وأرمينية وأنحاء روسيا. وفي نظري أنَّ الكرد اليزيديِّين من أنقى عناصر الأمَّة الكرديَّة عرقاً و تأريخاً واحتفاظا بالجذور القديمة للدِّيانة القديمة للكرد، وكيف لا، و كتاباهم المقدَّسان باللُّغة الكرديَّة.

واليوم يعيش أبناء الطَّائفة اليزيديَّة في كردستان في ظلِّ حكومة كردستان في أمان متمتَّعين

ولنعد الآن إلى صلب الموضوع. لقد قطعت جميع أشجار بساتينهم واقتلعت وحرقت. وإذ أوشكت أعمال التخريب هذه على الانتهاء وصل من العمادية أيضا حوالي ثلاث مئة شخص. أما حاكمها مراد خان فقد اعتذر عن الحضور. ومع ذلك فقد كانت القوة التي أرسلها أقل بكثير من الحد المأمول. وقد فسر علي باشا تصرف مراد خان هذا بعدم المبالاة أو لنقل بالخيانة الصرفة، تماما كوضع العقبات في طريق الانتصار. ومع أنه غضب لذلك غضبا شديدا، إلا أن ظروف الزمان والمكان لم تكن ملائمة لإظهار غضبه.

ولسنا نرى حاجة لنبين كيف أن خصائص موقع اليزيدين ومناعته غدت سببا لضلالة هذه الشرذمة اللعينة، فغرابة عقيدتهم التي أورثتها إياهم ظلمة بصائرهم بتمسكهم بالضلال الوحشي لعبادة الشيطان، متمثلة في سحَنهم الجاهلية، كافية لتعريف مدى وحشة موقعهم. والواقع أن أي قوم لهم تماس واختلاط بالحياة المدنية والعلائق الاجتماعية لايبلغون هذه الدرجة من الرداءة والضلال. وهذه حقيقة. وفي سبيل القضاء على هؤلاء الضواري الجبلية المخلوقة في صورة البشر بين تلك العقبات الجبلية، لم يكن اقتحام المشكلات، هذا الواجب الذي كان لابد منه، من القضايا المجردة التي تقدر بالملاحظات والافتراضات، ولاسيما أن القوة المختلطة المحتشدة كانت مركبة من ثلاثة أقسام متضادة. ولذلك فإن إحراز النصر كان يبدو مستحيلا، إذ إن القسم الأهم من القوة المذكورة كان من عساكر الموصل وبغداد مع العشائر العربية، وهؤلاء وإن كانوا معتادين على حروب الصحراء، إلا أنهم بسبب من طبيعة أقاليمهم لم يكونوا ممن يتصور أن يستطيعوا المقاومة في تلك المرتفعات والمنحدرات الجبلية ولاسيما في جبال سنجار وبين تلك العوارض والعقبات المنيعة الموحشة. أما القسم الثاني فقد كان شتاتا مكونا من أولئك المشاة فاقدي الأهمية الذين جرى لملمتهم من هنا وهناك. وهؤلاء لم يكونوا ممن تحصل القناعة بأن بوسعهم إحراز النصر. ولذلك فإن جميع المشاكل الأساسية كانت تبقى ملقاة على عاتق حمية أبطال بابان.

وفي الحقيقة كان الوالي علي باشا يلاحظ هذه الجوانب.كان يخشى عدم النجاح، وكيف لا، وشرفه الوزاري كان متوقفا على النتائج المقدرة لهذه العملية. وفضلا عن ذلك فإنه لم يكن يملك قوة يطمئن المرء إلى انتصارها.

بحريَّتهم الدِّينيَّة وممارسة شعائرهم المذهبيَّة علانيَّة - شكور مصطفى.

كانت التصورات الأولية أن تجمع القوى الكافية للمعركة من الموصل والعمادية. وعندما تجتمع هذه القوى تملأ أخاديد ووديان جبال سنجار كلها بالكتل البشرية، وآنئذ لايكون بوسع أي فرد يزيدي أن يفلت وينجو بجلده وإن كان في فطرة الطيور. كان علي باشا يقدر الأمور على هذا المنوال. إلا أن القوة المأمولة لم تتوفر. أما ما توفرت فكانت على مايبدو في غير حالة تستطيع معها نيل الغاية المطلوبة. هذه الملاحظات بشأن الفشل كانت تزيد من هواجسه، فندم على قيامه بهذه السفرة. ولكن إبراهيم باشا كان يرى اضطرابه النفسي في غير محله ودونما ضرورة، فكان يقدر نسبة النجاح بـ ١٠٠٪ مستعينا بالقوة الصمدانية. ولذلك كان يسعى على كل حال لإزالة هواجس الباشا وتطمين خاطره. ومع أن تطمينات إبراهيم باشا هذه كانت تؤثر بعض الشيء في نفس علي باشا وتهدئ من روعه إلا أنها ظلت عاجزة عن إقناعه بإمكان الانتصار.

ولكن ما العمل؟ فلئن أراد التخلي عن رحلته التي تلطخ فيها بالدم، كان ذلك غير ملائم في مثل حالته تلك مع شرفه وشهرته ونفوذه في المستقبل، وكان يؤدي إلى أن يزيد اليزيديون أكثر من ذي قبل من طغيانهم وعنادهم واستكبارهم. ولذلك فكلما أطال التفكير في الموضوع عجز عن هضمه ولم تنزل السكينة على قلبه. وعلى ذلك فقد ألقى القضية كلها على عاتق حمية إبراهيم باشا وغيرته، اعتمادا على التوفيق الإلهي وإيمانا بالصداقة والشجاعة اللتين كان يؤمن بهما فيه، وأخذ ينتظر مايسفر عنه القدر.

وجمع إبراهيم باشا عبدالرحمن باشا وخالد بيگ وجميع الأمراء البابانيين وقادة الوحدات وأخذوا وجميعا يتشاورون بشأن وضع خطة للأعمال الهجومية التي سيقومون بها، فاتخذوا الإجراءات الآتية بهذا الشأن لضمان النصر والظفر:

١- بالنظر لأن جبال سنجار كانت عبارة عن جبلين شمالي وجنوبي وكان اليزيديون قد اتخذوا مواقعهم في هذين الجبلين، فقد فتحت جبهتان لكل من الجبلين، أي فتحت أربع جبهات، ولذلك كان ينبغي تقسيم القوة الموجودة إلى ستة أقسام أربعة منها ترسل إلى الجبهات الأربع واثنتان منها يحتفظ بهما من باب الاحتياط.

٢- وضعت الجبهة الأولى في الجبل الشمالي بعهدة إبراهيم باشا والثانية في عهدة أخيه خالد بيگ، كما وضعت الأولى في الجبل الجنوبي في عهدة عبدالرحمن باشا والثانية في عهدة أخيه سليم بيگ وكان كل واحد من هؤلاء مسؤولا مطلقا عن جبهته.

٣- إن القوة المقاتلة في أي قاطع جبلي وإن كانت حرة فيما تستحسن القيام به من حركات، إلا أنها ملزمة بتطبيق تعرضاتها وفق الجبهة المقابلة، أي إن عليها أن تمثل حركات الجبهة المقابلة حتى وإن كان طريق جبهة ما مفتوحا لغرض التعرض[٤٢].

٤- يتبادل إبراهيم باشا وعبدالرحمن باشا صباح مساء التقارير عن وقائع الأعمال الحربية عن جبهتها ويبلغ كل منهما عما جرى في منطقته[٤٣]. وهذا بالإضافة إلى الحالات الاستثنائية الطارئة التي ينبغي تقديم التقارير عنها، ويقوم إبراهيم باشا بدوره بعرض المعلومات المتوافرة على علي باشا.

٥- يحافظ كل جبهة على ارتباطها بالأخرى باستمرار، ويجب تجنب انقطاع الصلات جهد المستطاع.

٦- عند الشعور بالحاجة إلى تبادل الآراء بين الجميع يحدد إبراهيم باشا الزمان والمكان ويجمع القادة. وعند غياب أي منهم تبقى جميع مسؤوليات جبهته بعهدته كما كانت. وإذا جد محذور في انفكاك قائد من جبهته تبلغ الكيفية إلى إبراهيم باشا فيعتبر عدم اشتراكه في الاجتماع بعذر مشروع.

٧- عندما يلاحظ أن العدو يحاول الضغط على إحدى الجبهات، تعزز تلك الجبهة بالقوة الاحتياطية حسب مقتضيات المنطقة.

٨- يحتل كل قسم جبهته في التاسع من ربيع الأول.

وقد أعطي كل قائد صورة من هذه المقررات، كما قدمت صورة منها إلى علي باشا عن طريق إبراهيم باشا.

والواقع أن هذه الخطة جاءت تماما في صورة محاصرة لليزيديين المخذولين المذكورين نظراً لطبيعة الموقع. وفي حين كان خط الرجعة والهروب مقطوعا في وجوههم كليا، إلا أن الأماكن الشاهقة التي تحصنوا فيها كانت مما تعترض اقتحامها عوارض وموانع لا متناهية كثيرة، فكان على المهاجمين أن يسلكوا المسالك الشائكة الوعرة، وكانت هناك قمم ومهاو.

---

(٤٢) أي إنها تتصرف وفق تحركات الجهة المقابلة، إذ قد تندفع القوة إلى أمام في حالة انفتاح الطريق من دون رصد مايضمره العدو من تكتيك عسكري كالتصدي المباغت أو الانقضاض المباغت والهجوم المعاكس - المترجمان.

(٤٣) أي في جبهتي الجبل الذي هو فيه. وعلى هذا فإن كلا من إبراهيم باشا وعبدالرحمن باشا كانا مسؤولين ليس عن جبهتهما فقط بل عن جبلهما - المترجمان.

شعر الإنسان ينتفض من هول الموقف وتصيب عينيه بالزوغان، بل كانت فيها مرتفعات لاتنال ولايستطيع أن يرتقي إليها أي إنسان.

لذلك كان من الضروري أن تفجر تلك الصخور والسنون بالبارود أولا لتنشأ في مواقعها معابر يجتازها المرء. وهذا كان مما يعرقل أعمال الهجوم ويطيل أمد العملية. ولذلك كان على نفر من المقاتلين في كل جبهة أن يتفرغوا لأعمال الحفر والتفجير وتعبيد الطرق، في حين يتصدى الباقون لمواجهة الكفرة الذين كانوا يقاتلون من نقاط مسيطرة، سيما وإن الإغارات الليلية الاقتحامية التي كان يشنها اليزيديون لم يكن من شأن أحد مجابهتها والتصدي لها اللّهم إلا بسالة البابانيين.

أجل، لقد كانوا مشغولين بأعمال الحفر والقتال معا من الفجر حتى غسق الليل. حتى إذا حل الظلام وقضوا على غير هدى لمجابهة مباغتات المهاجمين الدامية بين عوارض الجبال الموحشة. أما الاقتحام فلم يكن مما يتيسر لكل أحد وكان من معضلات الأمور. فضلا عن أن جهاد المجاهدين الأبطال وقتالهم الصعب المرير لم يكن فقط بوجه الإنسان. فلو كان كذلك لهان الأمر، ولكن أكثر حروبهم إزعاجا للنفس والتي كانوا يخوضونها طيبي الخاطر مسروري البال كانت تلك التي يخوضونها بوجه الصخور والحجارة. لقد كانوا يتحملون من التعب الكثير ومن الصعوبات الجم. ومع ذلك فلا تلك الصعوبات ولا تلك الأتعاب كانت مما ينال من متانة عزائمهم وشجاعة نفوسهم، بل على العكس أخذ النَّصَب منهم مأخذه وتضاعف بطشهم الاقتحامي. أليس من بواعث الدهشة ودواعي الحيرة أن تتوج كل الاشتباكات والمصادمات في خضم مشاغلهم المستديمة بالغلبة المحتمة والظفر الفعلي ويضطروا الكفرة إلى التراجع مثقلين بخسائرهم الدامية؟!

أجل، إن استمرار مثل هذه الحرب مهما طال بسبب مناعة المواقع وتعدى الأسابيع فإن ساحة التخفِّي كانت تضيق بهم. وكلما ضاقت دفعهم اليأس القاتل إلى بذل المزيد من المساعي والمقدرة. وهكذا كان المجاهدون على نحو ماذكرنا يتقدمون بحركاتهم التصاعدية شيئا فشيئا نحو المرتكز الأخير للعدو المستقر في ذروة الجبال، وكانت نجاحاتهم وانتصاراتهم في تعالٍ وتقدم يوما بعد آخر. وكانت الأمور قد أوشكت أن تبلغ حد النهاية لولا أن أصاب إبراهيم باشا مرض لم يبق معه قادرا على أداء وظيفته الجهادية. أجل لقد بذل إبراهيم باشا من أجل القضاء على هذه الشرذمة الخبيثة في سبيل إعلاء كلمة الإسلام وتوسيع نفوذ الدولة العليا جهودا كبيرة واعترضت طريقه

مشاكل عديدة، وكانت عزيمته الدينية ومتانته البطولية مما لايتوقع مثله إلا منه. وإضافة إلى كل ما عاناه ولاقاه فقد صادفت تلك الأيام بدايات الربيع، فكان برد الليالي قد أثر فيه كثيرا. وفضلا عن ذلك فقد كان في حد ذاته ضعيف الجسم واهي البدن، فلم يستطع المقاومة أكثر مما قاوم، فداهمه المرض. ومع أنه قاوم عدوه المعنوي هذا أياماً عدة، إلا أن مقاومته اضطرت في آخر الأمر للانقياد أمام هذا العدو الذي لايرحم، هذا العدو الذي طالما خر الكثيرون من أمثال إسكندر ورستم أذلاء مهزومين أمام بطشه وجبروته.

كانت أوجاع مفاصله تشتد وعطله الروحي يزداد دقيقة بعد أخرى. وبالنسبة نفسها كان الخور ينال من عزيمته الروحية ونشاطه الجسمي يتراخى،فاضطر أخيرا وبعد أيام ليغدو طريح فراش العجز.

وا أسفاه على أن مرضه هذا لم يكن مما يمكن تلافيه بالعلاج والدواء، ذلك لأنه لم يكن من شأن أي علاج أو دواء أن يكون له شيء مما كان في استكماله وظيفته الجهادية من تهدئة لأعصابه وإذكاء لروحه. ومع ذلك فإن تلكم التأثيرات المعنوية كانت هي الأخرى عاجزة عن إفاضته الصحة عليه وإفاقته مما ألَّم به، ولذلك فإن العلاج الطبي والمادي كان كذلك فاقدا لكل أثر مؤثر.

وفي الحقيقة كان ينبغي أن يفهم مسبقا أن عزيمة هذا البطل ومساعيه الدينية التي أدت به إلى هذه القوة القبرية، القوة التي تحول دون إيصال رأسمال النجاح إلى الفتح والظفر المؤكد، ليست سوى قوة التأثيرات المعنوية لحالة ضربة الموت الرهيبة التي قدرتها القدرة القادرة الأزلية لحياة ذوي الأرواح[٤٤].

وقبل أن يصل الموصل لبَّى دعوة هذه الضربة التي أخطرته بها، فقد ارتحل في أوائل أيام صفر الخير إلى عالم أعلى العليين. رحمه الله رحمة واسعة. وقد دفن بجوار النبي يونس عليه السلام. ومدة حكمه مجتمعة إحدى عشرة سنة وشهر واحد. وقد خلف من بعده أربعة أولاد بأسماء سليمان باشا وإسماعيل بيگ وقادر بيگ وسليم بيگ.

أما الآن فإننا نستودع بكمال التأثر ضريح المشار إليه لنعود إلى حدودنا الأصلية

(٤٤) ما نفهمه من هذه الجملة هو أن المؤلف يقصد أن حلول أجل إبراهيم باشا دفعه إلى بذل هذه الجهود والمساعي الكبيرة التي كانت مضنية له بحيث ساقته إلى حافة القبر ووضعت حدا لحياته، وهو أمر محتوم لكل كائن حي – المترجمان.

ونلفت الأنظار إلى الأحداث الحربية بين مجاهدينا المحترمين والشرذمة الضالة.

كان أبطال البابان يريدون أن يضعوا في أقصر مدة ممكنة حداً لحالة الهيجان وانعدام الصبر التي ولدته كيفية نقل إبراهيم باشا وهو على ما كان عليه من مرض شديد إلى الموصل. ولو لم يوقف عزائمهم الأثر النفسي الذي أوجده القلق لما آلت إليه الأحوال وفراق الموما إليه، ولو لم تكن تلك العوارض والعقبات المحلية التي حولت جسارة البابانيين الأدبية إلى بطش غضنفري، لهاجموا استحكامات الكفرة هجمة مباغتة. وكانت هذه الموانع قد جعلتهم في حالة من الغيظ والانفعال تدفعهم إلى أن يجزو رقاب آخر واحد منهم ويقضوا على آثارهم القضاء المبرح الأخير. ولكن ما الفائدة إذا كانت العقبات الجبلية المزعجة قد أصابت بالعقم هذه العزيمة الرجولية في البابانيين، وفضلا عن ذلك كانت دروس الحكمة في أن الصبر والتأني أساس النجاح ما كانت لتلهمهم شيئا آخر.

ومع ذلك فإن بطشتهم الروحية كانت تشتد وتزداد فعالية حتى غدت دافعا لأن يبذلوا كل مافي وسعهم من عزم وقوة في إزالة العوارض والموانع التي تحول دون تقدمهم. ونتيجة للمساعي المنهكة الناجمة من اضطرابهم الروحي تمكنوا من الوصول إلى مكان يمكنهم الانطلاق منه للهجوم، فجرد كل واحد منهم سيفه أو خنجره وداهموا استحكامات الكفار وكل من أصابوه في طريقهم ضربوه وولوا في سبيلهم.

ونادى الكفار طالبين الأمان، ولكن صيحات استئمانهم لم تكن لتهدئ غضبة الأسود في نفوس البابانيين، بل على العكس كان الغيظ والرغبة في الانتقام المنبعثان في نفوسهم من أحداث الماضي ولاسيما ما يتعلق منها بالآلام القلبية التي سببها فراق إبراهيم باشا كان يجعلان من تلك الصرخات أكثر إثارة لانفعالاتهم الروحية. ولذلك زادوا من قتلهم واستئصالهم بتلك الدرجة من الشدة، فكان قتلاهم من الكثرة بحيث تكدست مئات الجثث على قمم الجبال، وكان مسيل الدماء من تلك الأجساد القذرة تكفكف دموع التحسر على ألوف الأرواح التي أزهقوها وألوف المنازل والديار التي أحرقوها فكانوا يصبون اللعنات رجالا ونساءً على الشيطان ويقعون على أقدام المجاهدين ويقبلون أياديهم طالبين منهم الأمان إلى أن غلبت الشفقة الإسلامية على قسوة القلوب وهدأت الانفعالات وتراخت الأحقاد، فكفوا عن المزيد من تقتيلهم وإفنائهم عن بكرة أبيهم، وجمعوا الباقين منهم كافة واقتادوهم مع الغنائم التي لاتحصى إلى الوالي علي باشا وقدموهم إليه ثمرة يانعة من ثمار نجاحهم. أمَّا كَمْ سَرَّ

هذا النصر الباهر علي باشا فلا حاجة لإيضاحه، ولكن ما الجدوى؟ فشروط المشار إليه الجشعة قد جردته من كل معنى واسقطت منه كل حكمة وقوة.

أجل، لقد أخلي سبيل الكفرة المذكورين وأذن لهم أن يأووا إلى أماكنهم كسابق عهدهم على ألاّ يعودوا إلى دينهم الباطل ثانية وألاّ يُخلّوا بالأمن والاستقرار في المنطقة ويسووا ماتراكم عليهم من ضرائب دفعة واحدة نقداً، في حين أن النجاح الذي أحرز بالمشقة والصعوبة اللتين ذكرتا، ما كان ينبغي أن يقتنع علي باشا بربطه بهذا الأساس الواهي الموهوم، إذ لم يكن من الطبيعي أن يترك الكفرة المذكورون دينهم الذي عركته العصور بمثل هذه التأديبات المادية. هذا كله فضلا عن أنه لم يكن من شأن الأحداث والفواجع الوحشية أن يصار معها إلى إمكان وجداني للتغاضي عنهم، فلاشك في أنه لم يبق ثمة احتمال لانتزاع ما اعتاد عليه هؤلاء من الضلال الذي ترسخ فيهم والميل الشنيع لفجائع إهراق الدماء.

لقد غدا الألوف من المسلمين قرابين لما تركته أيديهم الممتدة إلى الموصل وماردين من فجائع. وكم من بيوت آمنة راحت ضحية ما اقترفته أيديهم. وكانت دماء والي الموصل عبدالباقي باشا وأخيه وجند الإسلام الذين كانوا في رفقتهم ماتزال تغلي في جبال سنجار، لذلك ماكان من الشائع أن يصار بحق هؤلاء الملاعين إلى مثل هذه التأديبات المحدودة والفاقدة الأهمية. والواقع أن شعار الإسلام وشفقته وإن كان ينصّان على أن لايتعدى العقاب نسبته المحددة شرعا. غير أن ما كان ينبغي اتخاذه من التدابير الإدارية الأخرى الرادعة لإصلاحهم واستئصال شأفة ضرهم لم يكن بقليل، ذلك لأن إجراء طائفة من المعاملات الإيجابية عقب تلك التأديبات من ملاينة وتنوير لقلوبهم التي صدئت بغلظة الكفر واحتواء ما جبلت عليه نفوسهم من الشقاوة والشر الذين هما من طباعهم الوحشية وإخضاعها إلى الأداب العامة ودائرة العصمة كانا من مقتضيات الضرورة الإدارية أيضا. فما كان ينبغي إعادة إسكانهم في مواقعهم الأصلية التي كانت من المناطق الجبلية الصعبة مما جعلها عاملا مساعدا لرسوخ عقائدهم الشنيعة وأخلاقهم السيئة والاستمرار عليها. ففي سبيل أن لايبقى احتمال حدوث قلاقل جديدة في المستقبل كان ينبغي توطين كل خمس عوائل منهم في قرية مسلمة أو إسكان مجموعات أكبر من المهاجرين المسلمين بينهم في قراهم[٤٥] وإكراه الذكور منهم كباراً

(٤٥) كأنا بالمؤلف يستشرف آفاق المستقبل فيقترح تنفيذ ماسيجري بعد مرارا وتكرارا هنا وهناك

وصغاراً على الدراسة والتعلم. أفلم يكن من الواجب إزالة ما علق بأبصارهم من غشاوة؟

ولكن مثل هذه التدابير الدينية والاجتماعية ما كانت لتتطابق وأهداف علي باشا وأغراضه. فلو أنها تحققت لما حدثت اضطرابات إدارية ولما انفرط عقد الأمن والنظام في الديار العراقية، ولأعوزت الوزيرَ الوسيلةُ في أن يلقي في جيوبه المبالغ الكبيرة التي كان يجمعها من الغنائم السنوية. إذاً، فمن أين كان يوفر الأموال التي كانت تتألق بها مواكب عظمته! ولئن كان هناك ما يستوجب التألم أو التأمل في هذه الحالة فهو أن الباب العالي كان بنفسه راضيا من ذلك، بل إنه كان يقوم بأعمال مماثلة تماما لما كان يتعامل بموجبه علي باشا.

أجل كان الباب العالي يعتبرتسوية وجباية الضرائب السنوية بصورة منتظمة من قبل مأموري الولايات صداقة لايمكن تصور أكثر منها. أما مايصيب الشعب في حياته اليومية من مظالم وعسف وجور وماتتعرض له الصلات الاجتماعية من مخاطر اضمحلال، فذلك ما لم يكن يعار له أهمية ما ولاينظر إليه كأمر جدير بالانتباه إليه.

إذاً، فما تلك بحكومة تخدم تسيير شؤون الهيئة الاجتماعية الإنسانية، بل إنها ضوارٍ من السباع المحرومة من الأحاسيس الإنسانية والوجدانية تمارس تأمين مآربها ومنافعها على حساب الشعب فقط.

ولنقف قليلا عند دين اليزيديين وحياتهم الموحشة. فقد خرج المجاهدون لتأديبهم عما ارتكبوه من فجائع وفظائع، وعانى عشرون إلى ثلاثين ألفا من المجاهدين المسلمين أنواع المحن والحرمان وهلك منهم الألوف. فماذا حصل من ذلك من منافع دينية واجتماعية عدا المكاسب المادية والمعنوية الشخصية التي نالها علي باشا الذي لم تكن مطامعه لتعرف الشبع وعدا خدمة جشعة وأشعبيته؟ في حين أن اليزيديين حافظوا نتيجة لتلك الطريقة من التعامل على وجودهم الاجتماعي وتسببوا في حدوث العديد من الوقائع المفجعة الأخرى. وقد قوبل الخطأ الإداري الذي ارتكبه علي باشا في هذا المضمار بالاستنكار والنفرة بسبب استناده إلي تلك الركيزة الواهية التي لم يكن ليصح الاستناد إليها.

لشعبه الكردي مسلمين كانوا ام مسيحيين ام يزيديين بحق بعض ابنائه لعصبية دينية ذميمة كان يجب ان تكون من ذكريات الماضي حتى في ذلك العهد، فوا أسفاه ! المترجمان.

فقد كان ينبغي أن تنقضي عدة أيام أخرى قبل أن ينكشف الانتصار المحتم عندما بلغ علي باشا نبأ وفاة إبراهيم باشا، ولكنه أخفى النبأ لئلا يكون قد أهان أبطال بابان بإيلامهم ووضع الوصي في طريق العمل الذي كانوا يعملون لإنجازه، ولكنه عندما انتهى الأمر إلى تلك العاقبة الحسنى لم يعد يرى لإخفاء الموضوع مانعا.

أخذ علي باشا يفكر في تنصيب خالد بيگ شقيق إبراهيم باشا مكانه أميرا على بابان للتخفيف من آثار الفاجعة على عائلة المرحوم، ولكنه عندما علم بأن أمراء البابان وأعيانه بايعوا عبدالرحمن باشا وأعلنوا ولاءهم له، لم يستطع أن يتخذ أي إجراء فعلي لتحقيق التصورات التي رتبها في ذهنه، فاضطر لتوجيه الإمارة إلى عبدالرحمن باشا وكساه الخلعة وأصدر الأمر اللازم بشأنه.

وفي الحقيقة كان لعبدالرحمن باشا أرجحياته على خالد بيگ من كل الوجوه إذ إنه سبق له الحكم واكتسب بذلك حق الترجيح. وفضلا عن ذلك فقد كان له من المزايا الفطرية الفاضلة كالشجاعة والمتانة والاقدام ما يزيد عما لدى خالد بيگ. وعلى كل حال فقد اكتسب بفضائله الخلقية هذه الإخلاص والولاء من لدن أعيان البابانيين وأفرادهم، بل إنه لو لم يراع كون إبراهيم باشا أكبر منه سناً لما أتاح له المجال ليتولى مقاليد الحكم، فقد كان من القدرة المادية والمعنوية على تولي إدارة الأمور بيديه ما لايدع لأحد مجالا لينكره عليه. وكان من أثر ذلك بالذات أن هزم رغبات وميول شخص مجبول على الأنانية وحب الذات مثل علي باشا واضطره، شاء أم أبى، ليكون في قبضة قوته.

الدورة الأولى لحكم عبدالرحمن باشا

ما أن وصل الفرمان والخلعة من الوالي علي باشا إلى عبدالرحمن باشا حتى توجه قادة القوات المختلطة للتبريك والتهنئة إلى خيمة الموما إليه وحضروا المراسيم المعتادة في مثل هذه المناسبات. ثم توجه عبدالرحمن باشا بنفسه لزيارة علي باشا وإظهار الشكر والامتنان له وقدم الهدايا المعتادة إلى معتمده الخاص، وبعد أن أهدى المنح اللازمة للمأمورين الذين يصاحبون الوالي عاد إلى مقره.

وخلال مدة أربعة وثلاثين يوما قدم اليزيديون ما اشترط عليهم تسويته وتأديته من

رسوم وضرائب متراكمة، فلم يبق ما يستوجب البقاء في تلك الديار وصدرت الأوامر بالتحرك والعودة.

وإذ وصل الموكب تلعفر راق لعلي باشا أن يضفي جلالا وأبهة على النصر الذي تم إحرازه في المعركة، فرأى من الضروري قطع رؤوس بعض من علية القوم. وعلى هذا أمر بإعدام أحمد وعبدالعزيز الشاويين الذين كانا في صحبته على أنهما اشتركا في حينه في عصيان بغداد، كما أمر بسوق اتباعهما ومن كان معهما مخفورين إلى بغداد.

لقد كوفيء هذان الشاويان التعيسان بعد ما تحملا أشهراً عدة مشاق السفر ومصاحبة الوالي بهذه الطريقة المعكوسة فراحا ضحيتين. أجل! لقد وجد هذان المنكوبان مستحقين لهذا البطش والقهر الذين كان ينبغي أن يعاقب بهما اليزيديون، في حين أنهما كان في صحبة الوالي شهورا عديدة وعانيا ضروبا شتى من الحرمان والمحن، وكان قد مضى على حوادث العصيان وقت طويل. فإذا كان قد ثبت اشتراكهما في الموضوع فلماذا لم تتخذ بحقهما الإجراءات اللازمة في حينه وأجلت إلى هذا الوقت؟

ولنفترض أن خيانتهما لم تعرف إلا آنئذ، أفلم تلن غلظة قلب الباشا ولم يهدأ غيظه الروحي وبطشه الوحشي وولعه بالعسف بمضي كل تلك المدة الطويلة على تلك الحادثة وسقوط حكمها وفقدان تأثيرها وقضاء المذكورين ذلك الوقت الكثير في السفر بصحبته، في حين كان يتعين عليه أن يعلن العفو العام ليس عن الأوفياء الذين عملوا شهورا لنجاحه فعلا حسب، لقاء هذا الانتصار الذي لم يحظ به أمثاله وأسلافه من قبل حتى ذلك الحين، بل عن الكثيرين ممن أجرموا فعلا كذلك.

وبعد أن أصيب آل الشاوي بهذه العاقبة المؤلمة حان دور حاكم العمادية علي مراد خان باشا، ولكن ما الفائدة في أن يغضب عليه وهو لايقدر أن يفعل بحقه شيئا لأنه ليس في متناول يديه؟ لقد كان علي مراد خان بعيدا عن قبضة علي باشا ولم يكن رهين قفصه، فقد كان منطلقا على ذرى الجبال الشامخات. لذلك لم يكن غيظ علي باشا وغضبه يلحقان بعلي مراد خان ضيرا، فكان بسبب من أنانيته النفسية يقض القلق مضجعه إزاء عجزه عن أن يفعل بحق هذا الرجل شيئا.

أجل، كان علي باشا يود لو أن علي مراد خان في قبضة يده ليشق صدره بأظافره الغاضبة ويخرج كبده وليفصل رأسه المرفوع الهامة من جسده بخنجر الأنانية ويريه ماذا يعني عدم الرضوخ له وما عقابه، فيعطي بذلك درسا فجيعا لكل المناطق الواقعة تحت نفوذه ولكل من فيها من الأكابر والأعاظم، درسا يكون لهم عظة وعبرة، ولكنه لم يكن

يجد إلى ذلك سبيلا فتنتابه المرارة والهموم.

وهكذا كانت نفسه تتلوع تحت تأثير هذه الأوجاع الأليمة. فماذا كان يستطيع أن يصنع الآن، وإذا كان ثمة مايستطيع أن يفعله فما ذلك إلا أن يعزله. والحق أن قراره استقر أخيراً على ذلك، فما كان منه إلا أن عزله وعين مكانه ابن عمه قباد بيگ.

أما هدفه من تعيين قباد بيگ مكان المعزول فكان أن يحل روابط القربى والقومية بينهما بأحاسيس الطمع والاحتراس، ذلك أن أشد عوامل الاضمحلال القومي والوطني هو بذر بذور النفاق والشقاق الخبيثة بين الجماعة المترابطة، وما ينمي هذه البذور الخبيثة هو الحرص والطمع.

نعم، إن الجاذبية الكامنة في الحرص والطمع ليست في المادة المغناطيسية، وإن أساس التسويلات الشيطانية من قوة جاذبية هذه الخصلة. وهذه الحالة النافذة هي ماتطمس أحاسيس القربى الوثيقة بين الوالدين وولدهما والأخ وأخيه. وقد زعزع علي باشا بهذه الصورة أساس القربى والقومية بين علي مراد خان وقباد بيگ، فلم يكن يستطيع أن يفعل شيئا عدا زرع بذور المنافسة بينهما. وقد لاحظ منذ الوهلة الأولى أن نفوذ قباد بيگ ليس في مستوى نفوذ علي مراد خان، ولذلك أصحبه بخالد بيگ شقيق إبراهيم باشا على رأس خمس مئة فارس.

وبعد أن اتخذ علي باشا في طريقه هذه الإجراءات وصل الموصل وبقي فيها ليلة، وفي صباح اليوم التالي توجه بنفسه إلى بغداد وأذن لعبد الرحمن باشا بأن يتوجه إلى مركز حكومته.

ولما وصل عبدالرحمن باشا السليمانية نصب شقيقه عبدالله بيگ حاكما على قرەداغ ونصب كلا من سليمان بيگ وسليم بيگ وأحمد بيگ وعمر بيگ أمراء على الجيش. ولكن سليمان بيگ ابن إبراهيم باشا كان قد توجه إلى بغداد مع عائلته فور سماعه نبأ وفاة والده وانتقال إدارة الحكومة إلى عبدالرحمن باشا.

وفي السنة ١٢١٩هـ (١٨٠٤م-١٨٠٥م) كانت قضية الوهابيين(*) قد خلقت

(*) ينتمي الفرقة الوهابيَّة إلى «محمد بن عبدالوهَّاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرَّف بن عمر بن بعضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علي بن وهيب التَّميميِّ من أخل نجد (١٢٠٦- ١١١٥ هـ.ق.) كان محمد بن عبدالوهَّاب ينزع إلى مدرسة ابن تيمية وهو من مروِّجي المذهب الحنبليِّ السَّلفيِّ. واكتسبت هذه الفرقة اسمها من والد محمد، عبدالوهَّاب. كان عبدالوهَّاب قاضي مدينة «عينية» من بلاد نجد. درس محمد الفقه

للحكومة العثمانية مشكلة مهمة للغاية. فرغم أن الحكومة لجأت مرارا وتكرارا إلى الوسائل التأديبية والتنكيلية في الواقع، إلا أنها لم تحرز النجاح المطلوب، بل كان إحرازه بعيد المنال، إذ إن الوهابية كانت على النقيض من ذلك تنتشر بسرعة في جميع أنحاء الجزيرة العربية وتتمركز فيها، فهي لم تكتف بالديار النجدية، بل غدت لاتتورع عن التطاول على المناطق العراقية أيضا. وفي هذا التأريخ بدأ الوهابيون يتعرضون أولاً للبصرة ثم للزبير بعزم أكثر رسوخا وجدية وحاصروا تلك الأنحاء أسابيع عدة وضيقوا الخناق عليها، ولكن دفاع الأهالي البطولي لم يفسح لهم المجال بأي وجه للنجاح.

الحنبليّ على يد والده عبدالوهَّاب من علماء الحنابلة، فطالع آثار ابن تيمية وتلميذه ابن الجوزي وتأثَّر بها. وأخذ محمد بن عبدالوهَّاب علم الدِّين من الشَّيخ محمد المجموعيّ في البصرة وواصل تحصيله في الشَّام والحجاز أيضاً ورحل إلى إيران.

ترى في أيِّ ظرف ظهرت الوهَّابيَّة هذه؟ سؤال يطرح نفسه.. إنَّ الوهَّابيَّة في الحقيقة ماهي سوى ردَّة فعل قويَّة للتَّعصُّب الصَّفويِّ الشِّيعيِّ الأعمى الّذي تسبَّب في تقتيل الألوف من السُّنَّة عن أيدي الشِّيعة والعكس صحيح في القرن العاشر الهجري حتَّى القرن الثّالث عشر الهجريّ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، نوع الحياة العلميَّة لمحمد عبدالوهَّاب والأماكن الّتي حصَّل علومه فيها.. إنَّ الأماكن الّتي كان يدرس فيها محمد عبدالوهَّاب كانت مستهدفة فكرياً ً وسياسياً ً وعسكرياً ً من قبل الصَّفويِّين. لا شكَّ في أنَّه رأى بأمِّ عينيه، وهو مقيم في إصفهان مشاهد أيَّام عاشوراء الّتي كثيراً ما كان يتسلَّم فيها شاه الشِّيعة !! رؤوس السُّنَّة المقطوعة للأمويِّين تمثيلاً ويجود على قاطعي الرُّؤوس هذه بالذَّهب..

وممَّا يذكر أنَّ علماء الدِّين لا يرون في توجيه سهام الطَّعن والتَّجريح إلى الوهَّابيِّين غير النَّتائج، أمَّا الأسباب فقد تجاهلوها في إصدار أحكامهم عليهم وما كان أيسر عليهم أن يتَّهموهم بالتَّواطؤ مع الأجنبيِّ.. من معتقدات الوهَّابيِّين:

١- أن ليس ثَّمة موحِّد ولا مؤمن، إلاَّ إذا ترك أموراً.

٢- لا يجوز التَّوسُّل بأيِّ رسول أو وليٍّ من رسل اللَّه و أوليائه إلاَّ إلى اللَّه عزَّ و جلَّ، ويعدُّ ذلك شركاً..

٣- لا يجوز التَّقرُّب من قبر النَّبيِّ (ص) ومسِّه والدُّعاء والصَّلاة لديه وإقامة الأضرحة والمساجد على القبور.

٤- لا يجوز طلب الشَّفاعة من النّبيِّ (ص) وإن منح اللَّه النَّبيَّ حقَّ الشَّفاعة، ولكنَّه نهى عنه. إلاَّ أنَّه يجوز للمسلم أن يقول: «يا أللَّه شفِّع لي محمداً «وليس» يا محمد اشفع لي عند اللَّه».

٥- لا يجوز القسم باسم النَّبيّ ومناداته ووصفه بـــ «سيِّدنا» وقول عبارات من قبل بحقِّ محمد وإلخ...».

أخذ الناس من مختلف مناطق العراق يبلغون علي باشا بتطور الأوضاع بوصفه واليا وقائدا عاما للقوات الموجودة في البلاد. ورغم أنهم كانوا يطلبون منه الحماية والمساعدة باستمرار إلا أنه كان يتجاهل الموضوع وكأنه لايرى ولايعلم شيئا، لأنه لم يكن يجرؤ على التدخل في الأمر واعتبار نفسه مسؤولا عن الوضع، فقد كان عليه فيما إذا أراد ذلك أن ينبري لمقاومة الوهابيين والرد عليهم، وهو ماكان غير ملائم له وغير منسجم مع نهجه. فقد سبق له أن حاربهم مرة سابقة في العام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م-١٧٩٩م) عندما كان مايزال كهية، وكانت عاقبة تلك المعركة التي خاضها أن هزم شر هزيمة واضطر إلى التراجع والعودة من حيث أتى في أسوأ حال.

والواقع أن الوهابيين كانوا قد رسخوا في السنة المذكورة أساس وجودهم في الديار النجدية وأخذت نفوسهم تسوّل لهم السيطرة على البلاد العراقية والتحكم فيها. وعندما أخذوا في تقتيل أو محاولة تقتيل أفراد العشائر العربية البدوية ورؤسائها وشيوخها من الذين لم يتبعوهم أو لم يريدوا أن يتبعوهم، قطع علي باشا على نفسه عهدا متهورا أكده بالأيمان المغلظة بأن لايدع فردا ينتمي إلى الوهابية في العراق أو الديار المرتبطة به حيا يرزق. وقد أثار حميته هذا العهد والأيمان المؤكدة له إضافة إلى غروره الناشئ من شبابه وقِرانه الذي كان قد حدث لتوه، فاختار القيام بغزوة على الوهابيين.

استصحب علي باشا معه في غزوته هذه عَدداً وعُدداً أكثر مما يحتاج إليه خشية أن تعترض طريقه عقبات تحول دون تحقيق ماكان يصبو إلى الحصول عليه من شهرة، وسار في كمال الأبَّهة والجلال، ولكن هيهات! فالرغبة في النصر التي أثارتها هذه الأبَّهة وهذا الجلال لم تدم مع الأسف إلا حتى مشارف البصرة. فما إن وصل علي باشا إلى البصرة أدرك كم هو شكل ماعزم عليه. آنئذ أدرك جسامة المهمة التي أخذها على عاتقه ومبلغ إهدارها للطاقات، فاستأجر علاوة عما كان في إمرته من قوات خمسة آلاف مقاتل من المشاة وخمسة آلاف بعير، ووفر عدا ذلك مايحتاج إليه لمواصلة السفر من مواد اعاشة برية وبحرية ومستلزمات نقل ومواصلات.

وقد ظل يواصل جهوده وهو بما معه من قوة قاهرة وعُدد وفيرة طيلة عشرة أشهر ولكنه لم يستطع حتى النهاية دحر مقاومة قلعتي (المبرز) و(هفوف) الأحسائيتين، فاضطر إلى العودة في غاية الاضطراب بعد أن قدم خسائر كثيرة.

كان قد مضى منذ ذلك الحين ست سنوات اكتسب خلالها الوهابيون قوة ومكانة غير

قابلتين للاقتحام، فكيف يستطيع علي باشا في ظروف كهذه استئصالهم والتغلب عليهم؟

أجل، إنه كان يفكر في أن هؤلاء الوهابيين انتشروا في سائر أرجاء الديار النجدية وغرزوا نفوذهم وأحكموا مواقعهم، فكيف يمكنه أن يظفر بهم ويهزمهم، وكيف يمكن تحمل العطش وشدة الحر في تلك الصحارى والفيافي القاحلة التي لاتوجد فيها قطرة ماء، وكيف يتاح توفير مواد الإعاشة لجيشه في تلك البوادي الخالية التي لاترى فيها خضرة أو أرضا محروثة؟

وكلما قلب أوجه المسألة ونظر إلى هذه الأمور بعين الاعتبار، تحولت همته إلى وهن وتغيرت ملامحه تماما، فلم يشخص في نفسه الجسارة على القيام بسفرة مهلكة من هذا النوع ولم يرضى ذاته الإقدام على مغامرة كتلك. ومع ذلك كانت الأمور قد خرجت عن قبضة قدرته، فجميع الأعذار التي تذرع بها أمام الباب العالي لإظهار المحاذير القائمة أمام إقدام كهذا قد ردت وصدرت إليه الأوامر بالتحرك، وكان ذلك قد وضع أمامه هموما ومشاكل لاقبل له بها ولايستطيع عنها فكاكا.

قد يحدث أحياناً أن يكون المرء غارقا في لجة اليأس بسبب ماتعرض له من أخطار وغوائل، فينتابه الوهن ولاتسعفه الطاقة بتمكينه من القيام بشيء، وإذا بسانحة ملهمة تضيء أمامه سبيل الخلاص مما فيه من ضائقة في دياجير الظلام وتريه الطريق الصحيح ليسلكه فتتراءى أمامه هيولى (مادة الشيء قبل أن تأخذ صورتها- المترجمان) ويبين في وجهه كيف أن الحواجز ترفع من أمامه وكيف يستطيع أن يقتحم المشاكل فيقوى قلبه ويجد لمشاكله العلاج ولأموره التدبير.

وهكذا ففيما كان يحيط بعلي باشا من يأس خانق وارتباك في النفس واضطراب في القلب، فكان يفكر في الأمر، وجد فجأة سبيل الخلاص مما يمسك بتلابيبه. وكان هذا السبيل الذي وجده، كفيلا ليس بدفع الخطر عنه هو حسب، بل وبالحصول كذلك على لقب الباشا الذي كان يسعى من أجله منذ زمن لابن أخته سليمان بيگ. كان هذا السبيل أن يضع دفع مخاطر الوهابيين في ذمة عظمة عبدالرحمن باشا بابان وجلاله. فقد رأى بأم عينيه في سفر سنجار شجاعة البابانيين وشهد بطولاتهم التي دونها بطولات رستم. ولذلك فقد قرر أن مامن قوة تستطيع أن تقتحم المشاكل الرئيسية الناجمة عن هذا الخطر الداهم إلا قوة البابانيين وقدرتهم. وفضلا عن ذلك سيجعل ثمرة النصر الحلوة لقمة سائغة في حلق سليمان بيگ ويضمن له حصوله على لقب الباشا.

وعلى هذا الأساس وجه إلى عبدالرحمن باشا رسالة خاصة يطلب منه فيها أن تتحرك القوة العامة للبابان، وأخذ من جانبه أيضا يحشد قواه وإمكاناته لزجها في المعركة.

وفيما هو يحشد قواته ويعبئها وصل عبدالرحمن باشا على رأس أبطال البابان الأشاوس إلى بغداد، فاستقبلوا بكل احترام وتقدير، ونزل عبدالرحمن باشا نفسه ضيفا خاصا على علي باشا وخصص له أحد أجنحة الحريم. وفي خضم ما كان يعامل به من ود ولطف وتكريم سئل عن رأيه بشأن السفر المطلوب، فأجاب بأنه رغم الطبيعة الجغرافية للمنطقة لايساوره أدنى شك في أن النجاح سيكون حليف كل مسعى يبذل في سبيل الإسلام وسلامة نهجه الحنيف، مهما كانت هناك من صعاب واجبة التحمل، وأبدى موافقته على القيام بالسفرة المبتغاة. أما بشأن مشكلة تأمين مواد التموين والإعاشة فبين أن لاحاجة إلى سوق قوة كبيرة حتى يكون تموينها صعبا، فاستصوب علي باشا رأيه هذا بناء على سابق تجربته الذاتية معه.

وبعد أن استكمل علي باشا استعداداته وتحضيراته أمر بالتحرك، فتحركت القوات المحتشدة تحت قيادته في التاسع من شعبان سالكة الطريق المستقيم نحو الحلة، حتى إذا تقدمت من جهة الشامية وصارت على مقربة من (النبي أيوب) عليه السلام مكث علي باشا هناك وتوجه عبدالرحمن باشا ومعه سليمان بيگ على رأس ثلاثة آلاف فارس نحو البصرة.

قامت القوة التأديبية باستعراض في أنحاء الزبير والبصرة في أول الأمر ثم توجهت نحو الأحساء، وشنت هجوما مفاجئا عليها، فمن وقع في أيدي المهاجمين من الوهابيين سواء في الأحساء أو في ضواحيها قتلوه ونهبوا ما كان لهم من أموال وبضائع وحيوانات كغنائم حرب، وهكذا كان مصير كل وهابي في الجبهة النجدية وقع بين أيديهم.

كانت طريقة عبدالرحمن باشا تتلخص في «اضرب وامش» فقد كان يدرك جيدا أن التأني والتريث في العمل إنما يؤديان به إلى الهلاك، فضلا عن أنه في سبيل الانتصار على العدو مات تسع مئة شخص من أتباعه من شدة الحر وسوء الأوضاع المناخية، كما أن عدداً أكبر من ذلك منهم فقدوا السمع والبصر وأصيبت نسبة مهمة بالجنون. كان الوهن الذي أصاب علي باشا في حينه فجعله يحجم عن الإقدام ناجما عن انتظاره وتأنيه. ولكن مبادرة عبدالرحمن باشا في اتخاذ تدابيره الحربية لم يدع أي مجال لوقوع

حوادث مماثلة لما سبق أن حدثت لعلي باشا. عُدَّ هذا النصر المؤزر الذي كان على رأسه علي باشا مثار استغراب كل إنسان ومدعاة دهشته.

لقد كان لعبدالرحمن باشا من المتانة الدينية قدر ما كان له من المهارة القتالية، وكان شخصية متميزة في ميدان الجهاد من أجل الدين والحفاظ على شأنه وقدسيته، وما كان ليجهل لماذا أرفق به علي باشا سليمان بيگ، بل كان مدركا للسر الكامن وراء ذلك، غير أنه كان يرى في مفاسد المنافسة الشخصية في مجالات المساعي الدينية مايساوي الكفر بعينه. أجل كان السعي لتحقيق المآرب الشخصية في خضم التحركات الجارية تحت شعار الدين نفاقاً بعينه في نظره، فكل فرد ينتمي إلى الرابطة الدينية التي ينتمي هو إليها، كان عنده بمثابة الأخ. وكعضو في الأمة الإسلامية وكان يعتبر هذه الصفة، صفة غير مفارقة لشخصيته، وهذا بحد ذاته يشكل أس الأساس للقانون الاجتماعي، وفي سبيل تحقيق الاطراد والتناسق في تنظيم الواجبات الاجتماعية ينبغي توفيق المصالح الوطنية مع الغايات الشخصية. فمن البدهيِّ أن كل أمة وكل فرد في أي أمة ملزم بالسهر على الكرامة الذاتية والحيثية الاجتماعية، ولذلك لاينبغي النظر أبدا إلى أي من الغايات الفردية أو المصالح الاجتماعية بمعزل عن الأخرى، فكما أن كل إنسان يؤمن حوائجه الذاتية بالاستعانة بأعضاء جسمه، ينبغي على الأمة كذلك أن تحقق حاجاتها التي تفتقر إليها وتتوقف عليها مصالحها وحريتها بالاستعانة بأفرادها.

ما السبب في أن مجتمعا ما يتكون من ملايين الأنفس يلقب بكلمة تدل على اسم مفرد لشعب ما؟

لاشك في أن ذلك إنما هو لإشعار ذلك المجتمع برعاية حالة وحدة الوجود للتفرد الروحي لعموم أفراده وتحقيق هذه الرعاية بهم. وبناءً على ذلك فإن أفراد الهيئة العامة لاي شعب مدينون باعتبار التركيب الأساس لوجودهم الاجتماعي في الصورة العينية للشخصية. فكما أن أي جسم مقطع الأوصال لايستطيع الحفاظ أبدا على حياته ولو لدقيقة واحدة، لايستطيع الشعب المتمزق كذلك إدامة وجوده.

أليس مايغري أبناء البشر المولودين من فطرة واحدة ومادة واحدة على الحروب والقتال فيما بينهم، مما تذهب مئات الألوف منهم ضحايا خلالها، هو الشعور والإحساس الوطنيان؟ والذين يقصرون في مثل هذه المبادرات والنضالات لا لشيء إلا من أجل أهوائهم الذاتية ويغلبهم الخوف والجبن والتنافس الفردي والقومي، ليسوا أكثر

من أشباح مجردة من كل نزعة انسانية، وسيظلون محكومين بالبقاء في الدرك الأسفل ليس إلا. وهذا مايؤدي إلى إهانة الموهبة الفطرية للكرامة الوطنية أو الخيانة مع الأجيال المقبلة. ولذلك فسيبقى هؤلاء أشباحا في صورة البشر وأوصاف البهائم معرضين للعنات المادية والمعنوية تلاحقهم من أسلافهم وأخلافهم مجردين من كل ألوان المزايا.

ولهذا كان درس الطبيعة الاجتماعي هذا وقاعدة الحكمة الفلسفية هذه لدى البابانيين قناعة قلبية ألُهموها من الله، وعليه فقد كان دستور النضال في سبيل الغلبة لهؤلاء المقدودة أجسامهم من جوهر الشجاعة والبسالة متخذا حالة علوم إضافية وعلم فطري، ولهذا السبب بالذات كان كل نضال يخوضونه يحرزون الظفر فيه، فيرفعون عاليا اسم الشجاعة ويحنون رقاب الجميع لسيف جلادتهم.

كان شيخ عشائر الشامية قد دعي هو الآخر للتحشيد للقتال ضد الوهابيين. وأيا ما كان السبب فإن الموما إليه تأخر في التحضير والاستعداد لهذا الغرض ولم يصل في الزمن المقرر. وقد فهم أن تأخره الاضطراري هذا ليس مما يتسامح بشأنه علي باشا، ولذلك فما إن سمع إن الباشا متوجه إلى الشامية حتى لاذ بالفرار من قهره وغضبه. ولم يكن قد أخطأ في الحقيقة في ماذهب إليه، فما إن وصل علي باشا الشامية وضرب خيامه وبعث قطعاته التنكيلية نحو الديار النجدية، حتى داهم في غفلة مقرالشيخ المذكور ولكنه لم يجد له هناك أثرا، فنهب ما كان له فيه من أموال وممتلكات وأضرم النار في منازله ومزارعه. وإثر ذلك اتفق شيخ الشامية هذا مع جاسم بيگ بن محمد بيگ الشاوي القتيل وأخذا يتحينان الفرص للثأر والانتقام.

وعندما عادت القوات التنكيلية من الديار النجدية بعد ما أحرزت تلك الانتصارات الكبرى، لم يبدِ علي باشا شيئا من الاكتراث والمبالاة بالنصر الباهر الذي تم إحرازه وكان يفترض أن يعرب إزاءه عن امتنانه الكامل. فلمن كان ينبغي أن يعرب الباشا عن امتنانه وتقديره لقاء ذلك؟ لعبدالرحمن باشا بطبيعة الحال، في حين أن عبدالرحمن باشا كان قد اشترك في حينه في العصيان الذي قام ضده في بغداد، وهذا مما لايمكن تناسيه والتسامح إزاءه في رأي أنموذج للجبروت والأنانية والاستكبار المفرط مثل علي باشا. وما كان لمئات الانتصارات الباهرة والصولات الغضنفرية والخدمات الصادقة أن يجعل مثل ذلك التجاسر في مغرض الإغماض عنه وغض النظر بشأنه، بل إن علي باشا كان سيجز رقبته عليها دونما تردد متى ماسنحت له الفرصة لذلك.

ماكان عبدالرحمن باشا بغافل عما يبيته له علي باشا. كان يعلم علم اليقين أن ما

يظهره نحوه الباشا من محبة زائفة وتقدير كاذب يبغي من ورائه تحقيق مآربه الخاصة، ليس إلا لغاية الخدع والتضليل، بل إن قبوله رتبة الوزير وعدم إعراضه عن ذلك في حينه[٤٦] إنما كان خشية أن يفسر رفضه على أنه تمرد على الوالي وعصيان لأوامره، ولذلك انقاد للامر وقبل به.

أجل، إن علي باشا الذي لم يوفق بنفسه قبل ست سنوات لإحراز الانتصار على الوهابيين واستطاع هذه المرة أن يغدو مثار استحسان الباب العالي ويضمن تحقيق نواياه بشأن فتح أبواب السعادة التأريخية على مصاريعها بوجه ابن أخته سليمان بيگ يگن، كان ينظر إلى هذا الانتصار كأمر عادي وحادثة اعتيادية.

ترك علي باشا كلا من عبدالرحمن باشا و محمد باشا متصرف كويسنجق وخالد آغا الكهية ورئيس الآغوات في مدينة الحلة لحمايتها من الاعتداءات التي كان يرتكبها بالتعرض للمدينة كل من شيخ عشائر الشامية وجاسم بيگ الشاوي، وعاد بنفسه مع قواه المحتشدة إلى بغداد. وبعد أن أمضى هؤلاء حوالي شهرين في الحلة لحمايتها سمح لهم بالعودة.

وعندما عاد علي باشا إلى بغداد نسب كل ماتم إحرازه من نصر في الحرب على الوهابيين إلى الشجاعة الخارقة والتدابير الصائبة لابن أخته سليمان بيگ الذي كان آنذاك برتبة أمير لواء في أربيل، والتمس الإنعام عليه برتبة (مير ميران) مكافأة له. والواقع أن سليمان بيگ المذكور قد اشترك في السفر لقتال الوهابيين ورافق خلاله عبدالرحمن باشا، غير أن الغاية التي توخاها علي باشا من إشراكه أنه كان يعلم أن البابانيين هم لامحال هم منتصرون في معركتهم هذه، فكان يريد أن يفيد ابن أخته سليمان بيگ من هذا الانتصار الذي سيأتي بلا ريب فيضفي على شخصه بعض المزايا ويعرف الباب العالي به، وقد نال علي باشا مبتغاه هذا وحصل على ما كان يريده.

لكن هذه الحلة القشيبة التي كساها علي باشا واقع الحال وحقيقة الموضوع، ما كان يصح أن تدون على صفحات التأريخ، ذلك لأن العمل الذي ارتكبه إنما هو عمل فضولي، أي إنه إهانة صارخة لنزاهة التأريخ والشرف الوطني. إن الغرض الأساس من التأريخ هو أن يكون حرزا أمينا تصان فيه الحقائق، إذ ينبغي أن تكشف هذه الحقائق

(٤٦) يشير المؤلف بهذا إلى منح عبدالرحمن باشا رتبة وزير من قبل علي باشا بعد اختياره حاكما لبلاد بابان إثر وفاة إبراهيم باشا في الموصل ابان الحرب مع اليزيديين – المترجمان.

عن ذاتها ووجودها بين حوادث الدهر حتى في خضم التأثيرات الإنسانية التي تفرضها ظروف طبيعية إبان التحولات والانقلابات، ولايصح أن يطرأ أي خلل على جوهر القضية فيحرفها ويشوهها.

وعلى مؤرخينا الأفاضل أن يصونوا هذا التراث الذي يقدمونه إلى الخلف من كل تزوير وتعامل فضولي، ذلك أن هذا الأمر يشكل بالنسبة للمؤمنين الذين هم حماة احوال الأمم ومقدراتها وظيفة وجدانية. إن التواريخ التي لم تدون وفق قواعد العدل والإنصاف هذه، بل دونت تحت تأثير خدمة المصالح الذاتية والزمنية لهذا أو ذاك، لاتختلف إطلاقا عن تواريخ العجم وملاحمهم وأساطيرهم.

من الطبيعي أن التأريخ الفلسفي الذي يجب أن يكون مرآة للوقائع الكونية وثبتاً للأحوال الوطنية ودليلاً للحركات الاجتماعية، حين يملي أساطير ودجلا ونفاقا للأشخاص والأزمان، يفقد كل مزاياه المطلوبة في موضوعيته الأساسية، ولن يفاد من فاعلياته.

حينئذ لايمكننا القول إننا نملك التأريخ القومي والوطني، في حين أن شعبا لايملك تاريخا لايستطيع أن يرقى إلى مراقي الشعوب المتطورة، لايستطيع كذلك أن يثبت أن بوسعه امتلاك حق الحياة.

أجل، ينبغي على كل شعب بل على كل فرد في أي شعب أن يكون عارفا أمجاده التاريخية. وعليه أن يفكر في الشخصية والمنزلة اللتين قدرهما له التأريخ على مسرح الحياة. عليه أن يفكر في الأحداث التي وقعت لأجداده وما فيها من مثالب ومآثر. عليه أن يعلم ماهي عاقبة السيئات وماهي السعادة التي تسفر عنها جلائل الأعمال في آخر الأمر. عليه أن يوضح كل هذه للناس ويفتح بها بصائرهم ويثير انتباههم، ذلك لأن الوقائع التأريخية لكونها تجمع بين دروس وعبر وعظات فردية وقومية واجتماعية تستطيع كل مجموعة بمقدار حالها أن تكون سهيمة في فهمها وإدراكها وأن تفهم واجبها المدينة به إزاءها للهيئة الاجتماعية. وعلى هذا الأساس يتحقق الانسجام الوطني داخل النظام الاجتماعي، ولاسيما أن الحكومة التي تبغي خدمة سلامة هذا الانسجام يجب أن تبني دستورها الإداري على المصالح الحيوية التي تستلهمها من التقاليد ومن الوقائع الماضية. وفي هذه الحالة تكون بحاجة إلى أن تستنتج الحقيقة الاستعدادية والمزاج النفسي وما للوطنية من قوة ربط من التقاليد الحيوية داخل المجتمع.

وهنا ينبغي إيضاح أن الوجه الإضافي بين الأحوال الملهمة للخدمات التي تقدم باسم الوطنية شيء، وطرز تلقيها وتقييمها بين القومية والعنصرية شيء آخر. فكما أن الخدمات والنجاحات تتجلى في التأريخ العام باسم الوطنية، يجب أن تنعكس المنافسة القومية كذلك في النوازع الوطنية. في حين أن أياً من المحاسن المنسوبة إلى الأعمال القومية والعنصرية لايلاحظ في عموم التأريخ العثماني. فالخدمات العامة الموجودة نظمت كلها وفق المآرب الخاصة لمستبد من طراز علي باشا ممن في أيديهم أزمّة الأمور، أو أنه بعدم تخصيصه أي حصة ممتازة لأي فرد عداه جعل المعلومات المختلفة مدارا وأساساً. وقد جرى هذا كذلك في كل ما اقتبس من تلك المعلومات حتى تمت صياغة التواريخ الأسطورية المعاصرة على هذا النحو.

إن تسمية الكتب المؤلفة على هذا الطراز تأريخاً، عمل غير تأريخي. والأمة أو المجموعة البشرية التي ليس لها تأريخ لن تبلغ في أي وقت من الأوقات الرقي الحضاري والاجتماعي إطلاقا، ذلك لأن العامل الوحيد الذي يربط القومية بالوطنية وبالعكس إنما هو التأريخ، والواسطة التي تقوي الرابطة الاجتماعية بين القومية والوطنية هي التأريخ، وهو الذي سيفهم الأحفاد فضائل الأجداد وقبائح أعمال الأفراد. كما أن العامل والقوة اللتين تدعوان الهيئة الاجتماعية إلى التبصر والانتباه إلى هذه التأثيرات النافعة والضارة المستخلصة في النتيجة من هاتين الحالتين المتضادتين هما التأريخ أيضا.

فلماذا نظل غافلين حتى الآن عن أهم وظيفة ملقاة على عاتقنا وهي إنقاذ مرشد اجتماعي رفيع الشأن إلى هذا الحد وهو التاريخ من رداءات التزوير والتدليس في الأشخاص والأزمان، وإلباسه مايجدر به من فاخر كساء موضوعيته الأصلية؟

لماذا لا نستخرج بمساعدة التأريخ أو بمساعدة ملاحمنا من بطون سجلات أعمال مردة الاستبداد الذاتيين ونماذج الاستعلاء الأنانيين، حقنا الموروث الذي امتدت إليه يد الانتحال والاغتصاب، حقنا في نيل الاحترام والتقدير، لنعيده إلى أصحابه المستحقين؟ ولماذا نحرم الأقوام ذوات العلاقة بالوقائع التأريخية من دروس التأريخ وتوجيهاته بشأن ما قدمه أجدادهم من خدمات وطنية جلى عبر ملاحمهم المشرفة ليحتفظوا بما أورثتهم اعمالهم الجليلة من شرف الاحترام التأريخي استمرارا للسعي من أجل الحفاظ على الحياة الكريمة في إطار الأوضاع الفاضلة التي تتناسب وموروثهم التاريخي؟

أجل، لقد ضحى إبراهيم باشا بحياته في سبيل تذليل صعوبات سنجار الممتنعة

على الاقتحام، ولكن عنوان النصر والظفر إنما أحرزه علي باشا. إن عبدالرحمن باشا هو الذي أحرز بقطعاته البابانية في صحارى نجد وفيافيه التي أذاقته ألوان العذاب والمشاق المحيرة للعقول. أما الذي اقترن اسمه بالفتح المبين والنصر المؤزر فلم يكن سوى سليمان ابن اخت علي باشا، وهو لماً يتَعَدَّ دور المراهقة بعدُ ولم يُبدِ أي مزية تذكر!

أفلم تكن الحاجة ماسة إلى الملاحظة ولو لمرة واحدة أن علي باشا الذي لم يكن ليقبل بغير أمثاله وأقرانه في ساحة البطولة والذي كان نشوان بسكر المتع الثلاث الشباب وصهرية الباشا ومنصب الكهية، سار سنة ١٢١٣هـ (١٧٩٨م -١٧٩٩م) لمقاتلة الوهابيين على رأس أربعين ألف مقاتل وما يساويهم من أدوات القتال وعدده وهم لم يشتد عودهم بعد ولم يقو نفوذهم إلى الحد الذي بلغه في السنوات التالية، واستمر يحاول عشرة شهور متتالية، فأضاع ثلثي قواته وأهلكهم ولم يقو على دحر مقاومة قلعتي هفوف والمبرز وأجبر على التراجع في أبشع صورة؟

أما سليمان بيگ يگن فلم يكسب أي اسم في أي ساحة من سوح الرجولة، وبسبب من حداثة سنه لم يكن يتمتع حتى بالاستعداد للاستقلال عن رعاية مربيه، وما كان قد أبدى أي مزية سوى أنه ابن أخت علي باشا فقط، فكيف اذاً إستطاع أن يحرز هذا الظفر المتألق بهذه القوة البسيطة وفي هذه المدة المحدودة؟

على المرء ان لايقبل بالخوارق التي لاتتلاءم وموازينه الفكرية وقناعاته الذاتية، وإذا قبل بها فعليه أن يحاول تبيان طرز حقيقة ماهية اقتناعه بالتحليل المنطقي.

إن مابيناه بشأن الانتصارات التي تمت تحت ظلال سيوف أبطال بابان الأشاوس لاتتماثل بأي حال والمعاملة المختلفة لعلي باشا، ذلك لأن المطلعين على حقيقة البابانية لن يحمل مثل هذه الخوارق على الإغراق والمبالغة بحق بسالة تلك الكتلة من الحماسة والبطولة. وعليه فكما اعتبر سفر علي باشا لقتال الوهابيين مقياسا لابن أخته سليمان بيگ، كذلك لابد من أن يعد ماورد في (ذيل گلشن خلفا) بشأن شجاعة البابانيين الأبطال وحماستهم في بعض الوقائع معيارا لهم أيضا على الرغم من أن الكتاب المذكور إنما كتب في الدجل والنفاق والملق لوزراء بغداد.(*)

(*) ورد في ترجمة هذا الكتاب لموسى كاظم نورس تحت عنوان «دوحة الوزراء في تأريخ وقائع بغداد الزَّوراء ما يأتي: » ... تناول هذا الكتاب الحالات الاجتماعيَّة والسيَّاسيَّة الَّتي كانت سائدة في العراق وإيران وتركية والحوادث الَّتي وقعت في هذه البلاد خلال سني ١١٣٢ - ١٢٢٧ هـ، وقد

ومن الطبيعي والحالة هذه أن تتم القناعة بأننا في ما بيناه قد تجنبنا الإفراط والتفريط متحررين من شوائب التعرض إلى الاعتراض. ومع مافيه فإن ما جرى من التجاوز على الحق المشروع لبطولة البابانيين ليس هذا القدر فقط. فلو كان محصورا في هذا القدر لسكتنا على مضض. غير أن فتوح البابانيين وانتصاراتهم التي بدأت منذ القرن الحادي عشر، إما تعرضت بهذا الشكل إلى الانتحال والاغتصاب وإما لم تحظ بإنصاف التدوين في السطور.

أجل، إن سليمان بيگ الأول، المورث والمضيف لعنوان البابانية المجيد، الذي دحر بخمسة آلاف مقاتل من قواته جيش لرستان البالغ قوامه أربعين ألف مقاتل في الساحل الجنوبي لديالى بجهة شميران وأهلكه عن آخره، والذي ذكره (بحر الأنساب)، لم ير مؤرخونا ضرورة لتسجيله في صحائفهم التأريخية. وفي حين سطرت التواريخ الأجنبية أن محمد خانه پاشا هو الفاتح الحقيقي لكرمانشاه وهمدان سنة ١١٣٦هـ، وإن اقليم أردلان في إيران ظلت بالفعل تحت استيلائه مدة طويلة، نجد أن تواريخنا الوطنية لم تجرأ أبدا أن تشير إلى المشار إليه محمد خانه باشا في أحداث هذا التأريخ لكي

اعتبره المؤلف ذيلاً لكتاب مطبوع بالتُّركيَّة يسمّى «گلشن خلفا» لمؤلِّفه نظمي زاده مرتضى أفندي». ولهذا الكتاب على ما ذكر كاظم نورس «نسخة مطبوعة في دار السَّلام الوحيدة المتباقية المطبوعة لهذا الكتاب، وكان محتفظاً بها البحَّاثة يعقوب سركيس، والآن محفوظة في جامعة الحكمة ببغداد، وقد قابلها نورس بالنُّسخة الخطِّيَّة للمؤلِّف فلم يجد فرقاً أو اختلافاً بينهما». ثمَّ يذكر نورس عن مؤلِّف هذا الكتاب قائلاً:

«يقول عبد القادر الشَهربانلي الخطيب زاده في الصَّفحة ٢٥ من كتابه باللُّغة التُّركيَّة» تذكرة الشُّعراء أو شعراء بغداد» كتبه في آيام وزارة داود باشا، والي بغداد ما نصُّه: «إنَّ حاوي رسول أفندي (مؤلِّف دوحة الوزراء) هو نجل منلا يعقوب الماهوني أصلاً والكركوكلي وطناً هو شقيق ثابت خضر أفندي وأكبر منه سناً، و كان منشئاً (ناثراً) وشاعراً، هاجر من كركوك إلى بغداد سنة ١٢٢٠هـ في وزارة علي باشا وكان كاتباً بالمصرفخانة وكان معجبا بنفسه. توفِّي سنة ١٢٤٢» انتهى كلام نورس.. وأريد أن أضيف أنَّ مترجم دوحة الوزراء موسى كاظم نورس نقل الفقرات الواردة عن «حاوي» خطأً. الصَّواب كما ورد في «تذكرة الشُّعراء على النَّحو الآتي: «إنَّ الموما إليه هو مخدوم الملاَّ يعقوب الكركوكيُّ، الأخ الأكبر . لـ «ثاقب خضر أفندي، وليس «ثابت» كما يقول نورس، وكلاهما من الشَّجرة الطَّيِّبة ... » ويقول الشَّهربانلي عن ثاقب خضر أفندي ما يأتي: «إنَّ الموما إليه هو نجل الملاَّ يعقوب أفندي الماهونيِّ الأصل والسَّنندجيُّ مولداً والكركوكيُّ مسكناً» - شكور مصطفى.

لاتكون قد أظهرت أي شريك لوالي بغداد أحمد پاشا في شأنه وفعالياته.

بل إن سليم باشا الذي جعل قوافل أثقال المجد السلطاني لنادر شاه في قبضة يده، وفرسان سليمان باشا المقتول،الاثنى عشر، الذين شتتوا اثنى عشر ألفا من العساكر الإيرانية في مريوان، شذر مذر، ومزقوهم شر ممزق واضطروهم إلى الفرار من وجوههم مولين الأدبار، لم يَرَهم أولئك المؤرخون جديدرين بالحديث عنهم، وإن كتاب (ذيل گلشن خلفا) الذي كتب عن إصابة جيش خسرو خان من أكابر قادة إيران ومشاهيرهم بالاضمحلال على يد أحمد باشا في مريوان وأسر أعظم إيراني هو علي مراد خان الذي ظهرت قوته وقدرته بتربعه على عرش الشاهية فعلا، في موقع سرسير، ونقله المرحوم جودت باشا في تأريخه اقتباسا، لم يضبطه الخبر بوصف ومدح جديرين بقدراته البطولية، وإنما ركز الدليل على إقامة الدليل ماوسعه ذلك، على قدرات الوزراء ومهاراتهم وحدهم.

من المعلوم أن قوات والي بغداد لم تقدر على مقاومة الهجمات التي شنت على بغداد من قبل الكهية محمد المعروف بعجم أوغلو وابن الخليل، فأرسل الوالي رجالا معروفين إلى البابانيين يستنجدون شجاعتهم لما كانوا يتمتعون به من شأن في حسم الأمور أيام الملمات، وقد لبى نداء الاستغاثة مرة أحمد باشا وأخرى محمود باشا وثالثة عثمان باشا، فكان هؤلاء هم الذين أنقذوا بغداد من أن تطالها أيدي المعتدين الغزاة ورفعوا غائلة العصاة عن خطوط محاصرة الكاظمية والأعظمية وساقوهم إلى مهاوي الفناء والزوال.

إن الكتب العربية والتركية التي أرخت لبغداد، ذكرت كلها تفاصيل هذه الأحداث. وإن المؤرخين، رغم ما كانوا عليه من التزام برعاية الولاة وإطاعتهم وذكرهم بلغة لاتمسهم بأدنى خلل بشأنهم، اضطروا إلى إظهار الحقيقة ضمن سياق بيان الوقائع.

إن للتواريخ من الأخطاء والتقصيرات تجاه السياسة الوطنية والاجتماعية قد مالها من إهمال وتراخٍ تجاه حقوق الأمم والشعوب. إذ لابد من إيضاح الدلائل المتضادة والمعكوسة على المواقف المتناقضة للسياسة العامة أو فروعها المتشعبة للحكومة المركزية وشعبها إزاء مصالح الزمان والمكان الحالية والمستقبلية وتشريح مايؤدي إليه هذا التناقض من نتائج ضارة ومسببة للمعضلات في هذا الباب ليكون الأخلاف على بينة من أمرها ويتحاشوها، في حين أن مؤرخينا، وقد كانوا لايستهدفون عدا تدوين الأقاصيص، البحث عن حقيقة ما تضمن المصالح الوطنية، لم يولوا هذه المهمة

الاجتماعية أهمية تذكر. غير أنهم دونوا لحسن الحظ الأنباء التي تسنَّى لهم الاطلاع عليها، صادقة كانت أو كاذبة من دون أن يجدوا في أنفسهم حاجة لغربلتها وتجريدها من الالتباسات التي تقع نتيجة الاختلافات التي فيها. ولكنني أرى بفكري القاصر أن للهيئة الحاكمة في التأريخ أيضا محاكمها العدلية، وعلى هذه المحاكم أن تضع المعاملات والأعمال الإدارية والسياسية ذات العلاقة في معرض التدقيق والتمييز حسب مقتضيات الأحوال والأزمان لإعادة النظر فيها وإصدار أحكام البراءة أو التجريم بشأنها حسب مابدا لنتائجها المنكشفة من محاسن أو مخالفات.

وهكذا تتحق السلامة في ضبط الأخبار وتدوينها.

وما من شك في أن قرارا وطنيا نافذا يتخذ على هذا النحو تكون عاقبته أن يتبصر الجميع ويهتدوا إلى الحجج الرديئة في أي محاكمات تجري في ذلك المضمار من جهة وإلى أن يغدو العالم بمنأى من خسة الإجرام الأبدية التي تحكم بها عليه محكمة التآريخ الانساني.

كان التأريخ قد دخل عامه الـ ١٢٢٠ للهجرة عندما استحصل عبدالرحمن باشا ورفاقه إذنا بالانفكاك من الحلة والعودة إلى مستقرهم الأصلي. وبعدتحركهم ومغادرتهم مدينة الحلة، كانت صورة اتفاقهم كما أسلفنا بيانه كمايلي: ضموا جاسم بيگ آل الشاوي وشيخ الشامية وعشيرة العبيد إلى اتفاقهم وعبروا الجزيرة واستقروا في الخابور وبدأوا من هناك الاعتداء على تلكم الأطراف مخلين بذلك باستقرار الديار العراقية. وتوالت تمادياتهم التي تسببت في تشويش خاطر علي باشا. وبناءً على ذلك فإن عبدالرحمن باشا الذي لم يكن قد وصل السليمانية بعد وكان مايزال في كركوك لم يتقدم خطوة حيث كان، فصدر الأمر إليه بالعودة فورا مع من معه من قوات إلى بغداد، كما صدر الأمر إلى محمد باشا متصرف كويسنجق للالتحاق بعبدالرحمن باشا ووصول بغداد على جناح السرعة.

وعلى هذا، فقد أرسل عبدالرحمن باشا أخاه سليم بيگ فورا إلى السليمانية لجلب ما يحتاج إليه من لوازم السفر وظل بنفسه في كركوك منتظرا عودة أخيه. وأدى سليم بيگ المهام التي كلفه بها أخوه في السليمانية. ومع عودته وصل محمد باشا متصرف كويسنجق أيضا إلى كركوك، ولكنه غير في هذه المرة ما كان قد دأب عليه من قَبْلُ من ارتباط بالبابانيين وولاء لهم وركبه غرور الشباب وأخذ يقوم بأعمال وتصرفات ذات طابع مناوئ جعلت عبدالرحمن باشا يحسن فيها العداء والخصومة. والواقع أنه، كما

سبق أن بينّا في ذكر أحداث عام ١١٩٢هـ بإسهاب وتفصيل، كان تيمور باشا جد محمد باشا الآنف الذكر قد حمل على أحمد باشا باتفاق مع محمد باشا بن خالد باشا، ولكنهما كليهما وقعا أسيرين في تلك الحملة في يد أحمد باشا.

ومع أن دوافع الأخوة لم تدع أحمد باشا يقتل أخاه محمد باشا، إلا أنه كان قد أعدم تيمور باشا لإسهامه الفضولي في الإيقاع بين الأخوين وإحداث الشقاق بينهما. وبعد ذلك كانت كويسنجق وحرير قد ألحقتا بمنطقة الحكومة البابانية، إلا أنهما بعد حين فوِّض محمود باشا بن تيمور باشا إياها.

إن الحرص والانفعال البادين أمرا طبيعيا، اللذين أثارهما انتزاع الحكم في قلوب البابانيين وملاحظة أن تيمور باشا إنما فني في سبيل أولئك، دفعا أمراء البابان من موقف الاضطرار إلى إظهار المحبة والاحترام تجاه هذا النسل وعاش الجميع في تصافٍ ووئام. ولكن ما الفائدة التي ترتجى من وراء ذلك؟ إن محمد باشا المتجاهل عن إدراك الماهية الحقيقية للمحبة والاحترام المبنيين على الحياة بشرف وعلى رعاية الحقوق لاغير، كان قد غرته قوته وقدرته وكان يدور في رأسه هوى الانتقام لجده، فكان جعل عبدالرحمن باشا يحس جيدا بنواياه بهذا الصدد، في حين أن هذا كله لم يكن يتعدى سفها في العقل وطيشا وجنونا محضا لاغير.

وما إن مر يومان على التحرك من كركوك شطر بغداد حتى حمل عبدالرحمن باشا بقواه في منزل (بط) على مقربة من خورماتو الذي ألقوا فيه رحلهم، على الموما إليه محمد باشا ورهطه وقتله مع حشد من أعيانه وهزم قواته شر هزيمة واستولى على أمتعة سفرهم وأسلحتهم الحربية كلها غنيمة سهلة، ومَنْ طلب منهم الأمان أجيب إلى طلبه وأعيد إلى حيث أتى منه بسلام. وبعد أن انتهى من عمليته هذه أرسل إلى علي باشا يخبره بما جرى وعاد بنفسه إلى كركوك منتظرا عودة رسوله بجواب علي باشا.

واحتد علي باشا غاية الحدة من العمل المتهور الجسور لعبدالرحمن باشا هذا، ولكنه آثر أن يكظم غيظه ويستر انفعاله من الأمر ليستطيع من خلال ذلك إيقاعه في حبائل الخديعة، فكتب إليه أنه على الرغم من كون ماجرى خطأ كبيرا ومخالفة لضرورات الوضع والعصر، إلا أنه يصرف النظر عن هذا العمل المتهور شريطة أن لايكرر خطأه ثانية، وسيعيد إليه إدارة كويسنجق وحرير مرة أخرى ويفوض أمرهما إياه من جديد. وبناءً على هذا فإن عليه الإسراع بالعودة إلى بغداد قدر المستطاع، وسلم الرسالة الجوابية إلى رسول عبدالرحمن باشا وأعاده من حيث أتى.

ما إن وصلت الرسالة الجوابية إلى عبدالرحمن باشا في كركوك حتى أدرك ماتضمه من خديعة مبيتة للإيقاع به.

أجل، فقد كانت نار الحقد قد استعرت وارتفع لهيبها وانتشرت شراراتها من نفس علي باشا الجبارة المستكبرة، وكان عبدالرحمن باشا يعلم حق العلم أن هذه النار الموقدة ليست مما يمكن أن تنطفيء وتخمد بسهولة، ومادام هذا الطاغية لم يروِّ عطش قهره وانفعاله بالدم المراق فإن تسكين هذه النار أمر خارج حدود الإمكان ولن يستطيع الباشا على مافي نفسه من أوار صبرا.

ولاسيما أنه كان قد جعل خالد بيگ منذ زمن نصب عينيه وبعثه بدفع من مراد خان باشا إلى العمادية بهدف استعادة مقام قباد باشا وحكمه وكان يبحث عن فرصة سانحة له ليدخل المسرة في قلبه بهذا الشأن، وإضافة إلى هذه كلها كان هناك سليمان بيگ بن إبراهيم باشا الذي غرته صلاته الخاصة بعلي باشا فترك وطنه ومأواه وانقطع عن أقاربه وتعلقاته والتجأ إلى حماية علي باشا، وكان يترقب على الدوام فرصة سانحة كهذه الظروف. كما أن تفويض كويسنجق وحرير لم يكن عملا يتسامح علي باشا بشأنه ويقوم به بمثل تلك السهولة التي وعد بها عبدالرحمن باشا، وما كان الأخير يرى في الوعد به إلا أحبولة محيرة لإغرائه وإيقاعه في شباك مصيدته، وكان قد أدرك هذه الحقيقة تمام الإدراك.

لهذه كلها وجد عبدالرحمن باشا نفسه مضطرا إلى المقاومة على حلبة الصراع لينجو بنفسه. وعلى هذا الأساس وضع ضامن المحمد شيخ العبيد وحمد الحسني شيخ العزة مع أتباعهما من العرب، رغما عنهما، في الاستحكامات الدفاعية بوجه الهجوم المتوقع الذي قد يقوم به ضده علي باشا، وأبلغه متعللا بطائفة من شتى المعاذير بضرورة عودته إلى السليمانية.

لقد كان لكل واحد من أمراء البابان أتباعه الخاصون، فكان قسم من البابانيين ممن يتبعون خالد بيگ وسليمان بيگ قد انفصلوا من القوة الأساسية لعبدالرحمن باشا وانخرطوا ضمن القوات التي بأمرة علي باشا، وكان هذا قد أحدث ثغرة جدا كبيرة في صفوف القوة البابانية الأصلية وفراغا عظيما يشغل بال عبدالرحمن باشا بصورة جدية. ولهذا فقد أخبر عبدالرحمن باشا صاحب الأمر في إيران بقضيته بغية فتح باب للاستناد إليه وطلب العون منه أمام أي احتمال متوقع بالإضافة إلى قوته الخاصة.

أما علي باشا، فبعد أن أيقن أنه لن يستطيع إيقاع عبدالرحمن باشا في مصايد

مكايده، أعلن الحرب على البابان فورا.

في تلكم الأيام نصح كل من خالد آغا الكهية ومتسلم البصرة السابق عبدالله آغا، علي باشا، انطلاقا من رعاية الصالح العام وقدما له إرشاداتهما بأن في بقاء عبدالرحمن باشا واستمرار وجوده فوائد جلى للدولة العثمانية في العراق وأنه يؤمن له منافع كثيرة وهو بمثابة قوة أساسية تكفل دفع غائلة الوهابيين الناشئة. ولذا فإن تطمينه واستمالته أوفق من توحيشه وإهلاكه، إلا أن هذه النصائح الحسنة والإرشادات الخيرة، بدلا من أن تؤدي إلى النتائج المرجوة منها تسببت في حبس الناصحين نفسيهما وزجهما في غياهب السجون.

وفي واقع الأمر كان علي باشا يريد منذ زمن مضى أن يعين ابن أخيه سليمان بيگ كهية على الإيالة، وكان يتحين الفرص على الدوام لتحقيق رغبته هذه. والآن فإن مافعله من تفسير نصائح خالد آغا الصادرة من حسن النية ومراعاة صالح الحال، بالخيانة، كان يشكل بالنسبة إليه ذريعة جيدة لعزله، ولكن كان من شأن الاكتفاء بعزله أن يثير بوجهه خصما ثانيا، وعليه فقد رأى أن إعدام الموما اليه سينهي هذا القلق وهو الأنسب. ولذلك فقد أعدم خالد آغا ونفي عبدالله آغا إلى البصرة، ثم قام بالتحشيد من جميع الأطراف وأرسل تعليماته إلى خالد بيگ الموجود في العمادية باستصحاب القوات العمومية للموصل وأربيل والعمادية والتحاقها به في كركوك.

كان خالد بيگ يرى أن حكومة بابان بعد ابراهيم باشا من حقه هو ولكن عبدالرحمن باشا كان قد وضع يده عليها، فكان يضمر له هذا في نفسه، ولذلك فقد تلقى أمر هذا التحرك الحربي بمنتهى الحرارة الروحية والامتنان القلبي. وعليه فما إن تسلم الأمر حتى بعث إلى كل الجهات مأمورين للاستنفار والتعبئة وحشد في مدة قصيرة قوة كبيرة وتوجه بها إلى كركوك.

أما عبدالرحمن باشا فقد اتخذ من منطقة قرەحسن من مضافات كركوك مقرا له وأرسل عيونه وجواسيسه إلى جميع الأطراف فأتته الأخبار بأن خالد بيگ توجه بقوة كبيرة إلى كركوك وأن عبدالفتاح باشا متصرف درنه وباجلان منهمك في جمع القوى، فساق على الأخير أخاه سليم بيگ على رأس قوة مؤلفة من خمس مئة فارس وخرج بنفسه لملاقاة خالد بيگ في الليلة نفسها مع ثلاث مئة فارس والتقاه في آلتون كوپرى وهجم عليه وأباد قسما كبيرا ممن كانوا معه وتشتت الباقون هاربين وهلك معظم هؤلاء أيضا غرقا في أمواه الزاب عندما خاضوا لجها من فرط خوفهم ورعبهم. أما خالد

بيگ نفسه فقد استطاع النجاة كيفما كان مع نفر قليل من أتباعه. وإذ علم أخوه عبدالعزيز بما جرى لأخيه، فقد هرب مع أربعين فارسا كانوا معه شطر بغداد حيث علي باشا وهو يجر وراءه آذيال الخيبة إثر هذه الهزيمة النكراء.

ومن الجهة الأخرى، فمع أن سليم بيگ حمل على عبدالفتاح باشا، إلا أن الموما إليه كان قد تناهى إليه أمر هذا الزحف، فبادر إلى ترك ساحة النزال المرتقب وولى هاربا بخفة تاركا أثقاله وأحماله وراءه. وعلى هذا فإن سليم بيگ الذي لم يظفر بجلود المقاتلين، أخذ كل ما كانوا قد تركوه بعد هروبهم وعاد بها من حيث أتى.

أما علي باشا فقد ساق أمامه كل القوى المحلية المتوفرة وسلك طريق الشمال مع جميع العساكر العراقية ومقاتلي العشائر العربية الذين استطاع لمَّ شملهم. فحيثما حل كان يعلن النفير العام لتوفير المزيد من المحاربين واستصحابهم معه، وبهذا كان يبطيء في مسيره ويؤخر تحركه. وعندما وصل على هذا النحو من الحركة إلى منطقة البيات التابعة لطوزخوماتو التقى عبدالعزيز بيگ الذي روي له ما أصاب أخاه خالد بيك من فواجع وكوارث. ومما سمع علي پاشا عما جرى لخالد بيك تضاعفت فيه نزعات الغدر والبطش والغيظ والانفعال أضعاف ما كانت وثارت ثائرته أيما ثورة، وأخذت هواجس الهزيمة والفشل تتحرك في مخيلته، وأينما وجد من يستطيع ضمه إلى قواته في أي مكان أخذه معه من دون أن يسمح لأي فرد مهم بالعودة، بل كان يبدأ بشن حملة جديدة لتجنيد المزيد والمزيد. وأصدر أوامره مجدداً لخالد بيك بجمع كل القوى المتفرقة هنا وهناك في الموصل والعمادية وحرير وكويسنجق وأربيل على الفور والتحاقها به في كركوك، وبلغ حكومات تلكم المواقع قاطبة بأن لاتتوانى بأي حال عن تقديم العون اللازم.

وبلغت أنباء هذا الزحف الكبير الذي كان على رأسه علي باشا بنفسه كركوك وما والاها فأرعبت شيوخ العبيد والعزة والعرب الذين كانوا مع عبدالرحمن باشا. وما إن حل الليل حتى ولَّى أولئك كلهم هاربين تاركين مواقعهم التي كانوا قد تحصنوا فيها. وقد بلغت أنباء هذا الهروب الجماعي مسامع علي باشا بالطبع، فبعث على الفور رجال عشيرة فارس الجربه وعقيل مع عرب شمر لقطع الطريق على أولئك الهاربين، كما بعث معهم بيگات الكروي مع عشائر أربيل لتقويتهم وشد أزرهم، والتقى هؤلاء على ضفاف أمواه دجلة الهاربين، فلم يستطع أولئك وقد حوصروا من كل جانب أن يقاوموا قوات علي باشا، فقتل منهم خلق كثير وغرق كثيرون منهم غير أولئك في نهر دجلة

وقتل من قتل مثل شيخ العبيد ضامن المحمد ووقعت أسلحتهم ودوابهم وخيولهم غنائم في أيدي المهاجمين، وكان هذا عبرة لمن يعتبر في العاقبة السيئة لعدم الثبات وإبداء الوهن وارتكاب الخيانة. ولما علم عبدالرحمن باشا بما جرى من خيانة مذلة ارتكبتها العشائر العربية، وجد نفسه مضطرا إلى ترك ميدان الوغى المجاور لكركوك منسحبا إلى الوراء ليتخذ من دربند (مضيق) بازيان خطه الدفاعي وبدأ تحكيمه وتحصينه. وهذا المضيق بمثابة الباب لسلسلة من المرتفعات يطلق عليها اسم جبل هەنجيره ويقع بين السليمانية وچمچمال وعلى مسافة أربع أوخمس ساعات على يمين هذا المضيق ويساره يوجد ممران آخران، ومع أن هناك ممرين آخرين أيضا إلى جانب الباب إلا أن اكتشافهما والعبور منهما كان أمرا صعبا للغرباء عن المنطقة، بل وحتى بالنسبة لأهل المنطقة أيضا.

وضع عبدالرحمن باشا إخوته سليم بيگ وسليمان بيگ وخالد بيگ على يمين المضيق ويساره وتحت إمرة كل منهم ألف مقاتل، كما حصن الممرات الموجودة على يمين المضيق ويساره أيضا. أما هو نفسه، فكان على رأس قوة الاحتياط المتركزة خلف المضيق.

ومن الطرف الآخر جمع خالد بيگ من جديد قواه المتشتتة وتوجه على رأسها إلى كركوك. أما علي باشا، فبعد أن فرغ من كل صنوف تحشيداته واستحضاراته أصدر أوامره بالتحرك، وكان عدد القوات التي تحت إمرته يبلغ حوالي مئة ألف مقاتل. وقد بلغت هذه القوات شيوەسور الذي يعني الوادي الأحمر في أربعة أيام. ويبعد هذا الوادي عن المضيق مسيرة ساعة واحدة، وقد اتخذ منه مقرا لها.

ولما كان عليه المضيق من مناعة، وضعت خطة الهجوم عليه من قبل قوات علي باشا من جانب خالد بيگ وسليمان بيك، وتقرر أن يتعرض الأول من الميمنة والثاني من الميسرة ويتعرض علي باشا نفسه من القلب. وفي اليوم الثاني لوصول القوات المهاجمة إلى موقع شيوەسورتحركت هذه القوات قبل بزوغ الفجر حسب الخطة المرسومة، وذلك عبر طريقي المشاة الذين تركهما عبدالرحمن باشا مفتوحين. وقد تسلق الجناحان المهاجمان يمينا ويسارا السلسلة الجبلية نحو قممها وذراها حتى إذا تعرض المدافعون عن المضيق لنيران المهاجمين من تلك المرتفعات المواجهة، فطنوا إلى خطأ ترتيباتهم الدفاعية الفاحش. ولكن ما الجدوى، وقد فلت زمام المبادرة من أيديهم ولم يجدوا أمامهم حلا غير المقاومة بالتضحية بالنفس. فاستمر القتال حتى خيم الظلام بعد مساء

ذلك اليوم. ولما أدركوا أن لا قبل لهم بالصمود أمام هذه القوة الزاحفة الهائلة، لسيطرة الخصم على المواقع المتحكمة، اضطروا إلى الانسحاب. والحق أن من المحال للمرء أن يجد مثيلا لما جرى يومئذ من القتال بين الفريقين المتخاصمين.

إن ما أبدته فئة عبدالرحمن باشا المستأسدة التي لم تكن إزاء جيش علي باشا إلا بمثابة قطرة من بحر، من المتانة الرستمية، فاق أقصى ما تتحمله الطاقة البشرية وأوقع العقل الإنساني في حيرة واستغراق من أمرها. فلئن كان قد سقط من هذه الفئة ما يقرب من خمس مئة قتيل، فإنه سقط من قوات علي باشا أكثر من خمسة آلاف قتيل.

وبعد هذه الهزيمة التي تعتبر نصرا مطلقا انسحب عبدالرحمن باشا باتجاه السليمانية، ومن هناك أخذ معه عائلته وأتباعه وتوجه نحو إيران.

وبناءً على الاتصال الذي كان عبدالرحمن باشا قد أجراه بصاحب الشأن في إيران، وردت في يوم القتال نفسه رسالة من الحكومة الإيرانية موجهة إلى علي باشا وفيها التماس بصرف النظر عن العمليات المنوي القيام بها ضد عبدالرحمن باشا وتركه وشأنه يقيم حيثما كان، كما كان شأنه في السابق.

ولما كان الأمر قد خرج من حدود الائتلاف ورأب الصدع، فقد أفهم الرسول حامل الرسالة عدم إمكانه إسعاف رجاء الشاهزاده جملة وتفصيلا، وأعيد من حيث أتى.

وبغية أن يتستر علي باشا على ما قدمه من ضحايا كثيرة أمام الانظار ويذيع على المسامع أنباء فتحه وظفره سواء في إيران أو في داخل العراق ويضفي عليها هالة من نور ويرعب جميع الأطراف بسطوته القاهرة ويشيع الرهبة في قلوبهم، جمع *الرؤوس المقطوعة لخسائر الطرفين المتقاتلين وأقام منها قبالة المضيق منارة عالية، وكانت هذه المنارة مثار إرهاب لنفوس الناس بشخوصها أمام أعينهم أياماً عدَّة*، وكان الموما إليه يتطلع طوال تلكم الأيام بكل فخر واعتزاز إلى هذا المستوى من الوحشية وغلظة القلب التي تخجل القرون الأولى والوسطى والأخيرة من العالم الإنساني من عرض مثله. فكان كلما ألقى نظرة عليها زادته انشراحا وابتهاجا. وبعد أن بقي في الموقع أياماً عدَّة يستعرض هذا المشهد الرهيب وفوض حكومة بابان إلى خالد بيگ وكويسنجق وحرير مع رتبة الباشوية إلى سليمان بيگ، عاد إلى الديار العراقية.

وصل عبدالرحمن باشا بعد هذه الهزيمة إلى سنندج وعرض تفاصيل ما جرى سواء من قبله مباشرة أو بوساطة والي سنندج على مسامع فتح علي شاه. وعلى هذا فقد خصصت له قصبة (صنقور) حيث اتخذها مسكنا له.

بعدأن أمن الشاه إقامة عبدالرحمن باشا ومعيشته في صنقور أرسل رسولا ثانيا إلى علي باشا يرجوه أن يعيد لعبدالرحمن باشا مقامه وحكومته، إلا أن علي باشا اعتذر عن تلبية الرجاء مرة أخرى.

ومع هذا، وبقصد الحيلولة دون أن يخل هذا العناد والاستكبار اللذان أبداهما علي باشا إزاء رجاء فتح علي شاه المتكرر بشأن عبدالرحمن باشا بعلاقات الدولتين العثمانية والإيرانية ومناسباتهما، بعث علي باشا، فخري زاده سليمان بيگ رسولا خاصا من لدنه إلى الشاه ليعرض أمامه بغي عبدالرحمن باشا وطغيانه شفويا وتحريريا ورجاه أن يقبل اعتذاره عن تلبية طلبي الشاه السابقين. وبعد أن وصل الموما إليه إلى البلاط الإيراني وقدم الرسالة التي كان يحملها معه وشرح ما كان قد كلف به من بيانات استدعى فتح علي شاه عبدالرحمن باشا وعرض عليه بيانات علي باشا الشفوية والتحريرية، ولم تكن هذه البيانات مما يحقق مآرب فتح علي شاه كما لم يكن من شأنها أن يحقق مصالح عبدالرحمن باشا. ومع ذلك أعاد الشاه رسول علي باشا إلى بغداد بكل تقدير واحترام، ووعد عبدالرحمن باشا بأنه سيعيد إليه مقامه وحكومته لا عن طريق الاستعطاف والرجاء وإنما بقوة السلاح، وذلك بعد أن يفرغ من بعض المشاكل التي كانت تعترض طريقه، وأعاده إلى قصبته صنقور حيث يقيم.

ولم يكن قد انقضى على هذه الحادثة شهران حتى أرسل فتح علي شاه رسالة إلى علي باشا يدعوه فيها إلى إعادة عبدالرحمن باشا إلى مقامه وحكومته مع أداء خمسين ألف تومان له نقدا تعويضا عن الأضرار التي لحقته، ولم تكن صيغة هذا الطلب طلبا وديا وأخويا وإنما كان في صيغة أمر صادر إليه.

واستشاط علي باشا غضبا من هذا الأمر الذي أمره به الشاه القاجاري وأعلن الحرب على إيران. أجل كانت محدودية تفكير هذا الرجل ويبوسة دماغه بحيث لم يكن يستطيع أن يجد أي فرق بين مجال الديبلوماسية وبين ساحة القتال المرتقب.كان علي باشا كلما حل في موقع ما أخلد إلى الراحة أياماً عديدة إلى أن تصل قواته إلى ذلك الموقع. وبعد أن تحرك مع قواته من قزلرباط وزهاو وبلغوا موقع الطاق برزت لحسن الحظ عوارض موقعية حالت دون مرور المدفعية. وعندما كان المختصون منهمكين في رفع تلك العوارض وتسويتها وصلت الأوامر الجوابية من الباب العالي منبئة بأن إعلان الحرب على الدول الأجنبية خارجة أصلا من حدود صلاحيات الولاة ومحذرةً من القيام بأي عمل من هذا القبيل، وإذا كان قد بدأ القيام به ينبغي الانسحاب فورا ودونما

توقف من النقطة التي بلغوها. بعد أن استيقظ علي باشا من سبات الغفلة توقف حيث هو مبهورا مكسور الخاطر لايدري ما العمل. ولما استعاد وعيه ورشده أصدر أوامره مباشرة ببدء الانسحاب بالنسبة للمشاة والخيالة.

هنا لايسعني أن أتغافل عن نقل حادثة متماثلة من قبيل الاستطراد.

قبل ثمانية عشر عاما كنت أعمل في قسم التحرير في إحدى الدوائر العدلية بأحد الأقضية كاتبا أول. وكنت قد سافرت إلى مركز ناحية تابعة لهذا القضاء بوصفي محققا للتحقيق في جريمة جنائية حدثت في مركز الناحية ذاك. كان مدير الناحية المذكورة واحدا من رؤساء العشائر، وكانت المقتضيات القانونية تقتضي توجيه سؤال إليه بشأن الجريمة المشار إليها. وجهت السؤال في مذكرة خاصة. وبعد دقائق من إرسال المذكرة المذكورة جاءني آمر قوة الدرك في الناحية وبدأ يرجوني ويتوسل بي أن أنجز مايتبقى من التحقيقات في القضاء. وعندما سألته عن السبب لطلبه هذا، كان يتوجس خيفة من بيان الكيفية إلى أن استطعت استنطاقه بعد إصرار وإلحاح شديدين، فذكر أن مدير الناحية هذا انتقل من رئاسة إحدى العشائر إلى تولي مهام المديرية، ولايعرف عن شؤون المعاملات الحكومية شيئا ما، وهو يقول من هذا المنطلق إنه لايسمح لهذا المحقق أن يتدخل في شؤون منطقة حكمه هو. لقد حدثت جريمة ووقعت جناية. إن كل ذلك يتعلق بي أنا بوصفي حاكما على هذه الناحية. فمن أين لغيري الصلاحية في التدخل في مثل هذه الأمور. سأتوجه الآن إلى حيث هذا المدير وأطرده بعد أن أشبعه ضربا. ومع هذا فمازال من الضروري محاشاة أولئك الوحوش الذين لايعرفون عن المعاملات الحكومية، كما ينبغي مسامحتهم. وماذا كان عساي أن أعمل في الواقع لو لم أسايره ولم أسامحه؟ فحسب القواعد السابقة لم أكن أجد مرجعا يعتبر الموما إليه مسؤولا، ولذلك استجبت لنداء آمر الدرك مضطرا وعدت رأسا إلى القضاء، *وضاعت القضية بين إجراءات الإشعار والاستشعار.*

كان قد انقضى على هذه الحادثة، عندما التقينا أنا والمدير وجها لوجه، عام كامل. أخذ يعتذر لي معبرا عن ندمه وخجله بوصفه واحدا ممن تشملهم صلاحياتي القانونية. قال لي: أيها الصديق! *إننا تربينا بين العشائر وقضينا حياة البداوة، وطوال حياتنا كانت المعاملات السائرة بين أفراد عشائرنا راجعة إلينا نحن، وقد تعودنا أن لا يتدخل أحد في شؤوننا. وعلى كل حال فإن ادارة حكومية ينبغي أن تكون فوق نفوذ رئيس عشيرة ما*، لايمكن أن تجري معاملاتها من خلال شخص مثلي لم يتعود بعد على

المعاملات الحكومية، بشكل أفضل مما كانت تجري على يدي. وبناءً على هذا أرجو أن *تغفر لي تقصيري بهذا الشأن لجهلي، أو بعبارة أصح لوحشيتي*، آنئذ.

وبعد ذلك غدونا صديقين حميمين واستمرت صداقتنا على حرارتها إلى ما قبل ست سنوات من هذا التأريخ عندما توفاه الله.

كانت حركة علي باشا وزحفه على إيران تمثل حالة مشابهة لحالة الأغا الموما إليه. ما إن بلغ نبأ وصول العساكر الحربية لعلي باشا، الطاق، حتى اضطرب أهالي كرمانشاه وهمدان بل وإن قسما منهم اضطر للهجرة. وكانت هذه القوات التي ساقها علي باشا إلى تلك الديار نهبت منطقة (ماهيدشت) وقتلت عددا من الأهليين. وعندما بلغت هذه الأنباء مسامع فتح علي شاه في طهران أرسل الشاهزاده علي ميرزا للتحقيق في الأمر وللحفاظ على مناطق الحدود. وفضلا عن ذلك أرسل قوة مؤلفة من ستة آلاف مقاتل بقيادة فرج الله خان ووضعها تحت إمرة أمان الله خان والي سنندج.

وتوجه عبدالرحمن باشا مع أتباعه إلى مريوان وأخذ يترقب ماقد تقوم به إيران. وأبلغ خالد باشا العائد إلى السليمانية أنباء وصول القوات الإيرانية إلى سنندج، مسامع علي باشا ورجاه إرسال قسم من قواته إلى السليمانية بقيادة قائد يتمكن من مواجهة التعرض المتوقع من قبل الجيش الإيراني.

واستجابة لطلب خالد باشا واستعانته أرسل علي باشا قوة من الفرسان تقدر بأربعة آلاف فارس متكونة من مقاتلي متصرف كويسنجق وحرير سليمان باشا ومقاتلي كركوك وسائر العشائر والقبائل بإمرة ابن أخته وكهيته سليمان بيگ إلى السليمانية. أما هو نفسه فقد تراجع إلى الوراء امتثالاً للأمر ونصب خيامه في موقع شيروانه.

كان سليمان بيگ قد أصابه غرور الشباب، وكان قد شهد بنفسه تلك الصولات الرستمية التي أبداها عبدالرحمن باشا في الديار النجدية. وطبقا للمقولة القائلة «إذا ماحل أجل الفريسة ذهبت بنفسها إلى الصياد»، التقى، باستعجاله في طي المسافات، خالد باشا في شهرزور. وبالرغم من أن خالد باشا كان يرى ضرورة بث العيون والجواسيس في الأطراف والأكناف بغية التوصل إلى معرفة مواقع العدو وحركاته التعرضية والإجراءات الواجب اتخاذها لضمان سلامة الجبهة، لم يكن سليمان بيگ يعير هذه الأمور أدنى اهتمام، وكان نَزَقه الناجم عن غرور شبابه يحول دون أن يلاحظ هذه المهام الجريئة. وبناءً على هذا فقد وجه مباشرة ودون أدنى مبالاة بشيء عنان عزمه على السفر نحو (مريوان) حيث التقى في قرية (برده‌رشه) الواقعة في الجانب الغربي

لبحيرة (رزيبار) قوات عبدالرحمن باشا. وتعرف الباشا فورا رفيق نجده القديم فأصدر أمره بالقبض عليه حيا من دون محاولة قتله. وفي المعركة التي دارت بين القوتين المتخاصمتين غُلِبَتْ قوات سليمان بيگ، فقتل منها خلق كثير ومن تبقى منها ولى كل فرد منهم وجهه شطر ناحيته. وفي هذه الأثناء وقع سليمان بيگ نفسه في الأسر وسيق إلى عبدالرحمن باشا الذي احترمه وأكرمه كثيرا محتفظا بذكريات مصاحبته إياه في سفر المعركة النجدية. وبعد مرور يومين عليه أسيراً لديه أرسله مخفورا إلى طهران.

وكان علي باشا وقع في اضطراب شديد وتأثر بالغ عند اطلاعه على ماجرى لقوات ابن أخته سليمان بيگ، ولكن هيهات أن تتوقف أسباب اضطرابه وتأثره عند هذا الحد، ذلك لأن الأنباء قد وصلته أيضا بأن الشاهزاده علي ميرزا بدأ التعرض من جهة (زهاو)، ولذلك فقد اثر البقاء في (شيروانه)، ولكن بعد أن أيقن مكسور الخاطر محطم الفؤاد أن الاستمرار على ذاك النحو ما عاد ممكنا قفل راجعا إلى (كفري). والحقيقة أن الشاهزاده علي ميرزا كان قد أصدر أمره حالة وصوله (كرمانشاه) وسماعه بأخبار الحركات العدوانية التي قام بها علي باشا، بالتعرض بالمقابل لـ (زهاو).

ومع أن الإيرانيين مدوا أيادي تعدياتهم وأعمال السلب والنهب التي قاموا بها حتى بلغت (قزلرباط) ، إلا أنهم عندما علموا بأسر الكهية سليمان بيگ وتبين لهم كيف أن علي باشا اضطر إلى التراجع، لم يواصلوا اعتداءاتهم أبعد من (قزلرباط) وأصدر الشاهزاده أمره بالانسحاب.

في خضم الاضطراب النفسي كان علي باشا يجد نفسه عاجزا عن الحفاظ على اعتداله مهما حاول ذلك، فلم يكن ليدري ماذا عليه أن يعمل ولم يكن ليهتدي إلى طريقة لاستدراك هذه الحالة وتلافيها، وكان كلما فكر بخاصة في ما جرى لقرة عينه وفلذة كبده ابن أخته سليمان بيگ وماذا يمكن أن يكون قد تعرض له تجمد دماغه وأصيبت أعصابه بالتيبس. كان غارقا في لجة هذا الهياج الروحي عندما وصلته رسالة بعث بها إليه عبدالرحمن باشا. كان عبدالرحمن باشا قد كتب في رسالته هذه: إنني أشد تأثرا من أي أحد من جراء هذه الأحداث المضطربة الضاربة أطنابها لأنني أخشى من الناحية الدينية الحروب والمقابلة. ومع ذلك فإنني أُراني مضطرا للحفاظ على حقوقي المشروعة. واستنادا إلى هذه الضرورات الملجئة أراني معذورا عن كل حالة وعن كل حركة. أنا الذي قتل محمد باشا في الحقيقة، ولكنني لا أعد قائلا لكوني قتلته، فلو لم أقتله لَقُتِلْت. وبناءً عليه فإن قتلا كهذا يقع في سبيل الحفاظ على النفس قتل

معذور في نظر الشرع، ولكنكم اتخذتم من قتل محمد باشا حجة من دون وجه حق لإظهار ذلك الهدف الخفي الذي تصبون إليه منذ زمن وتضمرونه في نفسكم لإيقاعي في حبائل الإغفال التي نصبتموها لي تحت هذا الستار. ولكني لست من أولئك المغفلين الذين تنطلي عليهم مثل هذه الآلاعيب. ولذلك لم أقع في شباك المصيدة التي أعددتموها لي. ولأنني تمكنت من المحافظة على حياتي التهبت نيران انفعالكم المتقدة واشتد ضرامها أكثر فأكثر، فلم تستطيعوا تهدئة غلظة هياجكم إلا بتشييد تلك المنارة من جماجم المسلمين القتلى أمام بوابة المضيق. أفلا وخزت ضميركم ووجدانكم تلك الحالة الغريبة التي ارتكبتموها بحق أبطال المسلمين؟

«لقد كنت أعلم في واقع الأمر أن سفك الدماء يثير شهيتكم أكثر مما هي ثائرة، إلا أنني ما كنت لأتصور تلك الدرجة المفرطة التي أوجدت فيكم مثل تلك الحالة المرعبة.

«أيها الباشا! رفيع هو مقامكم. والطاعة لرفعة مقامكم هذه هي التي جعلتكم *قادرين على أن تمارسوا هذه الدرجة من القهر، إلا أن خليفة المسلمين الذي وهبكم هذا المقام الرفيع لم يهبكم إياه لتجعلوا من المسلمين ضحايا تعطشكم لإراقة الدماء*. ولكن ما الفائدة إذا كان شموخ حيطان مقامكم المرتفعة يحول دون إظهار الحقيقة؟ لهذا فإن التمييز بين الحق والباطل في أفعالكم إنما يعود إلى أحكم الحاكمين وحده، فثق واطمئن قلبا بأن أحكم الحاكمين، العالم بكل شيء سيريك جزاء كل هذه الأعمال التي اقترفتها يداك.

«لاحظ مرة واحدة فقط أنني لو كنت متعطشا مثلكم لإراقة الدماء لمزجت الدم القاني لابن أختكم الشاب بدماء سائر المظلومين ولألحقت روحه بأرواح أولئك الإخوة المسلمين الذين جعلتم منهم ضحايا شهيتكم المنفعلة. ولكني مسلم وحكم إراقة الدماء في الإسلام يقرره القران الكريم. أو بالعكس لو تورطت من جراء فضائح إراقة الدماء *التي ارتكبتموها في أحاسيس الانتقام، ولو غلبني التهور والانفعال فقتلت سليمان بيگ وأرسلت رأسه لتغرزوه بدلا من راية الاستعظام فوق ذروة تلك المنارة التي شيدتموها أنتم، أفكان يبقي شيء من الفرح والسرور المنبعثين من ذينكما الفخر والتباهي الذين ولدتهما في خيالكم تلك المنارة العتيدة؟*».

«أجل، أيها الباشا، افترضوا وقوع تلك الحالة بتصورها. فكما أن سليمان بيگ باعتباره ابن أختكم يضرم النار في كبدكم ويشويه كلما تذكرتموه، هنالك كذلك الألوف من أفراد العوائل ظلوا يتامى وثكالى وأرامل ومفجوعين بإخوتهم وأقاربهم وتشتوي

أفئدتهم بنار الحسرة نفسها التي تعرفونها أنتم. فإذا افترض المرء بالنسبة لنفسه المعاملة عينها التي يمارسها هو إزاء غيره لن يقع في خطأ ارتكاب ذلك العمل أبدا، ولاسيما أن أساس أسس الإسلام هو الرأفة والشفقة، هذه الخاصية الكريمة توأم لسائر أركان الدين المفروضة. وبناء على هذا فإن قلبا دخله الإسلام يجب أن يكون متحررا دائما من جريمة القتل وغلظة الاستكبار».

«أيها الباشا! لاتظنوا أن المنارة المدهشة التي شيدتموها بقصد إعلاء شأن عظمتكم في نظر العامة، إعلاء لشخصيتكم في الحقيقة. إنها، على العكس من ذلك، حطمت شرفكم مادة وكرامتكم الدينية معنى. *فعظمة كل قوم من الوجهة الإنسانية إنما تأتي من العدالة والرفق والملاءمة*. إن مقامكم عظيم بالذات. فإن أردتم أن تعظموا هذه العظمة أكثر من الناحية الشخصية أيضا، كان بوسعكم تحقيق ذلك، حسب مقتضيات مقامكم، بالعدل والرأفة وإبراز الرفق والمروءة».

«والآن، بصرف النظر عن هذه كلها، لست أدري ما الذي بدر مني فجعلكم تختارون هذه الناحية المثيرة للاستغراب؟ أي خطأ كنت قد ارتكبته بحقكم، وأي تعد وتجاوز لي عليكم، وأي تعرض كان مني بكم؟».

«لابد أنها كانت مكافأة لي على زحماتي التي كابدتها في تلك الأسفار التي قمت بها والتي لم أرتح حتى الآن من عناء ما عانيته فيها».

«والحاصل، *إن مظالمكم وجبروتكم، أيها الباشا، لاتطاق بأي وجه*. ولكن ما العمل إذا كان ارتباطكم بخليفة المسلمين تضطر المرء لأن يكون حليمان إزاءكم؟ وإلا فليس من الجائز أبدا أن لايغتنم المرء الفرصة التي سنحت اليوم لإنهاء مظالم أفعالكم، لأنكم إذا لاحظتم ما أنتم فيه اليوم من حال، *فهمتم وقدرتم أن مجرد إبراز ميل بإشارة مني يكفي لإنهاء حكمكم*.

ولكن هيهات! *إن إسلامي لايسمح لي بالخيانة بحق خليفة المسلمين وترجيح الارتباط بالأجنبي عليه*، فضلا عن أنه يخالف ماتكدس عندي من تراث الخدمات والوفاء التي خلفها آبائي وأجدادي من بعدهم طوال قرن ونصف. وبناءً على هذا، فإن رعاية الروابط والالتزام بالحقوق شيمة وراثية بالنسبة لي.»

«أجل، إن شخصا مثلي يدعي بأنه سليل عائلة نبيلة تكوّن سلسلة طويلة من الوفاء والخدمة، لن يتجاسر أبدا على أن يسيء بنكران الجميل لرعاية مزية الالتزام بالحقوق. ومع ذلك فلن يكون المرء بمنأى قط من السهو والخطأ، فضلا عن أن اليأس والانفعال

يتيحان أحيانا الفرصة للشيطان. ولكنني بالرغم من وساوسه وتسويلاته، قدمت عريضتي هذه، مسترحما باسم الإسلام إعادتي إلى منصبي الذي لن أتوانى عن السعي من أجله، والذي ينعكس عدم سماحكم لي به في المزيد من إراقة الدماء. وانتظر منكم الجواب بكل جدية وشدة».

تلا علي باشا رسالة عبدالرحمن باشا هذه باختلال خاطر وتوتر فكر بالغين، وما كان ليدري كيف يجابه كل تلك المعاكسات التي كانت تعترض طريقه، فكان عاجزا عن العثور على سبيل النجاح.

كان الشاهزاده علي ميرزا قد أرضى العنان لتعرضه بتجاوزه الحدود حتى بلغ (قزلرباط) من جهة، وكانت قوات سليمان بيگ وخالد باشا سحقت على يد عبدالرحمن باشا واضمحلت تماما، أسر سليمان بيگ نفسه وسيق إلى طهران من جهة ثانية، ومن جهة ثالثة كان علي باشا منع من مواصلة الهجوم على إيران وأمر بالانسحاب فورا. هذه كلها كانت صورة الوضع التي يمعن علي باشا النظر فيها، فكان كلما فكر فيما ستكون عاقبة المسؤولية عن تمادي الأخطار حتى إنها يمكن أن تعرضه لعقوبة الإعدام، لم يكن يدري في الواقع بأي صورة يمكن أن ينقذ نفسه من المشكلة ورطها فيها، حتى رأى في آخر الأمر أن يقطع دابر هذه المخاطر التي برزت أمامه بسبب من غروره وأنانيته، من دون أن يفسح المجال لظهور مشكلات ومعضلات أخرى بوجهه، وجد نفسه مضطرا ضرورة قطعية لولوج سبيل الحل والفصل.

ولكن كيف يستطيع الحل والفصل؟ فإعادة عبدالرحمن باشا إلى مقامه السابق وتوليته منصبه الأول من جديد، وإن كان يكفي للقضاء على هذا العوج والهرج والمرج، ولكن أنى له هو أن يحني رأس الخضوع والطاعة *لخشونة عبد الرحمن باشا ولسانه الزلق وأسلوبه في التحكم*، وكيف يكون بوسعه أن يريه وجه الهزيمة والمغلوبية أمامه؟ فالحقيقة إنه سواءً عندما كان ناظر الخزينة أو كان كهية أو عندما كان وزيرا، كان على الدوام وبنسبة متناسبة مع موقعه مالك حكم ونفوذ لايتغير، ولم يحدث له طيلة عهود مجده أي عارضة حيوية من أي جهة تتفوق وتتعالى على حكمه ونفوذه ولم يرها بعينه. فكان دوماً محظوظا بتمكنه من بناء مقاصده وبلوغ غاياته على أساس من سلطته الذاتية. فكيف يمكنه أن يأتي الآن ليكشف انكساره أمام أوضاع عبدالرحمن باشا المتضادة ويستسلم لمآربه ويخضع لتلبية طلباته؟ تلك مهانة لاتهضم. ومع ذلك فإن ركوب متن العناد إزاء الضرورات ومقتضيات المصلحة ليس أمرا معقولا، ولذلك

وجد نفسه مضطرا لإعادة مقام عبدالرحمن باشا وحكومته إليه وأرسل إليه فرمانا بذلك وأنعم عليه بالخلعة.

يبدو أن درجة تأثير العجز الذي يظهر في الإنسان بسبب عوارض الحياة تجعله لايتعدى كونه جسما مسيرا يسير وراء تقلبات الزمن من صعود وهبوط، فهو إذ يجد نفسه في ميدان الاندحار والهزيمة في عالم الحياة سواء من حيث هيبته الذاتية أو حسب الاعتبارات الشخصية، لايعود قادرا حقا وصدقا وبالتمام والكمال على إدراك الخطأ والصواب في أعماله وأفعاله. وبناء على هذا فكلما استطاع المرء أن يرى بأسرع مايمكن ما في مجال الاتعاظ والاعتبار ذاك من مرارات وغفلات، استطاع بالقدر نفسه ضمان راحة البال له في الحال والمال من عالم الحياة. وهكذا أخذ علي باشا يدرك الآن الخطأ الإداري في نزعه الحكم عن عبدالرحمن باشا دون أن يمس ما كان بحاجة إليه من إدراك لعواقب الزحف على إيران من دون أن يأخذ بنظر الاعتبار الخطأ الجسيم في ما أراده مستبدا برأيه.

أفلم يكن لزاما عليه أن يلاحظ كيف يعالج قضية الخصومة التي أثارها مع الحكومة الإيرانية، وكيف يؤمن القوة اللازمة للفتوحات التي تعزِّزأخيلته وتوجهاته؟

لنفترض أن الحكومة السنية تقدم له العون وتبعث له بقوة تحده، ولكن كم من الوقت كان يقتضي جمع وتحشيد هذه القوة الإمدادية وسوقها إلى سوح القتال؟

في حين أن علي باشا لم يكن ضرورة لهذا العون، فقد هاجم إيران رأسا وعلى حين غرة وكأنه سائر إلى حرب عراقية محلية وتعدى في طريقه (زهاو) و(طاق). ولو أنه سار أبعد مسافات أخرى وأحاط العدو بقواته من الجهات الأربع، فكيف كان ينقذ نفسه، بل وكيف كان يحافظ حتى على بغداد والديار العراقية؟

ألم تكن القوة التي رافقت سليمان بيگ يگن وسارت لمساعدة خالد باشا قوته الأساسية؟ وألم يلحق عبدالرحمن باشا بقواته المقهورة، والحالة هذه، المحو والاضمحلال بهؤلاء؟ وهو الآن بحاجة للحفاظ على الموقف فقط إلى قوة تستطيع الوقوف بوجه قوات الشاهزاده علي ميرزا التي تجاوزت الحدود وتتصدى لها، كما أنه بحاجة إلى قوة ثانية يوقف بها حملات عبدالرحمن باشا الهجومية، ويحتاج إلى قوة ثالثة يقف بها بوجه القوة القادمة بإمرة أمان الله خان.

إن حركات علي باشا الأولى ومحاولاته، وإن كانت كلها في الحقيقة عبارة كما شرحنا عن تلك الأخطاء، إلا أنه تمكن من تلافيها كلها بتخليه عن نخوته الذاتية

وإرساله أمر إعادة عبدالرحمن باشا إلى منصبه ومقامه إليه وإنعامه عليه بالخلع والهدايا.

لقدكان من حسن حظ علي باشا أنه لم يغدُ لدى ظهور هذه المشاكل والاعوجاجات في طريقه أسير الأنانية الشخصية ولم يسمح لها بأن تسد الطريق بوجهه أكثر مما سدت حتى ذلك الحين. ولو أنه فسح المجال لهذه الأنانية بأن تفعل ما فعلت من قبل لسد على نفسه حتى تلك المسالك الضيقة التي قد يستطيع السير من خلالها لإصلاح ما أفسده وخربه من قبل، ولغدت الأمور بين الدولتين العثمانية والإيرانية في حالة من الغموض والإبهام تتوقف عواقبها على نتائج حرب محتملة الوقوع. وهذا بحد ذاته كان يؤدي إلى زوال علي باشا بنفسه من الوجود وهلاك ألوف المسلمين في سوح المعارك.

ولم يكن عبدالرحمن باشا ليميل في حقيقة الأمر إلى الانصراف عن الدولة العثمانية الحائزة على صفة الخلافة، ولكن النوايا السيئة التي أضمرت له والمعاملة القاسية التي عومل بها والتي كانت تؤدي إلى اضمحلاله المعنوي وفنائه المادي، كانت تضطره إلى انتماء مفتعل مبني على المسايرة والمماشاة، في حين أن المشار إليه لو انساق وراء الحرص الشخصي الذي هو من سمات الفطرة الإنسانية ولم يسر خلف علي باشا على طريق الائتلاف بل حاول بالعكس تحقيق أهدافه في حدود الاستيلاء وقضى على حكومة علي باشا ووضع إيالته في قبضة غلبته هو، لما كان ذلك أمرا خارج حدود الإمكان.

لم تكن إدارة الإيالات في ذلك العهد في صورة حق قانوني، وكانت عادة تباع مقابل قدر معين من المال، فمن كان يدفع الثمن كان يتسلم أمر إيكالها إليه ويستطيع التفرد بها لنفسه.

ولكن عبدالرحمن باشا لم يكن من أولئك الرجال الذين ينهمكون في مثل هذه المطامع وكان ينظر إلى الانحراف عن قبلة الخلافة بوصفه عمل ردة. وبناء على ذلك فقد كان يتجنب مثل هذه الأعمال والحركات المشبوهة ويحترز منها.

كان غاية مايبتغيه إعادة منصبه ومقامه إليه، وهذا ماتحقق له من جانب علي باشا، فلم يبق له هدف ثان يركض وراءه. والشيء الوحيد الذي بقي أن يعمله هو تهدئة الشاهزاده علي ميرزا لأنه مادام قد بلغ مأربه ولم تبق بالنسبة إليه موجبات للمزيد من المضايقات، قدم خالص شكره إلى الشاهزاده في عريضة رفعها إليه، وتحرك بنفسه في جمادي الأولى ١٢٢١هـ من (مريوان) إلى (السليمانية).

الدورة الثانية لحكم عبدالرحمن باشا

قام خالد باشا بإدارة أمور الحكومة في السليمانية أحد عشر شهرا، إلا أننا لم يَرَ من الضروري تخصيص فصل لعهده هذا، نظرا لعدم وقوع فعاليات وأحداث تأريخية خلاله. وعندما علم المشار إليه بإرجاع أمر الحكم إلى عبدالرحمن باشا، توجه مع أتباعه إلى كركوك حيث اختار الإقامة بهدوء.

لننظر، من جديد، في كيفية أحوال علي باشا وما قام به بعد ماتركناه مكسور الخاطر مهموم الفؤاد في كفري:

عندما رأى المشار إليه أن الفوضى زالت بإعادة مقام إمارة بابان إلى عبدالرحمن باشا وبدأت الأوضاع العامة تتجه نحو الهدوء والسكينة، عاد هو أيضا إلى بغداد، ولكنه كان مايزال يعاني من المرارة بسبب من أنه لم يكن يدري شيئا عن مصير ابن أخته سليمان بيگ الذي كان قد وقع أسيرا، من جهة، ولأن شمس نخوته وعظمته كانت قد تعرضت للكسوف من جهة أخرى. لهذين السببين كانت صحته قد انتكست وأصيب بأوجاع في القلب، فأوصاه الأطباء بالإقامة في القرى والأرياف حينا من الزمن والاستراحة فيها تهوينا عليه واستشفاء مما أصابه من سقم، فتوجه إلى الحلة لهذا الغرض.

سمح لسليمان بيگ الكهية بالعودة إلى بغداد. بعد أن قضى محجوزا في طهران مدة ستة أشهر، وكان السماح بعودته نتيجة وساطة بذلها من أجله ضياء باشا قائد قوات القفقاس، فعاد إلى عاصمة الإيالة. وعندما علم أن خاله علي باشا يقيم في الحلة، توجه إلى هناك للقائه، فغدا وصول المشار إليه إلى الحلة أهم أسباب الشفاء ورفع العلة عن علي باشا، فعاد بصحبة ابن أخته إلى بغداد في كمال الصحة والعافية. ولما وصل بغداد أراد أن يدخل السرور إلى قلب ابن اخته لما كان قد قام به في حينه من ضرب الوهابيين والتنكيل بهم وللخدمات الجليلة التي قدمها للحكومة السنية في أثناء توجهه إلى إيران حيث وقع في الأسر من جراء ذلك، ولأنه كان قد أطلق سراحه لتوه وعاد إلى مركز الإيالة، وكان قد قدم خدمات مرموقة في أيام إسارته إذ غدا مدار تلافي الاضطرابات والمشاكل، فأنعم عليه بلقب (مير ميران) أي أمير الأمراء، وتم إشعاره بأنه أضحى مظهر هذه الرتبة في العام ١٢٢٢هـ. ومع أن هذه الرتبة كانت بمثابة براعة الاستهلال لمجد الكهية وسعادته المقبلة، إلا أن قدومه غدا شؤما ووبالا بالنسبة

لخاله علي باشا نفسه.

ذكرنا في ما أسلفنا من تفاصيل أن والي الإيالة السابق سليمان باشا كان له أربعة أصهار هم علي باشا ومسلم بيگ ونصيف آغا و داود آغا، وكان أن أعدم من هؤلاء ثانيهم عندما تبوأ علي باشا كرسي الإيالة والوزارة بسبب من حادثة عصيان وقعت في البصرة. أما نصيف آغا، فقد كان نديماً لعلي باشا وزميلا له ضمن حاشية الباب. وعندما تولى علي باشا منصب الكهية ومن ثم نال رتبة الباشوية فالوزارة. كان نصيف آغا مايزال رئيس بوابين، وإذ كان علي باشا يطوي المراتب ويرتقي الدرجات العليا على ما أسلفنا وكان قد شغل منذ سنين عدة كراسي الوزارة، لم تبدر منه أيما التفاتة بأي وجه من الوجوه لترفيع عديله وإدخال البهجة والسرور في قلبه. وعندما شغر أحد المناصب بإعدام الكهية خالد آغا و رأى نصيف آغا نفسه الأحق بنيل ذلك المنصب الشاغر سواء من حيث القدم أو لقرابته مع بيت الوزارة، رجح عليه علي باشا ابن أخته سليمان بيگ الذي لم يكن قد تخطى بعد سن المراهقة، وعينه في الوظيفة المذكورة، وهذا ما أثار نصيف آغا وهيج فؤاده.

كان نصيف آغا يقارن في نفسه بينه وبين علي باشا، فيرى أنه كان في انتسابه للوزير سليمان باشا في الدرجة نفسها التي كان ينتسب بها علي باشا إليه، فلم يكن ليرى من حيث هذا الانتساب فرقا وتمايزا بينه وبين المشار إليه، والحق الوحيد للتقدم الذي كان لعلي باشا من دونه هو أنه غدا صهراً للوزير قبله هو، وهذا السبب الذي أتاح لعلي باشا أن يطوي درجات الارتقاء الواحدة تلو الأخرى، لم تكن لتحول دون أن يتقدم هو أيضا بعده. ومع ذلك، وبصرف النظر عن المعيار الشخصي والعلاقة مع أسرة الوزارة، كان هو ومنذ زمن أحد الموظفين الأوفياء الذين لم تقع لهم يوما ما حادثة مخلة بالشرف والصداقة، ومع هذا فإنه لم يرتقِ حتى الآن درجة واحدة، وكلما حاول أن يسدل ستارا على هذا الواقع وأن يهضم هذه الحقيقة ويتحملها ما استطاع إلى ذلك سبيلا. كانت هذه الملاحظات تزيد باستمرار من حدة انفعالات نصيف آغا، فأخذ يضمر في نفسه السوء ويتحين فرصة تتاح له للإيقاع به، ولكن أنى له أن يحقق مايريده من علي باشا وكيف تتسنى له فرصة ينتهزها للانتقام منه؟ كان يرى إحراز النجاح في غايته هذه أمرا في غاية الصعوبة، فالفوز بإحراز النصر بتحقيق الهدف المضمر في القلب ضد شخص كعلي باشا كان يعتبر التجسيد الحي للعظمة، لم يكن بالنسبة لرئيس بوابين أكثر من جنون متهور غير معقول.

ليس غرضنا من هذا أن نعرض نصيف آغا شخصا عاجزا ضعيفا ما له من ولي ولامعين، فالمشار إليه رغم أنه كان أحد كتخدايات البوابين، إلا أن كونه صهرا للوزير كان قد منحه أمتيازا وشرفا فوق شرف الوظيفة. وبناءً على هذا فقد كان زواره هوالمترددون عليه كثيرين، ولم يكن المماليك الذين يصيخون السمع لأوامره قلة، ومع ذلك فهو لم يكن عاجزا عن إلحاق الأذى بعلي باشا حسب، بل لم يكن بوسعه حتى أن يريه وجهه مشمئزا أيضا وكان بعيدا عن هذا كله غاية البعد. ولكن قلم القدرة الإلهية كان يريد أن يكشف عما يستطيع أن يعمل، ليري العالم الإنساني أن إيجاد مقياس التناسب ليس متوقفا على اتِّباع النسبة المادية الظاهرية، فيكشف في بعض الأحوال مدى عجز وابتذال الماهية البشرية الضئيلة بمثل هذه الإراءات.

كان بين الذين يترددون على نصيف آغا شخص يدعى مدد بيگ. كان مدد بيگ هذا من أبناء داغستان، وكان قد هاجر منذ سنوات إلى بغداد ودخل ضمن وجوه الإيالة المبرزين. وكما الموما إليه قد استطاع أن يكون له صلات خصوصية مع نصيف آغا، استطاع كذلك أن يكوّن لنفسه انتماء إلى علي باشا وحصل على توصية خاصة من المشار إليه. وكيفما كان الأمر، فقد كان نصيف آغا عقد اتفاقا سريا مع مدد بيك للقضاء على علي باشا واعدا إياه بأنه عندما يتولى منصب الوزارة سيعينه كهية على الإيالة، وتعهد مدد بيگ هو الآخر بقتل علي باشا لقاء تحقيق هذا الوعد. وكان مدد بيگ قد اتفق سرا مع مصطفى آغا المعروف بـ (أباظة) الذي كان أحد الآغوات الداخليين في الوزارة ومع مساعده. كان على مصطفى آغا أن يؤدي أهم خدمة للوصول إلى مبتغاهم، فهو، بالإضافة إلى بسالته، كان الوحيد الذي يستطيع الحصول على فرصة النجاح من العملية المنشودة. فبوصفه أحد الآعوان الذين يترددون على الداخل كان يقدر أكثر من أي أحد سواه الوقت الملائم لتنفيذ النية السيئة المطلوبة بإزهاق روح علي باشا من دون أن يشتبه أحد في ما يقوم به. وبناءً على ذلك، كان المكان الذي عين لتنفيذ محاولة الاغتيال فيه هو الجامع، والوقت الذي حدد له كان في أثناء أداء صلاة الفجر. فكان أن دخل مدد بيگ الجامع بدلالة مصطفى آغا، ضمن مقدمات هذه المحاولة، صباح يوم الرابع عشر من جمادى الآخرة من السنة المذكورة قبل بزوغ الفجر، الجامع الذي كان علي باشا يؤدي فيه صلاته عادة، حيث أخفى نفسه، وكان من المقرر أن يساند مصطفى آغا مع سائر الأفراد الإجراءات المتوقفة على تنفيذ ماصمم عليه مدد بيگ.

دخل علي باشا الجامع وأدى السنن التي تؤدى في مثل هذا الوقت ووقف في صف صلاة الفجر مع جماعة المصلين. وكان في السجدة الثانية من الركعة الأولى عندما أغمد مدد بيگ خنجره حتى مقبضه بين كتفيه. وفي هذه الأثناء صال حامل الأختام عباس آغا بوجه الجاني مدد بيگ، ولكن مصطفى آغا ومساعده لم يهملاه فألقياه بحركة مهلكة على الأرض. فاضت روح حامل الأختام على التو، ولكن علي باشا ظل على قيد الحياة حينا من الزمن. وبعد أن تحققت النتيجة التي توخاها المتآمرون المتجاسرون، لم يروا من الضروري البقاء في مكان العملية أكثر من ذلك، فتوجهوا إلى منزل نصيف آغا. ولوجوب الاستعجال للاستيلاء على مقام الحكومة ووضعه تحت أيديهم وتصرفهم بادروا من دون إضاعة مزيد من الوقت إلى جمع وتحشيد سائر الأشخاص الذين يساندونهم والمماليك الذين يستجيبون لنصيف آغا.

وما إن علم سليمان باشا الكهية بما جرى حتى حضر في مكان الحادث حيث خر علي باشا سريعا وأمر بحمل الجريح ونقله. وإلى أن أمكن الاتيان بطبيب جرَّاح، توفي علي باشا في مقر حكومته، فكلف سليمان باشا موظفيه بإجراء مراسيم الدفن، وتفرغ بنفسه، بناءً على مقتضيات الحال والمقام للإمساك بمنصب الوزارة بين يديه، فجمع الوحدات الوفية له من الجيش وحصن المواقع الضرورية ووضعها في قبضة ضبطه. وانتشرت أنباء هذه الجريمة والحادثة العظيمة غير المتوقعة في مقام الحكومة في لحظة واحدة في جميع أطراف بغداد وذاعت بين الأهلين وأخذ أشراف الإيالة وأعيانها يتوافدون تباعا على سراي الحكومة ويحتشدون هناك.

وفي الوقت نفسه قدم المجتمعون التعازي بوفاة علي باشا إلى مقام القائم مقامه ابن أخته سليمان باشا وثبتوه في منصبه وهنأوه بذلك.

وأخذ سليمان باشا يتحدث للحضور عن جهود علي باشا وخدماته في سبيل الحفاظ على العراق بغية جذب انتباههم وتأمين استظهارهم وعبر عن ثقته بأنه سيجد التأييد والمساندة من كل جهة في سعيه للأخذ بثأر القتيل. وباعتباره مطلعا على الوضع النفسي لأهالي المملكة بدأ محاولاته للحصول على ولائهم وضمان إخلاصهم له، وقال إنه يستطيع أن يؤمن أمن الإيالة وسلامها واستقرارها بإستمرار بالاعتماد على تأييد السادة الحضور المحترمين. وسائر وجوه الإيالة ومواطنيها، وأن يقيم أسسا مفيدة كثيرة لكل مايتعلق بحاجات الإيالة، ووعد بإلغاء مجموعة من الرسوم والضرائب غير المبررة التي كانت تثقل كواهل الناس الفقراء، وبأن لايدخر جهدا لتوفير كل دقيقة من الوقت

من أجل تأمين أي منفعة قومية ووطنية. ومن الجانب الآخر كان نصيف آغا يتصور أن براعم السعد أخذت تبتسم بوجهه وتكشف عن نفسها له، ولكن هيهات هيهات! فأنى يتيسر له ذلك، والأقدار الأزلية ألقت بعروسة آماله الفتية على هذا النحو في أحضان سعادة خصمه الذي كان كل جهوده ومساعيه في هذا المضمار تنصُّب على العكس في خدمة التعجيل بهلاكه فقط من دون أن تأتي له بأي فائدة. وكان هذا بالذات ناجما عن سوء تدبيره وتقديره، فلو أنه راح وتولى مقام علي باشا بعد أن جرح مباشرة ووضع قبضته الضاغطة عليه لكان قد نجح تماما، فالوقت أشبه مايكون بحصان يعدو في خضم الأحداث وليست له قابلية الانقياد إلا لمن يمتطي صهوته، في حين أن سليمان باشا كان قد أخذ بمقود حصان الحظ واستطاع أن يجول به في مضمار النجاح والتوفيق، ولم يترك احتمال انقياده لمن سواه، فقد ضمن لنفسه ولاء أعيان المملكة وأكابرها وتمكن من خلال القوة النظامية أن يكفل له المنصب. أما نصيف آغا فكان مايزال مشغولا بتكوين جماعته ولم يتابع مسألة حياة علي باشا أو موته ومضى حين من الوقت قبل أن يقوم بهذه الأعمال وينجزها. ورغم أنه بذل قدرا من المساعي حسب مقتضيات التحرك، إلا أنه أدرك أن الفرصة قد فاتته وأفلتت من بين يديه وماكان ليعلم أن جهوده كلها تصطدم بردود فعل غير متوقَّعة. فما الفائدة إذا كانت الأمور قد خرجت من حدودسيطرته وغدت معالجتها خارج دائرة الإمكان بالنسبة إليه ولم يعد له مايعمله إلا السعي للحفاظ على نفسه والخلاص بجلده، وكان أنصاره قد أحسوا بهذه العاقبة المؤلمة وماسيضعه في أعناقهم من أغلال المصائب والمحن، فأدار كل واحد منهم ظهره له وولى هاربا إلى جهة ما.

في اليوم الأول لحادث الاغتيال قبض على مدد بيگ ومصطفى آغا ومعاونه وضربت رقابهم. وفي اليوم التالي أخرج نصيف آغا من منزله وقطع إرباً إرباً وهو في طريقه إلى دار الحكومة. وعلى هذا النحو أخذ سليمان باشا يعتقل كل من كانت له يد في حادثة مقتل علي باشا ويحز أعناقهم الواحد تلو الآخر، وهكذا استطاع أن يعزز موقعه ومقامه ويبسط حكمه ونفوذه من جهة، كما بدأ يغازل عطف الرأي العام ويجلب ولاء الناس له برفع وإلغاء طائفة من الرسوم والضرائب المفروضة عليهم من جهة أخرى. وبعد إنجاز الإجراءات التأديبية والقضاء على الفوضى والهرج والمرج واستتباب الأمن والاستقرار العام، بدأ تقديم محاضر الاسترحام لاستصدار فرمان الإيالة والوزارة باسم سليمان باشا إلى الباب العالي. وعندما وصلت هذه المحاضر إلى السُّدَّة العليَّة كانت

المعلومات قد توفرت هناك عما جرى من مصير مؤلم لعلي باشا، فكانت وجهة النظر الرسمية متجهة نحو تحرير بغداد من مسلسل استيلاء المماليك المتعاقب على زمام الحكومة. وبناءً على ذلك كان قد عين شخص باسم يوسف ضياء باشا واليا على بغداد، ولكن المشار إليه لم يجترئ على التوجه إلى حيث يتولى منصبه حماية لنفسه مما للمماليك في بغداد من مكانة ونفوذ. وفي تلكم الأيام كان يقيم في بغداد مأمور سياسي تابع لفرنسا، وكان سفير الحكومة الفرنسية لدى السدة العلية قد شمر عن ساعد الجد لبذل المساعي لتعيين سليمان باشا واليا على إيالة بغداد. ومع أن تدخل السفير في الأمر كان قد أوجد رغبة لدى الباب العالي لصالح سليمان باشا، إلا أن تحقيق هذه الرغبة كان يتوقف على إيقاظ النيام في الباب العالي.

وما إن طلب المعتمد الذي كلفه سليمان باشا بتعقيب الموضوع وتتبعه في الآستانة المبادرة إلى إرسال المادة المعتقة المتوقف عليها إنجاز القضية، حتى هيأ سليمان باشا ستة آلاف كيس وأرسلها إلى حيث ينبغي. وبوصول المبلغ المذكور إلى إستانبول واستقراره بين أيدي أربابه المرسل إليهم، لم يبق هناك أي مانع من استحصال الفرمان وإرساله إلى بغداد. وهكذا نال الأمر الهمايوني باسم سليمان باشا شرف الصدور وأرسل صحبته موظف خاص إلى عاصمة الإيالة.

بعد رحيل علي باشا رأى عبدالرحمن باشا أن الفرصة سانحة له لتأديب سليمان باشا بن إبراهيم باشا متصرف كويسنجق وحرير الذي كان قد شارك لتحقيق مآرب شخصية رديئة في نفسه في القوة التي حشدها علي باشا بهدف تذليل قوة الأسرة البابانية وقدرتها. وبناءً على هذا عزم على السفر وتحرك فعلا. وما إن وصل كويسنجق حتى علم سليمان باشا بما يضمره له عبدالرحمن باشا في نفسه، فسار بنفسه لاستقباله واعتذر إليه شخصيا وطلب الصفح عما بدر منه من تقصير في هذا المجال، فقرر عبدالرحمن باشا صرف النظر عن الموضوع وعاد إلى السليمانية.

لما بلغ هذا النبأ مسامع خالد باشا الذي كان يقيم في كركوك سولت له نفسه الأوهام وجمع أعوانه وأتباعه وسار بهم إلى بغداد، ولكن من دون أن يجعل سفره مثارا للشكوك والريب، فأشاع أنه يسافر لأداء فروض الولاء وتقديم آيات الإخلاص للوالي الجديد سليمان باشا ولايستهدف أمرا غير ذلك. إلا أن نبأ سفره أثار، كما ينبغي، الخوف في نفس عبدالرحمن باشا الذي كان يعلم جيدا مدى حرص خالد باشا على بزوغ نجمه وإنه لا يتوانى في سبيل أطماعه الشخصية عن بيع شرف أسرته وكرامتها لقاء

ثمن بخس. وبناءً على ذلك فإن مايرمي إليه من وراء سفرته هذه إنما هو توجيه ضربة إلى حياة الأسرة البابانية وارتكاب خيانة ما بحقها. ومن أجل أن لايتيح له الفرصة لتحقيق هدفه الخياني هذا، اصطحب معه قوة صغيرة مستهدفا استباقه وقطع الطريق عليه. ومع أنه سار وراءه حتى وصل الخالص وخراسان إلا أنه لم يوفق في اللحاق به. وهكذا ضاعت هذه الفرصة من عبدالرحمن باشا. كان يعلم كم هو ماهر خالد باشا في الخداع. لقد كان مقتنعا بأنه سيخل بحياة الهدوء والاطمئنان التي كان يحياها، فلم ير علاجا إلا في الانتظار لمعرفة ما تخبئه له الأقدار. وفي واقع الأمر لم تكن أفكار المشار إليه وتصوراته هذه ناتجة من الأوهام، فقد كان خالد باشا بسبب من خبثه الخلقي ممن يمكن أن تصدر عنهم أي سيئة، وكان يقتطف الثمار مما يرتكبه من أوزار على الدوام، وماكان ليتوانى قيد أنملة عن القيام بأي عمل مهما كانت نوعيته في سبيل التغلب على عبدالرحمن باشا بصورة خاصة للاستيلاء على زمام الحكم في الإمارة البابانية ووضعه في قبضة حرصه وطمعه. كان مدار فكره على الدوام القضاء على عبدالرحمن باشا ثم السطو على الحكم في السليمانية للانفراد به، ولم يكن يفكر أبدا في أن لعبد الرحمن باشا حق الأرجحية والتقدم في الحكم بالنسبة لعالم البابانيين لكونه أكبر أفراد الأسرة وأرشدها.

لم يكن ليفكر في أن عبدالرحمن باشا حكم بالفعل مدة عشر سنوات وأن صفة الحاكمية هذه ستكون من بعده لإبراهيم باشا وأن إبراهيم باشا لم يكن ليفكر في التنافس مدفوعا بالحرص على الحكم والطمع فيه، ولم يكن ليلجأ أبدا إلى سلوك المسالك الفاسدة وليتمسك بالخلافات الصغيرة، بل كان على العكس منه هو أكثر انقياداً لعبدالرحمن باشا وكان يطيع أي أمر يصر منه، وكان يجتهد أكثر من أي أحد سواه في سبيل نجاحه وتوفيقه؟

لم يكن ليفكر في أن عبدالرحمن باشا لم يرتكب في سنوات حكمه السابقة أي مظلمة شخصية أو وطنية وأي إساءة تجاه أي أحد، بل إن شرف الانتماء إلى بابان في أيامه كان أسمى وأرقى منزلة منه في أي عهد، وإن مواطني الإمارة كانوا مظهر لإفاضة فيوضات هذا الشرف.

لم يكن ليفكر في أن أي احترام يقابل به هو في أي مكان وإن أي ابتسامة يواجه بها من أي أحد إنما هما من جراء الكرامة التي وفرتها له النسبة البابانية والمقام والمنزلة اللتين أفهمها له هو فغدا مظهرا لهما. وفضلا عن كل هذه الملاحظات الوطنية

الإيجابية التي تضاف إلى شرف البابانية، لم يكن أيضا ليفكر في ما أبداه محمود باشا والد عبدالرحمن باشا من أخلاق عالية خارقة للمألوف، وبقابلياته وقدراته الخاصة، تجاه أحمد باشا والد خالد باشا مما جعله يستحق الشكر الأبدي من كل من خلفه أحمد باشا من بعده.

أجل، فقد سبق أن أوضحنا في ماذكرنا من قبل أن محمود باشا المذكور عين من قبل الولاية حاكما على إمارة بابان. وإذ كان قد حصل على مقام الحكومة وجعله تحت تصرفه، كان أول إجراء اتخذه بوصفه حاكما أن أطلق سراح أحمد باشا والد إبراهيم باشا وخالد باشا الذي كان قد ألقي به في السجن في قلعة سروچك من قبل محمد باشا وتخلى له عن الحكومة ومنصب الحاكمية من باب الاحترام بوصفه الأخ الأكبر.

ومع هذا، وطيلة حياة أحمد باشا، لم يكتف محمود باشا بتجرده لا من شهوة الحكم والحاكمية حسب، بل كان عفيفا منزها أيضا من أي طموح خاص وأي رغبة في منفعة ذاتية وكان طوع أمر أحمد باشا على الدوام متهيئا لتنفيذ كل أمر يكلفه به ومستعدا لأداء أي خدمة يقتضيها منه.

وعلى هذا النحو كان محمود باشا يلقن بمحاسنه الخلقية عالم البابان كله دروسا بالغة في الفضيلة، وبهذا النمط من النبل والتواضع كان يرفع أكثر فأكثر سموه الشخصي. ومع كل هذا لم تتوقف مزايا المشار إليه الفاضلة عند هذا الحد. فعندما انتقل أحمد باشا إلى جوار ربه، وعندما كانت الحكومة لابد أن تنتقل ارثا واستقلالا إليه هو الذي كان قد حيّر المجتمع بشرف حكومته ومهابتها، وكان قد أعلى من شأنه بفضائله الذاتية وسمو أخلاقه الشخصية الرفيعة قدر مايمكن أن يتصور المرء. ولكن الوزير سليمان باشا أناط الحكم في الديار البابانية بإبراهيم باشا بن أحمد باشا هادفا من وراء ذلك إلى بذر بذور النفاق والشقاق بين الهيئة الاجتماعية البابانية من دون أن يراعي صفة العمومة التي كانت لمحمود باشا التي هي بمثابة أبوته لإبراهيم باشا وقبل إبراهيم باشا هذه الإناطة وأخذ يناوئ محمود باشا داعيا إياه إلى المنازلة. وفي حين كان بوسع محمود باشا أن يلقن ابن أخيه إبراهيم باشا درسا تربويا لقاء وقاحته هذه، لم يرتض ضميره أن تراق دماء أولاده وإخوته فترك الحكم دونما قتال وتوجه نحو إيران حيث أقام بانتظار ماسيسفر عنه قدره وأخذ يقضي أوقاته هناك فداءً لإساءات نسل أحمد باشا، وماكان لأحمد باشا ولا لمن خلفهم من بعده أن ينسوا أبدا تلك الأخلاق العالية والتضحيات الغالية لمحمودباشا التي لاتقل إحداها سموا ورفعة عن الأخرى،

وكان ينبغي عليهم أن يبرهنوا امتنانا لفضائل محمود باشا تلك بما يثبت من التضحيات المتقابلة لأولاده مايثبت أنهم أيضا أغصان من شجرة النجابة نفسها التي تفرع منها محمود باشا وأولاده.

فلئن لم يكن إبراهيم باشا مستعداً بسبب من حداثة سنه ولما كان يسوله له سليمان باشا من سوء فعاله ويغفّله على الدوام عما عليه أن يعمل إزاء عمه، فلا غرابة في ذلك وليكن ما قد كان. أما بالنسبة لخالد باشا فليس من الممكن للمرء أن يجد أسبابا موجبة عقلية ومنطقية. إنه كان قد تخلى بسلوكه السبيل غير المستقيم الذي قادته إليه أخلاقه التي جبل عليها، عن المصلحة الوطنية ونجابة النسب والشرف الموروث وأخذ يركض لاهثا وراء مجده الموهوم.

ولكن يا للعجب! هل كان ينجح بتفكيره هذا أن يسعفه الحظ فينال مايريد، وهل أن هذا الركض وراء الأغراض والتهالك عليها كانا يوصلان هذا الرجل إلى غايته المتوخاة، وهو الذي كان يسير على هذا السبيل غير المستقيم؟ مامن شك في أن الموما إليه لو التزم في مصالحه الحيوية طريق الصواب بفكر ثاقب مدرك، لمزق تلك الحجب الغاشية الناجمة عن نعاس الغفلة الذي طغى على بصيرته المدركة، ولأدرك مدى فداحة الخطأ المدهش الذي تورط فيه ولوجد نفسه مستحقا للوم والعتاب أكثر من أي أحد سواه، ولكن إذا صادف أن مالت كفة الاعتدال في ميزان الخلق الإنساني مرة إلى جانب السوء ورجحته، فإن بصيرة الفكر تفقد هي الأخرى اعتدالها وإدراكها الطبيعي وتغدو القدرة العقلية محرومة من القدرة على العثور على طريق الصواب للحقائق المستحسنة.

وعلى هذا الأساس أعجزت الأخلاق الجبلية المبتلاة بالأمراض الخبيثة الموما إليه عن فهم مصالحه الأصلية الأساسية وإدراكها، وجعلته يسير على طريق غير مستقيم.

ولئن كانت ميوله الرديئة قد أذهلته عن مصالحه الذاتية، فان أحاسيسه النبيلة قد عميت عن استيعاب الملاحظات المفيدة المستندة إلى صورة الحفاظ على المصالح القومية، ذلك لأن الحرص الشديد السائر وراء أهواء النفس جعله لايكتفي بعدم التفكير في التصرفات التي تخمد شعلة مصباح سعادته الشخصية والعائلية، فكان يلهث على الدوام وراء القضاء على أنسبائه، هذا الذي ماكان يعني إلا القضاء على بني قومه.

فما إن وصل خالد باشا إلى بغداد حتى بادر إلى تبرئة نفسه عن كل تهمة تمت إلى مفاسد أخلاقه. أما بشأن ما قام به عبدالرحمن باشا من اضطراره لملاحقته، فقد فسر

الحادث بما ينصب في مصلحته الخاصة هو محرفا الواقع وفق ماتقتضيه أهواؤه المصلحية ومحركا الوزير سليمان باشا ضده.

أجل، فقد فسر مجيء عبدالرحمن باشا حتى وصل الخالص وخراسان، بأنه كان يتوخى من وراء ذلك القيام ضد سليمان باشا ومخاصمته وإثارة العشائر والقبائل المحلية ضده للثورة عليه وتأليف جمعية لمناوئته. أما عن نفسه، فقد زعم أنه كان يريد أن يكون تحت تصرف حكومة الإيالة إزاء ما تجرأ عليه عبدالرحمن باشا، وقد أتى إلى بغداد ليبرهن بالفعل على عدم اشتراكه في ما قام به هو.

تمكن خالد باشا بتزويراته هذه والبيانات التي قدمها، وهي تنم عن جوهره الخلقي، من إظهار صداقته وإخلاصه لسليمان باشا ومن إثارة غضبه ضد عبدالرحمن باشا. أما سليمان باشا، فمع أنه كان يرتعد هلعا مما قد يقوم به عبدالرحمن باشا من تحركات ضده، إلا أن أراجيف خالد باشا وتهويشاته كانت قد هدأت إلى حد ما من روعه وانزلت شيئا من السكينة على قلبه.

ولكي يبرهن خالد باشا على صدق مزاعمه، أرسل أخاه عبدالعزيز بيگ مع أتباعه ضمن قوة عراقية سارت لملاحقة عبدالرحمن باشا. وقد واصلت هذه القوة مسيرها حتى وصلت الخالص وخراسان. وبعد بحث وتعقيب دام أياما عدة من دون أن يسفر عن شيء عادت القوة إلى بغداد حيث أبلغت المسؤولين أن عبدالرحمن باشا عاد من حيث أتى والخوف والرهبة تملآن قلبه.

كان سليمان باشا تساوره الأوهام والظنون تجاه عبدالرحمن باشا، وكان ثائرا عليه في نفسه. ومع أنه كان قد وضع يده على مقام الإيالة والوزارة، إلا أنه كان يرى أن قدرة إيالته واستقلال وزارته يتوقفان على القضاء على عبدالرحمن باشا، ولكن ما العمل إذا كان لم يحرز بعد صفة الأصالة في مقامه ليكون قادرا على إنجاز هذه المهمة بنجاح! وفي الرابع من محرم الحرام ١٢٢٣ للهجرة وصل بغداد الفرمان الهمايوني الذي كان ينتظره منذ حين على أحر من الجمر، وسط احتفالية مضاعفة للمراسم المعتادة في مثل هذه الأحوال. وبذلك غدا سليمان باشا يتبوأ كرسي الحكم في العراق متمتعا بنفوذ واسع واستقلالية وصلاحية كاملتين. وفي حين كانت آيات التهنئة والتبريك تنهال عليه من الداخل ومن الخارج، لم يشارك عبدالرحمن باشا في الاحتفالات التي جرت لهذه المناسبة، فقد كان اشتراكه يتوقف على حضوره بنفسه لاثبات وجوده أمام سليمان باشا، في حين أنه كانت هناك موانع ثلاثة تحول دون أن يتجاسر على هذا الحضور.

المانع الأول كان كيفية أسر سليمان باشا من قبل عبدالرحمن باشا نفسه في معركة مريوان. والثاني كان وجود مخترع حيل ودساس بارع مثل خالد باشا إلى جانب سليمان باشا حيث ضمن لنفسه مقاما مرموقا لديه. والثالث هو السفر الذي قام به عبدالرحمن باشا لمطاردة خالد باشا وفسر بسوء نية على أنه كان موجها ضد سليمان باشا. وبناءً على هذه الأسباب الثلاثة، فقد أضيف إلى أحقاد سليمان باشا وانفعالاته المزيد من عوامل التهييج. ولذلك لم يجد عبدالرحمن باشا فيما عدا الرضاء بالقضاء والتسليم بما تبيته الأقدار حلا آخر له فيه مصلحة.

أجل، لم يكن في طبيعة عبدالرحمن باشا وسجاياه الخلقية التي فطر عليها رداءة بعنوان التبصبص والسفسطة، وحتى إن ضرورات الظروف ومقتضياتها أيضا لم تكن لتحمله على اختيار قبول تلك الرداءة الخلقية. وبناءً على هذا، فإن رزانته ومكانته الخلقية السامية وعزة نفسه كانت تقف حائلا دون أن يركع أما كرسي سليمان باشا ليبرئ نفسه ويعتذر إليه ويطلب منه الصفح والمغفرة. وبناءً على ماسبق، فقد أحنى هامته لمشيئة القدر ورأى من الأوفق لشرفه وكرامته الشخصية أن ينتظر ما ستكشف عنه الأيام مما خبأته له الأقدار.

كان سليمان باشا مايزال في ربيع الشباب من فصول حياته، ولما تثبت بعد أحوال المشاكل المتضادة الانقلابية المستترة في الماهية اللَّدنية لشؤون الحياة وجودها وأهميتها في نظره. إن شخصا كان يعمل في ظلال استبداد وزير جبَّار كعلي باشا يفعل كل ما يريد ويبغي، ويحقق كل ما يرغب فيه من دون أن تعترضه أي موانع ومشكلات، واقترنت أيام غرور شبابه بعظمة الأمجاد اقتران التوائم، لابد من أن يكون مخمورا بسكر الأنانية ولايؤمن بوجود أي عوارض معارضة قصيرة الأمد تسد بوجهه طريق السعادة ولايتصور إمكان حدوث عقبات تحول دون تحقيق ما يريد تحقيقه، فقد رأى الأمور دائما على هذا المنوال وقضى أيامه كلها على هذه الوتيرة، ولم يكن يفكر في احتمال شيء عكس هذه التي ألفها. ولئن كانت هناك مسألة أسر أبعده حينا من الزمن من بحبوحة النعيم الذي كان يرفل فيه، فلم تكن تلك مسألة عرض حيوي طارئ وإنما كان يتلقاها بوصفها مجرد إهانة شخصية تعرض لها وكانت رغبة الانتقام من أجلها قد أحرقت منه روح التحمل والاصطبار. ولأنه لم يمر في سنوات عمره بصفحات مختلفة من المشاكل الحياتية ولم يتعرض لألوان الصعود والهبوط في مجده الشخصي، ولم يصف دماغه المفكر في تجارب الأحوال الكونية من مرارات وبعاد، ولم يبل بالضجر

بفعل الكابوس الذي يأخذ بخناق المرء كحالة انعكاسية لمن يجادل في الأسرار والحكم التي تنطوي عليها حقائق الدهر، وبخاصة لأنه لم يكن قد تعلم بعد المقتضيات الإدارية والسياسية ولم يكن يدرك كنهها وكيفيتها، فقد كان من الطبيعي أن لايجد الاطراد في تفكيره في معاملات كهذه ناجمة عن مجده وسعده لاغير. ولكن عدم الاطراد هذا لم يكن ليعتبر أمراً ذا بال بالنسبة لطرز إدارة الحكم في تلكم الأيام، ولم تكن لتحول دون اسناد صفة الحاكمية لمن يراد إسنادها إليهم. أما ماكان يحول دون هذا فكان فقر الفقراء وعوز المعوزين الذين لا يستطيعون أن يدفعوا. أما سليمان باشا، فقد كان بفضل ما خلفه له خاله علي باشا من ثروات، يجد في متناول يده كل ما يحتاج إليه للدفع، كما دفع فأخذ. ولئن كان ثمة ما يستحق أن ينظر إليه بكمال التأثر وعميق الأسى، فهو أن يكون بناء المجد الوطني للفاتحين والسلاطين والقانونيين وشوكتهم معرضة للمساعي المدمرة المستندة إلى مثل هذه الرغبات الدنيئة للمطامع الرديئة، وأن يكون الأساس الرصين للسلطنة قد تعرض لحالة ابتذال وانحطاط من هذا النوع، ولم تكن لتظهر قوة منقذة ودافعة تحول دون تلك المساعي الرذيلة الرديئة التي كان الأبطال الطامعون يبذلونها لقلب تلك الأسس الفولاذية وقلعها وقمعها بقوة سواعدهم ومخالبهم المفترسة، حتى لايدفع بتلك الشوكة الوطنية والعظمة الاجتماعية الإسلامية العثمانية من برج الإفراط الشاهق إلى درك التفريط المنحط.

هيهات! لقد كان ظهور قوة كهذه خارج حدود الإمكان، فالجرح الصغير إن لم يجر علاجه ولم يداوَ ولم يهتم بالتيامه تقيح بطبيعة الحال وظل أمر تلافيه وإعادة السلامة إليه متروكا للقدر.

وهذا الجرح الإداري الذي تعرض له جسم الدولة، لم يداوَ في حينه، فكان يكبر بمرور الزمن وتتوسع دائرة عدواه ولم يبق مجال لاجتنابه وحصلت له تلك التأثيرات الأساسية التي نفذت إلى عامة أفراد الأعضاء المنتسبين للدولة وغدا بالنسبة للرأي العام بمثابة حالة روحية كتلك الفكرة والحالة الروحية التي أصابت بالعجز والشلل أناسا من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي والعباسيين وعددا كبيرا غيرهم من فحول الإدارة والسياسة عن الإدارة والحكم، إلا أن سليمان باشا لم يكن قد أصابه اليأس والقنوط من تدبير أمور الإدارة العراقية. هنا تتجلى خارقة معنوية دينية ألا وهي شوكة السلطنة الرصينة وبناء العظمة الإسلامية اللذان أوجدتهما الجهود الشهمة المقتدرة لثلاثة قرون ونصف للسلاطين المؤسسين للعظمة العثمانية التي تواصل وجودها واسمها وتبرز مقامها

وسلطنتها والحمد لله، رغم المساعي الخارقة للعادة لأربعة عصور من الاختلاف والتصفية. ومع هذا فإذا أخذت فروق الزمان والصعوبات التي بين التأسيس والتخريب، ماكان ليُحمَل ذلك على سبب آخر عدا وقوع المؤسسين العظماء تحت التأثيرات الدينية ومقدرتهم المعنوية.

من الطبيعي أن هذا الطراز من الإدارة التي كانت تمارسه بغداد لم يكن شيئا استثنائيا محصورا في الفرد، ذلك أن الأنظمة الإدارية المتبعة والمطبقة على جميع المقاطعات والمناطق التابعة للحكومة العثمانية كانت تطبق على العراق أيضا دونما فرق أو استثناء وإن هذه الأنظمة كانت ضمن دائرة وضع كيفي، وكان العراق قد أنيط بالمماليك المستبدين الطامعين منذ زمن بعيد وكانت قد أخرجت من صفتها العثمانية. أما المماليك أنفسهم فكانوا في لجة الصراعات الداخلية الناشئة من الحقد والحسد وكانوا يخوضون فيما بينهم بين حين وآخر صدامات دامية من أجل أمجادهم الخاصة ويتقاتلون للاستحواذ على المقدرات الحيوية للدولة والأمة العثمانية من دون أن يعيروا الصاحب الشرعي والحقيقي لتلك المقدرات أدنى اهتمام، فالذين كانوا يحرزون النصر والظفر في ميدان الصراع ما كانوا ليترددوا في اعتبار أنفسهم أنهم هم الذين يجب الاعتراف بهم أصحاب السلطة الشرعيين، ذلك لأن الحكومة المركزية كانت ترى نفسها مضطرة حسب العادة لإصدار الفرمان باسم المنتصر بدون سؤال وجواب، وكل ما كان هناك أنه كان يتحتم على المتسلطين على السلطة أن يحببوا أنفسهم نوعا ما لدى المسؤولين في السلطة المركزية بإرسال بعض أكياس من النقود الذهبية!

ومما يجدر بالتعجب والاستغراب في هذا المقام أن المؤرخين المعاصرين وأصحاب الفكر والقلم ما كانوا ليتخلفوا عن إظهار هؤلاء وأحوالهم وتصرفاتهم في إطار المشروعية وبغطاء سياسي. فأي كتاب تأريخي مما كتب عن وقائع بغداد السابقة تصفحناه في ما يتعلق بنتائج الأحداث التي وقعت من جراء مطامع المماليك بينهم، وجدناه لا يتردد في إضفاء صفة المشروعية على الغالبين ووصف الفضول بالفاشلين. ترى هل إذا سئل أولئك، انطلاقا من السند المنطقي الذي يميز بين المشروعية والفضولية، عما يستطيعون أن يعززوا به اجتهادهم الفضولي هذا، وجدوا الإجابة؟ أفلم يكونوا يلاحظون أنه في سبيل كسب الربقة الاجتماعية لهذه البلاد نحو الرابطة الوطنية وتوجيهها نحو إطاعة التبعية العثمانية، كان ينبغي بعث الفكرة القائلة بأن دماء الفاتحين التي أريقت والجهود التي بذلت، إنما كانت تستهدف تحقيق الوحدة الإسلامية

وصيانة بلاد المسلمين؟

إن نيل هذا الهدف السامي والحفاظ عليه لم يكونا غايتين شخصيتين، بل كانا على العكس يتعلقان بأخذ محاسنهما الاجتماعية بنظر الاعتبار. وهذا ما يحدد لكل فرد وظيفة يضعها على عاتقه، وما يتعلق بالمؤرخين منه هو الإرشادات التي تنير أفكار الرأي العام وتضمن سبل التيقظ والانتباه. هذه الإرشادات هي ما أعدها الأسلاف للإنسان لوضعها نصب عيون الأجيال القادمة لتوضح لها طريق الهلاك والحرمان بحق وحقيق.

في أعقاب الصراعات التنافسية انتصر سليمان باشا نتيجة لها على نصيف آغا وقضى عليه واستولى على مقاليد الأمور في الإيالة كما بيننا، وحصل بفضل ما أرسل من الذهب إلى إستانبول على الفرمان الحكومي، ولم يبق أمامه عائق ليسيِّر دفة الحكم كما يشاء. كان يجب أن تكون الإجراءات الأولى التي يتخذها المشار إليه بالطبع، كحاكم متنفذ استقل بالأمر، ضد أولئك الذين سبق أن عارضوه وتعرضوا لغيظه وغضبه. ولكن بما أن أحدا لم يكن في معرض انفعالاته ليتخذ منه الهدف الأول له بقدر ما كان عبدالرحمن باشا، فقد وضعه في صدر قائمة المغضوب عليهم.

أجل، لم يكن هناك أحد سوى المشار إليه. فقد كان عبدالرحمن باشا قد قبض عليه أسيرا في معركة مريوان وأرسله مخفورا إلى إيران حيث ذاق ذل الأسر ستة شهور بطولها.

ومع ذلك ما كان عبدالرحمن باشا نادما على ما فعله، وكان قد تجاسر واتخذ في تلكم الأيام سبيل المخاصمة معه. ومع أنه كان قد سار حتى الخالص وخراسان (يقصد نهر خريسان – المترجمان) لإثارة العشائر والقبائل بوجهه، إلا أنه لم يصمد أمام القوات التي وجهها سليمان باشا ضده، وعاد من حيث أتى مرتهبا. ولذلك لم يكن بقي أي مجال للاعتذار. وفضلا عن كل ذلك لم يولِ الضرورة الإلزامية للاشتراك في مراسم تقديم التهنئة والتبريك إليه في أثناء وصول الفرمان بتوليته أي اهتمام كما كانت تقتضيه التقاليد المرعية.

كان سليمان باشا يفكر على الدوام في سيئات المشار إليه هذه غير القابلة للصفح عنها، بل التي كانت تنتزع منه بما تثيره فيه من غيظ وانفعال، روح الصبر والتحمل. في حين أنه كان يسوق ملاحظاته الخاطئة في هذا المضمار خارج حدود العقل والمنطق إلى مدى بعيد.

وما كان سليمان باشا ليستطيع أن يحرز نجاحا في إلحاق الأذى بعبدالرحمن باشا أكثر مما استطاع خاله علي باشا، أولا. كما أن جميع نجاحات ولاة بغداد في ضبط أمور العراق كانت في ظل بسالة البابانيين والسليمانيين، ولم يكن من الممكن لهم الاستغناء عن هذه القوة الشجاعة في يوم من الأيام، ثانيا.

وعلى هذا، كان يتحتم عليه أن يفكر ويرجح التدابير التي في مصلحة ظروفه الراهنة ومنافعه المستقبلية والتي تؤمن له طريق النجاح في تحقيق ما يريد، ولاسيما أن عبدالرحمن باشا لم يكن شخصا غريبا بالنسبة إليه، فقد كانت له سفرتان بصحبته إلى سنجار ونجد، وقد قيل إن السفر محك تجربة للمرء، في حين أن هاتين السفرتين (الحربين – المترجمان) المهمتين كانتا أكثر من محك لهذا الغرض. فمن خلال هاتين السفرتين المدهشتين، كان قد توصل إلى إدراك ما كان يتسم به المشار إليه من تدين وشجاعة وما كان في رشادته وسلوكه المستقيم من معانٍ خلقية، كما كان قد سبر غور الماهية الحقيقية لغوامضه اللدنية. وعلى هذا فلو أنه كان قدر دقة موقفه بالارتباط مع أهمية تلك الوظيفة التي كان قد وضعها على عاتقه وعظمتها ولم يتملص من الإحساس بالحاجة إلى هذه الشجاعة الفائقة واتخذ من حقوق الرفقة طريقا للتَّوادِّ والائتلاف بدلا من إظهار الخصومة والنفور، ولو عمد إلى تذليل مشاكل معضلات أموره وجعل منها سندا له وهو الذي كان بمثابة قوة أساسية، لسارت الأوضاع في صورة أنسب.

لم تكن برودة سليمان باشا تجاه عبدالرحمن باشا وما يضمره له في قلبه من حقد وضغينة نابعين من حيث الأساس من كيفية أسره إياه، في حين كان على المشار إليه أن يقدر في هذه القضية، وعلى العكس، العظمة الوجدانية والفضيلة الخلقية لعبدالرحمن باشا، وأن يكون شاكرا على الدوام طبيعته السامية ونبله الفطري. *فكما شيد علي باشا منارة من رؤوس القتلى المقطوعة في مضيق بازيان لإظهار سطوته وجبروته*، كان بوسع عبدالرحمن باشا كذلك أن يمثل هذه الفعلة الوحشية في مريوان عندما انتصر على سليمان باشا وأن يجعل رأسه على قمة تلك المنارة، ولو أنه أيضا فعل ذلك لما كان بوسع علي باشا أن يرد عليه بعمل شيء، فقد فعل كل ما كان يستطيع أن يفعل ولم يكن في قدرته أن يفعل أكثر مما فعل. ومع ذلك فإن السمو الوجداني لعبدالرحمن باشا ما كان ليقر عملا كهذا، بل إنه كان قد أمر أتباعه في غمرة القتال بالمحافظة على سليمان باشا من الهلاك والإصابة، وقابله بعد أسره وتحدث إليه عن اضطراره لإرساله

مخفورا إلى إيران على الأقل للتعبير عن امتنانه لسلطاتها وجزاء وفاقا لما قدمته هي له من مساندة، ولم يكن هذا أكثر من صنيع حسن كان مضطرا للقيام به في سبيل صيانة وطنه.

أجل، كان من المعلوم أن المشار إليه كان قد اصطحب معه من إيران شخصية مرموقة كالشاهزاده علي ميرزا الذي كان أحد أركان السلطنة الإيرانية، وكان قد أعلن أن الهدف هو الاستيلاء على بغداد، ولكنه لم يكن يعتبر هذا العمل، أي الاستيلاء على بغداد، عملا ينسجم وتوجهاته الدينية، ولهذا فقد حرر نفسه بصنيعه الجميل الذي أشرنا إليه وهو إرسال سليمان باشا الأسير مخفورا إلى طهران من ضرورة السير بوعده حتى النهاية.

لم يكن الاستيلاء على بغداد من قبل عبدالرحمن باشا وفق الأوضاع القائمة آنئذ أمرا خارج حدود الإمكان في الحقيقة، ولكن شرفه الإسلامي وحقوق الخلافة وصلابته الدينية لم تكن لتنسجم مع الانحياز إلى شعب أجنبي ومذهب خارجي. وعلى هذا كان قد أبلغ علي باشا بالكيفية تلميحا في رسالة بين له فيها هدفه الأساس وطلب فيها إعادة حكومته إليه.

أما علي باشا، فإزاء الإحراج الذي أوقعه فيه الوضع الذي عرضه عبدالرحمن باشا، وجد نفسه مضطرا لتنفيذ رغبات الأخير، وكان أن أرسل إليه الأمر والخلعة. في حين أنه لو كان الأمر متوقفا بالعكس على رغباته الشخصية، لما كان بمستطاعه من دون شك أن يقبل إزاء المعاملة المتهورة الجسورة التي عامله بها عبدالرحمن باشا بالمهانة التي أصابت عظمته الروحية في الصميم بإعادة مقامه ومنصبه إليه. وبغض النظر عما سلف، هل كان بإمكان علي باشا الذي لم يكن له من الأولاد والإخوة والأقارب سوى سليمان باشا الذي أسر من قبل عبدالرحمن باشا وسلم إلى الإيرانيين الذين كان قد أعلن الحرب عليهم، أن يبدي شيئا من آثار العطف واللطف إزاء عبدالرحمن باشا الذي تجاسر على إيقاد نار آلام فوق الطاقة في قلبه، لو لم يكن يحس بضرورة مهمة تلجئه إلى ذلك.

فيفهم بالبداهة أن عبدالرحمن باشا الذي تعرضت حياته وحقوقه المشروعة للضربات، لم يكن قد تخلى عن قوميته أو عن دينه أو أخلاقه السامية عندما اضطر اضطرارا للالتجاء إلى الإيرانيين من أجل استرداد حقوقه المغتصبة، وأنه بتسليمه سليمان باشا بسبب من التجائه هذا لتحقيق غايته الأساسية، أنهى العملية، كما أنجز ما عليه من

فروض الامتنان لقاء بلوغ مأربه بتلك الخدمة التي قدمها لهم.

ولكن أنى لسليمان باشا ومن أين له تلك المكتسبات العلمية والتحريات العقلية التي يستطيع أن يدرك بها هذه الملاحظات الأساسية وهذه الضرورات الحياتية الملجئة، ولاسيما أن شخصا كخالد باشا متلهفا للمغانم والأمجاد يقف على رأسه وهو لاينفك ولو لدقيقة واحدة عن التسويلات المتعاقبة وبث بذور الفتنة والفساد. وهكذا فإن عمى البصيرة وتعطل إعمال الفكر لم يدعا سليمان باشا يدرك تلك الحقائق التي تعصمه من الزلل، فما إن تفرغ من مراسم التهنئة والتبريك حتى أعلن عن عزمه على السفر متوجها إلى السليمانية، وبدأ يجمع العساكر والعشائر والأعراب والقبائل التي تحت سيطرته. وفي السابع من ربيع الآخر أصدر أوامره بالتحرك.

عندما وصلت القوات الأساسية كركوك، التحقت بها قوات الموصل وأربيل. وفي الحادي والعشرين من الشهر المذكور اتخذ من شيوەسور التي تبعد عن مضيق بازيان مسافة نصف ساعة والتي كان علي باشا قد جعل منه مقرا لتجمع قواته في المرة السابقة. لم يكن عبدالرحمن باشا عندما توجه خالد باشا إلى بغداد غافلا عن انتظار حدث من هذا القبيل سيقع فيما بعد. وتلافيا لأي خطر محتمل فقد سد فتحة المضيق بالحجارة والجص ولم يترك إلا مجال عبور خيال واحد مفتوحا.

وبناءً على أن سليمان باشا بدأ حركاته التعرضية، بدأ هو الآخر ببناء الاستحكامات الدفاعية وهيأ قواه وحصن القمم الواقعة على يمين المضيق ويساره وسد كل الممرات التي كان يجب سدها من وجهة النظر العسكرية. وعندما وقف الجيشان وجها لوجه فتح باب المصادمات. كانت نار الحرب تشتد خراما باستمرار، فكانت الأرواح تحترق والأجساد تتداعى. وفي ساحة صغيرة احتشدت فيها مئات الألوف من البشر ومثلها من الحيوانات، كان المشهد يعكس عادة مثالا ليوم الحشر وساحته التي يجمع فيها المحشورون، ولاسيما أن الصيحات الحربية التي تتنادى للظفر ودوي المدافع المرعب الذي يهز الأفئدة كانت تثير الأرواح وتبعث القشعريرة في الأجساد وتجعل الشعر ينتصب على الأبدان. وبالمقابل من حوالي مئة ألف مقاتل كانت تتألف منهم قوات سليمان باشا، لم تكن قوات عبدالرحمن باشا تتعدى اثنى عشر ألف شخص، وكان نصف هؤلاء وضعوا على الطرق والمعابر التعرضية والممرات للحفاظ عليها، وكان نصفهم الآخر يقف بوجه البحر الزاخر لقوات سليمان باشا. ويضاف إلى التفوق العددي الصارخ التسلح الكامل الذي كانت تتمتع به قوات سليمان باشا بحيث لم يكن هناك

أي مجال للمقايسة بين قوات الفريقين المتحاربين ولاسيما أن بطاريات المدافع المتوافرة لدى قوات سليمان باشا كانت تضيف إلى امكاناتها إمكانات أخرى. وخلاصة القول إن إمكان الوقوف بوجه هذه القوات المجهزة الوفيرة العَدد والعُدد لم يكن أمرا ميسورا إلا لحكومة مجهزة منظمة، في حين أن جلادة الكُرد والبابانيين البطولية كانت تبرهن على صحة الاقتناع بأن بإمكانهم التصدي لهذه القوات المهاجمة، وكلما اقتربوا منهم أكثر واصطدموا بهم كانت تعزَّزت روح الشجاعة فيهم أكثر وأشد.

قبل كل شيء كان رجع الصدى لدوي المدافع يضاعف الأصوات المنبعثة من ساحة الوغى أضعافا كثيرة، فكان الصمود إزاء تلك المهابة المرعبة التي تتكون في ظروف القتال أمرا غير قابل للتصور إلا من المتانة الغضنفرية لتلك القوة المتمتعة بقلوب الآساد، وهي وحدها التي كان يمكنها أن تقف بوجهها، في حين أن شدائد هذه الحرب ومضاعفاتها طالت لأكثر من عشرين يوما من دون أن يميل طالع النجاح نحو أي من الطرفين المتقاتلين أو أن يكون بإمكانه أن يميل. وحسب ما كان يذكره العيون والجواسيس الذين بثهم سليمان باشا وبعثهم إلى كل جهة، كانت الطرق والمعابر كلها قد أحكمت وكان يجري الحفاظ عليها باستمرار. وبناء على ذلك كان الأمل في إحراز النجاح والتوفيق قد غدا خارج حدود التمني والتصور لكلا الجانبين إلا أن خالد باشا قد استطاع في هذه الأثناء العثور على رجل قروي من سكنة الجبال المحيطة، وعن طريق دلالة هذا الرجل تمكن من تسريب قوة من المشاة عبر طريق مفتوح إلى قمم الجبال حيث أحرز منها النجاح. وعلى هذا الأساس صعد أتباعه جميعا يصحبهم ابنه محمد بيگ وقوة مختارة أخرى مؤلفة من خمس مئة رجل بقيادة محمد بيگ خزندار من ذلك المسلك المفتوح. كان الرجل القروي قد غدا دليلا لهؤلاء فارتقوا المسالك الصعبة الضيقة الموحشة المليئة بالعوارض التي لايمر من خلالها إلا المِعْزى عادة، حتى بلغوا ذرى الجبال وسيطروا على نقاط الدفاع التي أقامتها قوات عبدالرحمن باشا وأحكموا مواقعهم هناك كل الإحكام. وفي اليوم نفسه استطاع متصرف كويسنجق وحرير سليمان باشا العبور عبر مضيق خطيبان وطوق عبدالرحمن باشا من الخلف.

سبق أن بينا بعض المعلومات بشأن الجانب الجنوبي من مضيق(...)

والآن يجب أن نوضح للقارئ الكريم من أين وكيف استطاع سليمان باشا تطويق عبدالرحمن باشا من الخلف.

عندما يدخل المرء من فتحة المضيق، ينحدر منه نحو سهل دولهوران. يمتد سهل

دولهوران من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي متخذا شكل وادٍ بطول مئة كيلومتر وعرض خمسة كيلومترات بين سلسلة جبال هنجيره وتوكمه. الجهة الشمالية الغربية لهذا السهل في نقطتها النهائية قبالة جبل (بيژنگ بەسەر) الواقع بين مجموعة من الجبال الصغيرة والتلال تأتي بعد جبل (هەنجيره) من مضيق (خطيبان) الذي هو مضيق ضيق، مفتوح. ينتهي هذا الوادي باستقامة وضع دولهوران من دون أي اعوجاج، بمسافة كيلومترين، بمنطقة آغاجلر (آقچه قلعة - المترجمان). أما آغجلر، فتحدها حدود كويسنجق ويفصل الزاب الصغير حدود المنطقتين عن بعضهما.

عبر سليمان باشا بقواته نهر الزاب وتجاوز آغجلر ودخل على حين غرة سهل دولهوران، ومن دون أن يفسح المجال لعبدالرحمن باشا بأن يعلم بذلك طوقه من جهة الخلف. وكانت غفلة عبدالرحمن باشا عن الالتفاف نحو مضيق خطيبان على النحو التالي:

سبق أن ذكرنا أن عبدالرحمن باشا سار في حينه إلى كويسنجق لمعاقبة سليمان باشا البابانى الذي اشترك في قوات علي باشا الغازية، ولكن تفادى الاصطدام به وسار لاستقباله بقصد الاستسلام والاستمالة وقدم إليه اعتذاره وطلب منه الصفح فعفا عنه عبدالرحمن باشا. وظل سليمان باشا منذ ذلك الحين على نهجه ولم يتخل عن مساعيه السفسطية، وكان يعبر دوما عن خلوص نواياه تجاه عبدالرحمن باشا محاولا من وراء ذلك نيل ائتمانه منه. وهكذا لم يدعه لحظة واحدة يحس بحقيقة ما في قلبه إزاءه. وقد وثق عبدالرحمن باشا بصداقته ولم يترك المجال لتصور احتمال أي مساع معاكسة. ولم يكن إحجام عبدالرحمن باشا عن طلب المساعدة من سليمان باشا إلا أنه كان يرى قواه الدفاعية كافية وأن جلادتها وشجاعة البابانيين تجعلانه مستغنيا عن طلب مثل هذه المساعدة. والواقع أنه لو لم يقم سليمان باشا البابانى بارتكاب خيانته هذه، لما كان بوسع قوات الوالي سليمان باشا أن تهزمه. ولكن خيانة الموما إليه من جهة والقدر الذي يعمي البصيرة من جهة أخرى، كما يقول المثل وتؤيده وتدل على صحته هزيمة عبدالرحمن باشا بسبب إهماله إحكام مضيق خطيبان.

وإزاء هذا الوضع الذي غدا فيه عبدالرحمن باشا مطوقا في ميدان محصور، لم يبق له حول ولا قوة، ولم يعد يطيق المقاومة، فوجد نفسه مضطرا إلى الانسحاب.

انظروا إلى الجلوة التي كشفتها العدالة الإلهية، فقد أعفى الوالي سليمان باشا البابانى ابن ابراهيم باشا من متصرفية كويسنجق وحرير التي فوضها إلى أمين خزانته

محمد بيگ، وكان يجب على الأقل إدخال البهجة والسرور في قلب خالد باشا بمنحه هذه المتصرفية، وهو الذي كان قد ضحى بالمنزلة التأريخية لأسرته والشهامة الفطرية لقوميته وقام بكل ما قام به من خيانات تجاه عبدالرحمن باشا في سبيل الحصول على الأمارة في السليمانية.

بعدما عاد الوالي سليمان باشا إلى بغداد، عاد خالد باشا أيضا يائساً مكلوم الفؤاد إلى كركوك حيث كان قد اختار الإقامة. أما الوالي المعزول سليمان باشا، فهو وإن كان انعدام التقدير له ولخدماته يفتح عيون انتباهه إلى حد ما، إلا أن الناس الذين هم على هذه الفطرة وهذا الخلق، رغم أنهم يدركون حقائق الحياة في مثل هذه الحالات ويندمون في قرارات نفوسهم على أعمالهم التي اقترفوها، لايتعدَّى ادراكهم وندمهم واحساسهم بحرمانهم ومذلتهم كونها حالات مؤقتة تتعلق باللحظات التي تحدث فيها وحدها ليست شيئا أكثر من ذلك. فاذا تعلق بصيص من الطموح بأبصار أطماعهم نسوا مذلاتهم وشعورهم بالحقارة المرئية السابقة وعادوا فورا لحساساتهم وخياناتهم الخلقية من دون أن يتخلفوا عن هذه المعاودة دقيقة واحدة. وعلى هذا النمط كان خالد باشا أيضا قد أدرك خطأه بقدر مايتعلق الأمر بحالته يومذاك في ديار الحرمان والإهمال، وكان نادما على معاملاته وتحركاته السابقة التي بدرت منه. أما عبدالرحمن باشا فما كان لينثني لحظة واحدة عن حقه الموروث في الحكم. وعلى هذا فما إن غلب في معركته تلك حتى توجه إلى سنندج في إيران والتقى واليها أمان الله خان الذي كان تعاطفه واياه أمرا طبيعيا بالنظر لانتسابهما معا إلى أمة واحدة وكانت رفع الحاجز الذي يفصل بين شعبيهما في كُردستان الإيرانية وكُردستان العثمانية بإدخال الجزئين في وحدة إدارية واحدة على أن كليهما إيرانيان أمرا تفكر فيه الحكومة الإيرانية وسياسة تتعقبها منذ زمن بعيد.أما تحقيقها فيتوقف بالطبع على التدخلات المادية والاستمالات المعنوية، وكانت الاستمالات المعنوية تجري في ظل التدخلات المادية، وكان ولاة بغداد العثمانيون الذين لم تكن لهم مزية إدارية وسياسية عدا نزعاتهم الاستعلائية، يوفرون بسلوكهم الفرص لهذه النزعات الإيرانية لتجد لها الأرضية الملائمة بكل معنى الكلمة من دون أن يدركوا شيئا، فكانوا يقدمون المبررات على الدوام لتلك التدخلات ولا يتأخرون عن صنع أسباب الاختلاف بكل الوسائل.

ولكن حكام البابان وأعمدة الأسرة البابانية كانوا، لحسن الحظ، بما كان لهم من صلابة دينية وعصبية مذهبية ومن متانة في الارتباط بمقام الخلافة بمنأى من أن يرتبطوا

بمثل هذه التعلقات وما كانوا ليتعقبوا في علاقاتهم بإيران أكثر من سياسة تفيدهم، ولم يكونوا قد ضحوا بوجودهم أو أوكلوا مصائرهم إلى سياسات الخفية والإضمرار، بل على العكس لو أنهم كانوا قد تورطوا في الأطماع وساروا وراء آمال العظمة لكانت عاقبة أمرهم كما كانت عاقبة أمر بكر الصوباشي.

إذاً، فان العصبة المذهبية وبذرة النبل التي كانت كامنة في أعماق فطرتهم الأساسية هما اللتان تحميانهم من أن لا يتلطخوا بأهواء النفس وإغواءات المطامع.

التقى عبدالرحمن باشا أمان الله خان بعد وصوله سنندج فوجد منه حسن الاستقبال والقبول. كما أن أمان الله خان عرض على فتحعلي شاه ضرورة مساندة عبدالرحمن باشا وتقديم العون له. وزار الباشا بنفسه أيضا الشاه وطلب منه الدعم والإسناد.

ومع أن الشاه طلب من الوالي سليمان باشا أن يعيد إلى عبدالرحمن باشا حقوقه وحكومته، إلا أن الوالي لم يعر طلب الشاه أذنا صاغية ولم يستجب لرجائه. وبناءً على ذلك وضع الشاه قوة كافية لمصاحبة عبدالرحمن باشا للزحف على السليمانية ولم يدع هذه الفرصة تفلت من بين يديه.عندما علم خالد باشا بتحركات عبدالرحمن باشا وزحفه على السليمانية حرك معه أتباعه وتوجه عبر طريق الخالص- خراسان (خريسان) - زهاو ودخل الأراضي الإيرانية والتحق في مريوان بعبدالرحمن باشا، ولكن حركة الموما إليه لم تكن حركة حقيقية نابعة من الإحساس بالندم القلبي، فمن كركوك إلى مريوان مباشرة لاتتعدى المسافة الفاصلة حوالي ١٥٠ كيلومترا، في حين أنه قطع عبر طرق ملتوية وطويلة مسافة ٤٠٠ كيلومتر لا لشيء الا ليقترب من بغداد، ولم تكن هناك فائدة ترتجى من وراء ذلك، ولكن أوهامه كانت توسوس في قلبه أنه ربما استمال بذلك سليمان باشا لعله يبدي إزاءه شيئا من اللطف. ولكن ماذا كانت عاقبة كل هذه الاستعراضات والتظاهرات التي قام بها في أطراف بغداد؟ لاشيء على الإطلاق. فلما رأى أنه لم يحصد من وراء محاولاته إلا خيبة الأمل وجد نفسه مضطرا للالتجاء لأذيال عفو عبدالرحمن باشا والانضواء تحت جناحي مراحمه. وهكذا، وبناء على طلب الأمان الذي رفعه الموما إليه إلى عبدالرحمن باشا ورجائه الصفح عنه، نال حسن القبول من لدنه وأصدر أمره بتعيينه قائدا عاما لقواته.

عندما سمع سليمان باشا أن عبدالرحمن باشا أخذ يهاجم السليمانية على رأس قوة إيرانية قوية وأن خالد باشا التحق به، فكر في باديء الأمر في التصدي له ومقاومته، وأمر قبل كل شيء بتعزيز قوات سليمان باشا متصرف السليمانية، ولكنه أخذ فيما

بعد يفكر في المشاكل التي اعترضت في حينه طريق خاله علي باشا فتخلى مضطرا عن فكرة المقاومة وقرر استمالة عبدالرحمن باشا وإنهاء المشكلة عن طريق إرسال أمر إعادة تعيينه وإهدائه الخلعة. وفيما يتعلق بسليمان باشا متصرف السليمانية يومذاك، أسكنه في بغداد وخصص له مقاطعات خانقين وعلياوه يدبر أمور عيشه منها.

لم يكن قد انقضى على حكم السليمانية من قبل سليمان باشا أكثر من ثلاثة أشهر وعشرة أيام، ولم يكن قد وقع في هذه المدة أحداث مهمة. لذلك لم نر من الضروري تخصيص فصل لأيام حكمه.

عندما تسلم عبدالرحمن باشا أمر اعادة تعيينه والخلعة التي أهديت إياه، وجه رسالة شكر مصحوبة بالهدايا المعتادة في مثل هذه الأحوال إلى كل من فتحعلي شاه ووالي سنندج أمان الله خان وأعاد القوة التي رافقته للهجوم على السليمانية إلى إيران. وفي التاسع من رمضان من السنة المذكورة توجه بنفسه إلى السليمانية واستعاد إدارة الأمور فيها كما كان في السابق.

كان الوالي السابق المتوفى علي باشا قد أذاق سليمان باشا يگن عواقب جميع الأخطاء الإدارية وسيئات سوء التدبير المرتكبة في حينها ضد اليزيديين.

أجل، إن الكفرة المذكورين الذين استطاعوا الإفلات من حملات التأديب التي شنت ضدهم كما بينا، لم يكونوا يرون أنهم لم يغلبوا حسب، بل وكانوا يحسبون أنفسهم المغالبين. فقد كان القمع والتقتيل والأضرار المادية عاجزة عن أن ترهب هؤلاء لأنهم كانوا معتادين عليها باستمرار ويتعرضون إليها على الدوام وغدت أمورا مألوفة بالنسبة إليهم وآنستها حياتهم اليومية. وكل ما كان هنالك أنهم بسبب ما كانوا يلاقونه من سوء معاملة وأذية باستمرار ترعرعت في نفوسهم نزعة الانتقام العشوائي ودونما تحديد لمن ينتقمون منه، فكلما رأوا مسلما أياً كان أخذوا ثأرهم منه أضعافا مضاعفة، فلم يكونوا يفرغون من أعمال الانتقام هذه يوما ما.

وفي هذه المرة أيضا إذ نجوا بتلك السهولة التي عرفنا من سيف علي باشا، أخذوا ينتقمون من المسلمين أسوأ بكثير مما لاقوه، وما كانوا يتأخروا عن ذلك لحظة واحدة. لقد كان الملاعين المذكورون الذين أشبعت حرارتهم الروحية ببطش الثأر، يبردون نار مافي قلوبهم من آلام بارتكاب أنواع الفظائع والفجايع أينما صادفوا مسلما وكانوا ينهبون الأموال والممتلكات ويذبحون الأطفال ولايتورعون عن عمل أي شيء.

كانت فكرة الإغارة على عشيرة الظفير القاطنة في منطقة رأس العين التابعة

لسنجق أورفة قد برعت في خيال سليمان باشا، وكان مشغولا بالاستعداد لحملته المرتقبة هذه، وكان قد أصدر أوامره إلى كل الجهات لتحشيد القوى لهذا الغرض، وكانت القوات المعبأة لهذه العملية تتجمع في بغداد باستمرار.

كانت عشيرة الظفير هذه تابعة، كما أسلفنا القول، لسنجق أورفة، ولم يكن لها أي ارتباط بالعراق أو أي علاقة بمناطق نفاذ حكم سليمان باشا، ولكن خصومات قديمة ونوايا مضمرة بين عشيرة فارس الجربة التي لم تكن تشدها إلى الوزير المشار إليه علاقات صميمية وبين عشيرة الظفير، كانت قد جعلت الأولى تفكر على الدوام بما للثانية من ثراء واسع، فكانت تحرض سليمان باشا على الإغارة عليها وتطمعه في نهب ممتلكاتها.

في البداءة وجه سليمان باشا كلا من محمد بيگ متصرف كويسنجق وحرير وأحمد باشا والي الموصل نحو ماردين مدفوعا بما كان يخيل إليه من الحصول على غنائم مهمة ومن سلب ونهب سواء من اليزيديين أو من عشيرة الظفير. وفيما بعد أكمل استعداداته وتحشيداته وتحضيراته، وتحرك من بغداد إلى سنجار مباشرة في ٢٥ محرم الحرام سنة ١٢٤٤هـ على رأس قوة قوامها أربعون ألف شخص وخمس بطاريات مدفع وسائر عدد الحرب، وضم إليه في الطريق قوات أربيل وكركوك.

لم يأخذ سليمان باشا بنظر الاعتبار كيف ربح خاله علي باشا المعركة وأحرز النصر والظفر في حملته على اليزيديين وماذا كانت المشاكل التي عانى منها والمجاهدات التي كابدها حتى تغلب عليهم، فحمل رأسا على مدينتي سنجار و دارمسين وأمر قواته بالهجوم.

سبق أن ذكرنا أن اليزيديين كانوا قد استندوا إلى جبلين جنوبي وشمالي، فتوجهت صولة سليمان باشا للوهلة الأولى نحو الجبل الجنوبي. ومع أن قواته احتلت في الواقع قرية بلد اليزيدية وأسرت أهليها ونهبت أموالهم واستولت على ممتلكاتهم، إلا أن اليزيديين استطاعوا دحر الهجوم الذي شنته قوات الباشا على الجبال وردوا المهاجمين على أعقابهم بعد أن قتلوا منه الألوف واضطروهم إلى الانسحاب وراء واستطاع أولئك الملاحدة في هجمات معاكسة أن يهزموا القوة الرئيسية لسليمان باشا، الأمر الذي لم يترك له أي مجال للشك في أن قواته ستباد بالمرة، ولذا لم يجديا من صرف النظر عن مواصلة العملية. ولكن ما يحار المرء فيه هو كيف أن هذه الهزائم لم تجعل المشار إليه يتأثر بها وينظر إلى الأمر ببصيرة، فكانت ثروات عشيرة الظفير ماتزال مستولية على

لبّه وكانت الأحلام الجميلة والافتراضات المتفائلة تدغدغ مخيلته، فتتراءى أمام عينيه تلك الثروات الطائلة التي وصفتها وبينت تفاصيلها له عشيرة فارس الجربة، فكان ينسى في خضم أخيلته هذه تلك الهزائم المنكرة التي الحقها به اليزيديون، وكان سكر الحرص الذي أولده الطمع في نفسه قد ورط شخصه في ملاحظاته وملاحظاته في شخصه، فلم يعد إعادة الفكر إلى سبيل حسنات حائزة لماهية منطقية أمراً ممكنا بالنسبة إليه. فلو أن عشيرة الظفير تغلبت عليه وهزمته أو أن هذا التعرض العدواني للمشار إليه لم ينل موافقة من لدن تلك الولاية التي ترتبط بها العشيرة المذكورة إداريا، أو أن الحكومة المركزية علمت بهذه اللصوصية التي قام بها المشار إليه وساقته إلى ميدان المحاسبة والمؤاخذة، ماذا كان من الممكن أن تكون عاقبة الأمر بالنسبة إليه؟

ولكن، هيهات ... هيهات ... إننا نخطئ في تصوراتنا هذه. فملاحظاتنا الحذرة في هذا الباب إنما تتوجه إلى حكومة ذات إدارة وإلى شعب. في حين أنه لو كانت هناك حكومة ذات إدارة ولو كان هناك شعب، لما تركا منطقة إسلامية مهمة كالعراق تتصرف فيها المآرب الدنيئة لشخص أناني مثل سليمان باشا، وحتى لو تركاها له لما وضع هو نفسه في مقام داعية للاغترار الفردي في ميدان الحماقة.

إذاً، وضع سليمان باشا برنامجه ورتبه وفق تلك السعة التي ساعدته الظروف والأحوال بمنحها إياه، وكان يوسع خط حركته وفق البرنامج المذكور، إلا أنه يجب على كل من يستهدف وضعا أو برنامجا أو يريد استهدافه أن يسلك في تحركاته طريقا إلى النجاح ينسجم مع المنطق والحكمة.

ومع ذلك، ولأن طراز الحكومة يتبع الجريان الطبيعي، أن كان هناك في تصرفات المشار إليه مايمكن أن يكون مثار الاعتراض فهو أنه، وكما بينا، لم يسلك الطريق المعقول لتقريب حركاته من النجاح بعد هزيمته السالفة الذكر التي مني بها في قتاله مع اليزيديين، في حين أنه كان أمرا محتما بالنسبة إليه أن يعمل لضمان النجاح ويسعى لإحراز الظفر. وإذ لم تسعفه قوته وإمكاناته أن تضمن له ذلك، كان يجب أن تمنعه هزيمته تلك من أن يسير شوطا أبعد مما سار. وفضلا عن هذا كانت معنويات الرجل قد انتكست وكانت انتكاستها معروفة لدى الجميع ولم يكن من الجائز انتظار أي انتصار من هذا الوقت التي لم تحرز انتصارا ما يوما ما. في حين أنه على العكس من هذا كله أدار سليمان باشا بغروره المعهود مسار صولته نحو عشيرة الظفير وكأن شيئا لم يحدث وكأنه لم يتلق أي ضربة ولم تلحقه أي هزيمة.

وعندما وصل رأس العين تلقى طلبا لإرسال المعونة من أحمد باشا متصرف الموصل ومحمد بيگ متصرف كويسنجق وحرير اللذين هزما في قتالهما مع أهالي شيب الواقعة بين ماردين وديار بكر، فأرسل المشار إليه تيمور باشا ميللو (ملّي) ومتصرف السليمانية السابق سليمان باشا وأخاه من الرضاعة أحمد بيگ للهجوم على عشيرة الظفير، وتوجه بنفسه نحو ناحية ديرك من أعمال ديار بكر لمساعدة أحمد باشا ومحمد بيگ. وعندما وصل ناحية ديرك استقبله بغيظ وغضب أحمد باشا ومحمد بيگ اللذان كانا قد هزما. هذه الهزيمة الثانية لم يتأثر بها سليمان باشا حسب، بل يمكن القول أنه أخذ منه الانفعال مأخذه من جرائها. وبدافع من انفعاله حمل على عدد من القرى التابعة لديار بكر، وبعد أن نهب الأموال والمواشي والممتلكات العائدة لسكانها وفرض الغرامة على أهالي ديرك سار نحو مرعى السلطان حيث انتظر قوته التي كان قد أرسلها على عشيرة الظفير. ولكن واأسفاه! فقد سببت له هذه القوة أيضاً هزيمة ثالثة. فكما لم تكن له هو نفسه مزية أكثر من كونه ابن أخت علي باشا، لم يكن لأحمد بيگ أيضا مزية عدا كونه الأخ بالرضاعة لسليمان باشا فقد كان يرفض الإصغاء لأقوال تيمور باشا وإنما كان يتحرك وفق تدابير سليمان باشا. ومع أنه كان رجلا عاديا، فقد كان يفتخر بأوهامه التي سولتها له نفسه من أنه أخو سليمان باشا ولم تكن قواه العقلية لتحيط بأي شيء. وعلى هذا الأساس كانت هذه الهزيمة بالنسبة إليه غير قابلة للمقايسة مع أي من الهزائم التي مني بها من قبل وكانت غير قابلة للمقايسة بالفعل. فعندما شن حملته الأولى على عشيرة الظفير ردت العشيرة المذكورة على القوة العراقية المهاجمة بمقاومة ضارية لم تدع أي نفر من نفرات القوة المهاجمة على صلة بأي نفر آخر منها وتمزق الجميع شذر مذر وامتلأ الوادي بجثث العراقيين.وبدلا من أن يحصلوا على الغنائم ضاعت منهم أسلحة وعُددٌ ودوابٌّ ومواشٍ كثيرةً ذهبت كلها غنيمة باردة لمدافعي عشيرة الظفير.

وتجمع المهزومون فرادى في نصيبين . وإثر هذه الهزيمة النكراء أخذ الرشد يعود إلى سليمان باشا ويدرك ما آلت إليه خيالاته التي سولتها له أطماعه وفهم إلى أي منحدر مهلك هوت به دوافع الحرص والطمع والجشع.

ولكن ما الفائدة في ذلك بعد فوات الأوان؟ لقد كان السيف قد سبق العزل. ومع أنه قرر من باب استعادة الكرامة المهدورة أن يشن حملة أخرى من نصيبين على العشيرة المذكورة، إلا أن العساكر والعشائر المرهوبة لم توافق على ما أراد منها ولم

تطع أوامره بشأنها، وبناءً على ذلك عاد إلى الموصل قانطا بقلب حزين.

ولكن الموصل، هي الأخرى، لم تتخلف عن صنع الساحة الرابعة للهزيمة له أيضا.

أجل، فقد كانت عادة الباب العالي قد جرت منذ القديم أن يترك أمر الحكم في الموصل، مقرونا بالاحترام والتقدير، لآل الجليلي الذين هم من أسر الموصل العريقة. ولكن سليمان باشا كان قد أبعد هذه الأسرة عن التمتع بحق الاحترام هذا ومنحه بدلا منهم أحد كتبة الديوان يدعى أحمد أفندي. وكان هذا العمل الذي قام به سليمان باشا عملا ملؤه الإهانة بالنسبة لآل الجليلي الآنف الذكر لما كان لهم من مكانة تأريخية ونبل نسبي وتضحيات وخدمات في سبيل الدولة العثمانية. وفي الحقيقة كان انتزاع هذا الحق الذي غدا بمرور الزمن حقا اعتياديا مشروعا لهذه الأسرة واعطاؤه بدلا منها كاتبا من أفراد الحاشية أمرا غير قابل للتحمل بالنسبة لآل الجليلي. وعليه فقد أثر هذا العمل تأثيرا ملحوظا على الوضع النفسي لسكنة الموصل. وكان انفجار رد الفعل عليه من قبل الرأي العام أمراً متوقفا على سنوح الفرصة والوقت الملائم لذلك فقط. فكانت العاقبة المهينة التي أفضت إليها أعمال الشقاوة التي قام بها سليمان باشا مما لاينسجم بحال مع صفة الوزارة، قد أوجدت الفرصة والوقت الملائم لما كان يدور في نفوس أهالي الموصل، فلم يبق مجال لستر نواياهم المنفعلة أكثر مما ستروا. وهكذا، ما إن وصل سليمان باشا الموصل حتى رجاه أهلوها تصحيح الحالة، ولكنه أبى الانحياز إلى إسعاف طلبهم بتحقيق ما أرادوا ولم يعرهم أذنا صاغية، فلم يجد هؤلاء، استنادا إلى ما كان لهم من قوة ذاتية، وسيلة لاستعادة حقهم المهضوم علاجا سوى اللجوء إلى السلاح. وعلى هذا فقد دخلت البلدة في حالة اضطراب وهيجان شديدين، وكل من استطاع أن يمسك سلاحا بيده أمسك به، وانضوى السكان كتلة واحدة تحت قيادة أسعد بيگ الجليلي وطوقوا سليمان باشا في مقر إقامته. وبغية إفهامه مدى خطئه كانوا يوجهون طلقات رصاصهم إلى محيط المقر، فكان الرصاص يئز من حول خيمته باستمرار محدثا فيها العديد من الثقوب. فرأى المشار إليه، بعدما تعرض له من مذلة ومهانة أصابت حكومته في الصميم، أن بقاءه في تلك الديار قد غدا خطرا عليه وابتعد عن محل إقامته مسيرة ساعتين، ولم يمكث في مكانه الجديد الذي لجأ إليه إلا ليلة واحدة، وضم جانبا من القوة التي كانت بصحبته إلى الألوف الثلاثة من المسلمين الذين كانوا بإمرة حاكم العمادية وأرسلهم جميعا لمساعدة أحمد باشا في الموصل، وعاد بنفسه على الفور إلى بغداد. ومع أن أحمد باشا استطاع الانتصار على مناوئيه اعتمادا على تلك القوة

التي أرسلها سليمان باشا لمساعدته، إلا أن انتصاره ذهب أدراج الرياح. فعندما تمكن من إحراز الغلبة وعاد إلى سدة الحكم في المدينة، أودت طلقة طائشة آتية من مكان مجهول بحياته وحياة حكومته في آن واحد.

ولما اطلع سليمان باشا على الخاتمة الأليمة لأحمد باشا، عين أخاه بالرضاعة أحمد بيگ متصرفا للموصل وأرفقه بما يحتاج إليه من قوة، إلا أن هذا الرجل الذي تعرفنا ماهيته الذاتية لم يجسر على الذهاب إلى الموصل وإن استطاع أن يصل أربيل، ولم يتمكن من أن يعمل شيئا عدا الإغارة على العشائر والقبائل القاطنة في أطراف أربيل ونهب أموالها وممتلكاتها إمرارا للوقت وفي سبيل المتعة. ولهذا فقد عزله سليمان باشا وأعاده إلى حيث كان من قبل.أتعتقدون أن ما ألحقته بسليمان باشا سفرته تلك من مهانة ورذالة وما لطخت به منكبيه من لوث وقذارة، استطاع أن يفتح بصره وبصيرته بعدأن عاد إلى بغداد؟ كلا! بل على العكس لم يدع أن يبدو منه أنه لقي ما لايسره ورأى ما لا يبهجه، وأن ما أصابه كان أكثر من كابوس مزعج تراءى له في الحلم، حتى أنه بث نفرا من العيون والرقباء يعرف من خلالهم من ذا يفسر على غير مايشتهي هو أحلامه التي رآها خلال سفرته تلك، وذلك بقدر ما يتعلق الأمر بسكنة بغداد، فكان هؤلاء العيون والرقباء يقدمون إليه التقارير عما يطرق أسماعهم هنا وهناك، وكان من عاقبة أمر أولئك وإخبارياتهم التي يرفعونها إليه أن عبدالله آغا الخزنَدار وطاهر آغا الجوقَدار الذين رفعت بشأنهما إخباريات اعتقلا وسيقا إلى البصرة وسلما معا إلى متسلمها سليم بيگ لتنفيذ حكم الإعدام بحقهما، ولكن سليم بيگ شفع لهما لدى سليمان باشا واستطاع أن يرفع عنهما حكم الإعدام، فتم الاكتفاء بنفيهما وإبعادهما إلى هناك.

وقد أبلغت أخبار الإغارات وأعمال السلب والنهب التي جرت في خارج منطقة حكم سليمان باشا بعمليات عسكرية إلى الباب العالي من دياربكر وأورفه، كما أبلغت أيضا بصورة منفصلة وبكثرة من جانب السكان المحليين في شكل شكاوى وتظلمات. وفضلا عن هذه كانت هناك مبالغ من مخصصات المركز لم تؤد من أيام خاله علي باشا كان عليه هو أن يصفي حسابها بعد توليه الوزارة. كما كانت هناك أيضا مبالغ أخرى تعود إلى أيامه هو وكان عليه أيضا أن يؤديها ولكنه لم يؤدها. وبغية التدقيق والتحقيق في أمر الشكاوي الواردة مع المشار إليه، ولغرض تسلم المخصصات والمبالغ المتراكمة المذكورة المستحقة للمركز، عين حالت أفندي من قبل السلطان مزودا بكل

صلاحية وأوفد إلى بغداد بعد أن زودنا بفرامين الهمايونية المفتوحة من وزارة ووكالة ورتب مختلفة. وكان حالت أفندي هذا من حيث مقامه والأحداث التي مر بها في حياته قد عرف التأريخ بنفسه، كما أن شخصيته والأدوار التي لعبها منحته منزلة خاصة لدى أفراد الرأي العام خرج بها من كونه شخصا غير معروف.

وعندما وصل المشار إليه بغداد بدأ قبل كل شيء بالتحقيق في سبيل الاطلاع على أوجه مكانة سليمان باشا وقوته ونفوذه ولمعرفة مستوى أحاسيس سكان العراق وميولهم تجاهه، فتوصل مقتنعا، إلى أن طوفان قوة المشار إليه ليس مما يمكن اجتيازه وبناءً على ذلك أدرك أنه لن يحصل منه على شيء عدا الاشمئزاز والوجه العبوس واللسان الخشن الغليظ، فتسربل بسرابيل الانسجام الزائف، في حين أن إبراز وجه قاس بوجه الباشا كان يدخله في دائرة الانقياد والطاعة أكثر من أي شيء سواه.

أجل، إن اتخاذ سياسة الملاينة تجاه الباشا دفعه إلى سلوك سبيل الغرور أكثر فأكثر. والواقع إن استجابة سليمان باشا لسطوة الحكومة قبل أن يصل حالت أفندي بغداد كان يختلف إلى حد كبير عند بعده، ذلك أن تجسم الأوهام القلبية مع الملاحظات الفكرية حالة فطرية في الإنسان. ولذلك فإن قدوم حالت أفندي في مهمة كلف بها كان قد أوقع سليمان باشا في قلق واضطراب بالغين، فكان كلما فكر في الأمر ازدادت أوهامه القلبية عن ذي قبل أكثر فأكثر. وعندما وصل المشار إليه بغداد، قضت أوضاعه المتملقة وملاءماته الكلامية مع الباشا على كل ما كان في قلب الأخير من أخيلة وأوهام، ولاسيما عندما تحدث له عن مشاغل الدولة العلية الكثيرة والغوائل الخارجية المدهشة التي تتعرض لها ومدى ما تحتاج إليه من أموال في هذه الأيام الصعبة. هذه الأحاديث طردت عن فكر الباشا الأوهام المرعبة التي كانت تعشش فيه وزادت من تورطه في هواجس العظمة وتمّت فيه نزعات الانفراد والاستقلال.

هذه البيانات المستكينة التي كان يدلي بها حالت أفندي كانت تدفع شخصا مثل سليمان باشا الغافل بكل معنى الكلمة عن المفاهيم الوطنية والاجتماعية، المجرد عن كل مزية ما عدا انتاجات عهد وزارة خاله علي باشا، المحروم من كل إدراك عقلي، لا نحو التبصر، بل نحو الاغترار والإعجاب بالنفس.

لبث حالت أفندي في بغداد أسابيع عدة استخدم خلالها مختلف السياسات المبتذلة وأنواع الدسائس الخادعة، ولكنه لم يتمكن من إقناع سليمان باشا بالنزول عندما يريده منه، بل على العكس كانت لغة الملاءمة السياسية تدفعه على الدوام نحو المزيد من

الجموح ورفع أنف الرعونة، ولم يحصل في آخر الأمر من النجاح على أكثر من قبض من المال يكفي لنفقات الطريق الضرورية لدى عودته إلى الباب العالي. ولو كان لحالت أفندي في حد ذاته نخوة دينية وشرف يضاف إلى ما لموقعه من حيثية واعتبار، لما ارتضى قبول ذلك المبلغ البخس من المال، الذي لم يكن قبوله يعني شيئا أكثر من الاستجداء، ولما لطخ ذيل عظمة متبوعه بعد هذا الذل، ولبدأ ساعة وصوله الموصل باتخاذ الاجراءات التأديبية تجاه سليمان باشا على ما اقترفه من أعمال الأشقياء واللصوص وقطاع الطرق في ديار بكر وأورفه ولأراه مايستحقه من عقاب جزاء وفاقا له على جعله نفسه متبوعا بعد أن كان مجرد ذيل. أفليس من الطبيعي أنه بتجاوزه الحدود الإدارية وانصرافه إلى الأعمال المتجاسرة والتصرفات العدوانية التي لاتتفق وصفته الرسمية حطم قيود الروابط التي يرتبط بها؟

لقد كان على حالت أفندي الذي لم يكن أوفد لغرض الحفاظ على حقوق الأمة وانتظام أمور الدولة، بل لمجرد استحصال الأموال الحكومية، أن لايقبل المال الذي استجداه باسم تغطية نفقات سفره؟

بعد ما رجع حالت أفندي بصورة ذليلة ومهينة إلى الموصل ووصلها، دخل في محادثات مع متصرفها محمود باشا عن كيفية التعامل مع سليمان باشا ونزعات التفرد والاستقلال بالأمر التي كان قد اتسم بها بدوافع استعلائية.

قال له محمود باشا: إذا كان لعبدالرحمن باشا البابانى حاكم السليمانية رغبة في الموافقة على القيام بعمل ما تجاه سليمان باشا، فلن تكون هناك حاجة لأي قوة وأي عدد قتالية أخرى، وهو لايرى عداه من يستطيع تأديب سليمان باشا واستئصال شأفته. وعلى هذا فقد اتصل حالت أفندي على الفور بعبدالرحمن باشا من خلال إيفاد موظف خاص إليه.

ومن جهة أخرى لاحظ سليمان باشا أن الأعمال الاستعلائية والانفصالية التي كان عكسها لحالت أفندي لن تظل دونما محاسبة ولن تمر بدون عقاب. وتلافيا لما قد يحدث من جراء هذه الأعمال بدأ يتخذ إجراءاته الاحتياطية. وللرد على أي تعرض محتمل قد يتعرض له، أخذ يجمع بكل ما أوتي من قوة ومكنة ووسائل القتال كالمدافع وسائر أنواع الأسلحة وأرسل أخاه بالرضاعة أحمد بيگ إلى البصرة متسلما لها بقصد حماية ميناء المدينة الحربي وتعزيزه وتجهيزه بمايلزم من قوة قتالية.

لم يكن من شأن ما كان لسليمان باشا من مستوى علمي أن تكون له من القوى

الإدارية والعقلية مايؤهله للجوء إلى تحقيق عمل من طراز ما كان حاول الإقدام عليه، ولكن زمرة من الأبالسة الوهابيين (معذرةً للأخوة الوهابيين من المسلمين السَّلفيين من فهم المؤلِّف المتشدِّد لمعتقدات غيره من المسلمين – المترجمان) استطاعوا التسلل إلى إرادته الروحية الشخصية فسولوا له ذلك حتى ورط نفسه في إدارة دولاب من ذلك النوع، فكان يسير وفق ما كان يدلونه عليه ويزينونه له. كانت غاية الوهابيين هؤلاء الاستفادة من غروره الأحمق لتهيئة الأرضية الملائمة لمفاسدهم التي كانوا يضمرونها في نفوسهم للعراق.

أجل، كان هدف أولئك إيجاد الفرصة المناسبة للحصول على موضع قدم ثابت لهم عندما تدب الفوضى في البلد ويسود الهرج والمرج وتتشتت الاتجاهات نتيجة لما كان سليمان باشا ينوي القيام به.

ولو كان لسليمان باشا إدراك عقلي وكان صاحب شخصية الخاصة لفكر في الأحداث الماضية التي كان جهاده ضد الوهابيين يشكل دعامتها الأساسية ولما ارتبط وإياهم، على العكس مما فعل، برابطة المودة ولما أدخلهم ضمن حريمة إخلاصه بما يخدم منافعهم. ولو أن عقله كان يحيط بمستلزمات سلامة حياته ورفعة مجد إرادته، لما تورط في ما سوله له وأغواه به عدو أساسي كهؤلاء. وبناءً على ذلك، لما دخل طريقا مسدودا كالذي دخله ولما انصاع للأخيلة والأوهام التي انصاع إليها. ولكن الزمان لم يكن علمه بعد دروس الأدب والعقل، فكان يتصور الوصول إلى مقام السلطنة أمرا سهل المنال، شأنه شأن الحصول على مقام الوزارة.

أجل، إنه كان يفكر ويقدر أنه كما كان إحراز مقاما للولاية والوزارة سهلا، فهو يستطيع كذلك أن يضع عرش السلطنة أيضا تحت أمره. فما دام يملك أمر إرادته كافة ومادام حرا في اختياراته، فلماذا يجب أن يرتبط بالعلائق التي يرتبط بها،

وماهي الضرورة لإدامتها، ولم لايصرف واردات العراق النقدية على القوة الذاتية ولغرض تعزيزها، وعلام يجب أن بسبب من هذه العلاقات الجافة الجامدة وباسم مخصصات المركز في الآمال الطامعة؟

وهكذا غدا سليمان باشا بملاحظاته هذه التي ولدها خياله الجاهل الغبي، وبالأوهام التي سولها له الدجالون المضللون، غدا بكل ما أوتي من قوة ضالا يطوي طريق الضلال، فما كان ليحس نحو أي درك مهلك عميق يعدو على ظهر جواده. وكما أن الإقبال من باب الإفعال على وزن الإغفال، يوائمه كذلك في علاقته التأثيرية، فالإقبال

بالنسبة لمن أقبل عليه هو في الحقيقة بمثابة شيطان مغفل من الدرجة الثانية، فكيف يكون بوسع الشيطان الفرعي أن يفضح منوياته ويمحوها، كما سعى الشيطان الأصلي لتدمير أخروياته، إن لم يكن بمقدوره خوض تسويلات ذلك الشيطان المغفل؟

إن عدم الانخداع بالإقبال، وأكثر من ذلك السيطرة على الذات في أيامه، واجب حيوي مهم بالنسبة للمرء. وفي الروايات التأريخية كلها دروس منبهة على هدى هذا الإقبال.

وبالنسبة لسليمان باشا، فلأنه لم يكن قادرا على إدارة مقدرات إقباله، بات يسلك طريق التيه والضلال واحتضن لحظات اضمحلاله ساعة إدباره.

لقد وقع في مهانة جراء حسن نظره وتورطه في أوهام الانفصال، ولكن ما الذي كان بوسعه أن يسير بهذا الخيال الفارغ إلى الغاية المرجوة؟ إن الزمن هو الذي يظهر ذلك. والوقائع هي التي ترينا إياه.

عندما توجه أحمد بيگ إلى البصرة فكر متسلمها سليم بيگ في الأمر، وقدر أنه لاطاقة له بسليمان باشا وجنوده قط. فترك موقعه دونما أي معارضة، ولم يعد من المعقول أن يبقى عبدالله آغا وطاهر آغا اللذان كان سليمان باشا قد أرسلهما إلى سليم بيگ ليقتلهما، ولكنه صرف النظر عن ذلك فيما بعد بشفاعة شفعها لهما لديه، فراجعا سليم بيگ وتوسلا إليه مسترحمين منه باستعطاف أن يواصل شمولهما بحمايته ونظر لطفه ورعايته ويأخذهما معه أينما ولى وجهه.

رأى سليم بيگ أن ظروفهما الآنية ظروف خطرة. ففكر في الأمر ورأى أن تركهما وشأنهما في ظرف دقيق كذلك الظرف لايتفق وسمو الخلق. وبناءً على ذلك فقد أركبهما في زورق وأرسلهما مباشرة إلى ميناء بوشهر. وعندما وصلا إلى هناك فكرا طويلا وعميقا في مصيرهما وتأمين حالهما وصالحهما ومستقبلهما وتوصلا في النتيجة إلى أن الأوفق أن يلجئا إلى حمية عبدالرحمن باشا حاكم إمارة بابان ونخوته الرجولية، وهو الذي كان يتحكم في مقدرات الديار العراقية. فأخذا على عاتقهما أن يتوجها إلى المشار إليه باسم سليم بيگ، وهيأ لهما هذا مستلزمات السفر وبذل لهما نفقات الرحيل والإياب وسفّرهما.

عندما وصل الرجلان إلى السليمانية استقبلا استقبالاً مقرونا بفائق الاحترام، كما هو ديدن الكُرد الذين يعتبرون إكرام الضيف وإعزازه واجبا قوميا أساسيا ويرون أن تلبية حاجات المسافر ومطاليبه كلها من مقتضيات ذلك الواجب وأركانه المتفرعة منه.

إلا أن الرجلين لم يبدوا أمينين لسليم بيگ إزاء ما قام به المشار إليه تجاههما من إنقاذه لحياتهما وتوليه أمرا عاشتهما وإنفاقه عليهما وتدبيره أمورهما. إنما قالا لعبدالرحمن باشا أنهما أتياه مباشرة من تلقاء نفسيهما من البصرة ملتجئين إلى شهامته ورجولته. كان عبدالرحمن باشا يعرف عبدالله آغا الذي كان يتولى فيما مضى وظيفة الكتخدا أو رئيس البوابين في بغداد، وقد خدمه بوصفه هذا في حينه، فأفهم عبدالرحمن باشا أن سليمان باشا لم يغضب عليه ولم ينفه إلى البصرة إلا بسبب علاقته هذه التي تربطه بعبدالرحمن باشا. وكان ذلك محض اختلاق. وإزاء هذا وجد عبدالرحمن باشا نفسه مدفوعاً إلى احترامه وتقديره أكثر مما يخدم مسافرا يربطه بالمضيف قدر من العلاقة والمعرفة.

وفي هذه الأثناء وصلت رسالة حالت أفندي يحملها رسول خاص، وكان مفهوم الرسالة على النحو التالي:

لقد سلك سليمان باشا بإعراضه عن قبلة الخلافة سبيل الإلحاد وتورط في دواعي الانفصال والاستقلال. ولهذا فإن الإسهام في تأديبه واستئصال شأفته واجب وفريضة محتمة على كل مسلم، ذلك لأن العقيدة الوهابية حلت في روحه بحيث أخرجته من حدود الدين. والرابطة الأساسية التي تشد أبطال البابان إلى الصلابة الدينية ومقام الخلافة حقيقة ظاهرة للعيان منذ زمن بعيد. وعلى هذا فإن الحاجة إلى تلك الحمية التي كانت مآثرها العملية بادية للجميع، تشتد اليوم أكثر من أي وقت مضى، والخدمات والمجاهدات التي تقدم في هذا المضمار لاتذهب سدى بطبيعة الحال في أنظار الحضرة السلطانية. وبناءً على هذا فإني أرجوكم باسم جلالة السلطان عز اسمه الاشتراك في هذا الجهاد. وإني بانتظار جوابكم بالموافقة أو عدمها على هذا الأمر، على أحر من الجمر.

كان عبدالرحمن باشا على علم من قبل بما جرى بين حالت أفندي وسليمان باشا. وعلى هذا فقد وافق على تلبية الطلب على أن تضاف أربعة آلاف كيس آقچه إلى مخصصات العراق السنوية التي كانت ألف كيس آقچه ودفع خمسة آلاف كيس آقچه مقدما، وأن يناط به تأمين وضمان الأمن الداخلي والانضباط الخارجي حقا وصدقا ويعتبر المسؤول عن كل حركة وتصرف مخالف لأمور الإدارة. وكان الباب العالي قد فوض حالت أفندي أمر توجيه ولاية بغداد إلى عبدالرحمن باشا، ومع هذا قرر عبدالرحمن باشا ترك آماله المستقبلية في هذا الصدد لصديقه القديم عبدالله آغا

انطلاقا من المقولة القائلة «تخليت عن تحقيق أمانيّ لتتحقق أماني صديقي». كما أجاب على رسالة حالت أفندي على النحو الآتي:

«إن تمكن وجود واحترام أسرتنا من السير على قدميهما في ساحة الوجود، إنما هو حصيلة واضحة لتلك المعنويات المعجزة التي تكمن في الحمية الدينية. وبهذا الاعتبار تكون غايتنا الأساسية دوام الارتباط بمقام الخلافة الذي هو مركز إشعاع تلك البارقة العلوية. وفي سبيل هذا الارتباط تكون تضحيتنا بالحياة وأداؤنا الخدمات الفدائية تعبيرا عن صدقنا وعبوديتنا.

أجل، إننا نمونا بافاضة فيوضات ذلك المقام المقدس. وفي ظل الارتباط بآثار تلك الفيوضات التي تبرز منها السعادة نحيا حياة معززة مكرمة في الدنيا وفي الآخرة. ومع هذا، فإننا اعتبارا من جدنا الأعلى فقي أحمد ومروراً بجميع أفراد السلسلة حتى يومنا هذا، لم يعرض أي فرد من أفراد أسرتنا عن إبداء مشاعر الشكر والامتنان لقاء هذا ولم يبد إزاءها ذرة من المعارضة. ولكن ما الفائدة إذا كنا مهما أوفينا بواجبات العبودية ومهما أبدينا من مآثر الصداقة والتبعية مشبعين بتأثير ذلك الإحساس والارتباط والاحترام، كانت نوايانا الحسنة وتبعيتنا الفكرية والعملية تلقى دوما عكس ما كان يتوقع أن تلقاه. ومما يجب ملاحظته أنه ما من أخلال واختلال وقع حتى اليوم، وما من عصيان وبغي حدث في الديار العراقية أمكن إخماده وإزالته إن لم يقمع ويؤدب ويقتحم بسيف بسالة البابانيين والسليمانيين. وهذا ما لايحتاج إلى البرهنة عليه، فوقائع التأريخ تشهد بذلك. ومع ذلك فلايظنَّ أحد أن مجاهداتنا هذه كانت مبنية على الرغبة الذاتية للوزراء واستنادا إلى استعطاف إطاعة التوجهات الذاتية لأولئك، كلا ... انها كانت من محض التسليم بوجوب حسن الإطاعة التي تعود إلى انتسابنا إلى مقام وكالة الخلافة التي تضاف إلى نفوذنا. في حين أن الوزراء المشار إليهم لم يتخلفوا يوما ما عن إهانة الصفة المقدسة التي كانوا يحوزونها والعنوان الذي كانوا يحملونه وخيانة رعاياهم وإخوتهم أبناء الشعب تحت هذا الاسم، على الرغم من أن السلطان مكلف بأن يوجه نظر عنايته ويشمل بمآثر عدالته أبناء الشعب بالنسبة نفسها التي يحس بها الرعايا بالاحترام والطاعة للسلطان. فبمقدار مايجري التمسك بهذه الوظائف الدينية والمزايا المتبادلة يحصل بالطبع الأمان والمحبة المتقابلة. وفي ظل وضع كهذا، يسعى كل واحد للحفاظ على حدوده الأدبية. ولأن هذا المبدأ لم يراع حتى الآن، لم يعترف لا سليمان باشا ولا أسلافه الوزراء الذين ساروا على طريق الاستعلاء

والاستكبار نفسه بأن هناك مرجعا أعلى فوقهم.

والحالة الراهنة لسليمان باشا، بالرغم من أنها ينظر إليها من وجهة نظر الحكومة السنية على أنها عمل فضولي، إلا أنها في نظر الرأي العام أمر مشروع. فالخلافة والسلطنة ليس لهما أي تأثير على إدارة شؤون الشعب والبلاد أو في شعب الحكومة أكثر من اسم مجرد تردده الألسن. أجل، إن الوزراء يقطعون والوزراء يقتلون ومن شاءوا فتَّتوه بأصابع قهرهم وغضبهم، وما شاءوا أخذه من مال المسلمين أخذوه سلبا ونهبا ولاسيما سليمان باشا الذي لايكتفي بمنطقه نفوذ حكومته فيرخي العنان لعدوانياته وشقاواته لتشمل إيالات دياربكر وأورفه. وهكذا يبلغ به الطيش والتهور حدَّ التجاسر على الطمع في الاستحواذ على مركز السلطة أيضا. ومع كل ذلك فإنه لايرى أحدا يقف في وجهه ليوآخذه ويحاسبه على ما يفعل. ومن أجل الاستحواذ على كرسي الحكم في الديار العراقية، يبرز على الساحة بين أنواع من الناس صراع وتطالب مرير، فهذا يختطف من ذاك، وذاك ينتزع من بين أنياب الآخر. وبدافع الحرص والطمع الذي يكمن وراء هذا الصراع والتكالب جعلت الفتن والفوضى من بغداد ساحة ملحمة. ومع هذا كله، فإن المالك الشرعي لهذه الديار والبلاد التي غدت ميدانا للصراع والتكالب وتبادل الانتزاع والاختطاف، لايكلف نفسه عناء السؤال: لِمَ، وعَلامَ؟ ولا تبدر بادرة ما على ظهور صاحب بلد يوجه صفعة إلى وجه أي واحد من أولئك.

ويعرف السلطان بنفسه كل هذه الأمور، ولكنه يتغافل عنها ولايعيرها أي اهتمام، لأن القيمة السامية لشرف الخلافة الإسلامية والثقل المعنوي الأثيري لهذه العلوية لاتكشف عن نفسها مطلقا للأجنبي. ومع ذلك لايتصور من أي فرد في هذه الدنيا أن يقبل بدمار دياره وممتلكاته أو تحقير أولاده وعائلته أو يرغب في ذلك ويصرف النظر عنه.

«أجل، إن السلطان غافل عن هذه الأمور كلها، ولاتخلو غفلته هذه عن حالتين اضطراريتين. فإما أن تكون مشاغله المحلية والموضعية المزعجة جعلته غافلا عنها وأنسته إياها، وإما أن الأوضاع العامة للأحداث الجارية وضعت تحت رقابة هيئة خاصة وقضى على كل إمكاناته للعلم بها والإعلام عنها. وفي الحالتين كلتيهما ليست هناك شبهة في أن المسؤولية العامة تقع عليكم.

«إذاً، إن كل هذه المآسي الإدارية التي تتخبط فيها الديار العراقية تعرض ظلامتها بصرخاتها المعبرة عن الآلام وبمناداتها بالويل والثبور عما تعانيه من المصائب والمحن،

وهي تحاول أن تستجذب لها رقة قلبكم ودقة بصيرتكم، في حين أن كل هذه الفضائح التي أصابت الأمة الإسلامية لاتثير فيكم أحاسيس الثأر والانتقام، ولكن عدم دفع قروش معدودة من المخصصات المركزية تهز أوتار عصبيتكم. وبين كل هذه المآسي والمظالم مامن نقطة واحدة تستوجب تأديب المشار إليه إلا هذه النقطة وحدها.

إني أفكر فيما لو لم يتورط سليمان باشا، افتراضا، في هذا العناد الاستكباري واستسلم للموافقة على دفع النقود المطلوبة منه، كيف كنتم تقبلون هذا المال الذي ليس إلا حصيلة السوء وخسة الشقاوة وليس له مصدر مشروع سواها، وكيف كنتم تستطيعون إضفاء اسم بيت المال المقدس عليه؟ لاشك في أنكم كنتم تقبلونه منه وكنتم تصبحون بذلك أبلغ شاهد على صدق سليمان باشا وعصمته أمام السلطان. وهذه الحالة الإدارية السائدة ليست لها علاقة بالرأي العام ومقام الخلافة ومركز السلطنة وإنما تتعلق بالإرادة الشخصية لسليمان باشا. وإلى هذا السبب يعود واقع أنكم لاتجدون اليوم في الديار العراقية فردا واحدا يتجاسر على قبول تكليفكم هذا، وحتى إذا سقتم الجيش لم يتأخر أهل العراق دقيقة واحدة عن الوقوف بوجه العساكر الإسلامية، ذلك لأن الرابطة الأساسية التي عكستموها في طراز الإدارة، وبعبارة أصح، الإرادة الوطنية التي لطختموها في سبيل المطامع المادِّيَّة بالمآرب الشخصية وسلتموها إلى رغبة التملك والآمال الطامعة لاتؤمن لكم بالطبع ساحة نفوذ.

إن الكتلة الإسلامية الكُردية التي توحدت تحت اسم البابانية فقط، ولم ينفرط عقد وجودها لاستظلالها بالاقتناع بقدسية مقام الخلافة وبنزاهة الروح والوجدان، أجل إن هذه الكتلة الإسلامية البابانية التي قضت، على الرغم من إغراءات الإفساد الكثيرة وتدخلات الوزارة التعسفية، عصورا في ظلال صفاء العقيدة، ماتزال لها اليوم أيضا من القوة والمقدرة ماتستطيع أن تلتزم بها بخدمة من ذلك النوع على نهج يكون امتثالا لرضاء الحضرة الشاهانية فقط. وإزاء هذه الخدمة التي نلتزم بها لنتجنب إطلاق صفة العصيان الفضولية علينا، ولئلا نكون موضع اتهام في المستقبل، يتعين أن لايكون الشخص الذي سينصب في مكان سليمان باشا من أولئك الذين يشترون حياة الشعب بثمن باهظ، بل يتحتم أن يكون بقدر مايتعلق الأمر بنا جديرا بالائتمان والاعتماد عليه من قبلنا أيضا.

فمن أجل أن لايكون مصير ما قلنا العاقبة نفسها التي آل إليها سليمان باشا، يتحتم زوال جميع قوى هؤلاء ومفاسدهم التي كانوا يستخدمونها لسعادتهم الخاصة

والتي تهدد وجودنا نحن. كما يجب رفع جميع الشكوك التي تساورنا وإزالتها. فإذا ظلت الأمور كما كانت عليه، كانت النتيجة كما لو أننا سعينا بجهودنا الخاصة وقوانا الخاصة ضد أنفسنا لنتوصل إلى نتيجة ليست إلا حدوث الشغب والفوضى والمصائب في البلاد. إننا نرى أنه يجب أن يكون الشخص الذي يعين بدلا من سليمان باشا رجلا جديرا بالثقة به والاعتماد عليه، والشخص الذي نستطيع نحن الاعتماد عليه هو أمين الخزانة السابق عبدالله آغا. وعندما يصدر الفرمان باسم المشار إليه فسيتم بعون الله القضاء على حكومة سليمان باشا. إن لنا نحن في واقع الأمر شعورا بالعبودية والاحترام المتحرر من الخوف والاستقلال إزاء سلطاننا. إلا أن حذرنا من النقاط التي تؤدي إلى سد الأبواب بوجوهنا وإلى اضمحلال مصالحنا الآنية، هو الآخر، أمر طبيعي. ومع ذلك فإن الغرض الذي نتوخاه هو السعي لبقاء الديار العراقية وضمان سلامتها وهي من بلاد السلطنة الهمايونية. ونأمل أن لاتكون ملاحظتنا الأساسية هذه التي نشترطها متعارضة مع الرغبات الشاهانية، وبالله التوفيق.

وعندما وصلت هذه الرسالة الجوابية إلى حالت أفندي استاء كثيرا من أسلوب الحديث الذي تحدث به عبدالرحمن باشا ولكن استياءه هذا لم يكن مما يمكن أن يقاس بما كان يحمله في قلبه من غيظ واستياء إزاء سليمان باشا. والواقع أن عبدالرحمن باشا، وإن لم يكن قد راعى، وفقا لعصبيته الكُردية، الوضع الممتاز والصلاحية الكاملة التي كانت قد أنيطت بحالت أفندي، ولم يلق المجاملة جانبا، إلا أن انطباعاته لم تتضمن كلمة واحدة عارية عن الحقيقة والمصلحة.

ولو كان لحالت أفندي إحساس علوي ومحبة قومية ووطنية لما اكتفى بأن لايستاء قلبيا من أسلوب حديث عبدالرحمن باشا المبني على حسن النية والناتج من الآلام القلبية، بل وصار ممتنا له إلى حد كبير، ولتلقى كلماته وعباراته التي ترشح بالاحتجاج الناجم من الغيرة الدينية والحمية الوطنية بالتقدير الخاص، ولأحسن، بناءً على هذا، بالإخلاص إزاءه ولأحبه من الصميم. ولكن هيهات. أفلم يكن فقدان مثل هذه المشاعر السامية لدى أولياء الأمور الذي كان يحتضن الخلافة الإسلامية العريقة والسلطنة العثمانية في أحضان سطوته هو الذي أصابها بتلك الحالة المؤلمة التي كانت تحياها في تلكم الأيام.

ومع أن حالت أفندي كان قد غمرته، خارج المزايا الأصيلة للحقائق العلوية، أحاسيسه ونواياه المضمرة الجبلية وشعر بفعل هذا التأثير بعميق الإهانة من جراء

أسلوب الحديث الذي خاطبه به عبدالرحمن باشا الذي أنطقه على ذلك النحو تلهفاته الروحية المبنية على الاعوجاجات الإدارية، إلا أنه، لضرورات الوضع، ارتدى كسوة المحاشاة وكان ذلك بالنسبة إليه أمرا معتادا.

وعلى هذا، فقد رد على رسالة عبدالرحمن باشا الجوابية هذه، وبعد إظهار الشكر والامتنان المفتعلين إزاء غيرة المشار إليه الدينية وحميته الوطنية بشأن طلب توجيه إيالة بغداد إلى عبدالله آغا وتصويبه ذلك وبين كتابته إلى الباب العالي لإصدار أمر إسناد الوزارة من لدن حضرة صاحب مقام الخلافة واسترحام شرف ورود الفرمان الهمايوني بذلك عما قريب، كتب إليه أنه قرر بهذا الشأن إيداع وكالة الإيالة إلى عبدالله آغا وطلب من عبدالرحمن باشا المبادرة والإسراع لإجلاسه على مقام الحكومة المذكورة، كما ذكر أنه سيتوجه بنفسه أيضا مع القوات التابعة للموصل وأربيل إلى كركوك، وأكد ضرورة الاستعجال في اتخاذ الإجراءات اللازمة والتحرك شطر المطلوب.

وما إن تسلم عبدالرحمن باشا هذا الجواب الطنان الرنان حتى أقام احتفالية لإجراء مراسيم مبايعة عبدالله آغا بتقليده المنصب وأصدر أوامره إلى الأركان والأمراء بالاستعجال في القيام بالتحضير للتحرك.

وفي الثاني عشر من شعبان بدأ التوجه نحو كركوك على رأس قوة قوامها عشرة آلاف من المشاة وثمانية آلاف من الفرسان. وعند وصوله كركوك أمر بإقامة احتفالية هناك أيضا يبايع فيها أعيان كركوك وأشرافها عبدالله آغا على وكالة الإيالة حسب القواعد المتبعة. وفي الوقت نفسه وصل حالت أفندي كركوك بصحبة محمود باشا متصرف الموصل وأربيل وعلى رأس القوات التابعة لهاتين المتصرفيتين، وتلاحمت القوات المحتشدة وعندما اطلع سليمان باشا على ماجرى اضطرب اضطرابا شديدا وتألم كثيرا إذ لم يكن قد تصور من قبلُ إمكان اشتراك عبدالرحمن باشا في هذه العملية، فهو وإن كان يملك القدرة على الرد على بقية المشتركين إلا أن تدخل عبدالرحمن باشا واشتراكه في العملية كان قد جعله في حيرة من أمره وأوقعه في غمرة الأخيلة والتأملات وجعله يائسا من احتمال طاقة المقاومة. وبناءً على هذا فلم يَرَ حلاً آخر يضمن له النجاح والتوفيق إلا الاستنجاد بالشاهزاده علي ميرزا طالبا منه المساندة والمعونة، فالتجأ إليه بحكم الضرورة وكان مطلبه إما أن يحول دون اشتراك عبدالرحمن باشا في الزحف عليه أو أن يساعده بقوة كافية للرد.

كان الإيرانيون يركزون أنظارهم منذ زمن بعيد على العراق وبخاصة من أجل عتباته

المقدسة وكانوا يهدفون إلى إحلال سياسة تساعد على إنفاذ نفوذهم في العراق من خلال التدخلات الإدارية.

كان التجاء سليمان باشا إلى الإيرانيين هذا منسجما ومتطابقا مع الغايات الأساسية للشاهزاده علي ميرزا في هذا المضمار. لهذا وفي سبيل عدم إضاعة الفرصة أخذ يبذل مساعيه المنافقة، إلا أنه كان هناك أمر يجب أخذه بالحسبان. ذلك أن طلب المساعدة المادية كان يقتضي استحصال الموافقة من مقام الشاه، فكان على الشاهزاده أن يقنع عبدالرحمن باشا بالانسحاب من الموضوع ريثما يصل طلب السماح بالمساعدة إلى طهران وتأتي الموافقة على ذلك من الشاه، وكان قد أخبر عبدالرحمن باشا بأن مسألة الوقوف إلى جانب سليمان باشا في خصومته مع الدولة العثمانية قضية ملتزم بها من وجهة نظر الدولة الإيرانية، ولذلك فإن أي حركة عدائية تجاه المشار إليه من قبلكم تعتبر خصومة صرفة ضد الحكومة الإيرانية. فلئن كان تشريك المساعي مع سليمان باشا لايتفق ومصالحكم ولاينسجم مع ظروفكم وأحوالكم، فإن اجتنابكم معارضته على الأقل أمر ضروري. ومادامت الحكومة الإيرانية ملاذكم وملجأكم في كل الأحوال، فإن مراعاة مصالحها وخدمة إرادتها واجبة في ذمتكم. ومع هذا فإن الغاية الوحيدة للحكومة الإيرانية هي أن تضع سلامة حال وسعادة كُردستان المستقبلية والديار العراقية.

هذا الإعلام الذي بعث به الشاهزاده إلى عبدالرحمن باشا أوجد في نفس الأخير اضطرابا لم يكن ناجما من أنه كان مضطرا إلى الاستجابة لأوامر الشاهزاده، فهو لم يكن من أولئك الذين يثنيهم عن عمل أقدموا عليه ويضطرهم إلى التراجع عنه إلا القوة المعنوية، ولم يكن يزعزع عزمه أو يسبب الفتور في عمل يفكر فيه أي أوهام أو تأثير أو تأثر ناشيء من الدوافع المادية، إنما كانت حيرته وتعجبه بشأن ما أمر به الشاهزاده ناشئين من أنه لم يكن يستوجب ماهية وصورة هذا الاقتران الجاري بين الشاهزاده علي ميرزا وسليمان باشا. والواقع إن غاية الشاهزاده من وجوده على الساحة العراقية وإن كان مبعثها أن يكون أي تغير في الإدارة العراقية في صالح إيران بالاستفادة من أي وسيلة أو فرصة، لكنه كان يظن أنه إذا كان هناك شيء في أمر هذا الخلاف، فهو يكمن في المنافسة بين الولاة والبابانيين.

وفي الحقيقة، لم يكن بالإمكان ملاحظة أي أساس أو مدخل آخر لإيصال الإيرانيين إلى غايتهم المنشودة في هذا الباب، ولم يكن هناك احتمال لدافع آخر في هذا المضمار،

في حين أن الخبر الذي بعثه الشاهزاده علي ميرزا كان قد وضع القضية في مسار آخر تماما. أجل، كان هذا يعني أن يوصل علي ميرزا سليمان باشا، بأي صورة كان، مستغلا جهله، وطبقا للأماني والتسويلات التي ورطه فيها إلى حالة ملائمة يستطيع أن يلعب فيها به كما يحلو له ويشاء. آنئذ لم يكن يبقى الأمر في صورته الأولية، بل كان التدخل الإيراني والخصومة الإيرانية يغدوان مستترين في الوجه الداخلي للقضية. وعلى هذا، لم يكن عبدالرحمن باشا، في مثل ظروفه تلك، بمنجى من الوخامة والمخاطر. ولذلك كان يرى من الضروري اتخاذ تدابير أساسية بالنظر لتعكر الموضوع وغموضه.

وبعد تفكير طويل وعميق وجد عبدالرحمن باشا نفسه وجها لوجه إزاء حالتين سلبية وإيجابية، مرة وحلوة. أجل، كانت الجهة السلبية المرة في الموضوع أن المكائد التي كان يدير دولابها علي ميرزا والتي كان صدى انعكاساتها مجهولا له في ذلك الظرف، كان يمكن أن تكون في صالح الإيرانيين وتنجلي بوارق نجاحهم وتوفيقهم فيها. في هذه الحالة كان لايستطيع الحفاظ على سلامة المنطقة الواقعة بين الديار العراقية والإيرانية وخصوصيتها، وكان يغدو بنفسه ايرانيا بطبيعة الحال، ولكنه كان يرى إحراز النجاح بين القوتين في حالة إظهار الخصومة أيضا أمرا جدَّ بعيد.

وبمقتضى إشعار الشاهزاده علي ميرزا، كان الحياد أمرا غير ممكن. فقد قيل في الإعلام المتعلق بالحادث المشار إليه إن الغاية الوحيدة للحكومة الإيرانية هي أن تكون حال وسعادة كُردستان المستقبلية رهن إشارتها، أي إن الدولاب الذي كان يدور، كان يتعلق، قبل العراق، بمقدرات كُردستان لأن اسم كُردستان كان قد ورد في العبارة قبل اسم العراق ففي هذه الحالة سوف يقحم هو في مخاصمات فعلية في آخر الأمر سواء ظل محايدا أو لم يظل. وباعتبار النتيجة التي ستحصل، فإن ما يلاحظ حصوله في هذا الباب هو أن عالم البابانية لن يحصل على أي كسب أو توفيق وسيكون نصيبه الفناء والاضمحلال المادي والمعنوي.

ويجب أيضا تحليل النقاط الإيجابية الحلوة التي هي عكس المطالعات المتشائمة السابقة. فأولا يكون رفض الموافقة على تشريك المساعي في هذه العنوة المكابرة الفاسدة، كما هو شأن أولئك، جحوداً للإسلام ولمقام الخلافة. وهذا جدٌّ بعيد عن بلوغ النجاح. ثانيا، إذا سوندت الخيانة بحق العراق من قبل إيران، فإن من يعين صداقتنا نحن هو الله معنىً وخليفة المسلمين مادَّةً، ومحاربة العراق ممكنة في الظرف الراهن،

وإذا تدخلت الحكومة الإيرانية في الأمر في آخر الأمر فسوف لن تتركنا الحكومة العثمانية دونما سند أو معين، ولاسيما أنه ستتحقق لنا في النتيجة الفرصة لتصفية الحساب القديم بشأن منطقة أردلان مع الإيرانيين.

إن ما كان يمنع تصفية هذا الحساب حتى الآن هو تلك المشاكل المحلية المستمرة التي ظهرت إلى الوجود نتيجة لسياسة الوزراء المنافقة. ولكن مادامت الولاية قد أسندت في بغداد إلى عبدالله آغا، فذلك يعني أنه آن الأوان أن نبحث عن حقنا هذا وندقق فيه. وستتسامح الدولة العلية معنا بشأن المساعي التي بذلناها في هذا المجال في سبيل استرداد حقوقنا وبسبب من إهانات الإيرانيين.

ولكن إذا كان هناك أمر أهم وجدير بالتفكير فيه الآن، فهو مسألة إخفاء التدخل الإيراني عن حالت أفندي، ذلك لأن الغرض الذي يهم المشار إليه هو مجرد الحصول على النقود والعودة بجيوب مملوءة، في حين أن التدخل الإيراني المستتر في أسرار المسألة وخفاياها سيسد الباب بوجه ذلك الأمل الذي يأمله المشار إليه فيبدأ بالتشبث برداءة الارتباط بالأوتاد الخارجية. وبناءً على ذلك، إذا لم ينكشف مدى أهمية المسألة عمليا، وجب اخفاؤها عن حالت أفندي.

وبعد أن أجرى عبدالرحمن باشا ملاحظات ومطالعات ذهنية وفكرية على أساس هذه النقاط أرسل هيئة مترصدة إلى كرمانشاه بقصد التجسس وترصد الجهود والمساعي والأعمال التي يقوم بها علي ميرزا هناك ليكون على اطلاع يوما بيوم وإن اقتضى الأمر دقيقة بدقيقة على المعلومات المستحصلة. ومن جانبه أخذ يسرع في تحركه الذي بدأه نحو بغداد.

كان الرسول حامل الخبر الشفوي الذي بعثه علي ميرزا إلى عبدالرحمن باشا قد التقاه في كركوك. وبعد أن أجرى الباشا ملاحظاته ومطالعاته على النقاط الذهنية السالفة الذكر، رأى من الضروري تأخير الرسول المذكور بالتسويفات والمماطلات المستمرة، وكان يرى هذا الأمر ضروريا بغية تأخير تلقي علي ميرزا الأخبار عن التحركات التي تحدث، من جهة، ولضمان وصول هيئته المترصدة إلى كرمانشاه في أقرب وقت، من جهة أخرى. وبناءً على هذا أغفل الرسول المذكور بمختلف الوسائل حتى تجاوزت القوة المتحركة كفري. وعند ذلك انتفت الحاجة إلى تأخير الرسول، فذكر في جوابه الذي حمله رسول علي ميرزا ردا على بياناته الآنفة الذكر، أن إضاعة الفرصة التي سنحت له للانتقام من سليمان باشا جزاء له على حركاته وتجاوزاته الاستبدادية

السابقة ضده، ليس أكثر من إظهار للشلل الفكري، وبخاصة أن ضيفنا عبدالله آغا الذي عين في محله وكان قد التجأ في حينه إلى إيران وتلقى منها العطف والمودة، أسندت إليه هذه المهمة لضمان مصالح إيران وسلامة كُردستان المستقبلية سواء بسواء. ومع ما فيه، فإن الحكومة الإيرانية لن تحصل قط على فائدة من وراء جاهل مغتر بنفسه مثل سليمان باشا. وبناءً على ماسبق، فإن إضاعة فرصة مهمة كالتي سنحت اليوم وفي هذا الوقت بالذات، إنما هي بمثابة تنمية ساحة مليئة بالأشواك تكون دوما مصدر إزعاج لإيران وكُردستان. هذا إلى جانب أن الأوضاع والظروف الزمنية الراهنة ليست ملائمة لاتفاق حقيقي[٤٧] لأن تأخير الحركة سيؤدي في نتيجته إلى الندم بدرجة كبيرة. وإذا كانت هناك حاجة في المستقبل لجأنا إلى طلب مساعدتكم بالطبع.

كان غرض عبدالرحمن باشا من بياناته المشحونة بالمغالطات هذه، بالدرجة الأولى، يتأتى من فكرة إقناط الشاهزاده من آماله الخاصة وعدم إفساح المجال لتدخله. وقد كانت ملاحظاته مصيبة وصحيحة في الواقع إلى حد كبير.

وقد أجريت المبايعات اللازمة لعبدالله آغا ابتداء من كركوك، سواء من قبل المسؤولين الحكوميين أو من قبل رؤساء العشائر ووجوه المدينة، وفق الأصول المرعية.

ومن أجل ضمان إسهام الجميع في عمليات التعرض والهجوم كان يجري إشعار كل الجهات من قبل عبدالرحمن باشا بما جرى. وإذ كانت كل جهة تجيب على دعوة الاشتراك في العمليات بالايجاب، تعلل عبدالفتاح باشا متصرف باجلان واعتذر عن الحضور والمشاركة وذلك بتحريض من الشاهزاده علي ميرزا. وقد استاء عبدالرحمن باشا من ذلك أيما استياء وتولاه الغضب فأرسل أخاه سليم بيگ على رأس قوة كافية ليأتي به مع مسلحيه. وإذ امتنع عن الامتثال للأمر عامله بالقوة ونكل به وضرب رأسه وحمله معه إليه.

ولما وصل سليم بيگ إلى منطقة باجلان على رأس قوته هذه، لم يجد عبدالفتاح باشا علاجا له سوى جمع كل ما أمكنه من قوة والتحق على رأسها بصحبة سليم بيگ بعبدالرحمن باشا حيث اعتذر له عن تأخره في اللحاق به.

لم يكن سليمان باشا أيضا في غفلة عن فعالية هذه القوة المهاجمة. فقد كان المشار إليه يتلقى أنباء تحركات القوات المعارضة من كركوك بواسطة جواسيسه، فحرك القسم

(٤٧) يقصد مع سليمان باشا – المترجمان.

الأهم من القوات الموجودة لديه تحت قيادة فيض الله آغا الكهية إلى موقع الخالص-خرنابات حيث أجريت الاستحكامات اللازمة ونصبت المدافع. وكان عبدالرحمن باشا يفكر في ضرورة إنجاز المهمة بأسرع مايمكن تفاديا لاحتمالات التدخل الإيراني، في حين أنه لم يكن لديه للرد على بطاريات المدافع المنظمة التي نصبها سليمان باشا سلاح آخر سوى البنادق والمزاريق والسيوف، وكانت القضية تطول في هذه الحالة.

وبناءَ على هذا، فقد رأى أن من الأصوب الزحف على بغداد مباشرة لتأمين غاياته بدلا من أن يرضى بالمصادمات المتقابلة المستمرة وجها لوجه بالاستناد إلى قواه الدفاعية، ولكنه لم يتوان عن التفكير في أمر مهم آخر وهو إحداث عصيان وتمرد في داخل مدينة بغداد نفسها. فإذا حصل النجاح في إشعال نار عصيان من هذا النوع في مدينة بغداد انشقت قوى سليمان پاشا من أساسها وانهارت معنوية الشرذمة الموالية منها له وانهدت عزيمتها في المقاومة. وهكذا بدأ عبدالرحمن باشا يخطط.

وعلى أساس هذه الملاحظات والأفكار اتفق مع عبدالرحمن آغا الذي كان يسكن بغداد منذ أمد طويل وقد ذاع صيت بطولته وجسارته لدى سكانها، وكان يوصف في أوساطهم بصفة (أبو جاسم) المتحققة فيه، وكان جديراً حقاً بالقيام بإثارة فوضى وهرج ومرج من هذا النوع. فأخذ هذا يراسل أمثاله وأشباهه في بغداد ويوضح لهم مايجب عليهم القيام به، ووعده عبدالرحمن باشا بمكافآت مهمة لقاء الإسراع في إحداث فوضى شاملة.

كان عبدالرحمن آغا رجلا مبسوط اليدين وشخصية مرموقة بين أوباش بغداد، فكانوا جميعا تحت إرادته وطوع بنانه.

وكلما لاح بصيص أمل في تحقيق مطامع أخذ أكثر الأمور إشكالا وتعقيدا على عاتقه. كان يضرب دونما حذر، وكان ينفذ كل خدمة يوكل بها إليه ولم يكن يبدي برودة أو فتورا في مسلكه وما كان ليرهبه أي شيء، وحتى الهواء ما كان يستطيع أن يأخذْ اسراه مع جليسه إلى خارج مجلسهما. وعلى هذا النحو الذي ذكرنا، جمع عبدالرحمن آغا زملاءه جميعا وشرح لهم الحالة على الصورة الآنفة الذكر واتخذت المقررات التي كان يجب اتخاذها بالاشتراك مع هؤلاء.

وفي اليوم الثاني احتشد الكل في المحل المخصص لهم. وفي الحملة الأولى التي شنوها دمروا موقع آمر الإنكشارية. وبما أن القسم الأعظم من أولئك الإنكشارية كانوا من أتباع عبدالرحمن آغا، فقد تم احتلال مقرهم دونما مقاومة، وحزت رقبة زعيمهم

إسماعيل آغا. وفي الحملة الثانية تم احتلال إيچ قلعة (القلعة الداخلية). وفي هذه الحالة، حيث لم يبق هناك مايوجب الكرر، دق الإنكشارية الطبول علامة الفرح واذاعوا نبأ حدوث التمرد وغلبة المتمردين وأبلغ سكان بغداد بما جرى.

وعندما اطلع سليمان باشا على ما جرى وتبينت له صورة الوضع، أخذ معه أفراد حرسه الخاص مع بعض الخدم والأتباع وحفروا الخنادق وأقاموا المتاريس واتخذوا مواقع الدفاع وانضم إليهم قسم من سكان بغداد واشتدت المصادمات بين الفريقين بكل قوة ودارت رحى الحرب حتى حلول المساء.

وعندما حل الليل وساد الظلام حمل عبدالرحمن آغا معه رأس زعيم الإنكشارية وسار لإمداد عبدالرحمن باشا. ولما اطلع عبدالرحمن باشا على كيفية الوضع وتفاصيل ماجرى أمر قواته المهاجمة بالتحرك نحو بغداد. وإذ وصل نتيجةً للواقعة على مسافة ثمانية ساعات من بغداد، اتخذ من القرية المذكورة مقرا له وأمر بنصب الخيم هناك. ولما لاحظ فيض الله آغا أن القوى المهاجمة تخلت عن التعرض له، توجه هو الآخر، نحو بغداد، وأقام مقره على مسيرة ساعتين من الأعظمية وأخذ يقيم المتاريس.

ووقفت القوتان خارج المدينة وجها لوجه. وعندما بدأتا تتبارزان في ساحة القتال، وجد سليمان باشا أن بقاءه في بغداد سالما من المحاذير في وجه الاحتمالات المتوقعة أمر يجانب الصواب، فالتحق بمقر قوات فيض الله آغا.

وفي صباح اليوم التالي أثبت عبدالرحمن باشا وأبطال بابان والسليمانية وجودهم في ميدان القتال. كانت الغاية التي يهدف إليها المشار إليه هو الإسراع في إنهاء القضية وقصر الوقت الذي تستغرقه، في حين أنه كلما دوَّت المدافع المدهشة من مقر قوات سليمان باشا تبدَّى له تحقيق المهمة المتوخاة أمرا خارج دائرة الإمكان، فوضع نصب عينيه أي تضحية ممكنة وأصدر أمره بانتزاع المدافع من قبضة أتباع سليمان باشا بأي ثمن كان.

وطبقا لهذه الغاية، تخلى عن الصدام وجها لوجه وشن حملة على المدافع مباشرة، إلا أن دويَّ المدافع وطيران طلقاتها فوق الرؤوس وأزيز الرصاص، كل ذلك سد الطريق بوجه قواته نحو الوصول إلى الهدف المنشود. وهكذا تسبَّبت الهجمات الثانية والثالثة والرابعة في وقوع خسائر كبيرة ولم يتيسر للمهاجمين إحراز الظفر.

وعند المساء ظلت جثث عبدالعزيز بيگ شقيق خالد باشا ومابين ستين إلى سبعين قتيلا من أبرز الأبطال في ساحة المعركة وعاد الباقون قانطين إلى موقعهم. ولكن قوة

سليمان باشا المدافعة بوجه هجمات عبدالرحمن باشا كانت قد تكبدت أيضا خسائر جسيمة، ولذلك فإنها كانت شديدة الخوف. فسليمان باشا كان قد حصلت له القناعة بأن عبدالرحمن باشا سينتصر في آخر الأمر، وعندما ينتصر فسيصفي معه الحساب بطبيعة الحال على الخسائر التي تكبدها في حملته هذه ضده، وهكذا كان متورطا بشدة في الأوهام، ولكن هذه الأوهام التي لم يكن لها مغزى بسبب النوايا الحسنة التي كان يضمرها عبدالرحمن باشا في نفسه، إلا تأثيرها المعنوي، كانت قد أرتكبت المقاومة القلبية والمتانة المعنوية في نفوس القوات العراقية إلى حد بالغ واضطرتها إلى أن تفكر بجدية في التفرق وترك ساحة الوغى.

وفي الحقيقة كانت القوات العراقية قد بدأت في ذلك اليوم وبعد حلول الظلام بالتفرق تباعا وأخذت تتسابق إلى الفرار من الميدان. وعندما أصبح الصبح كان الباقون على أرض المعركة نفرا قليلا. ومع أن سليمان باشا كان عازما على مواصلة القتال بجنوده القلائل، إلا أن هؤلاء لم يوافقوا على البقاء، وأخذ كل واحد منهم يولي وجهه شطر جهة ما، ولم يظل هناك إلا سليمان باشا نفسه وخمسة عشر من أتباعه.

ومع أن سليمان باشا كان قد أدرك من جراء العواقب الأليمة لاستكباره الأناني المقدار الحقيقي للذلة والعجز الكامنين في ماهيته الشخصية، إلا أنه لم تكن هناك فائدة ترتجى في إدراكه هذا، فتذكر المثل القائل: لايبكي من سقط من تلقاء نفسه، ومن لم يفكر في عواقب الأمور قبل حدوثها لم ينفعه الندم، وأحس بالخطر الداهم وقرر التوجه نحو إيران.

ولكن هيهات... فحتى الفرار لم يساعده على النجاة بروحه. لقد ألقت عشيرة الرفاعي القبض عليه بعد عبوره نهر ديالى وقتلته وقطعت رأسه وحملته إلى عبدالرحمن باشا.

وما إن ذاع نبأ الخاتمة المفجعة لسليمان باشا هذه، حتى أخذ الموظفون وأعيان البلاد وأشرافها يتوافدون طبقات على عبدالله آغا في ينيجه للإيفاء بمراسم المبايعة.وقد أعدم من هؤلاء فيض الله آغا الكهية وإسماعيل آغا الخزنَدار بأمر من عبدالله آغا. كان إعدام فيض الله آغا بسبب اشتراكه في الحرب والقتال إلى جانب سليمان باشا ضد عبدالرحمن باشا. أما إسماعيل آغا فتمَّ إعدامه، لأنه كان على صلة بعبدالرحمن باشا وكان قد انتسب إليه بأمل تعيينه واليا. كان أمر الاعدام هذا قد صدر في غياب عبدالرحمن باشا من دون علمه. وقد جرى تبريره بأنه أنكر وجود ما كان في خزانة

سليمان باشا من أموال. أجل، فعندما لم تكن مقدرات عبدالله آغا قد انجلت بعد وكان طريق نجاحه مايزال شائكا وتحيطه الشكوك، ولكنه كان قد استغل النفوذ الذي وفره له عبدالرحمن باشا بثمن باهظ من الجهود والتضحيات لتمشية مقاصده وغاياته، بدأت الانحرافات الرديئة لطبيعته الفطرية في جزاء الإحسان بالإساءة، تظهر للعيان. وبعد أن عين رفيق سفره طاهر آغا الذي كان مرشحا ليكون كهية، أمينا للخزانة، والحاج عبدالله شقيق أحمد الكهية المقتول، كهية، وداود أفندي أمينا للسر، وعبدالرحمن آغا الموصلي آمرا للجنود الإنكشارية، مكافأة له على خدماته التي أداها، دخل بغداد ضمن دائرة مخصوصة وفق مراسيم احتفالية محتشمة وتبوأ كرسي الحكومة.

وعندما أفضت الأمور إلى هذه النتيجة، كانت دماء غزيرة أخرى قد أريقت بسبب الدوافع اللاأخلاقية الذميمة في نفس حالت أفندي، التي أضفى عليها زوراً رداءً من النوايا الحسنة.

سبق أن ذكرنا فيما مضى أن حالت أفندي كان منفعلا من الجواب التحريري الذي بعثه إليه عبدالرحمن باشا، ولكنه كان مضطرا إلى إضمار انفعاله.

والواقع أن عبدالرحمن باشا، وإن كان قد وفق نتيجة لقدر من التضحيات في تحقيق ماكان يصبوا إليه حالت أفندي إزاء سليمان باشا، إلا أن هذه الخدمة ما كانت لتخمد نيران الانفعال التي كانت تشتعل في قلب المشار إليه. ومن ثم كان المشار إليه أخذ يحصر أنفاسه لإدارة دولاب العلاج للقضاء على عبدالرحمن باشا. ولهذا كان قد أخر إصدار أمر تعيين عبدالله آغا وأخذ يسوف فيه، ووضع المهمة التي استهدفها بالنسبة إلى عبدالرحمن باشا في عاتق شخص كلفه سرا بتحقيقها. وقد أبلغ نيته هذه جماعة من أشراف بغداد وأعيانها بصورة سرية بوساطة أشخاص ائتمنهم على ذلك.

ولأن البغداديين كانوا عربا وكان عبدالرحمن باشا كُرديا، كانت سيطرة الكورد على مقدرات العرب أثارت ثائرتهم القبلية وهيجت عصبيتهم القومية. وبناءً على ذلك حملوا مساعدة حالت أفندي محمل إرادة الخير وامتنوا له كثيرا.

وقد كان البغداديون قرروا الإيفاء بواجب الامتنان لقاء هذا العمل بدفع مبالغ طائلة ورشحوا سعيد بيگ ابن سليمان باشا الأسبق لولاية الإيالة، في حين أن تعيين الموما إليه بمثل تلك البساطة لم يكن أمراً في نطاق مقدرة حالت أفندي. لقد كان يجب أولا القضاء على عبدالرحمن باشا ليكون بالإمكان ضمان تعيين سعيد بيگ.

كان البغداديون مقتنعين بذلك، فراجعوا عبدالرحمن آغا الآنف الذكر وأقنعوه

بالدخول ضمن إطار اتفاقهم وانضووا على العموم تحت قيادته وفوضوا أمرهم إليه. كما كانت قيادة أحداث عملية الشغب السابقة قد أنيطت به أيضا. وآنئذ دخل الأهلون كذلك تحت قيادته كتلة مسلحة.

وقد سبق أن ذكرنا أن عبدالرحمن آغا كان قد اكتسب مهارة تامة في أمور العصيان وإحداث الفوضى والشغب هذه التي غدت مهنة له ومسلكا. وفي ظل اشتهاره بهذه المهنة ومهارته فيها كان قد غدا مرجعا يلوذون به في أدق وقائع التمرد وإيجاد الاختلال والهرج والمرج وأكثرها إشكالاً. كان الشغب المراد إحداثه هذه المرة ضد عبدالرحمن باشا يختلف بما لايقاس عليه عن أعمال الشغب السابقة، وكان يجب أن يكون متناسبا مع أهميته. وبعد أن اتخذت الإجراءات والترتيبات اللازمة بالكمال والتمام على أساس هذه النظرية، بدأ الهجوم صباح ذات يوم على عبدالرحمن باشا، الا أن الباشا لم يكن ببساطة من أولئك الذين يمكن السيطرة عليهم بحفنة من أوباش عبدالرحمن آغا، وإن كان قد هوجم في ظروف خارجة عن التقدير والحساب وبصورة مباغتة واستغفالية. إلا أن كتلة المهاجمين- بفتح الجيم- نهضوا في وجوهم كأسود الغاب وخرقوا صفوفهم ومزقوا حشودهم وأخذوا يقتلون منهم فيولي هؤلاء الأدبار فرارا وقد ملئوا رعبا، لم تكن القضية بحيث يمكن الاقتحام هجوما.

كان قد خيل للبغداديين أن المعركة ستأخذ طابع المصادمات المتقابلة والتجأوا إلى خنادقهم واستحكموا فيها. ولئن كانت المصادمات قد استمرت ذلك اليوم حتى حلول المساء، إلا أن مقاومة البغداديين لم تكن مبنية على فكرة الأمل بتحقيق الظفر والنجاح، وإنما كانوا يأملون من ورائها مجرد أن يحل الظلام ليغتنموا فرصة يتمكنون خلالها من الهرب بجلودهم والنجاة بأرواحهم. فما إن أرخى الليل سدوله حتى سلموا أمرهم إلى الله وأطلقوا سيقانهم للريح وولوا فرارا، وعلى رأسهم قائدهم عبدالرحمن آغا من دون أن يحاول أحد إلقاء القبض على أي منهم، واكتفي من قبل عبدالرحمن باشا في تلك الليلة بالتزام الحذر وإجراء التقيدات والترصدات اللازمة، ولم يَرَ من الضروري إجراء أي عمل تأديبي غير ذلك.

وفي صباح اليوم التالي أمر عبدالرحمن باشا، وهو جالس في مكانه الخاص بكمال الأبهة والبطشة بإحضار حالت أفندي ؛ إذ لم يكن لديه أدنى شبهة في أن وراء ماجرى أصابع المشار إليه.

كان الخوف قد استبد بحالت أفندي بسبب ما آل إليه الأمر من نتيجة عكسية بهزيمة

المحاولة،وكان يرتعد فرقا من قهر عبدالرحمن باشا والانتقام الذي يهيئه له، فأخذ يفكر في التماس صيغة لتبرئة نفسه واتخاذ تدابير للدفاع عنها. وكان هناك ما إذا تمسك به استطاع من خلاله إنقاذ حياته ألا وهو ملأ فراغات الفرامين الهمايونية التي كانت لديه بإسناد وظيفة للوزارة والإيالة إلى عبدالله باشا، وقد فعل ذلك فلم يخلد لحظة واحدة إلى الهدوء والراحة طوال الليل من فرط الخوف المستولي على قلبه.

ولما جاءه رسول عبدالرحمن باشا في الصباح وأخذه إلى مجلس الباشا، بادر حالت أفندي عبدالرحمن باشا بالقول: «رغم أن الفرامين وردت باسم عبدالله باشا إبان الأزمة، إلا أن انشغال جانب حضرة الباشا بالأحداث المؤلمة حال دون أن أوفق لتبشيره بذلك. وها أنا الآن بين أيديكم لإعلان تنفيذ الأمر الهمايوني بذلك. وبناءً عليه فلئن كان هناك أمر مهم قبل إجراء مراسيم الاحتفال فالرجاء أن تأمروا بالقيام به». كلمات حالت أفندي هذه أوقعت عبدالرحمن باشا في دوامة من التفكير، ففكر وقدر ثم أبلغ عبدالله باشا بإجراء المراسيم المعتادة في مثل هذه المناسبات بغية عدم فسح المجال لحدوث أي عائق في طريق تنفيذ الأمر الهمايوني.

كان حالت أفندي قد وجد في الواقع البلسم الشافي للمرارة الروحية التي أحدثتها له حالة الغضب التي طرأت لعبدالرحمن باشا، ولذلك فإن الأمر الذي أصدره لعبد الله باشا أزال حالة التوتر التي كانت بادية على محياه بتأثير الألم الروحي الذي كان يعانيه من الخوف والهلع، وأضفى على وجهه مسحة من السرور والبشر، فتحول إفلاسه الفكري وعبوسه القلبي إلى نشاط وفرح وحبور. وبدلا من صيحات الحرب والخصام التي كانت تعلو أمس بسبب العصيان والاقتتال، تجلت اليوم إشعاعات الانبساط والاحتفال والطرب والمسرات.

وبعد أن انتهت مراسم الاحتفال المعتادة وجه عبدالرحمن باشا خطابا إلى الحضور من أعيان بغداد ووجهائها الموجودين في ذلك المكان، قال فيها: *«إن بغداد بالنسبة للبابانيين، فضلا عن كونها حاضرة إسلامية ووطنا وطنيا واجتماعيا، لها في الوقت نفسه تلك الصفات التي تستوجب احترامها كموئل يرتبطون به ويفتقرون إليه. ومن هنا فسكانها كذلك محترمون في نظر أهل السليمانية في دائرة الروابط والصفات المبجلة الآنفة الذكر نفسها.*

لهذا، كان من المقتضيات السامية لأحاسيس الاحترام هذه أن يقدم البابانيون عموما خدمات كثيرة فيما مضى لسكنة الديار العراقية عموما.

أجل، لم تكن هناك حادثة شغب واختلال للأمور التي حدثت في العراق إلا واتخذ البابانيون في مقدمة العراقيين من صدورهم دروعا أمام رماح أعدائهم، ولم تكن هناك واقعة مهمة وقعت ضد العراقيين إلا وبادر البابانيون لإبداء مشاركتهم في قمعها من دون أن يبطئوا في إنجاد إخوتهم. أريد أن أقول إن السليمانيين لم يكونوا قط أجانب وغرباء بالنسبة إلى أهل بغداد ولم ينقطعوا عن أخوّتهم أبدا، وإزاء حقوق الرابطة هذه لم أكن أنتظر من إخوتي البغداديين أن يتورطوا في تسويلات حفنة من الفاسدين ويحدثوا هذه الحالة التي أحدثوها. ومع ذلك، فما دام الشيطان الذي أغواهم وألقى بهم في حبائل الإغفال قويا إلى درجة كبيرة، لا أريد أن أفصم بسبب هذه الأحداث عرى الاتحاد والمحبة التي هي روابط عصرية. ولذلك فقد صرفت النظر عن حقوقي الشخصية وأرجو وأتمنى من عبدالله باشا أيضا أن يعلن العفو العام».

ثم وجه خطابه إلى حالت أفندي قائلا: «لاتظن أنني ممن لايدركون أن دواليب الأحداث التي وقعت إنما أدارتها أصابعك أنت. لقد أهانت أخلاقكم وتصرفاتكم الفضولية تلك، على هذا النحو، وفي فترة وجيزة، النتائج الخارقة لمساعي الأبطال الفاتحين العظام وجهودهم وجعلتها في مهب الصراعات العدوانية لشخصي غير ذي قيمة كسليمان باشا. ومع أن ما ينتج عن معاقبتكم هو تقليل مارد من المردة الذين نكبت بهم الأمة الإسلامية، لكنه لا فائدة ترتجى من وراء ذلك العقاب مادام مولانا السلطان لم يطلع بعد على ماهيتكم الشخصية ونواياكم المضمرة. إنني إن قتلت أحد أصدقاء رجال السلطنة السَّنيَّة وأجلَّتهم صرت مثارا للغضب الهمايوني. ولكن يجب أن تعلموا أن حسن نواياي تجاه ديني وسلطاني سيكون رفيق توفيقي ومرشد نجاحي. أما أنتم، فلأنكم أهنتم الإسلام وخنتم السلطان فستلقون مصيركم المحتوم طال الوقت أم قصر. سيقوم عبدالله باشا اليوم بإنجاز ما قدمت من أجله ويجب عليك أن تقفل غدا عائدا إلى إستانبول».

وقد قام عبدالله باشا بتسوية جميع التكاليف النقدية لحالت أفندي وهيأ له وسائل السفر، فسافر في اليوم التالي. وأعلن العفو العام نتيجة لتسامح عبدالرحمن باشا وإغماضه، وعين قاسم آغا الكركوكي في منصب رئيس الإنكشارية.

كان محمود باشا متصرف الموصل قد أصيب بمرض توفي بسببه في بغداد، فعين أحمد بيگ بن سليمان باشا في مكانه باقتراح عبدالرحمن باشا الجليلي وتصويبه. وعندما وصل حالت أفندي إستانبول طرح موضوع بقاء الموصل مرتبطا ببغداد وكيف أن

استمرار هذا الارتباط يقوي مركز الحكومة العراقية ويتسبب في تمكنها واستبدادها، وبناءً على ذلك تم فصل الموصل من بغداد وجرت دراسة تعيين شخص بدرجة وزير لولاية الموصل، فعين سعد الله بيگ ابن حسين باشا الجليلي لهذا المنصب. لم يكن هناك أدنى شك في أن تقرير حالت أفندي في هذا الموضوع كان على الضد من عبدالرحمن باشا.

كان عبدالرحمن باشا أرسل أخاه سليم بيگ إلى عبدالفتاح باشا متصرف باجلان الذي لم يوافق على الاشتراك في حركات بغداد، فاضطره مرغما على الإسهام فيها. ومع أن عبدالفتاح باشا التحق بالقوة المتوجهة إلى بغداد إلا أنه لم يتم نيل أي فائدة من وراء التحاقه، فقد كان هو وقواته يتغيبون دائما عن المشاركة الفعلية. وكان عبدالرحمن باشا قد علم ذلك وأدرك أنه واقع في حبائل تضليلات علي ميرزا، ولذلك لم يكن ليشك في أن مصادمة ستقع بينه وبين علي ميرزا، في حين أن منطقة باجلان كانت تقع في نقطة ترصد ومركز دفاعي بين السليمانية وكرمانشاه. ولذلك عزل عبدالفتاح باشا وعين مكانه ابن عمه خالد باشا وزوده بالتعليمات الضرورية عن كيفية التصرف إزاء علي ميرزا وأرسله إلى حيث يتولى منصبه.

كان عبدالفتاح باشا، وقد اضطر إلى الاشتراك في الهجوم على بغداد، لايريد أن يفقد بسبب ما اضطر إليه حماية إيران له. ولذلك كان قد أرسل ابنه عبدالعزيز بيگ إلى علي ميرزا ليشرح له تفاصيل ماجرى. ومع أن علي ميرزا كان قد طلب من عبدالله باشا أن يعيد عبدالفتاح باشا إلى مقامه ومنصبه كما كان قبل أن يعزله عبدالرحمن باشا، إلا أن عبدالله باشا لم يكن يريد أن يقوم بما يكدر صفو خاطر عبدالرحمن باشا، فذلك مالم يكن ينسجم مع مصالحه في تلكم الأيام، ولهذا ترك الموضوع على حاله مسكوتا عنه.

أما علي ميرزا فقد كان غاضبا إلى حد كبير على عبدالرحمن باشا لأنه كان منعه من الزحف على بغداد ضد سليمان باشا، في حين أن هذا كان قد أصم أذنيه تجاه ما طلبه منه الشاهزاده، فكان علي ميرزا يضمر في قلبه حقدا شديدا تجاهه. وبناءً على هذا فقد أشعر بوداق خان حاكم ساوجبلاغ بكيفية الأمر وأمره بالزحف على سردشت الذي كان يسمى فيما مضى (كلاسى). ومن السليمانية أخبروا عبدالرحمن باشا وهو في بغداد بأن خان ساوجبلاغ يعد نفسه للزحف علي سردشت، فاستأذن عبدالله باشا وعاد إلى السليمانية. وبعد عودته طلب الشاهزاده علي ميرزا مرة أخرى من عبدالله

باشا إعادة عبدالفتاح باشا إلى منصبه في زهاو، وكان نفوذ عبدالله باشا آنئذ قد ترسخ في بغداد ولم تعد له حاجة إلى مساعدة عبدالرحمن باشا، فأراد أن يحرر نفوذ حكمه من كل أنواع التأثيرات الخارجية وأن يتصرف كما يحلو له بنفسه، فأحس بالحاجة إلى القضاء على شخصين كان مورد لطفهما ومساعدتهما. أما أحدهما فكان سليم بيگ الذي أنقذ حياته وأمن له معيشته. أما الثاني فلم يكن سوى عبدالرحمن باشا الذي رباه من لاشيء وأوصله بنفسه إلى مقام الحكم الشامخ.

وفي الحقيقة إن المسكين سليم بيگ ما أن سمع نبأ تولي محميه عبدالله باشا مقام الوزارة حتى بدأ يشد الرحال ويطوي مراحل السفر قاصدا بغداد برغبة عارمة وهويحمل الآمال الجسام.وما إن سمع عبدالله باشا بقدومه حتى أمر بإعدامه من دون أن يتيح له مجال رؤيته!ولكن ما الفائدة؟ إذ لم يكن عبدالرحمن باشا من أولئك الذين يمكن إعدامهم بمثل تلك السهولة التي أعدم بها سليم بيگ. ومادام الأمر كذلك فعليه أن ينتظر سنوح فرصة.

وعندما طلب علي ميرزا للمرة الثانية من عبدالله باشا إعادة عبدالفتاح باشا إلى مقامه، استمزج هذا رأي عبدالرحمن باشا وفكره في الموضوع. وأجابه عبدالرحمن باشا بأنه إذا أحسَّ الأمان على نفسه فسيكون له حساب مع علي ميرزا ولابد له من أن يصفي هذا الحساب، ولن يكون على استعداد في أي وقت لإبداء الضعف تجاه نفوذه، وإن إعفاء خالد باشا من حكومة باجلان يتوقف على النتيجة السيئة لحسابات ذلك الموضوع. وقد أرسل عبدالله باشا هذه الرسالة الجوابية مباشرة إلى علي ميرزا وطلب منه الاتفاق معه على الهجوم على عبدالرحمن باشا.

لقد كانت الفحوى الحكيمة للحديث النبوي الشريف: «اتَّقِ شرَّ من أحسنت إليه» والبيت الشعري لسعدي الشيرازي القائل: «العمل الصالح بحق الناس السيئين كالعمل السيء بحق الناس الصالحين» تكوّن أرضية جيدة لفلسفة حياتية في الاتعاظ والاعتبار من خلال الجزاء الذي جزى به عبدالله باشا كلا من سليم بيگ وعبدالرحمن باشا بالقضاء عليهما مرة واحدة وإلى الأبد. واليوم نسمح المقولة التالية التي يتداولها السليمانيون لدى إبداء الشكر والامتنان لمن قام بحسنة كبيرة مع غيره: « لا أستطيع أن أجازيك على العمل الإنساني الذي عملته بحقي ولن أتمكن من التعبير عن الشكر والامتنان الذين يجب علي أداؤهما لك إلا بأن أقتلك» وقد غدت في حكم مثل يضرب.

لقد كان وجود الشاهزاده علي ميرزا في كرمنشاه من أجل استغلال مثل هذه الفرص، ولذلك لقي طلب عبدالله باشا منه الاتفاق معه ضد كُردستان قبولا حسنا واستجابة كاملة من لدن الأخير. وبناءً على ذلك فقد أخبر علي ميرزا والده فتح علي شاه بشأن إرسال القوة اللازمة لهذا الغرض. وكان فتح علي شاه هو الآخر يرى في عدم إضاعة فرصة سانحة كهذه أمراً طبيعيا. ولذلك أصدر أوامره فورا باعداد قوة عسكرية قوامها ستون ألف شخص، دونما تآنٍ أو تسويف.

ولما وصلت هذه القوة إلى كرمانشاه أخبر علي ميرزا عبدالله باشا بذلك، وكان الجانبان قد استطاعا خلال المداولات التي أجرياها فيما بينهما أن يستميلا إليهما خالد باشا واعدين إياه بأنه ستوكل إليه حكومة السليمانية فتمكنا بذلك من قطع صلته بعبدالرحمن باشا، ولم يكن خالد باشا في حد ذاته ممن يعيرون ملاحظة الحقوق وفروض عرفان الجميل اهتماما ما، فمتى ما برزت مطامع كان يستسلم إلى الجهة التي تتوفر لديها هذه المطامع ويرفع بيديه سياط العمل الجاد ولاسيما أنه إذا تم القضاء على عبدالرحمن باشا لم يبق أمامه احتمال أي عثرة تحول دون تسلمه سلطة الحكم على الديار البابانية، بل إن الأمر بلغ به حد أنه أرسل ابنه محمد بيگ إلى الذين أغروه بهذا الأمر لتطمينهم بهذا الشأن، في حين أن عبدالرحمن باشا لم يكن على علم بشيء من هذه الإهانة التي قام بها خالد باشا تجاهه، ولذلك أرسل ابنه سليمان بيگ على رأس قوة كافية لتعزيز ما كان تحت إدارة خالد باشا من قوة وتوجه بنفسه كذلك بعد يومين إلى زهاو وللتصدي للقوة المحاربة التي حشدها على ميرزا هناك، ولكن ما الفائدة؟ فعندما وصل سليمان بيگ دزيايش سمع نبأ الخيانة التي اقترفها خالد باشا، فعاد على الفور من حيث أتى ونقل أخبار مجريات الأمور إلى والده عبدالرحمن باشا.

لقد ترك هذا التصرف الخياني لخالد باشا تأثيرا بالغا في نفس عبدالرحمن باشا، ولكنه كان يرى القدر. الأكثر من تأثيره راجعا لا إلى ما اقترفه خالد باشا بل إلى أخطائه هو بالذات. أجل، كيف تعامل بمثل هذه الغفلة مع خالد باشا؟ ألم يكن يعرفه؟ هل تأخر خالد باشا منذ أوائل أيام عبدالرحمن باشا، يوما ما، عن معارضة أي حركة قام بها هو، وعن السَّعي ضدْ أي وضع من أوضاعه،وعن مخالفة كل إجراء اتخذه هو؟ إن من كان ينزل على الدوام وفي أهم اللحظات وأدقها أشد الضربات إهلاكا بحياة الأسرة البابانية والحكم البابانى، ومسح من الوجود جميع الأمجاد التاريخية للبابانيين وكل المعاني القومية للكتلة المنضوية تحت اسم البابان المبجل، كان خالد باشا ومطامعه

الرديئة وأخلاقه الدنيئة.

لماذا لم يقض على هذه الروح الشريرة التي لم تتوان لحظة واحدة ومنذ أمد بعيد في سد الطريق بوجه تعالي البابانية. لقد كان الإبقاء عليه حيا وتركه يواصل العيش بمثابة إماتة البابانية.وهكذا كان عبدالرحمن باشا يتذكر على الدوام غفلته وتسامحه إزاء خالد باشا فيتندم على أعماله وتصرفاته وكلما تذكر فتندم لام نفسه على الغفلة التي بدرت منه ورأى نفسه مستحقا للوم والعتاب وتألم من جراء ذلك.

والواقع إن الماهية الأساسية للمستوى الأخلاقي يرجع إلى الانطباعات الروحية، ولاتغير الروح أبدا حالاتها الاعتيادية التي فطرت عليها. وبناءً على ذلك فإن روحا تفسخت بالخسة لايتوقع منها بالطبع الحالات والمعاملات العالية المتسمة بالسمو. وهي هذه الحالة كان يجب أن لايتوقع من خالد باشا وروح خالد باشا أفعال مستحسنة خارج دائرة الأخلاق الدنيئة. إلا أن عبدالرحمن باشا كان قد غلبه صفاء قلبه وبسبب من محافظته على رعايه حسن القرابه وبنوة العم، أصيب بهذه المهلكة.

وهكذا ذهبت تصورات عبدالرحمن باشا وإجراءاته العسكرية هباء نتيجة للعمل الخياني الذي أقدم عليه خالد باشا، فقد انقسمت القوة البابانية إلى قسمين، وذلك لأنه عندما أرسل خالد باشا لتولي حكومة باجلان وإدارتها أرفق به جانبا مهما من قواته خشية أن يغلب في معركة قد تنشب ضده وكانت هذه القوة قد انخدعت بتضليلات خالد باشا وانضمت إلى قوى الأعداء فكانت تشكل قوة معادية ثالثة في وجه عبدالرحمن باشا. وعلى هذا، كانت مواجهة هذه القوى مجتمعة أمرا يعد في خارج حدود الإمكان بالنسبة إلى عبدالرحمن باشا. ولهذا فقد انسحب إلى الوراء وأقام خط دفاعه في كويسنجق. ولم تتوان القوات المشتركة عن تعقيب عبدالرحمن باشا خطوة فخطوة، ولم تكن تتأخر لحظة عن الإغارة العشوائية على القرى والمزارع ونهبها وتقتيل الأهالي.

ما كان خالد باشا يحس بوخزة ضمير إزاء إراقة دم أبناء وطنه وتدبير ديارهم أبدا، بل كان على العكس يشغل ذهنه باعتبار النتيجة بإجراءات وترتيبات ينوي تنفيذها بعدما تستتب له الأمور ويتولى السلطة بنفسه.

أما عبدالله باشا فكلما فكر في المظالم وأعمال العسف التي ترتكبها القوى الإيرانيَّة ضد البلاد العثمانية اعترت نفسه موجة من الانبساط والحبور وساد روحه تيار من النشاط، فهؤلاء إنما كانوا يضمنون حكمهم بوجود عبدالرحمن باشا. أما عبدالرحمن

باشا فقد كان تورط في وضع معوج في منتهى السقم والثقل. فالوزير كان صنيعته، وهو الذي خلقه وسواه وأقامه. وبناءً على ذلك كلما فكر في إيجاد مخرج من المأزق استعصى عليه إيجاده، ذلك لأن لاعلاج للمرء لما صنعه بنفسه.

كانت هذه الخصومة مع علي ميرزا نشأت من حيث الأساس من صنع المشار إليه عبدالرحمن باشا عن الزحف على بغداد ومن الإصرار على استحصال منصب الوزارة لعبدالله باشا ودوام حكومة خالد باشا، في حين كان يُظَنُّ أن علي ميرزا يريد أن يجعل عبدالرحمن باشا يتعلم كيف يعقل ويلقنه دروسا يتعظ بها. أجل، لقد قضى عبدالرحمن باشا على نفسه بقوة هذين العنصرين الرديئي الطينة الناكرين للجميل، ومن أجلهما وفي سبيلهما. ولكنه، وإن كان لايستطيع أن يمسك نفسه عن التأثر القلبي العميق من جراء هذه النتيجة العكسية التي حصل عليها، إلا أنه ولصفاء قلبه وحسن نواياه ما كان ليبأس عن إحراز النجاح وما كان ليصيبه وهن أو فتور في حركاته.

استمر التعرض لكويسنجق وتطويقها خمسة عشر يوما، وكان عبدالرحمن باشا قد استطاع بفضل المساعدة المعنوية التي وفرها له حسن نواياه إلحاق خسائر جمة بالإيرانيين في حين لم يسقط ولا قتيل واحد في صفوف السليمانيين، وهذا ما يؤكده (ذيل گلشن خلفا). إن الدمار الذي يحدثه علي ميرزا في الجبهة الكردستانية ستسري في آخر الأمر إلى الجبهة العراقية أيضا. لقد أدرك السيد الوزير هذا الأمر بعد حين. وبناءً على ذلك، أمر بتفرق العشائر وعودة القوات العراقية من حيث أتت. ومن جهة أخرى كان يشجع عبدالرحمن باشا على الصمود ويوصيه خيرا. وقد اتفق عبدالرحمن باشا عن طريق المراسلات مع علي ميرزا بشأن التعامل ذي الوجهين هذا يتعامل به معه عبدالله باشا.

ووفق هذا الاتفاق أعطي خالد باشا السليمانية، كما أعطي عبدالرحمن باشا كويسنجق وحرير. وهكذا تمت المصالحة. إلا أن اتفاق عبدالرحمن باشا على ايكال حكومة السليمانية إلى خالد باشا كان لمجرد أن يستطيع تحقيق نواياه تجاه خالد باشا في المستقبل ولايفسح المجال لابتعاد الموما إليه. وبناءً على المصالحة التي تمت عاد علي ميرزا من حيث أتى مواصلا أعمال الإغارة والسلب والنهب في طريقه، وجلس خالد باشا على أريكة الحكم في السليمانية بعد أن دفع ثمنا لها حياة الأمة وعمران الوطن وشرف النسب.

كانت الغاية التي تشغل بال عبدالرحمن باشا بالدرجة الأولى هي القبض على خالد

باشا. ومع ذلك فقد كان يدرك جيدا أن الموما إليه ليس واحدا من أولئك الذين يمكن القبض عليهم بهدوء وسلام. ولذلك كان يتوجس خيفة من جواسيس كثيرين داخليين وخارجيين، فكان يتصرف بحذر بالغ في جميع حركاته وتشبثاته ولايسمح بحال بأن يحس غيره بأفكاره ومقاصده وغاياته. وهكذا كان يخرج أياما إلى أطراف المدينة بحجة الصيد، وفي إحدى المرات ألهى نفسه لعدة أيام في أطراف كويسنجق بصيد الأرانب حتى توجه ذات ليلة من تلك الليالي بصورة مباغتة نحو السليمانية مباشرة، في حين أن خالد باشا كان قد تمكن وفق مفهوم المقولة القائلة (الخائن خائف) ورغم كل هذه الاحتياطات وكل هذا التستر في التحرك الذي كان يمارسه عبدالرحمن باشا، من النجاح في الهروب بجلده.

أجل، كان خالد باشا قد علم بتوجه عبدالرحمن باشا للصيد، ولكنه كان علم أيضا أن الصيد الذي يبغي اصطياده ليس أحدا سواه. ولهذا كان قد جمع كل مافيه من قوة وطاقة وولى هاربا. لأنه كان يعلم جيدا أنه إذا وقع فريسة للغضب الغضنفري لعبدالرحمن باشا فسيمزق إرباً إرباً. اعتبر عبدالرحمن باشا هروب خالد باشا بهذه الصورة وإفلاته من القبض عليه أهم خيبة تعرض لها في جهوده طيلة حياته. ومع ذلك أيضا لم يفضح هدفه الأساس في معرفة مصير الموما إليه وأين قد يكون أخفى نفسه، فتلهى بممارسة الصيد أياما وتوقف أياما أخرى في أطراف سرچنار حتى إذا تلقى أنباء توجهه إلى بغداد لم يرَ من الضروري أن يواصل المزيد من الانشغال والتأخر ودخل السليمانية واستولى على مقاليد الأمور فيها. وما إن علم عبدالله باشا أن عبدالرحمن باشا عاد إلى السليمانية وأخذ زمام الأمور فيها في يديه، كما كان فيما مضى، حتى بادر إلى إرسال أمر الحكومة مع الخلعة إليه كبادرة حسن نية وعرفان جميل تجاهه. ولكن عبدالرحمن باشا لم يكن يعير مثل هذه المبادرات الحسنة أدنى اهتمام نظرا للتصرفات المهينة السابقة التي تلقاها من عبدالله باشا، بل أخذ يعتبر الانقياد لأوامره واطاعته من تلكم اللحظات فصاعدا جهلا وجبنا مطلقين. ولذلك قطع روابط المحاباة مع عبدالله باشا، بل أظهر نفسه في صورة خصومة واضحة. وانطلاقا من هذا الوضع، تعرض من كويسنجق إلى أربيل ووضعها تحت تصرفه، وأخذ يزيد من هناك من تعرضاته لكركوك أيضا.

هزت حركات عبدالرحمن باشا التعرضية هذه عبدالله باشا، فقد كان يتلقاها كمقدمات لاستهداف بغداد واحتلالها أيضا. وبناءً على ذلك، وبغية أن لايكون قد

سمح بالمزيد من توسع نفوذ المشار إليه وتعزز قواه، رأى من واجبه اللجوء إلى الحلول الاقتحامية. ولهذا تذاكر مع خالد باشا وسليمان باشا بن إبراهيم باشا وأعلن بناء على استصوابهما أنه سيتوجه إلى السليمانية وبدأ تحشيد القوى من كل حدب وصوب.

وفي الحادي والعشرين من جمادى الأولى ١٢٢٦هـ حمل على رأس جميع القوات العراقية المنظمة وقوات القبائل والعشائر المحتشدة على السليمانية، وكان كل من خالد باشا وسليمان باشا في طليعة القوات التابعة لهما.وعندما علم عبدالرحمن باشا بتحرك عبدالله باشا شطر السليمانية، أخذ يفكر في أن يجعل ساحة الوقوف الحربي وجها لوجه أمام القوات الزاحفة، لا في السليمانية بل في أطراف بغداد نفسها.

لقد كانت الانفعالات النفسية والبطشة الروحية التي تولدت في قلب عبدالرحمن باشا نتيجة التصرفات الموغلة في الإهانة التي قام بها تجاهه عبدالله باشا، قد قضت على كل فرضية اعتدال وتحوط في نفسه. وهكذا كان قد أصيب في تأملاته الفكرية ومخاوفه القلبية ومعادلاته الروحية الحرة بولع لمحرقة حرارة الثأر لم يدع له أمرا يلاحظه ويضعه نصب عينيه ماعدا الشعور بحب الانتقام الغضنفري. وما كانت لهذه الحرارة أن تنطفيء وتهدأ إلى السكون إلا بإراقة دم عبدالله باشا. فبدلا من أن يأخذ هذا بنظر الاعتبار تلك المآثر النجدية التي في روح عبدالرحمن باشا والعظمة الخلقية التي في فطرته والنجابة الوجدانية التي في قلبه والتضحيات التي كان قد بذلها من أجله وفي سبيله مما أشرنا إليها من قبل، هل كان ينبغي أن يكافئه جزاء إيصاله إياه إلى مقام الوزارة بهذا الأسلوب، وهل كان من حقه أن يعبر عن تحدثه بالشكر وحق الامتنان على هذا النحو؟ وفي حين أنه كان يعلم جيدا مدى حرص حالت أفندي على المال من جهة والأحقاد والنوايا السيئة التي كان يضمرها سليمان باشا تجاه عبدالله آغا ورغم الشروط والتعهدات التي استحصلها له لتولي مقام الوزارة، ألم يكن بمستطاعه أن يجعل من نفسه البديل عنه لتولي مقام الوزارة؟ ومع هذا كله لم يقف عبدالرحمن باشا عند حد هذه التضحيات التي كان من المفروض أن تورثه السعادة والإقبال، بل أضاف إليها كذلك التبارز في المسابقات الحربية التي تسمى المحاربة والقتال ولاسيما أنه هو بالذات هاجم بنفسه أكثر من مرة بطاريات مدافع الأعداء. أليس هذا كل تضحية بالنفس والروح؟ أهكذا يكافأ عبدالرحمن باشا على كل هذا الإخلاص وكل هذه الخدمات والتضحيات المادية والمعنوية بالسعي لإفنائه واضمحلال حياته الشخصية وشرفه الغضنفري وقدراته الموروثة؟

ولنغض النظر عن عبدالرحمن باشا، فما بالك بالمسكين سليم بيگ؟ أجل ألم يكن سليم بيگ نفسه الذي أنقذ حياة عبدالله آغا ورفيقه طاهر أغا؟ ألم يؤوهما زمنا طويلا ويطعمهما من جوع ويؤمنهما من خوف؟ وأخيرا ألم يكن هو الذي تحمل نفقات سفره كلها من ميناء بوشهر إلى السليمانية للقاء عبدالرحمن باشا بأسمه هو؟ لو أنه اكتفى في الأقل من كل تلك المكافآت المعكوسة باستعمال كل أمانيه السيئة إزاءه من دون أن يقوم بفضيحة فجيعة كالقضاء على حياته.

عند التأمل يلاحظ أن هذا المستوى الذي بلغه عبدالله باشا من خسة الروح وفساد الخلق في الفطرة البشرية، لايمكن العثور على نظير له في وحوش الفيافي بل وحتى في السباع الجبلية المفترسة.

كان عبدالرحمن باشا قد انفعل لحد الغاية من الجزاء المعكوس لما بذله لهؤلاء من ايثار وتضحيات، فكانت شدة الغيظ وحدة القلب بلغت به حد تشوش موازين الاعتدال لديه ودفعته للتصدي للقوات العراقية بجوار بغداد. كان أثر الاستعجال الذي أحدثه في نفسه هذا العزم الأكيد جعله يتحرك صوب بغداد على رأس القوات التي حشدها. وعلى مقربة من كفري وجد نفسه وجها لوجه أمام القوات العراقية، فالتهبت نار الحرب على أشد مايكون، وبدأت الشرارات المحرقة التي لاتبقى ولاتذر من الحرث والنسل تخريباتها بين جموع الجانبين.

أجل، لم تكن هذه الحرب قابلة للمقايسة مع الحروب التي سبقتها. فخالد باشا وسليمان باشا اللذان انضويا في ركاب عبدالله باشا كانا يريان هذه الحرب بالنسبة اليهما مسألة حياة أو موت. أما عبدالله باشا نفسه فكان قد سكرته بطشة الرغبة في الانتقام، وقد عقد عزمه على أحد أمرين: إما أن يموت بنفسه أو يميت عبدالرحمن باشا. إن الثبات على هذا الاضطرار المتقابل جعل الحركات الحربية في عنفوان ضرامها. ولكن الباشوات المخالفين كانوا يدركون استنادا إلى تجارب الحركات الحربية السابقة أن نقطة نظر وهدف صولات عبدالرحمن باشا هما المدافع والمدافع وحدها، فكان مايجب أن يركزوا نظر الحفاظ عليه أكثر من أي شيء سواه هو المدافع، فكان أمر صيانة هذه المدافع من أن تطالها أيدي العدو موضوعا تحت نظر الدقة بعناية بالغة. ولهذا نصبت في أماكن غاية في الاستحكام، ولغرض ضمان هذا الحفاظ عهد بها بصحبة قوة منتظمة إلى خالا باشا وسليمان باشا.

استغرقت أيام القتال أسابيع عدة، ولم يدلّ كوكب النجاح وجهه شطر أي من

الفريقين المتقاتلين. وفي أمسية من الأمسيات وقد اشتد ضرام الحرب جيئ عبدالرحمن باشا بعنقود من العنب الناضج لتوه. ولما قدموه له أخذ المشار إليه ساق العنقود بأصبعين من أصابعه. وبعد أن نظر فيه مليا قليلا من الوقت أهدى أحمد آغا زنگنه إياه، وهو أحد القادة الحاضرين في المجلس، وتسلم منه أحمد باشا العنقود بمنتهى البشاشة والامتنان وعاد إلى حيث كان يجلس. وقال زملاؤه موجهين الخطاب إليه: لقد لاحظتم أن حضرة الباشا لطيف معكم. فقال أحمد آغا ردا على اغتباطهم به: أنا ممتن لحضرة الباشا إزاء لطفه هذا بالتضحية بحياتي في ساحة الرجولة لأنه منحني هذا الشرف الأبدي.

وكان أحمد آغا قد استوعب في الحقيقة، لحد الكمال الغاية المنشودة من هذا التكريم الذي كرمه به عبدالرحمن باشا. أجل، إن عنقود العنب ذاك كان بالنسبة إلى أحمد آغا يوازي حياته. كان في رأيه أن ثمن ذلك الامتياز هو أن يثأر له من الأعداء في ساحة الوغى. فإضافة إلى جسارته بين أركان البابانيين، كان قد نال مقام التفرد والحكمة، وكان محترما موقرا في نظر عبدالرحمن باشا أيضا على هذا الاعتبار. كان تلميح عبدالرحمن باشا إلى رجل في مثل هذا المقام بمثابة أمر مبهم بتعرض قطعي في اليوم التالي، وكان هذا غير موجه لأحمد آغا وحده بالطبع، فهو نفسه أيضا كان يفكر مثل ذلك التفكير ويعني أنه قد آن الأوان لكي تبلغ المعركة منتهى ما. وفي اليوم التاليه اتقدت نيران المعارك مرة أخرى من كل الجهات، غير أن الأبطال البابانيين والسليمانيين تخلوا عن تاكتيكهم القتالي السابق ودخلوا في وضع هجومي مباشرة، ولم توهن صدامات العراقيين المتفرقة عزائمهم ولم تخفف من غلواء هجماتهم، ووضعت ضربات السيوف والمزاريق حد المصادمات البنادق والتحم الجيشان، وكان الأصداء المختلفة مع الصيحات والنعرات والأنات والآهات تزيد الوضع الحربي أشد رهبة درجات أخرى. ورغم التفوق العددي للعراقيين الذي كانوا يبرهنون على وجودهم بصيحاتهم وصرخاتهم، لم يتمكن البابانيون والسليمانيون من إحراز النصر حتى العصر، إذ هزم العراقيون آنئذ وأخذ كل واحد منهم يولي وجهه شطر ناحية ما. ومع أن خسائر البابانيين والسليمانيين كانت رغم دخول أحمد آغا حلبة المعركة كبيرة ومدهشة إلا أنهم لم يستطيعوا العثور على أجساد قتلاهم إلا بصعوبة بالغة.

ولكن القوات العراقية، بالرغم من الاضطراب الي أحدثته لها هزيمتها هذه، إلا أن فعاليات بطاريات مدفعيتها لم تهن، فهذه البطاريات كانت بالإضافة إلى مناعة

مواقعها تحت حماية قوات عراقية منتظمة والباشوين خالد وسليمان. ففي حين كان عبدالرحمن باشا يستهدف في جميع حروبه، هدفا أول، إسكات المدافع المعادية والاستيلاء عليها، أخذ الطرف المقابل في هذه المرة هذا التكتيك المتبع لدى عبدالرحمن باشا بنظر الاعتبار. وهكذا أدت التدابير الاحتياطية المتخذة من قبل الجانب الآخر بغية وضع عراقيل أمام تحقيق الغاية التي وضعها عبدالرحمن باشا نصب عينيه في إسكات مدافع العدو ووضع اليد عليها، إلى إفشال تكتبكه البطولي وإبقائه من عقيما دون جدوى. ولهذا، فإنه وبالرغم من هزيمة القوات العراقية والخسائر المفجعة التي أصيبت بها ظلت مدافعها قوية ولم تتأثر فعاليتها بهزيمة القوات الأخرى.

فكان يجب من أجل إيقاف عمل هذه البطاريات المدفعية شن هجوم حاسم، ولكن الليل كان قد اقترب وأبطال البابان باتوا وقد أنهكهم التعب من جراء هز السيوف وإدارة المزاريق منذ الصباح، ومن أجل ذلك أرجيء أمر معالجة تلك المدافع إلى الصباح الآتي. ولكن هيهات هيهات! فكوكب السعد كان قد اتخذ قراره بوضع حد لميله نحو البابانيين، وكان نسيم الظفر قد أدار وجهة هبوبه نحو الطرف المخالف، وريح النكبات والفجائع الصرصر العاتية كانت قد بدأت تثير غبار الهزيمة بوجه البابانيين والسليمانيين. وعندما بدأ الليل البهيم يرخي سدوله أخذت المدافع تئز وتقذف حممها محدثة الدوي الهائل الذي يصم الآذان ويوقع الرعب في القلوب. كانت طلقات المدافع تسقط الواحدة منها تلو الأخرى في معسكر البابانيين مباشرة موقعة بهم خسائر لاتعد ولاتحصى حتى إن عدد القتلى والجرحى بينهم خرج عن أن يحيط به الإحصاء، ولم يبق في ساحة الوغى شيء غير القوة المعنوية، فلم تظل هناك قوة مادية تقاوم، وعلى هذا فقد تفرق ماتبقى من القوة العامة أيادي سبأ.

كان عبدالرحمن باشا قد خسر في هذه المنازلة شقيقه خالد بيگ، وكان إسماعيل بيگ رئيس البيات واثنان من أبناء ولد بيگ من رؤساء الجاف قد قتلوا في القصف المدفعي، ولم يبق في ميدان المعركة سوى عبدالرحمن باشا وعشرين فارسا. ومع أنه أراد أن يهجم على المدافع فردا أوحد، إلا أن أخويه عبدالله بيگ وسليم بيگ منعاه من هذا الإغراق في التطرف الجنوني الذي أولده في نفسه اليأس والإحباط. وعلى هذا فقد وجد نفسه مضطرا للالتجاء مع هؤلاء الفرسان الذين كانوا من إخوته وخدمه وأمرائه، كرة أخرى، إلى علي ميرزا.لقد كان هناك فارق كبير بين اليأس القلبي الذي كان يعاني منه عبدالله باشا بالأمس والبطشة الروحية التي كان يتمتع بها اليوم. كان بالأمس

يجلس محنيا رأسه على ركبتيه، محتضنا إياهما بيديه، يائسا يبحث عن سبيل للفرار وطريق للنجاة، واليوم يعمل على العكس في رفع راية عظمة النخوة الاستعلائية ... أجل إنه كان مشغولا بإقامة منائر متعددة من رؤوس القتلى المقطوعة.

لم تتشبع روح عبدالله باشا المتعطشة للدم بما جرى، فبدأ يطارد أولئك الذين كانوا على صلة بعبدالرحمن باشا. فعندما وصل كركوك ألقى القبض على خليل آغا بن مصطفى آغا وعلى قاسم آغا آغا بغداد السابق وعلى القاضي عبدالفتاح أفندي وأخيه أمير اللواء محمود بيگ وعلى ثلاثة من عشيرة شمر وأعدم هؤلاء جميعا. وبعد أن لوث كركوك على هذا النحو بيد الوحشية وجه عنان عزيمته نحو الموصل، فقد كان طلب في حينه المعونة من واليها سعد الله باشا ولكن الأخير رفض الاستجابة لطلبه، وفضلا عن ذلك كانت له اتصالات مع عبدالرحمن باشا. ولهذا وجه مخالب افتراسه نحو سعد الله باشا هذا أيضا قاصدا تصفية الحساب معه، ولكن سعدالله باشا كان رجلا عاقلا مدبرا ويرى سلوك طريق المداراة والملاينة والتفاق مع أناس وحوش كعبدالله باشا أوفق وأصلح، فهب لاستقباله مصطحبا معه قدرا من الهدايا حتى نهر الزاب، وهدأ حرارة انفعاله ببيان احتذاره له. وهكذا قضى الواليان ليلتين على نهر الزاب معا. وفي اليوم الثالث عاد كل منهما إلى منطقة حكومته الخاصة.

وعندما وصل كفري فوض حكومة السليمانية إلى خالد باشا، كما فوض حكومة كويسنجق وحرير إلى سليمان باشا وأرسلهما كليهما إلى حيث مقر عملهما وعاد بنفسه إلى بغداد. وبوصول نبأ عودته إلى بغداد ملطخ الفم، بما شرب من دماء، اضطر الوزير الأسبق سعيد بيگ بن سليمان باشا إلى مبادرتها فقد يعلم أن عبدالله باشا رجل لايتناسب غروره واستعلاؤه مع أوهامه القلبية، ولذلك فإنه مالم يطهر طريق مستقبله من أشواك الذين قد يختلفون وإياه، التي تنغص عليه راحة في الحياة، لم يستطع العيش براحة بال وهدوء خاطر، في حين أنه، أي سعيد بيگ، كان يرى في أوضاعه الخاصة شوكة بالنسبة لعبدالله باشا تثير في نفسه الشكوك والأوهام والأخيلة. وبناءً على ذلك فقد غادر بغداد قاصدا حمود الثامر شيخ عشائر المنتفك. وهكذا أنقذ نفسه من مضار سجيته الافتراس الكامنة في نفس عبدالله باشا. وفي الحقيقة كان سعيد بيگ قد فكر جيدا، فقد كان من شيمة عبدالله باشا أنه كلما كان لأحد حقوق نعمة ودواعي امتنان عليه، أن تكون مضاره لهذا الشخص أكثر منها لغيره ممن له عليه حقوق نعمة ودواعي امتنان أقل، لأن هذه الحقوق والدواعي كانت تقيد حريته في عمل

مايريد تجاه ولي النعمة هذا، ولذلك لم يكن يرتاح إلى أمثال هؤلاء الأشخاص ولا يكن لهم مودة، في حين أن عبدالله باشا نفسه كان عبدا اشتراه سليمان باشا من ماله الخاص، وعندما اشترى المتوفى المشار إليه بصيغة البيع والشراء وضعه تحت تصرف أهل العلم والمعرفة لتربيته وتعليمه، كما أدخله فيما بعد في سلك الوظائف الحكومية. فكيف سيفي بما لسيده محروما من حقوق؟ كان من الطبيعي أن لايترك ابن سيده محروما من مثل جزاء الإحسان الذي جزى به سليم بيگ وعبدالرحمن باشا. وهكذا، فعندما وصل ينيجة علم بفرار سعيد بيگ وابتعاده عن متناول يديه، فتألم كثيرا لانطلاق هذا العقاب الجامح الذي كان يرى في جناحي نقمته رقيبا لإقباله وسعده. وبوصوله بغداد رأى كذلك في انتظاره رسول من علي ميرزا يحمل إليه طلبا منه بإعادة عبدالرحمن باشا إلى مقامه. وبدلاً من تمشية طلب علي ميرزا هذا وإسعافه أعاد الرسول من حيث أتى خالي الوفاض صفر اليدين، فتحرك علي ميرزا من جراء عدم استجابة عبدالله باشا إلى طلبه مهاجما باتجاه بغداد، واحتل كافة المناطق التي تقع على طريقه حتى قزلرباط، وأخذ عبدالله باشا وخامة الموقف بنظر الاعتبار وطلب الصلح وتم ذلك بشرطين هما إعادة عبدالرحمن باشا إلى مقام حكومته ودفع ضريبة سنوية باسم العراق للحكومة الإيرانية، وأرسل أمر الحكم والخلعة الرسمية إلى عبدالرحمن باشا، كما دفعت ضريبة سنوية واحدة مقدما لم يعرف مقدارها وأعيد خالد باشا وسليمان باشا إلى بغداد وخصصت لهما مقاطعات مندلي وخانقين وعلي آباد ودوزين لإدارة نفقات معيشتهما.

فلما تخطى عبدالله باشا مخاطر علي ميرزا بهذه الشروط المهينة، أخذ يتعقب أوهامه التي سلبت منه الراحة بحق ابن سيده سعيد بيگ. ففي شوال العام ١٢٢٧هـ سار على رأس القوات العراقية من الفلوجة إلى الحلة ومن الحلة إلى وصل الحسكة حيث اضطر إلى التوقف أياما عدة لتأمين المؤونة لقواته. وخلال أيام توقفه هذا، بحث معه أصحاب الرأي والمشورة ممن كانوا ضمن أركانه الذين معه مرارا وتكرارا بشأن سعيد بيگ وأنه لم يرتكب سوء او ينبغي رعاية ما لوالده من حقوق وبذلوا معه من الجهد الكثير لصرفه عما عزم عليه إلا أنه لم ينثنِ عن نواياه في الإساءة إلى الحقوق المترتبة عليه.ومع أن حمود الثامر كان قد استعد للدفاع عن محميته وأعد لذلك عشرين ألف مسلح، فقد كان يرغب في تهدئته سلما وزار المشار إليه كرات ومرات ورجاه العفو والصفح ولكنه لم يلق منه أي وجه يبشر بالخير عدا رفض طلبه ورد رجائه. وهكذا بدأت الاصطدامات في آخر الأمر في الموقع الذي يطلق عليه اسم غيلون.

بالرغم من أن قوات حمود الثامر غلبت واندحرت في البداية، إلا أنه في آخر الأمر انفصلت القوات العسكرية المنتظمة التي كانت تتألف غالبيتها من الترك عن عبدالله باشا وانشقت عليه احتراما لذكرى سليمان باشا والد سعيد بيگ وانضمت إلى الجهة الأخرى. وعندما رأى مابقي منها مع عبدالله باشا هذه النتيجة انفضحت عراها، فكانت تتفرق وتنفض من حوله مجموعة بعد أخرى، وبقي عبدالله باشا وحيدا في الميدان مع أتباعه، فبدأت عشائر المنتفك تهب القوات العراقية وتسلبها بسبب تمزقها وتفرقها، وكان عبدالله باشا يسعى للعودة إلى بغداد، ولكنه لم يكن ليعلم كيف يمكنه التوصل إلى تحقيق غايته هذه. وفيما هو وأتباعه في حيرتهم وتيههم هذه أسروا من قبل محمد السعدون أخي حمود الثامر. فأبقي من بينهم عبدالله باشا وطاهر آغا الكهية رهن الاعتقال وأطلق سراح الباقين. وكان إبقاء هذين في الأسر بانتظار معرفة مصير برغش بن حمود الثامر الذي كان قد جرح في المعارك التي دارت بين الفريقين وما إذا كان سيشفى أو سيموت. وكان أن توفي برغش بعد يومين وعلى هذا فقد قتل الاثنان أيضا والحقت روحاهما بروح برغش المذكور. وهكذا أذاق العزيز ذو الانتقام هذين الناكرين للجميل مايستحقانه من شديد العقاب، وعين سعيد بيگ بتوصية من حمود الثامر وبموافقة القوات العراقية وبناء على رغبة البغداديين ورضاهم وكيلا لولاية بغداد، وتحقق شرف ورود الفرمان الهمايوني بتعيينه واليا أصيلا فيما بعد بناء على المحضر الذي كان قد نظم بهذا الشأن وأرسل إلى الباب العالي.

وفي أوائل ذي القعدة من العام ١٢٢٨هـ مرض عبدالرحمن باشا. ورغم مساعي الأطباء واهتمامهم به ومداواتهم إياه، كان المرض يشتد به يوما بعد يوم، فكان أثره النفسي والمعنوي يظهر في جسمه أكثر فأكثر كلما انقضى المزيد من الوقت عليه، حتى لم تعد طاقته البنيوية وضعفه الروحي تدلان على أي احتمال لاستعادة صحته. فلينظر إلى قدرة القادر! هذا الكيان الذي كان في فطرته قطعة من لحم وكان في سجيته كتلة من فولاذ، وما كان ليصيبه وهن أو فتور من طلقات إطلاقات المدافع وخراطيش الرصاص، كيف غلبه اليوم ما أحدثه فيه هذا المرض من آثار ولم يعد يستطيع أن يجد إلى إنقاذ حياته سبيلا. رستم زمانه هذا الذي خير الناس جميعا بشجاعته الفطرية وصولاته الغضنفرية، كيف غدا في مثل ذلك العجز وفي حالة الذل تلك بحيث ما رآه أحد إلا ورأف بحاله وأشفق عليه. حقا، إن الباري عز وجل خلق في وجه الحياة الإنسانية عارضا معنويا كالمرض، ولكن هذا العارض ليس لمجرد تعذيب الإنسان. إنه

درس للاتعاظ والاعتبار وهذا يدل أولا على سمو نعمة العافية. ويدل ثانيا على أن القوة الانسانية مهما كانت محكمة إلى أنها لاتساوي قلامة ظفر أمام القدرة القادرة لذات ذي الجلال. وثالثا، إن هذه الأوضاع، بوجودها وتأثيرها المعنوي، تضع حتمية الموت بأخطار آلامه أمام نظر يقظتنا وبصيرتنا. وهكذا كانت عظمة عبدالرحمن باشا في أيام حياته، وذله ومسكنته في حالته تلك تمثل لوحة نموذجية لإعجاز هذه الحكمة.

بلغ المرض بعبدالرحمن باشا دورة اليأس والقنوط، فحل زمان ايصائه بما يريد أن يوصي به، وبناء على ذلك استدعى اخوته وأولاده. وعندما اجتمعوا عنده بدأ الإدلاء بنصائحه ووصاياه على النحو الآتي: **«إخواني وأولادي! ها أنا على وشك الرحيل. وقبل أن أترككم أنصحكم وأوصيكم بنصائحي ووصاياي الأخيرة. أرجو كل فرد منكم على حدة أن يستمع اليّ بأذن القلب، وأن يتصرف بمقتضى الوصية التي أوصيه بها. قبل كل شيء معلوم ومحقق لدى الجميع أن الخلود خاص بالله تعالى وحده، ومتى ماحل موعد رحيل أي فرد سلك طريق هذا السفر لا محالة. واذا كان الأمر كذلك، فإن عليه قبل أن يبدأ الرحيل أن يأخذ بنظر الاعتبار واجب إعداد الحوائج الضرورية لسفرته هذه ولاسيما أن هذه السفرة ليست كغيرها من السفرات. فما من أحد يجد إلا ثمار مساعيه وأعماله في الحياة الدنيا، تلك المساعي والأعمال التي تدفعه إليها ميوله ورغباته القلبية. لذلك يجب استحضار أسباب رفع الغوائل وتوفير الراحة في هذه السفرة الأكيدة في أسرع وقت ممكن. وهذا مايتوقف على بناء الأعمال الدنيوية على أرضية الفضائل والمحاسن، وليست الأعمال الحسنة عبارة عن أداء الفرائض وحدها، فالفرائض إنما هي بمثابة مجرد دين على الإنسان، وليس أداء هذا الدين عملا خارقا يقوم به المرء، كما أنه لايصيب الاعتبار الشخصي لأحد بخلل. إن الموازنة المادية للأعمال الحسنة هي المحاسن في نظر العامة. أجل، إن تصورات العامة عن معنويات الإنسان وظنونهم بشأنها معيار مادي. وعندما تحصل القناعة بحسن حال شخص ما، لايبقى التردد في طريق معنويات ذلك الشخص. وبناء على ذلك فإن الحالة الثبوتية للفرائض الإسلامية ورسوخ العقيدة وتمامية الوجود ومحظوظية الإيمان والأعمال الحسنة هي ثروة حياته المعنوية.**

تصوروا شخصاً يعيش في الغربة عندما تصله رسالة من أحد أفراد عائلته أو من أحد أصدقائه وأحبائه، كم يكون ذلك الشخص محظوظا ومنبسطا. هكذا الأمر بالنسبة للموتى أيضا. إن تذكرهم بإرسال الرحمات عليهم، وهم في مأواهم الأبدي الموحش،

يكون مدعاة لانشراحهم وانبساطهم أضعافا مضاعفة لنسبة سرور ذلك الغريب التي وردت إليه الرسالة. فإذا حدث أن كان مع الرسالة هدية عائلية ووطنية، فبمقدار مايضاف إلى إرسال الرسالة من السرور والابتهاج، يكون تذكر الميت بإهداء ثواب تلاوة شريفة لسورة الفاتحة باعثا لسروره وابتهاجه بتلك النسبة.

إن هذا التذكر بإرسال الرحمات وهذه الهدايا الغالية الثمن إنما تستحصل بامتلاك حسن الأخلاق. إن الظفر في الدنيا والنجاة في الآخرة مرتبطان باختراق جوار محاسن البناء العملي.

الاسلام في غاية السمو، وهو لطيف كذلك بمقدار ما هو سامٍ. وبقدر ماهو مرشد للنجاح بالنسبة للحركات التي تقع ضمن دائرة حدوده العالية، هاوية كذلك للمذلات والمصائب إزاء الانحرافات العكسية. وبناء على هذا يجب عدم تجاوز الحدود الدينية لحريم المحظورات الشرعية كي يكون بإمكان القدسية المعنوية للخارقة الدينية فتح مغاليق المشاكل الواقعة على طريق النجاح.

لاشك في أنه بالرغم من الغلظة والهجمات واتباع الأغراض الخاصة التي اتبعها بحقنا ثلاثة وزراء كعلي باشا وسليمان باشا وعبدالله باشا، وبالرغم من التضييق والحصار اللذين فرضا علينا من قبل شخص كالشاهزاده علي ميرزا من أعاظم رجال السلطنة الإيرانية بالاتفاق مع القوى العراقية، وبالرغم من انضواء ابني عمومتنا خالد باشا وسليمان باشا في أدق اللحظات وأحرج الأوقات تحت راية العدو، كان انكشاف غايات أولئك لنا وتحقق مقاصدنا نحن في عاقبة الأمر يعودان إلى أننا راعينا أمور الدين وخدمة أحكام الشريعة واحترامها. إنني أبغي القول مادمت خادم الشريعة ومادمتم عاصمين لتعاليم الدين، فستصفونُ جميع الأشواك والعوارض التي تعترضكم في طريق حياتكم وستكونون موفقين في اقتحام جميع أنواع المشاكل والمعضلات التي تجابهكم.

بدهي أنه لايؤمل الوفاء من الدنيا. إنما الدنيا معبر تجربة للإنسان للتوصل إلى معرفة الماهية الشخصية والقابلية الآخروية. والذين يسمون في هذه التجربة بلياقاتهم وقابلياتهم الدينية، سيكونون في المستقبل أحرارا في الدنيا، متنعمين في قبورهم، شامخي الرؤوس في يوم الحساب. وعلى العكس فإن الاغترار بالسعادة في الحياة الفانية والفتور بإدبار هذه السعادة والتهاون في الواجبات الدينية والتكامل في الالتزام بها يعني التهالك في الوصول إلى النكبة والدمار والسير نحو المصائب المقررة المعلومة.

لا أستطيع القول أكثر من هذا بشأن المصالح الدنيوية والجباة المعنوية. أما بشأن شرفكم وكرامتكم وقوميتكم، فإني أود الإدلاء لكم بكلمات عدة أولها اجتناب الحرص والطمع. أجل، يجب أن تصونوا أنفسكم من الحرص والطمع، فهما رأس كل المفاسد في جميع الجرائم والموبقات التي في الدنيا. فما دمتم تتجنبون هذه الرذاءة يقبل عليكم الشرف والسعادة الدنيوية دونما عائق. أما مايرادف الحرص والطمع فهو الحقد والحسد. إنهما أخس الأمراض التي تعذب الروح.

وليس منشأ سراية هذا المرض إلا دناءة الحرص ودنس الطمع. وبناءً على هذا فعلى الذين يملكون طهارة القلب وصفاء الوجدان أن يجتنبوا هذه القاذورات.

وعلى كل حال، فعلى الذين يبغون العزة في الدنيا وراحة القلب والسعادة في الآخرة أن يتجنبوا حد الغاية تعليل الأخلاق بعلل الحرص والطمع الخبيثة.

يجب أن تكون الحياة الحقيرة التي عاشها خالد باشا عبرة لكم أنتم. إنه لم تسعفه مساعيه المفرطة المتولدة من ابتلائه بهذه العلة المزمنة شيئا آخر عدا الذل والسفالة والحقارة. كونوا على ثقة من أن أولئك الذين يتعقبون هذا المرض الخلقي لن يربحوا عدا حالة الرذالة شيئا آخر.فإذا كنتم تتصفون بالدين والخلق القويم وتتصرفون بمقتضى هاتين الوصيتين الإيجابية منهما والسلبية فستحصلون في هذا المجال بالطبع على سائر المحاسن التي تقع ضمن الدرجات الفرعية.

لن أعين أحدا منكم لتولي حكومة السليمانية في مثل وضعي هذا. وإنني أراني مضطرا إلى ألاَّ أفعل ذلك لأسباب متعددة. أجل، إنني إن عينت أحدا منكم لهذا المنصب، أكون قد أخللت بمبدأ المساواة الذي راعيته حتى الآن فيما بينكم، وأنا ألفظ الأنفاس الأخيرة من حياتي. هذا أولا. وسأكون شريكا من تلقاء نفسي في تحمل السيئات والأوزار التي ستقع في الأحكام والمعاملات في عهد من سيتولى الحكم، في حين أن سيئاتي وأنانياتي من الوفرة بحيث لاتقبل المزيد. وبناءً على ذلك أريد أن ألقى ربي محملا بأوزاري وذنوبي الخاصة وحدها. ولهذه الأسباب أرى أن توضع مسألة من سيتولى الحكم من بعدي موضع نقاش الأمراء والأشراف في اجتماعهم.

ومايجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار قبل كل شيء في هذا الاجتماع هو مسألة الالتزام بالدين. والدرجة الثانية مسألة حب القومية. وإضافة إلى هاتين النقطتين، أرجو أن تلاحظوا مسألة غنى القلب. وعلى هذا يجب أن يكون من تختارونه لمقام الحكومة شخصا غني القلب. أما بالنسبة لمن سواه من الأمراء فعليهم أن لايتخلفوا عن الابتعاد

عن التنافس فيما بينهم وأن يتسابقوا في الخدمة والتضحية بالروح من أجل الوحدة والعزة القومية. كونوا على ثقة من أن المخاطر والمشكلات التي تعترض طريق النجاح والمصلحة القومية هي في المرتبة الأولى من الهموم التي تثقل روح من سيتولى الحكم وفكره. ومع ذلك فإن الشرف والعزة لايتمتع بهما الحاكم لوحده، إنما يكون هو مجرد شريك في ذلك الاحترام الذي يوفره للهيئة القومية العامة. ولكن الذين لايهمهم إلا الانشغال بمنافعهم الذاتية وبالتنافس الرديء فيما بينهم، إنما يلطخون شرف أجدادهم وكرامتهم وقيمتهم القومية كلها بوحل الابتذال كما يلطخون به شرفهم وكرامتهم الشخصية.

انظروا! هل تجدون أمة من الأمم المنقرضة وشعبا من الشعوب البائدة لم يتورط في السيئات الناجمة من التنافسات الناشئة عن الحرص والطمع؟ فكونوا على حذر من معارضة هذا النهج، هذه المعارضة التي ليست شيئا سوى التسويلات الشيطانية المشؤومة، ومن الشقاق والاختلاف الذين تتسبب عنهما هذه المعارضة، ولاتتخلفوا عن الاستعاذة بالله لتكونوا في حرز حريز منها. لاتضيعوا فيما بينكم أحاسيس احترام الكبير من قبل الصغير، ولاتتغافلوا عن مشاعر المحبة والاحترام المتبادلين فيما بينكم. وحذار من أن تتهاونوا في حمل أعباء الوحدة الروحية فيما بينكم لتظلوا مصونين، ولاتتكاسلوا في إبداء العدالة والرأفة تجاه الرعايه وفي احترام العلماء والصلحاء وإبداء الحب للأكابر والأمراء. وخلاصة القول إن كلمتي الأخيرة أن عليكم أن تقوا أنفسكم من كل مسلك يلحق الإهانة بالبنيان الاجتماعي الراهن الذي في الشرف الأساسي لهذه العائلة المتمرسة في تجارب القرون والعصور، وأن لاتتأنوا من السعي لكل مايتعلق بروابط الانتظام، ومع أن الضار والنافع هو الله وحده، فإن سبب الضرر والنفع هو عمل البشر وحركاتهم. فكلما كانت أعمالكم متطابقة مع الشريعة كان الله في عونكم ووفقكم ونصر جهودكم».

وفي الليلة التالية لذلك اليوم الذي أوصى فيه المشار إليه بوصاياه الأخيرة هذه، توفي والتحق برحمة الرحمن.

كان عبدالرحمن باشا خادما للشريعة وعاملا لأركان الدين، وكان حب العلماء واحترام الصالحين والعطف على الفقراء من صفاته الأساسية الممدوحة. كان حلمه وغضبه في مستوى واحد ولم يتخلف أبدا عن رعاية حد الاعتدال، وكان الإفراط في الوفرة عنده منحصرا في الحماسة والشجاعة فقط.

كان يراعي في أيامه مايذهب إليه الشافعية من ضرورة أداء صلاة الجمعة في مسجد واحد، فبنى مسجدا واسعا في السليمانية لهذا الغرض، كما بنى مسجدا آخر يأتي في المرتبة الثانية. وهذا مايدل على مدى تمسكه بالدين الحنيف. ومايزال هذان المسجدان قائمين محافظين على معموريتهما، ولئن كان إبراهيم باشا هو الذي بنى السليمانية، فإن معمرها هو عبدالرحمن باشا.

هناك روايات متعددة عن التزامه بأمور الدين وعن سخائه ورأفته بالناس. منها أنه في أيام حكومته شدد اثنان من موظفي الحسبة الخناق على أحد المدينين داخل الجامع الشريف الذي بناه هو مطالبين إياه بسداد الدين الذي بذمته، فتألم إمام المسجد المذكور ومدرسه الذي كان يدعى الملا محمد من هذا العمل وتوجه غاضبا إلى دار الحكومة حيث قابل عبدالرحمن باشا وقال له:أيها الظالم! ألا تخاف الله رب العالمين، وألا تخجل من رسوله فتتخذ من المسجد مزجرا؟ أمحل عبادةٍ المسجُد أم مكان للتعذيب؟

فرد الباشا الذي كان يحير الناس جميعا بمكنته ومهابة شخصيته أن استقبل الملا المذكور من دون أن يتغير شيء من اعتداله ولطفه وملاينته، قائلا له: الأمان يا أستاذي! إني أرجو العفو والمغفرة. إن السميع والبصير المطلق هو الله تعالى، وأنا لست أكثر من إنسان ذليل. كن على ثقة من أنني لن أكون مطلعا على أي حادثة من دون أن تكون لي واسطة إلى ذلك. بينوا لي ماذا جرى؟ من ذا الذي كسر خاطركم وجرح مشاعركم؟ من ذا الذي أهان المسجد الشريف؟ اذكروا لنا من هو هذا حتى نذيقه جزاء ما ارتكبت يداه؟

فذكر الأمام كيف أن اثنين من موظفي الحسبة اضطرا مديونا بضربه بالعصي إلى أداء دين كان لأحدهم بذمته، فاستدعى الباشا الدائن والمدين وأدى ماعلى المدين للدائن من ماله الخاص وطرد الموظفين المشار إليهما من الخدمة وألبس الإمام جبة وأعاده إلى المسجد معززا مكرما مطيب الخاطر.

وحدث ذات مرة أن كان عائدا من سفرة إلى بغداد، فمر بقرية دربند فقرة التابعة لناحية سرچنار، حيث وقع نظره على فتاة فعشقها واستدعى والدها وطلب يدها منه وسلمه مايلزم من مال لتغطية نفقات زفافها، كما أرسل من يقتضي الأمر من فرسان بصحبة صديق له لإجراء عملية زفاف الفتاة من دار والدها إلى دار الباشا.

أجرى مايلزم لإعداد العروس وزفافها إلى السليمانية وحملت إلى هناك. وقبل أن تصل العروس دار الباشا سلم شخص يدعى أحمد آغا، وكان عاشقا آخر للفتاة، الباشا

منظومة، وكان قد تفوه في منظومته مبينا حاله بتعابير جنونية، فحمل الباشا تفوهاته هذه محمل الجنون مما يسببه العشق والهيام. فبعث على الفور أحد فرسانه حاملا معه رسالة إلى صديقه الذي كان يرافق الفتاة لزفافها إلى داره، أمر إياه أن يعيدها من حيث بلغت، كما أمر الرسول بأن يقدمها بكل ما معها من تجهيزات وملابس وأمتعة وحلوى لعاشقها الولهان أحمد آغا.

وهذه هي ترجمة المنظومة الشعرية:

سيدي ... بازة ...
بازة شيروانية لايستقر بها المقام في وكرها
بازة سريعة الطيران ... بازة جميلة ...
وقعت في يدي في سفح جبل
ابتلي الفؤاد دونما إرادة منه بالبازة
وطار منه الوعي والفهم والعقل كله
فمن الصباح حتى المساء ... ومن المساء حتى الصباح
كنت أقفز مع البازة وكأني صائد بالباز
رتبت شؤون البازة بمئة ضرب من الرقة واللطف
وهيأت أسبابها من جلد أعضاء جسدي:
فمن عيني اتخذت لها مكانا
وجعلت من بؤبؤهما مأوى لها
وأحطت أطراف مأواها بنسيج من أهدابي
لتجلس فيه بازتي الرائعة التي أغرمت بها
أخذت خيطا من كيان جسدي
ربطت به رجل البازة بدلا
انتزعت عظمة الترقوة من بين رقبتي وصدري
واتخذت منها محطا للبازة الطائرة في دلال
ومن خيوط جذور القلب جعلت لها غطاء التدجين
ومن كبدي أعددت الطعم لها لتصرصر
كنت جذلان فرحا مع البازة ذات التقاليد الملكية

لم أكن لأعترف بخسرو أو ببهرام گور
ما كان لديّ علم بما يبيته لي الدهر من مكائد وحيل
وماكنت مهتما بشؤون الدائرة الأرضية
وإذا بسنقور مشؤوم لايعرف الدعة والهدوء
ويعبث الفتن في الكون، ظالم، لا يروض
هاجم من الجو في وثبة واحدة
وانتزع مني بازتي عارضا رمحه
فوقفت حيران مشدوها
تخبطت في التراب وأنا أصيح وأصرخ
ثم نهضت وأنا أبكي وأتألم
ركضت وراء السنقور القاتل وصرصرت كثيرا كما يصرصر الباز، فلم ألحظ أثرا
غابت بازتي المدللة عن عيني
بت كمن خرب بيته فبات يعيش بين الأطلال
وغابت البازة عن عيني كحجرة ترمى في أعماق البحار
وأخيرا وجدتني مضطرا لأظل في مكاني صامتا
ملوما مهموما كصورة منقوشة على صخرة
وقال الناس إن بازتي هربت مني
بقلب ملؤه الحزن معصوبة العينيين
البازة التي كانت قد وقعت في يدي
لم تصطد قط في أي مأوى للبئزان
لم يغطِّها أي حجاب ذهبي
كانت الحسناء الشيروانية قد وقعت في يدي
ولم تقع في يد جمشيد الثاني
بازتي أنثى تحيط بعينيها الشامات
أواه! مامن أثر لبازتي، ولذلك فأنا في أسوأ الأحوال
أخذ الله بازتي إلى دياره
فلن تطالها بعدُ يدي حتى قيام الساعة
فعسى الله خالق المعجزات

تعيد لي بازتي كرة أخرى
بلطفه ويد قدرته ...
ياسيدي! منذ أن افتقدت بازتي
حياتي ومزاجي شقاء وعذاب.
وإلا فماذا يمكن لـ (طالعي) أن يفعل
حتى لاتسلمه الهموم يدا بيد؟
أتحسر متأوها كالكرديِّ المحروم من العيدين
من خيبة أملي ...
غدوت بعد ضياع بازتي تائها حيران
أصيح على الدوام على القمم والمرتفعات
بيِّني لى أيتها الحبيبة الوفية
أنك غدوت وحيدة في السليمانية
فيا أيها الحي القيوم، ليحل الفناء بالذي
تسبب فيما جرى لحبيبتي
وتنقطع آثاره أن تعمى عيناه وأن يحترق بالنيران
أن يفنى ببريق من البرق السماوي
وأن يكون مأواه
أن تكون أفراحه مآتم، ومذاقه عذابا
وأن تكون أعضاء جسمه كبابا، كما صدر كبدي
أن يتمزق جسده، ككبدي أنا، إربا إربا
نصف سليم يوما، ومريضا مئة يوم
أن تكون أعضاؤه مضطربة وتئن من الآلام
أن تكون زفراته حرى، كتأوهاتي أنا
أن يكون الفجر في نظره مظلما كالليل البهيم
وتكون حدقتا عينيه مأوى الحشرات ...
أيها المنافس السيء، السيء المعالم!
أيها الغدار الخائن، الخياني السلوك!
ماذا ارتكبت من السيئات لتعاملني بمثل هذه المعاملة

فتجعلني مأيوسا من رؤية حبيبتي؟
كان حسبي أن أرى يوما واحدا من السنة
قامته، كالهلال الجديد
أن أرى من بعيد قامة الحبيبة الهيفاء
يوما واحدا في الشهر، أو مرة واحدة في العام
عهد عليّ مادام (طالعي) حيا برأسه
ومادامت الشمس تطلع من بروج المشرق
أن لا أكف عن الدعاء بالشر
إلى أن يغدو المسبب في ما جرى للحبيبة، رمادا

يضطرني إلى الالتفات نحو ذلك الجرح القلبي الذي تحدثه الأوضاع الراهنة لأدلي في هذا المقام ببضع كلمات.

ولكن نظراً لأن الغاية من التأريخ هي الاتعاظ وأخذ العبر والدروس، أرجو أن لايعتبر كلامي هذا من قبيل ما هو خارج عن الصدد، ذلك لأن الهدف الأساس لما جرى هو المصالح القومية. ولذا فان الحاجة إلى مثل هذا الكلام ماسة في الوقت الحاضر، وآمل أن تكون ضمائر القراء هي الحكم في مطالعته وتقويمه.

إذا نظرنا إلى آثار أي من أسلافنا منذ أوائل القرن الثالث عشر وإلى نهايته تبين لنا أن الشؤون الدينية لم تكن لتهمل كثيرا (بل إنها لم تكن تهمل مطلقا). أما في أيامنا هذه، فإننا نلاحظ بمزيد الأسف أن هذه الشؤون تقابل بالنسبة للعالم الإسلامي بلا مبالاة تفوق حد الوصف. ومع ذلك، فإن هذا الإهمال للفرائض الدينية وهذه المحن والمآسي الناجمة عن عدم المبالاة بتلك الفرائض، مع استمرارها وتواليها، لاتثير، مع الأسف، في أي منا، أحاسيس الانتباه والندم. ولنلق نظرة قبل أي شيء، على حال عبدالرحمن باشا وتصرفاته، وهو الذي كان مدار بحثنا لدى التطرق إلى هذا الحديث.

فبقدر ما كان إدراكه العقلي يثير اعجاب فحول الإدارة والسياسة، كان إفراطه أيضا في الأمور الدينية أمرا ينم عن الحكمة والتعقل. ففي أي من الصعاب والمشاكل التي تعرض لها في حياته، كان نجاته منها يضيف إلى رفعة شأنه وضمان منزلته واحترامه وتمكينه درجات أخرى جزاء وفاقا لما كان يبذله من رعاية وخدمة واهتمام بأمور الدين. أجل، وإزاء معضلات العوارض الحياتية التي تعرض لها طوال تأريخ حياته، كان قدره يعلو باستمرار ويزداد شرفا ويتكامل قدرة ويتغلب على أعدائه

الغالبين الأقوياء في النتيجة والغاية. إن ترجيحه الانتساب إلى الدين القائم على الحق، وإن كان مما يسبب له المتاعب، لم يكن ليجعله مورد عتاب. إنه كان يتسبب في مايزاحمه، ولكنه لم يكن ليؤدي به إلى الاضمحلال. ولأن خصومه الواقفين بوجهه لم يكونوا يملكون الحالة نفسها التي كانت له من رعاية لشؤون الدين، لم تكن النتائج التي يحصلون عليها في آخر الأمر ليتعدى الندم كلما جرى بينه وبينهم صِدام.

إذاً، يتضح أنه كما كان بين أسلاف بني نوعنا أناس صالحون، كان بينهم أيضا أناس سيئون. ولكن هذا الصلاح وهذا السوء كانا مجرد أمرين خلقيين لايتعلقان بشكل من الأشكال بالعقائد والفرائض الدينية. وحتى إذا كان لهما علاقة بتلك العقائد والفرائض، لم يّبلغ حد الإفراط الذي بلغته اليوم. فعلي باشا، فضلا عن نخوته الروحية وعظمته الشخصية ومظالمه الخلقية، لم يكن ليهمل الفرائض الدينية. وما مقتله وهو يؤدي فريضة الصبح في صلاة الجماعة إلا شاهد صدق على مانقول. إذاً، كانت الأخلاق الشخصية لقدماء السلف غير متناسبة مع عقائدهم وواجباتهم الدينية، وكان حتما في الواقع أن تكون غير متناسبة، فثبوت الدين بالنسبة لأي أحد يتوقف على تنفيذ شعائره، فمن لايتمكن من القراءة والكتابة لايمكن أن يسمى متعلما، وأي صنف من أصناف التجار إن لم يبرهن بعمله الفعلي في الميدان التجاري على ممارسته المهنة لم يستطع البرهنة على ثبوت مهنته بمجرد صفة الانتساب إليها. ومن هذه الحالة، فإن من لايفي بفرائضه الدينية فلا يجوز أن تطلق عليه صفة المسلم. ومع ذلك فمن لايطيع أوامر الله ولايجتنب نواهيه لايمكن أن لايغضب الله سبحانه وتعالى على أقواله وما يدعيه.

قال تعالى في كتابه الكريم: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون». فمن لم يراعِ آداب الدين وأركانه والفرائض الخاصة بالمسلمين، فكيف يمكنه أن يفي بوظيفة العبودية؟ فإذا حصر المرء همه في ملذاته ومسراته ولم يقترب من الفرائض التي حددتها له أحكام القرآن ولم يجتنب المناهي التي منعه عنها القرآن، فكيف يمكن القول عنه إنه يفي بوظائف العبادة، ولم لايؤمن بذي الجلال الذي حصلت القناعة منذ أكثر من ثمانية آلاف سنة بوجوده وقدرته؟ وإذا آمنا بوجوده وقدرته فكيف لانطيع أوامره ولانجتنب نواهيه؟ كيف لا نقتنع ببشائره ونذره. وأنَّى لنا أن نسيء استعمال بشائره التي وعد بها المسلمين؟ من جملة مابشر به القرآن الكريم تلك البشرى التي تقول للمسلمين إن رجلا صابرا واحدا من بينهم يغلب عشرة من المشركين، وقد تحققت هذه

البشرى أمام أعيننا في أحداث كثيرة وقعت في حياة المسلمين. وقد ثبت بالبداهة نفوذ عظمة الإسلام في المشرق والمغرب وفي أقطار العالم بالجملة خلال فترة قصيرة بمثل هذه القوة المعنوية وبمبادأة من واحد أو اثنين. أفلا يعني التشبث بردود الفعل التي تضيع الخوارق المعنوية إظهار السفاهة الممزوجة بالدناءة؟ هزم سيدنا خالد ابن الوليد رضي الله عنه على رأس ستين مقاتلا أثناء فتوحات الشام ستين ألفا من الكفار، وفتح موسى بن نصير وطارق بن زياد بحفنة من الجند إسبانيا ووضعاها تحت تصرفهما، وتحدى صلاح الدين الأيوبي الصليبيين كلهم وتغلب عليهم في آخر الأمر، ونظائر هذه الأمثلة من خوارق الفتوحات الإسلامية كثيرة لاتعدو ولاتحصى، وهي مع الأمثلة المذكورة سابقا بحاجة إلى الشرح والتفصيل. وهي إن لم تكن من آثار إعجاز هذه البشرى القرآنية، أفكانت الطاقة البشرية تستطيع أن تساعد على ذلك؟ وإذا لاحظنا فتوحات السلطنة العثمانية حتى أيام حضرة السلطان سليمان القانوني، حصلت لنا القناعة بأن النجاحات التي كانوا يحرزونها لاتخرج عن إطار الفتوحات المعنوية، أجل لو لم تكن تلك النجاحات مستندة إلى القوة المعنوية، ولو لم تكن القوة المعنوية مضافة إليها، أفكان بوسع قوة غير منظمة كالإنكشارية أن تغدو مظهرا لكل تلك الفتوحات، ومم هي الذلة والمسكنة التي نعاني منها اليوم؟ أقلَّ عددنا، أم تحطمت طاقاتنا، في حين أن عددنا تكاثر وزادت قوتنا أكثر من ذي قبل؟ إذاً، فمن أين تنبع هذه الذلة وهذه المسكنة؟ لماذا نزلت بنا هذه الهزائم وهذه السفالة المستمرة؟ نقول جوابا على هذا التساؤل، استنادا إلى آثار الحكمة القائلة «الملك يبقى بالدين والدين يقوى بالملك»، ومكررين بيانات أنور باشا إذ قال «لن يتمكن الجيش غير المتدين من أن ينتصر أبدا». أجل، إننا نؤكد حقيقة كوننا قد انحرفنا عن الإسلام وأعرضنا عن الفرائض الدينية وحرمنا من العون المعنوي. وما من مسبب لهذا من دون شك إلا المناهج الدراسية للمدارس الرسمية غير المنسجمة مع الدين. أجل، إن هذه البرامج قد أزاحت حب الدين تماما عن أحاسيسنا الروحية ومحته عنها. وقد أدى زوال هذه الأحاسيس إلى ابتلاء وحدتنا الوطنية بمشاعر المنافسة ودفع الجماعات السياسية والعنصرية إلى اقحام خلافاتها في صلب حياتنا الاجتماعية وألقت بعيدا المحاسن الاجتماعية التي ضمنتها الأغراض السامية للمجتمع الإسلامي، في حين أن السياسة الإسلامية لاتنفصل بحال من الأحوال عن الوحدة الاجتماعية. فبمقتضى تعاليم ديننا يجب علينا أن تكون أفكارنا وغاياتنا وملاحظاتنا كلها متجهة نحو هدف واحد، ولايجوز أن يكون هذا

الهدف خارج إطار الحدود الدينية. وفي الحقيقة إننا إذا تعمقنا بنظر الإمعان أدركنا أن دروس البرامج المدرسية أزاحت حكمة الديانة والسمو الإسلامي تماما عن أن تكون مواضيع للدراسة.

والواقع إنه وإن كانت مقدمات العلوم الدينية تدرس في المدارس الابتدائية والمراحل التالية بصورة محدودة، إلا أن دروس الحكمة الطبيعية والعلوم التطبيقية والقواعد الرياضية التي تدرس بصورة محدودة أيضا تؤدي بالطبع إلى طمس مشاعرالإحساس بالمسائل الدينية التي ماتزال غير ناضجة وغير متفتحة. ولو جرى تنمية المعلومات الدينية لدى التلاميذ وتُوسِّع في تدريسها بصورة تدريجية، شأنها شأن العلوم الأخرى وبصورة متناسبة مع تدريسها هي، لما اضمحل الدين بهذه الصورة التي اضمحل اليوم ولما أصابتنا هذه المصائب التي تسبب فيها هذا الاضمحلال الذي أصاب الدين. لاشك في أن هذه البرامج ترتب تقليدا لطريقة التدريس الغربية غير الإسلامية. وفي الواقع لو أننا كنا نملك حياة متساوية من الناحية الدينية والقومية مع الغربيين لكان هذا التقليد حسنا جدا، ولكن ما الفائدة إذا كنا نحن المسلمين لانمثل من أي نقطة نظر أخذناها بعين الاعتبار حياة الشعوب المتقدمة الأخرى، ولكننا لن نوفق من وراء هذا التقليد لاقتطاف أي فائدة عدا مشاهدة مثل ما تعرضنا لها من محن وكوارث. إذاً، أفليس هذا البرنامج الرديء المنظم بمثل هذا التقليد غير اللائق، هو الذي أدّى إلى إصابتنا بالفواجع المتتالية الواحدة بعد الأخرى مما جعلنا لانستطيع أن نرفع رؤوسنا بأي شكل من هول طوفان الفواجع؟!

أو أفليس من عواقب هذه البرامج أن الملاحظات الفكرية للفرق والطوائف السياسية تصيب دوافعها الروحية بالاختلافات المتضادة وتجعل المصالح الوطنية المستهدفة تحت تأثير المنافسات والأغراض الشخصية تنقلب إلى مضارَّ وكوارث في خاتمة المطاف؟

أفليس بدافع من هذه البرامج أن الملاحظات المتعلقة بجانب المجتمع الإسلامي تهمل وتطرح خصوصيات العناصر الفكرية واختلافاتها على بساط البحث وتدخل في حلبة السباق؟

أليست سيئات هذه البرامج هي التي تؤدي إلى جانب الأوضاع المخلة بآداب الدين وأركانها إلى تخويف العوام من أبناء شعبنا من سلامة دينهم وتخمد حرارة الاجتهاد والجهاد فيهم دفعة واحدة؟

إذاً، فلنفتش إزاء هذه الأضرار وسوء الفهم التي تتسبب فيها هذه البرامج عن

منافعها في آخر الأمر، ولنقوِّم تلك المنافع.

لماذا لم تدفع هذه البرامج أمتنا كما دفعت سائر الأمم نحو الاتفاق على ملاحظة المصالح الوطنية والاجتماعية؟

لماذا لم تبلغ برقينا الحضاري مستوى ما بلغته الأمم المتمدنة؟

لماذا لم تجعلنا، شأننا شأن الأمم الأخرى، مظهر الحياة هانئة جديدة؟

لماذا لم ترفع فضائلنا الخلقية بالقضاء على جهلنا الروحي؟

لماذا جعلتنا بالنسبة لتدارك المهام الحربية وإعداد الحاجات الحيوية في حالة الاستغناء بصورة تقليدية عن الرجوع إلى الدول الأجنبية.

وخلاصة القول أنه مهما تأملنا وفكرنا ومهما أجرينا المحاكمات الفكرية، وجدنا أن هذه البرامج لاينجم عنها بالنسبة لنا شيء سوى الابتلاء ببوار مزرعة الحياة الوطنية والاجتماعي وتثبيط همم وعزائم المشاعر القومية والوطنية وإدخالنا في حلبة السباق النفوذي والتنافس العنصري وفي الأوضاع المختلفة اللادينية وغير المرضية مما يؤدي إلى إجفال عوامنا عن الروح الوطنية ولن نحصل من ورائه على أي منفعة مادية كما لن يمهد للحصول عليها أيضا.

ولئن كان هناك شيء يمكن الحصول عليه في هذا المضمار فهو أننا مقتنعون قناعة مؤلمة أن طريقة التعليم والتعلم هذه النظم الحيوية التي نتشبث بها قد حرمتنا من حق الحياة المادية والمعنوية في آن واحد. صحيح أن التشكيلات المنتظمة والقوانين الوضعية وإن كانت قد وضعت الدولة في ميدان الانتظام بالنسبة إلى الماضي، والباب العالي وإن كان قد أعد لنفسه وضعا نظيفا من حيل مديري الأمور النفعيين وحرم مسؤولو الإيالات من إمكان الاغترار بالاستبداد والتمرد، ولكن ما الفائدة من وراء كل ذلك إذا كانت اللامبالاة إزاء فرائض الدين والمصائب والمحن التي تنزلها بنا هذه اللامبالاة جعلتنا نتحسر على الأيام الخوالي.

والآن هناك سؤال مهم جدير بالملاحظة يطرح نفسه علينا ولايمكن لجواب هذا السؤال أن يمر بالخاطر، وهو: لماذا توضع القوانين في سبيل ضمان سلامة واستكمال الحقوق الشخصية، ولاتضع الحكومة الإسلامية سلامة حق الله تحت كنف رعايتها؟

إننا إذا لم نراع حقوق الله سبحانه وتعالى وتركنا أموره يدبرها بنفسه، متعللين بأنه قادر على كل شيء وأنه غني عن أن يحتاج إلينا لنقوم برعاية حقوقه، فسيجازينا على ذلك ويذيقنا جزاء ما عملنا لأننا لم نؤمن حقوقه ولم نتكفلها بصورة عملية، ولذلك

فهو ينتقم منا بصورة معنوية بالكمال والتمام. إنه ترك لنا المحافظة على الحقوق بنص القرآن الكريم، وبتحديده الحدود الشرعية حدد أنواع العقوبات، ولن يهمل مطالبتنا ببيان كيفية المجازاة على الجرائم.

وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لاتجد الحكومة الإسلامية نفسها ملزمة أكثر من سواها بتأمين حقوق الواحد القهار، حماية لنفسها من قهره وانتقامه؟(*)

بعد الحادث الأليم لضياع عبدالرحمن باشا الأبدي، غدا موضوع من الذي سيتولى الحكم مادة للتنافس بين إخوة المشار إليه وأقربائه. ومع أن عبدالله باشا كان الأكبر سنا بين إخوته، إلا أنه كان أقلهم كفاية من حيث الماهية والشخصية الذاتية.

وكما يبدو من تتبعاتنا وتجاربنا التأريخية فإن سليم بيگ وسليمان بيگ وخالد بيگ وحدهم الذين كانوا قد برهنوا بين إخوته على وجودهم الحقيقي. ولأن أسماءهم وحدها هي التي كانت قد برزت خلال الوقائع التأريخية، كان ذلك يبرهن على صدق الحجج التفنيدية التي سيقت بحق عبدالله باشا وإخوته.

ومع أن خالد بيگ صار ضحية للمكافأة المعكوسة لعبدالله باشا، فإن البيگين سليم وسليمان أضافا بعد رحيل عبدالرحمن باشا أعمالا رجولية إلى حماسهما وشجاعتهما

(*) في الحقيقة إن مثل هذه النزعة البريئة كانت غالبة على معظم المؤمنين بجوهر الإسلام، ولعل ما آل إليه أمر الإمبراطورية العثمانية جراء التقليد الأعمى الذي تبناه أتاترك، من بوار ودمار أكبر شاهد على ذلك. فلم يكن للترك البدو الذين جاؤوا من صحراء آسيا الوسطى سوى ما لأي حضارة بدوية شبه وثنية متمثلة بالشامانية في سيبيريا قديماً، ولكنهم بعد أن شرفهم الاسلام علا اسمهم في الآفاق وبسطوا نفوذهم على ثلاث قارات وأوصلوا الإسلام إلى كثير من بقاع أوروبا. حتى إذا ركز سلاطينهم على مجرد الغزو تحت ستار نشر الإسلام شكلياً، وخرجوا عن جادة الصواب أصابهم الضعف أيما ضعف، فسيطرت الإماء الاوروبيات على بلاطاتهم من خلال ذراريهم فتكالبت عليهم القوى الغربية فأفرطت عقدها وغدت في خبر كان فأضاعت إسلامها بما يسمى العلمانية وهي ليست في الحقيقة إلا تقليداً واستنساخاً لعلاقات وآليات لم تظهر نتيجة للتطور الاجتماعي- الاقتصادي بصورة طبيعية وإنما نزلت على الترك من فوق، من دون أن يكون لتقبلها استعداد نفسي واجتماعي وقد أضاعوا المشيتين كما يقال، ولكن لايعني ذلك أن لا يفتح المسلمون عقولهم لمستجدات الحياة البشرية في ضرورة الانفتاح على ما يلائمهم من كل تطور مادي ومعنوي (اعمل لدنياك وكأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك وكأنك تموت غدا، هذا ومما يجب أن ينتبه إليه المسلمون، أن العنف العشوائي لا يأتي إلا بمثله. فعلى المسلمين أن يكونوا أذكى من أن يوصموا بالتخلف وحب الإرهاب. شكور مصطفى

الغضنفرية إزاء ابن أخيهما محمود بيگ.

أجل، لقد تعاون البيگان سليم وسليمان، وبالرغم من المنافسة الشديدة الناشئة من الحرص والطمع من أخيهما عبدالله بيگ وسائر إخوتهما، وثبتا محمود بيگ الابن الأكبر للمتوفى المشار إليه في مقام والده، وبإعلان تبعيتهما له سلماه ربقة الطاعة، واعترف علماء السليمانية وأشرافها ورؤساؤها العامون بمزيد الامتنان لذلك كثيرا ولم يتخلف أحد منهم عن مبايعته بكمال الابتهاج والسرور، ونظم محضر بذلك حسب الأصول المرعية وقدم إلى مقام الوزارة في بغداد مع رجاء المصادقة على توليه الحكم من جانب الإيالة.

ونتيجة للمنافسة التي دارت بين عبدالله بيگ وسائر إخوته لم تطب له الإقامة في السليمانية بعد أن آل الحكم إلى محمود بيگ وتبعه في ذلك أخواه أحمد بيگ وعمر بيگ فهاجروا جميعا إلى كركوك. وبعد أن أقاموا عوائلهم هناك توجهوا بأنفسهم إلى بغداد، إلا أن المحضر المنظم في السليمانية كان قد وصل بغداد قبل أن يصلوها. ورغم المحاولات والمراجعات الكثيرة التي قام بها خالد باشا وسليمان باشا، فقد أرسل أمر الباشوية وخلعتها وفرمان الحكمدارية باسم محمود باشا إلى السليمانية.

وفي الحادي عشر من ذي الحجة سنة ١٢٢٨هـ توجه الوالي سعيد باشا لتأديب عشيرة الخزاعل إلى الحلة، وكان بصحبته كل من خالد باشا وعبدالله بيك على رأس خمس مئة فارس لكل منهما. إلا أن خالد باشا لم يبد فعالية ما خلال تلك الرحلة.

وقد اعتبر تهاونه في هذا المضمار عملا من أعمال الخيانة، فسجن على ذلك بعد العودة واسترجعت منه المقاطعات التي كانت قد أعطي إيَّاها، وفوضت إلى عبدالله بيگ مكافأة له على حسن أدائه. وبعد أيام من ذلك تبين أن تراخي خالد باشا لم يكن منشؤه الخيانة، وإنما اتخذ ذلك الموقف لمجرد أنه لم يعين باشا للسليمانية فأصيب بالإحباط من جراء ذلك، فأطلق سراحه من السجن ولكن مقاطعاته السابقة لم تعد إليه ثانية.

وفي العام ١٢٢٩هـ أرسل محمد بيگ ابن خالد باشا على رأس خمس مئة فارس إلى الحلة للدفاع عنها ضد تعرضات العشائر بناء على طلب والي المدينة المذكورة. وقد أبدى محمد بيگ في هذه المهمة المكلف بها الإقدام والفعالية. وعند عودته خصص له عشر حاصلات أربيل ليعتاش منها وأرسل إلى هناك لجباية تلك الحاصلات. وفي السنة نفسها انتزع سعيد باشا كويسنجق وحرير من محمود باشا وأعطى سليمان باشا بن

إبراهيم باشا إيَّاهما.

وفي العام ١٢٣٠هـ عزل سليمان باشا وعين مكانه خالد باشا. وبناءً على طلب خالد باشا واسترحامه فوضت حكومة كويسنجق وحرير وكالة إلى ابنه محمد بيگ مع إضافة لقب الباشا إليه. وكان هذا اللقب في تلكم الأيام عنوانا إضافيا لكل من تسند إليه مهمة الحكمدارية.

لم تكن لسعيد باشا المعيَّن واليا على إيالة بغداد الكفاية اللازمة والاستعداد المطلوب لإدارة أمور ذلك المقام.

ليس هذا حسب، بل وكان يفتقر إلى كل مزية في مختلف أمور الإدارة، وكان غريبا عنها مغرما بالخوض في السفه وطيش الشباب. والواقع أنه، وإن كان قد قضى الفترة الأولى من أيام ولايته بالاستفادة من إرشادات هذا وذلك ممن كانوا يسيرون له أمور إدارته، إلا أنه ابتلي فيما بعد بظهور رجل في حياته حيال ساحر عديم الأدب يدعى «الحاوي» فغدا مسخرا لتمويهاته ومكائده. لكن هذا الابتلاء لم يكن مجرد ابتلاء. من الممكن أن يكون هناك في أي شيء إفراط وتفريط، أما ابتلاء سعيد باشا بالحاوي فقد تعدى حد الإفراط وفاق التفريط أيضا.

كان ابتلاء المشار إليه بحيث كان يتطلب لتحقيق رغبات عينيه أن يرى جمال حاوي، ولتحقيق رغبات أذنيه أن يسمع كلامه الجميل، ولتحقيق رغبات لسانه أن يحادثه، ولتحقيق رغبات حياته أن يعايش الحاوي ويتسلى معه، ولتحقيق الإقبال والسعادة له أن يحققهما لحاوي. أجل كان ابتلاء سعيد باشا إبتلاءً من هذا النوع.

وطبيعي أن يسلب ابتلاء كهذا وبمثل هذه الدرجة من القوة والادراك العقلي وقوة البصيرة من سعيد باشا. لقد أهملت أمور الإدارة العراقية لأصابع الحاوي اللعينة وكان الحاوي في ظل مقامه ونفوذه السحري هذا قد غدا حاكم الديار العراقية المطلق، فصار مرجعا للعامة وملجأ للفواحش وحاميا للسِّفلة والأراذل، وكانت الوظائف الحكومية كلها تعطى لغير الموهلين إيَّاها من طريق المزايدة، فانسحب أرباب الشرف والكرامة من الساحة... ومع أن الحاوي كان قد أمسك بوظيفة ناظر الخزينة بين يديه، إلا أنه ما كان ليكتفي بذلك، فكونه كهية الوالي كان يجعله مرشحا لتولي منصب الولاية نفسها!

وفي أيام الحاوي الفعلية أي في العام١٢٣١هـ عين عبدالله بيگ أخو عبدالرحمن باشا، باشا للسليمانية. وقد أرسل مرفقا بالقدر اللازم من القوة المسلحة ليتمكن من السيطرة على المدينة ويتولى منصبه وسار لينال مبتغاه.

وعندما اطلع محمود باشا على كيفية الأمر اتصل بالشاهزاده علي ميرزا وطلب منه العون والمساعدة وأرسل أخاه عثمان بيگ إلى بازيان لإحكام الموقع.

وعندما وصل عبدالله باشا كركوك وسمع أن عثمان بيگ قد أحكم مدخل المضيق وهو ينتظر تعرض عبدالله باشا له، لم يتجاسر على خوض حومة الوغى. وبعد أن لبث في كركوك أياماً عاد من حيث أتى.

وكان سليمان أفندي التذكرەچى ( ) الأول قد جاء في تلكم الأيام إلى بغداد مبعوثا من قبل السلطنة السنية لإجراء محادثات لرفع وإزالة المداخلات والخلافات الحدودية.

قدم سليمان أفندي توصيات شديدة اللهجة إلى سعيد بيگ بشأن أوضاع محمود باشا وعدم حبك الدسائس ضده بغية عدم فسح المجال لتكدير صفو خاطره، في حين أن سعيد باشا كان قد قام على العكس من هذه التوصيات بعزله عن منصبه وكان قد نسف أسس السياسة التي كان يسير عليها سليمان أفندي وقدم من أجلها، وسد طريق التوفيق والنجاح على ما كان يدعيه المشار إليه في أثناء المحادثات التي أجراها، وهذا مالم يكن يخلو من خلق المشاكل والأضرار لسياسة الدولة العامة. ولهذا فقد عزل عن مقامه وعين مكانه بصفة وكيل أحمد بيگ أخو عبدالله باشا القتيل من الرضاعة، إلا أنه لم يتجاسر على البوح بعدم قدرته على ضبط المقام، ولذلك أجل الموضوع إلى حيث تسنح الظروف الملائمة. وقد انتقل هذا الخبر من أذن إلى أخرى حتى بلغ مسامع داود أفندي الكهية. كان داود أفندي هذا في أيام صباه عبدا اشتراه سليمان باشا والد سعيد باشا فأدخله صفوف التربية والتعليم بشغف أبوي ومحبة وشفقة خاصتين، وأبدى داود من القابلية والمهارة واكتسب من المعارف والعلوم ماجعله يستلفت انتباه سليمان باشا حتى شرفه بأن اتخذه صهرا له. وفي أيام عبدالله باشا وسعيد باشا الدفتردار عين كهية. وعندما شاع خبر انفعال سعيد باشا بالحاوي أخذت فكرة استغلال الوضع للاستعادة منه تدغدغ مخيلته، فخرج مع ما يقارب مئة وخمسين شخصا ممن تعرضوا للضربات المهينة من قبل الحاوي من أعيان بغداد وشخصياتها المتميزة من المدينة ملتجئين إلى حمية البابانيين الرجولية، فتلقاهم محمودباشا بحسن القبول ولم يدخر وسعا في العناية بهم وإجراء الاحترام اللازم لهم. أبلغ داود أفندي محمود باشا غرضه في القدوم إلى السليمانية وهو ضبط منصب الولاية في بغداد بقوة البابانيين. ولأن تحقيق رغبات الضيوف عادة قومية قديمة لدى الكرد، وجد محمود باشا نفسه مضطرا

للالتزام بتحقيق ماجاء داود أفندي من أجله، إلا أنه فيما يتعلق بتحقيق غرض كهذا ومن أجل شخص داود أفندي، كان هناك مايجب أن يأخذه محمود باشا بنظر الاعتبار، ألا وهو المكافأة المعكوسة التي كافأ بها المرحوم عبدالله باشا والد محمود باشا أي عبدالرحمن باشا في خدمة مماثلة. ولكن ما الفائدة إذا كانت العادات القومية غير قابلة للإخلال بها، وإضافة إلى ذلك كان داود أفندي من العلم والعرفان والفضل والوجدان مايجعل من المستحيل تشبيهه بعبدالله باشا. وعلى كل حال كان هناك فارق كبير بين عبدالله باشا وداود أفندي، فحتى إذا وفق الثاني لنيل مبتغاه وأراد مكافأة محمود بيگ على ذلك كان مستواه العلمي والمعرفي يحول دون أن تكون مكافأته من طراز مكافأة عبدالله باشا.

فكر محمود باشا في هذه الأمور وتأمل فيها، وفي آخر الأمر قرر تلبية طلب داود أفندي، إلا أنه رأى من الضروري تقديم عريضة استرحام إلى المقام السلطاني كي لاتفسر أعماله ومساعيه في هذا المضمار بأنها تتضمن معنى الخروج على السلطان ولتجري العملية قوية راسخة من الأساس. وقدا استصوب داود أفندي أيضا هذا التدبير، وكانت خلاصة العريضة الاسترحامية كما يأتي: يعود منشأ لجوء البابانيين بين حين وآخر إلى الإيرانيين ومداخلات هؤلاء في كردستان العثمانية إلى سوء إدارة ولاة العراق وسياساتهم. وكان قيام الوالي الأسبق سليمان باشا بادعاء التفرد والاستقلال وصدور الإرادة السامية بعزل الوزير الحالي سعيد باشا وبقاؤه عنوة في مقامه مواصلا وجوده دليلين على الروح الاستبدادية للوزراء المشار إليهم. إن سوء أدب هؤلاء وعصيانهم بوجه متبوعهم المعظم إنما هو أنموذج ومثال للتعامل الجبروتي الذي يقوم به هؤلاء تجاه من تحت أيديهم، وما سبب ذلك إلا جهلهم وعدم معرفتهم بالأمور. وبناءً على هذا فإن القضاء على التشتت والتشويش الإداريين في الديار العراقية بغية تأمين النظام والانتظام يقتضي أن يعين لتدبير شؤون الإيالة من شاهد وخَبِر العلل والأمراض الإدارية في تلك الديار وشخصها وكانت له القابلية لتسكين الآلام الموجعة لأي عضو فيها واقتنعت العامة بمستوى حذاقته ومزاياه المعرفية في هذا المضمار، وهذا الشخص ليس إلا كهية الإيالة داود أفندي الحائز على تلك المزايا. ولأن فضائله العلمية ومزاياه العرفانية تكفل الأوضاع وتضمن المصلحة العامة، وبناءً على مقتضيات هذه المصلحة، فإنني أتجرأ على عرض طلب تعيينه للإيالة المذكورة.

قدم محمود باشا عريضته الاسترحامية هذه بصورة مستعجلة بوساطة معتمده

الخاص الذي كان دائما في الطريق إلى السُّدَّة السلطانية. ومع ذلك فلم يتوانَ بنفسه عن التحضير للسفر أيضا، فتمت الكتابة باالتفاق مع داود أفندي لجميع أمراء بابان المنتشرين والمعارضين بغية جمعهم وجلبهم. وبناءً على هذا، فقد توجه سليمان باشا بن إبراهيم باشا الذي كان قد انشق في كويسنجق وحرير إلى كرمانشاه، ومع أنه عاد إلا أن خالد باشا لم يوافق على المجيء. أما عبدالله باشا فلم يكتف بأن لم يوافق على المشاركة، بل توجه من كركوك إلى بغداد وعرض ماجرى في السليمانية على مسامع سعيد باشا.

وبعد القيام بأنواع التحضيرات وانقضاء أربعين يوما على قدوم داود أفندي إلى السليمانية تحركت الهيئة المسافرة إلى بغداد عبر كركوك. وعندما وصل المسافرون كركوك استقبلهم أهل المنطقة استقبالا حارا، ولم يتخلف أحد عن المبايعة.

كان خالد باشا قد رفض الأمر الصادر بطرده من حكومة كويسنجق وحرير، فكلف محمود باشا أخاه عثمان بيگ بتنفيذ الأمر المذكور ووضع تحت تصرفه القوة المقاتلة اللازمة لذلك، فاستصحب عثمان بيگ معه القسم الأهم من القوة التي وضعها محمود باشا تحت تصرفه وتوجه نحو كويسنجق وحرير. وفي هذه الأثناء وجد أحمد بيگ الآنف الذكر أخو سليمان باشا القتيل من الرضاع الذي لم يتجاسر من قبل على اظهار الفرمان الصادر بتعيينه وكيلا للوالي في بغداد، وجد الفرصة مناسبة لإظهار الأمر الصادر بشأنه، فتوجه من مقره الواقع على مسيرة ساعة من بغداد، بعد غروب الشمس، بصحبة محمد آغا كتخدا البوابين وجميع الذوات الذين كانوا تحت تبعيته بحجة الاستحمام ودخل المدينة ونزل ضيفا في دار يوسف آغا مسؤول الإنكشارية، وبوساطة يوسف آغا هذا دعا أهالي المدينة للاجتماع بهم وتلا بحضورهم، الفرمان الهمايوني وطلب منهم العون والمساعدة لتحقيق مضمون الفرمان، وعندما سمع الأهالي نص الفرمان وافقوا عليه بالإجماع.

لما علم محمد آغا كتخدا البوابين بما جرى عاد على جناح السرعة إلى المعسكر وعرض تفاصيل ماجرى على داود أفندي. وكان من رأي داود أفندي أن النجاح إنما هو في الحلم والصبر والتحمل، وبغية أن لايتطور الأمر إلى نشوب قتال حافظ على اعتداله وأراد أن يحل المشكلة سلميا. ولذلك فقد بعث هيئة ناصحة إلى كركوك، ولكن هذه الهيئة سلبت بأمر من أحمد بيگ ومورس بحق أعضائها مختلف أنواع الإهانة والتحقير وطردت من المدينة وأعيدت إلى المعسكر. ومع ذلك لم يتخل داود

أفندي عن هدوئه واعتداله وأرسل ثانية وثالثة بل رابعة هيئات ناصحة أخرى إلى كركوك ولكنها كلها ردت على أعقابها من دون أن تستطيع التوصل إلى نتيجة. ومع ذلك لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد هاجم حوالي أربعة إلى خمسة آلاف مسلح المعسكر، وبذلك خرج الأمر عن أن تفيد معه السياسة الحليمة التي كان يسير عليها داود أفندي، وانتقلت الوظيفة إلى مرحلة التأديب التي تتحكم فيها سيوف محمود باشا.

وضع محمود باشا قواته في موضع المواجهة، ولكن من بعيد، منتظرا اقتراب شمل الخصم المزدحم، فأثار ضمان عدم حدوث مجابهة المهاجمين مرة أخرى واستفزهم وزاد من جسارتهم وسُعارهم. فما أن اقتربوا من المواضع القريبة من مناصب خيام قوات محمود باشا حتى تعرضوا إلى التصدي الفوري لهم من جانب البابانيين والسليمانيين تصدي الأسود. فمن قتل من الكركوكيين قتل ومنه جرح منهم جرح، وتفرق الباقون مهزومين شذرَ مذرَ. ولئلا يكون قد أتاح المجال لتخريب بلاد الجيران، لم يسمح محمودباشا بدخول قواته مدينة كركوك.

ومع أن محمود باشا وداود أفندي كانا متألمين من هذه المعاملة العدوانية التي واجههما بها الكركوكيون، فقد أمرا بنقل مقر قواتهما إلى قرية طوقماقلو الواقعة على مسافة ثلاث ساعات من كركوك في سبيل أن لاتتعرض المدينة لأعمال الاعتداء والسلب والنهب من جانب تلك القوات.

كان الغالبية من أعيان كركوك غير مطلعين على قضية الهجوم الذي نظمه أحمد بيگ، وعلى هذا حضروا بعد اطلاعهم على كيفية الأمر إلى طوقماقلو معتذرين عما بدر منهم. وعندما استجيب إلى اعتذارهم أكدوا صدق اعتذارهم بانضمامهم إلى القوات المعسكرة هناك.

كان داود أفندي ينتظر ورود الجواب على العريضة التي رفعها محمود باشا إلى مقام السلطان، ولذلك فقد كان يبدي في تصرفاته الكثير من التأني والصبر، فبسبب من كونه قد درس ونال قسطا من العلوم والمعارف، كان يرجح الاطراد على الإفراط وكان يرى في نهج الاعتدال مرشدا له لتبين سبل التوفيق والنجاح، وكان يقدر أن عريضة الالتماس التي رفعها محمودباشا ليست مما يمكن ضمان الاستجابة لها، فإذا رفضت اعتبرت التصرفات التي بدرت منه تمردا وخروجا على السلطان، وحتى إذا لم تؤد إلى فاجعة بالنسبة له، فإنها ستكون مدعاة خجل بالنسبة إليه أمام السلطان،

ولذلك كان يسير على نظرية عدم الاستعجال وإن تأخر الوقت.

وعندما وصل عثمان بيگ كويسنجق وحرير غادر خالد باشا موقعه متوجها إلى أربيل، فدخل عثمان بيگ البلاد واتخذ الإجراءات اللازمة لتسيير الأمور فيها. وبعد أن عين وكيلا عنه هناك عاد إلى قرية طوقماقلو، وقد سبق أن ذكرنا أن عبدالله باشا كان يضع نصب عينيه أفكارا سقيمة لمصلحته الخاصة، فقد سبق أن بينا أنه توجه من كركوك إلى بغداد. وعندما وصل بغداد نزل في الأعظمية

متخذا له مقرا فيها وأخبر سعيد باشا بما جرى، فبدأ سعيد باشا على الفور يفكر في إعداد وسائل الدفاع مستهدفا حمل محمود باشا والقوة البابانية المتبقية معه التي هاجمت بغداد على العودة، وإن كان قد أرسل قوة مهاجمة أيضا بقيادة عبدالله باشا للاستيلاء على السليمانية، إلا أن حسن بيگ شقيق محمود باشا الذي كان قد بقي في السليمانية تصدى لها وهزمها وشتت شملها. فاستدعى سعيد باشا حمود الثامر شيخ عشائر المنتفق الذي كان يعتبر الظهير الأساس المساند له، كما جمع من جانب آخر العرب البدو والعشائر العربية التي كانت تطيعه بصورة منفصلة، إلا أن شدة الازدحام الناشيء من تحشيد هذه العشائر كانت تشكل بالنسبة لسعيد باشا مأزقا يصعب الخروج منه، فقد كانت النفقات اليومية لهذه القوات تقتضي مبالغ غير قليلة، في حين أن سفاهاته ونزواته كانت قد أصابته بالإفلاس التام، كما كان الإجراء الذي اتخذه داود أفندي بانتظار ورود الموافقة السلطانية يضعف إلى حد كبير عنصر قوة المقاومة لدى سعيد باشا، فكلما طالت أيام انتظار ورود الجواب، زاد اضطرار سعيد باشا إلى إنفاق مبالغ أكثر، واشتدت وتيرة مساره نحو حافة الإفلاس التام، في حين كان خطر الإفلاس هذا يعني توجيه أشد الضربات المنبئة بالهزيمة إليه، ولاسيما أن الغلاء والقحط لم يكونا وحدهما اللذين سلبا البغداديين طاقة الصمود ويدفعان بهم نحو الهلاك والفناء، وإنما كان وجود سعيد باشا نفسه العامل الأساس في ذلك.

كان البغداديون يتعرضون في تلكم الأيام إلى مصائب غير قليلة، فمن جهة، الغلاء والقحط اللذان أشرنا إليهما، ومن جهة ثانية، انحصارهم في المدينة بسبب حظر الخروج منها، ومن جهة ثالثة، توقف التجارة والأعمال، وفضلا عن هذا كله التعرض إلى غارات الأعراب والعشائر المحتشدة في المدينة وأطرافها. كل هذه حطمت كل طاقة للمقاومة وقضت عليها.

وكان سعيد باشا نفسه أيضا متذمرا من هذه الحالة السيئة وقد بلغ به الملل منتهاه،

فكان يتمنى لو أتاه الفرج قبل دقيقة بالخلاص من هذه الورطة التي وقع فيها، وكان قد أصيب برغبة يائسة في النجاة من هذه الحالة.

وعلى أساس هذا اليأس الذي أصاب البغداديين ولضرورات الأوضاع التي كانوا يعانون منها، كانوا قد أخذوا يغادرون المدينة كلما سنحت لهم الفرصة لذلك آحادا ومثنى وثلاث ورباع ليلتحقوا بحشد داود أفندي، وقد انكشف أمر هذه الالتحاقات فسدَّت أبواب سور بغداد، وهكذا هز انقطاع الدخول إلى المدينة والخروج منها البغداديين مرة واحدة.

وعندما زُفَّت البشرى بأن عريضة الالتماس التي رفعها محمود باشا نالت حسن القبول من لدن السلطان وصدر الفرمان بتحقيق مضمونها كانت الهيئة البابانية المسافرة ماتزال تقيم في قرية طوقماقلو.

أجل، لقد وصلت البشرى بالإحسان إلى داود أفندي وتوجيه إيالات بغداد والبصرة وشهرزور مع درجة الوزارة إليه وإيداع تنفيذ الأمر الصادر بهذا الشأن إلى محمد آغا كتخدا حالت أفندي. وعلى هذا، فإن الهيئة المرافقة لداود أفندي اضطرت للمكوث في قرية طوقماقلو فترة أخرى بانتظار وصول الموما إليه.

وفي الثالث من محرم ١٢٣٢هـ استقبل الفرمان الهمايوني بين مسرات الجميع وأفراحهم وابتهاجاتهم في صورة عالية رفيعة القدر، فلم يبق بعد ذلك ما يقتضي البقاء في طوقماقلو، فتوجهت منها الهيئة المرافقة لداود أفندي ونزلت في طوزخورماتو. وهناك عين إبراهيم باشا بن سليمان باشا متصرفا لدرنة وباجلان وأرسل إلى مقر وظيفته. وبعد توقف هناك عدة أيام ابتسمت آمال النجاة في وجوه البغداديين عندما علموا أن نجم سعد الطالع الداودي قد أومض من أفق ينيجة ونثر شعاعاته منه.

وكما تم الإيضاح من قبل، كان داود باشا يريد دائما أن يحقق أهدافه دون اللجوء إلى القتال إلا إذا اقتضت ذلك ضرورة قطعية. وعلى هذا فقد وجه رسائل تتضمن الإرشاد والاستمالة والنصائح الضرورية إلى كل من وجد ضرورة لتوجيهها إليهم من البغداديين مرفقة بصورة من الأمر الهمايوني.

وفي الحقيقة لم تكن هناك معارضة وإعراض عن الأمر من جانب الأهالي، فهم كانوا ينتظرون على العكس أول دقيقة لوصول الوالي إلى بغداد.

تحركت الهيئة الداودية من ينيجة، وكان سعيد باشا قد برم بالأمر وأصابه الكلل والملل ولم يبق لديه الحد الأدنى من إمكان القدرة على المقاومة والمجابهة، كما سبق أن

بينا ذلك من قبل، لذلك فرق العشائر المحتشدة.

وعند وصول سعيد باشا بغداد وفي غمرة الفوضى والهرج والمرج أصابت حبيبه حاوي رصاصة، فقبض عليه مجروحا وأخذ إلى ايج قلعة (القلعة الداخلية). وما إن علم سعيد باشا بما جرى، لم يترك حبيبه وحيدا، فدخل هو بنفسه أيضا إيج قلعة وغدا هناك مساكناً الحاوي.

تلي الفرمان الهمايوني الخاص بوزارة داود باشا وولايته حسب التقاليد الاعتيادية المتبعة في مثل هذه المناسبات، وأجريت له مراسيم التهنئة والتبريك الطنانة وعين رفاقه في الهجرة كل منهم في وظيفة محددة وأدخلت المسرة والبهجة بذلك في قلوبهم.

لم يعف داود باشا عن سعيد باشا من الإعدام، فقد أحال آمر جلاديه أمر قطع عنقه إلى محمد آغا كتخدا حالت أفندي، وبعد يومين أو ثلاثة أيام شنق الحاوي أيضا وأرسل رأساهما إلى إستانبول.

كان التعامل مع سعيد باشا على هذا النحو عملا في غاية القسوة والإهانة من وجهة نظر رعاية الحقوق لأنه كان ابن سليمان باشا، في حين كان سليمان باشا ولي نعمة داود باشا ومالكه وسيده. فقد كان داود باشا، وهو في العاشرة من عمره، مملوكا ابتاعه سليمان باشا، على أن صلته به لم تكن صلة المملوك بسيده بل صلة الوالد بولده الذي أدخله في حضن شفقته وخالص محبته وعني بتربيته وتعليمه ورباه في دلال ونعيم، وأخيراً حقق له صفة البنوة المجازية المعنوية بمصاهرته إياه. فهل كان الإيفاء بحق النعمة وإبراز الامتنان إزاء كل هذه المكارم قتله بقطع رأسه، وهل كان واجباً أن يكون التعويض عما فعله سليمان باشا من أجل داود باشا بما فعله الأخير إزاء ابن الأول؟

لنقل إنه كان من الضروري إسقاط سعيد باشا وعزله عن مقام السلطة لعدم كفايته وسوء خلقه، ومع ذلك فإن حب المستقبل السعيد كان قد وضع داود باشا على طريق المطامع فكان بحاجة إلى اسقاط سعيد باشا ليتمكن من أخذ السلطة في يديه وتحت إدارته، ولكن مهما بلغت سيئات سعيد باشا من الكثرة، فإن أي ضمير لايستطيع أن يتصور منح داود باشا المدين لوالد سعيد باشا بشكر النعمة أو الذي كان يجب أن يكون مدينا له بهذا الشكر، حق إزهاق روح ابنه عن طريق الذبح من الوريد إلى الوريد وتصفية حياته وإنهاء وجوده الروحي. لنفترض أن وجود سعيد باشا كان يحول دون نجاح داود باشا، إلا أنه لو ألقى القبض عليه بموجب الأمر السلطاني وأرسله إلى حلب،

لدفع بذلك المخاطر المترتبة على بقائه. ولكن هيهات أن يكون بوسع المكتسبات العلمية أن تتكفل أبدا تذهيب الجِبلَّة الأساسية الفطرية للحالة الخلقية لدى المرء، فالتربية العقلية لن تستطيع تغيير النسبة الشكلية للماهية الخلقية، ويكفي دليلا على صدق ما نقول نص الآية الكريمة القائلة: «كل يعمل على شاكلته».

وهكذا، فإن العلوم والمعارف التي اكتسبها داود باشا لم تستطع أن ترفع مستواه الخلقي نحو المحاسن ولم تضع ماهيته الفطرية خارج طبيعته الأساسية، وإنما زادت من مضاره بتوسيع حقيقة شاكلته الفطرية. فالواقع أنه خلال الأعمال الأولى التي جرت ضد سعيد باشا، كان داود باشا يتستر بالإنصاف الروحي والعدالة الوجدانية، إلا أن ما علمته إياه مكتسباته العلمية لم تكن لتتعدى علم الحيل.

وعندما تولى منصب الوزارة وتبوأ أريكة الحكم، كان قد تعدى أن يكون بحاجة إلى التستر بالتعطف والتلطف. كان يريد أن يركز نفوذه في كل حادثة وسانحة بالاستناد إلى إبراز الشدة وإراقة الدماء، وهكذا لم تكن مآربه لتطمئن بمجرد إعدام سعيد باشا، بل إنه أصدر أوامره بإعدام كل من الحاج محمد سعيد بيگ الدفتردار وعمر آغا الملّي وكهية البوابين السابق أيضا وجرى التفتيش والتحري عن جاسم بيگ الشاوي لاعتقاله، إلا أنه كان قد بلغه الخبر بأنهم يبحثون عنه فاختبأ واختفى عن الأنظار.

ماذا كانت جريرة هؤلاء؟

لم يكن هناك شيء عدا عدم موافقتهم على ما طلب منهم بالجماعة التي سارت وراء داود پاشا لدى خروجه من بغداد.

ومع ذلك فإنه بمجرد دعوته إلى بغداد وتوليه كرسي الإيالة بدل فجأة لغته المداهنة المرائية بالشدة والغلظة والخشونة. في تلكم الأيام المبكرة تبين لمحمود باشا كيف أنه وضع بنفسه قدميه تحت بلطة الجلاد، فاغتنم فرصة سنوح مناسبة وطلب الرخصة بالعودة وعاد في غاية اليأس إلى السليمانية، ولم يكن يأسه يستند إلى خشونة داود باشا وأوضاعه المكشوفة فقط، إنما كان يعود كذلك إلى ما كان يحس به من سوء طالع أسرته التي قوبلت حسناتها دوما بمكافآت شريرة وسيئة. ومع ذلك فإن المساعي الخيانية التي بذلها عبدالله باشا لإلحاق الأذى بوالده المرحوم عبدالرحمن باشا ومخاوفه من أن يذيقه داود باشا أسوأ وأفظع مما أذاقه سلفه والده لم تكن قليلة بسبب من المستوى العالي لإدراك داود باشا وذكائه.

والحق أن محمود باشا لم يكن غير محق في مخاوفه هذه لأن قوة الإيذاء لدى داود

باشا لم تكن مما يمكن قياسه بما لدى الآخرين، ولكن ما الفائدة؟ فكما يقول المثل السائر لايبكي من سقط من تلقاء نفسه، كان محمود باشا قد أضاع على نفسه الفرصة، وكان عليه في كل حال أن يستعد للمصارعة المترقبة الحتمية الوقوع بينه وبين داود باشا.

كان داود باشا قد درس خلال الأيام الأربعين التي قضاها في السليمانية الأوضاع النفسية في المدينة بنظرة تجسسية، فالخدمات التي كانت تبذل له في تلكم الأيام كان من الممكن أن تبذل أيضا في أيام سواها لشخص آخر وضده هو، وهذا مالم يكن يغيب عن ذهنه أبدا، في حين أن الأفكار الاستعلائية التي أيقظتها في نفسه مكتسباته العلمية وذهنيته الطامعة ما كانت لتكتفي بتولّي مقام الإيالة والوزارة. إنه كان مقتنعا على العكس،انطلاقا من منطق حركاته بأن بإمكانه أن يتصدى لمشاكل الاستقلال والتفرد بالحكم أيضا. أما الآن فهو، وإن كان قد تمكن من جعل مقام الإيالة تحت سيطرته من خلال عمليات عقلانية، إلا أنه كان يأمل أن يحرز مقام السلطنة أيضا في المستقبل بجهود ومساع مماثلة.

وبناءً على ذلك فقد كان عازما على إزالة جميع العوارض التي تضع الأشواك على نهجه أو يمكن أن تضعها عليه في المستقبل وفق المنهج الذي سار عليه أولا بأول. وطبقا لذلك فإنه في سبيل إرعاب العشائر العراقية الواحدة تلو الأخرى ولمراقبة القضاء على أولئك الذين يجب القضاء عليهم، أرسل المفارز والوحدات المتعددة إلى مختلف الأطراف، وبغية تحقيق نواياه التي عقد العزم عليها إزاء البابانيين استمال إليه المعارضين منهم للباشا الباباني من أمثال خالد باشا وعبدالله باشا الذين استدعاهما من كركوك إلى بغداد وخصص المكافآت الشهرية الكافية لتأمين معيشتهم وإدارة شؤونهم، وأحس كذلك بضرورة أن يفعل شيئا أيضا لضمان الطاعة والانقياد من جانب أحمد باشا الجليلي والي الموصل. كانت الشكايات المبنية على أسس مؤثرة لاترد من قبل الباب العالي. وعلى هذا فقد عزل المشار إليه خلال مدة قصيرة واستحصل أمرا بفرض الإقابة عليه في حلب وعين مكانه حسن باشا بن حسين باشا الجليلي بدرجة وزير. ولأن الشكوى الموجهة ضد أحمد باشا كانت في الأساس من جانب داود باشا، فان الأمر الهمايوني بشأن عزله جاء من طريق المشار إليه أيضا.

كلف داود باشا كهية الإيالة السابق درويش محمد آغا بالسفر إلى الموصل لتسليم الأمر الصادر بتوجيه الإيالة إلى حسن باشا وتسفير أحمد باشا على جناح السرعة إلى حلب، وقد أبدى الموما إليه موافقته على السفر وخرج من الموصل بالفعل متظاهرا بأنه

يسير إلى حيث أمر بذلك، ولكنه لم يتوجه إلى حلب وإنما التجأ إلى داود باشا نفسه مباشرة، فقد أدرك أن جرح الضربة التي وجهت إلى حياته المستقبلية إنما يمكن مداواته من قبل داود باشا نفسه. ولم يكن المسكين حسن باشا قد تمتع بملذات الولاية والوزارة بعد إذ وافته المنية في تلك الأيام، فأصدر داود باشا بموجب إشعار ثانٍ الفرمان السلطاني بإعادة باشوية الولاية إلى أحمد باشا. وبعد ذلك جاء دور محمود باشا، فأرسل إليه عناية الله آغا المهردار لطلب قطع العلاقة بينه وبين الشاهزاده علي ميرزا. ومع أن الغرض من هذا الإيفاد كان في الظاهر بذل النصح لمحمود باشا بقطع علاقاته مع علي ميرزا والتخلي عنه، إلا أن النية الأساسية الكامنة وراءه كانت خدع أمراء البابان وعزلهم عن محمود باشا وفصلهم عنه.

قدم عناية الله إلى السليمانية والتقى محمود باشا وأبلغه ما أوصاه به داود باشا، فأجابه الباشا بالقول:

العلاقة التي تربطني بالإيرانيين ليستا مبنية على غرض العصيان والمخالفة. إن تبعيتي وعبوديتي للسلطنة السنية ليست مما يمكن أن يصيبهما الخلل يوما ما. وحتى إذا انتهت حياتي فإن جثماني يحمل معه تلك الرابطة الصميمية إلى مثواي الأخير معتبرا إياها وسيلة غفراني يوم النشور. ولئن كان إخلاصي وانحيازي إلى داود باشا باقيين كما كانا، فإني غير مقتنع بتوجهاته كماهي. إن المعاملة التي عامل بها عبدالله باشا والدي المرحوم وتنكره لحقوقه عليه سيكونان درسا نتعظ منه ونعتبر به نحن، فمن سوء طالعنا أننا نتلقى على الدوام جزاء وفائنا وخدماتنا على العكس. ولذا فإننا لن نكون بمنجى من انتظار المكافأة التي تأتينا قريبا أو بعيدا من جانب داود باشا أيضا. وعلى ذلك، فإنه إزاء التعرضات الرعناء التي نتعرض لها منذ زمن بعيد من جانب الوزراء، فإننا لسنا من عدم التبصر بحيث ندمر عش حياتنا الذي هو ملاذ سلامتنا، ومع ذلك، فإنني لن أرخي مقود إطاعتي إزاء السلطنة السنية في أي وقت من الأوقات.

أيها الأخ المهردار! هل كان من الضروري أن أكافأ لقاء خدماتي لحضرة الباشا الوزير بترشيح خالد باشا وعبدالله باشا اللذين رفضا خدمته هو ويعرقلان نجاحي واللذين هما خصمان لدودان لي ومنافسان لحكومتي، لحكومة السليمانية وكويسنجق وحرير، فكيف استطيع لقاء هذه المفارقة والخدمة المعكوسة أن أكون من عدم التبصر بحيث أغلق بوجهي الملجأ الإيراني ملاذا لي ألوذ به عند الشدة والحاجة؟

أجل، لقد ارتكبت عملا غير متبصر، فلم أتعظ من درس العبرة الذي ألقاه عبدالله باشا على أسرتنا وحفرت قبري بيدي، ولكنني لن أختار جنون الاضطجاع في هذا القبر بمحض إرادتي. في الواقع إننا بطبيعتنا الفطرية يغلبنا صفاء القلب، ولكن هذه الغلبة ليست ناشئة من عدم إدراكنا، إنها خدمة مستندة إلى طيبة السريرة. وإذا كان هناك عدم إدراك في صفاء السريرة هذا فهو في أننا نعتبر أن غيرنا أيضا رعاة حقوق كما نحن.

وخلاصة القول، ليكن حضرة الباشا كما يشاء أن يكون. إنه نال بغيته وجلس على مسند الولاية العالي. وإزاء هذا، لتكن مكافأته لخدماتنا له في الأقل بأن لايرتكب السيئات ضدنا، مادمنا لم نرتكب سوء بحقه ولم يبدرِ منا تجاهه ذنب.

إننا مادمنا تحت طائلة التهديد بعدم إبراز وجه المودة إزاءنا، يستحيل علينا قطع العلاقة مع إيران. إن تكليفنا بذلك بمثابة التحجج علينا لإيجاد وسيلة مفتعلة للإيقاع بنا. إن الدخول في وضع الخصام مع إيران في ظروف تجاهل حضرة الباشا للحقوق التي لنا عليه، إنما يعني بالنسبة إلينا إلقاء أنفسنا في بحر الفناء الهائج. ومع ذلك فإن كان للعلاقة الاضطرارية التي لي مع إيران أي مضرة بالنسبة للحكومة العراقية وجب إراءتها لي لأتمكن من تلافيها، والإ فإنني معذور إن لم أسلم رقبتي إلى سكين حضرة الباشا المهينة.

وإذ تلقى السيد المهردار جواب الباشا هذا، ولم يجد في السليمانية من يستطيع إيقاعه في حبائل تضليلاته، عزم على العودة. وفي طريقه عرج على قرهداغ التي كانت المقر الخاص لولي العهد، وعلى ذلك فقد كان من مقتضيات مهمته أن يزورها ويطلع على أحوالها. كان مقام ولاية العهد يتولاها آنئذ حسن بيگ أخو محمود باشا (وهو الذي دحر الهجوم الذي قاده الباشوان خالد وعبدالله على رأس ثلاثة آلاف مقاتل للاستيلاء على السليمانية لصالح سعيد باشا في أثناء الزحف على بغداد باسم محمود باشا وداود باشا فاضطر المهاجمين إلى التراجع مهزومين). وقد وفق المهردار عناية الله آغا، كيفما كان، في تسميم أفكار حسن بيگ وحصل منه على وعد بالسفر إلى بغداد، وعقد حسن بيگ هذا الاتفاق مع المهردار من دون أن يترك إمكاناً لمحمد باشا ليتحسس به أو تساوره ظنون بشأنه، وعاد المهردار إلى بغداد وسرد تفاصيل ما جرى له على مسامع داود باشا.

وإذ استوعب داود باشا جواب محمود باشا وفهم أسلوب حديثه قام بادئ ذي بدء

وقبل اتخاذ أي إجراء آخر بانتزاع كويسنجق وحرير من عثمان باشا أخي محمود باشا، فإن أتى حسن بيگ من قرەداغ إلى بغداد أوكل أمرهما إليه، وإن لم يأت أوكل أمرهما إلى أحد الاثنين خالد باشا أو عبدالله باشا اللذين كانا في بغداد، وترك الأمر للمهردار الذي أرسل مع قوة كافية لتنفيذ الفكرة. ومع أن كويسنجق وحرير كانتا منذ زمن بعيد تشكلان حكومة فرعية تابعة لمنطقة حكومة البابانيين، ومع أن انتزاعهما من هذه الحكومة ترك أثرا سيئا في نفس محمود باشا، إلا أنه سحب أخاه عثمان بيگ من المنطقة دونما مواجهة لئلا يؤدي الأمر إلى حدوث مخاصمة مع داود باشا.

وما أن علم حسن بيگ بقضية كويسنجق وحرير حتى بادر على الفور إلى مغادرة قرەداغ وتوجه نحو بغداد. وعندما وصلها عين على الفور لإدارة كويسنجق وحرير بدرجة الباشوية وأرسل إلى هناك بغية أن تدخل هذه القوة البابانية الرابعة المعارضة لمحمود باشا في وضع الخصومة معه بكل أبعادها.

وبعد أن أنجز داود باشا ترتيب شؤون بغداد وأطرافها أعلن في السنة ١٢٣٤هـ أنه سيسافر للقيام بحركات عسكرية ضد محمود باشا، وأثر هذا الإعلان توسل محمود باشا بالضرورة بالباب الذي سبق أن طُلبَ منه غلقه بوجهه.

أرسل الشاهزاده علي ميرزا كلاً من محمد علي خان رئيس الشرفبيانية على رأس قوة قوامها عشرة آلاف شخص لإسناده، كما أرسل حسن علي خان الفيلي على رأس قوة لورستان إلى جهة مندلي، وأرسل كذلك كلبعلي خان رئيس گروس مع علي خان رئيس الكلهور إلى جبهة بدره وجصان على رأس قوة قوامها أربعة إلى خمسة آلاف رجل. وعندما علم داود باشا بهذه التحركات وبهذا التدخل الإيراني في القضية، أرسل القوات العراقية بقيادة الباش آغا السابق عبدالفتاح آغا وخليل آغا كتخدا البوابين للوقوف بوجه الإيرانيين، كما أرسل كلا من عبدالله باشا أخي عبدالرحمن باشا الذي كان في كركوك ومحمد باشا ابن خالد باشا وعبدالله آغا باش بلوك باشى العلمدارية والفرسان لمقابلة محمود باشا، والتحق المهردار آغا بصحبة قوات دزەيى وآلتون كوپرى وحرير وكويه وكركوك بعبدالله باشا.

أراد محمود باشا أن يستهل عملياته بمعاقبة أخيه حسن بيگ على الإهانة التي ارتكبها بحقه، بالزحف على كويسنجق وحرير والانتقام منه، ولكن الأمراء البابانيين أوضحوا له أن الهجوم على كويسنجق وحرير قبل مهاجمة كركوك إنما يعني تسليم السليمانية إلى المناوئين. وعلى هذا فقد غير وجهة حملته وتوجه نحو كركوك مباشرة.

اتخذ محمود باشا في طريقه إلى كركوك مستقرا لقواته في الموقع المعروف بـ (كوشك أسپان) الذي يقع في منطقة (قره حسن) التابعة لكركوك. أما في الجهات الأخرى فقد سيطر حسن خان الفيلي وعلي خان كلهور وكلبعلي خان گروس على قصبات مندلي وبدره وجصّان.

وأنجز محمود باشا ترتيب توجيه أجنحة حركته التعجيزية وسيرها نحو أهدافها. ورغم حدوث عدد من المصادمات المتقابلة بين الطريقين خلال هذه الأيام إلا أن أياً منهما لم يحرز أي تقدم. كان هدف محمود باشا من التعرضات التعجيزية إخراج القوات العراقية من مواقعها وجرها إلى الأمام لتقترب من القوات البابانية، ولكن القوات العراقية لم تبدِ أي تجاسر على القيام بعمل من هذا النوع. وبناءً على ذلك، فقد صدرت الأوامر بالزحف على كركوك مباشرة ولم تجد القوات العراقية لديها طاقة للصمود بوجه هذه الصولة الغضنفرية التي كانت قد عقدت العزم على تحقيقها.

منع محمود باشا قواته من دخول المدينة ؛ إذ لم يكن يرى الهجوم الذي يجب شنه لدخول المدينة خاليا من بعض المحاذير. فقد كان انسحاب القوات العراقية إما مجرد خطة رتبت لمجرد اللجوء إلى داخل المدينة والتحصن فيها، أو مشاغلة القوات البابانية التي تلاحقها فتدخل المدينة وراءها بأعمال السلب والنهب وتنسى هدفها في دحر القوات المعادية واحتلال المدينة، فتجد القوات العراقية في ذلك فرصة سانحة للإيقاع بالمهاجمين. وفضلا عن ذلك كان إدخال الإيرانيين المفتقرين إلى التربية الدينية والأخلاقية إلى كركوك أمرا يعرض مدينة جارة إلى أعمال التخريب. ولذلك فقد منع التقدم من سلسلة تلال واقعة على مسافة ساعتين من المدينة إلى داخلها. إلا أن جناحا متكونا من خمس مئة رجل كان قد هاجم من الجنوب الأيسر وتقدم حتى بلغ قرية تسن (تسعين) انشغل بأعمال السلب والنهب، فوقع في محاصرة العدو، وقد أضاعت عليهم فرصة المجابهة والدفاع عن النفس غفلتهم الناجمة عن دوافع الحرص والطمع، ومع ذلك فقد استطاعوا الإفلات من الطوق بحركات خروج مبنية على قاعدة اضرب واهرب وإن لم تكن خسائرهم قليلة.

إن هذه الهزيمة التي تعرض لها الجناح الأيسر من القوة البابانية لم تكن مما يلام عليها شجاعة محمود باشا، فهو بالذات ومن حيث الأساس كان معارضا لأعمال السلب والنهب التي يقوم بها العسكر، وقد منع من ذلك الذين كانوا على ارتباط معه. كان قتال محمود باشا في حربه هذه متألقا ومجيدا، فقد كانت القوة البابانية في تلكم